فيلبي الجزيرة العربية



تأليف
اليزابيث مونرو

ترجمة
أحمد عمر شاهين

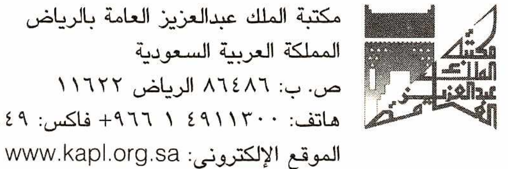


فيلبي
الجزيرة العربية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مونرو، إليزابيث.
فيلبي الجزيرة العربية. / إليزابيث مونرو، أحمد عمر شاهين.
الرياض؛ ١٤٢٥هـ
٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٢ ـ ٥ ـ ٩٤٤٣ ـ ٩٩٦٠
١ ـ السعودية ـ وصف ورحلات ٢ ـ فيلبي، عبدالله
شاهين، أحمد عمر (مترجم) ب. العنوان
ديوي: ٩١٥,٣١٠٤ ١٤٢٤/٧٠٨٩

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٧٠٨٩
ردمك: ٢ ـ ٥ ـ ٩٤٤٣ ـ ٩٩٦٠


مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض
المملكة العربية السعودية
ص. ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٤٩١١٣٠٠ ١ ٩٦٦+ فاكس: ٤٩١١٩٤٩ ١ ٩٦٦+
الموقع الإلكتروني: www.kapl.org.sa

تمت أعمال الترجمة والتصميم والطباعة بالتعاون مع مؤسسة التراث
المملكة العربية السعودية ص.ب: ٦٨٢٠٠ الرياض ١١٥٢٧
هاتف: ٤٨٠٧٧١٠ فاكس: ٤٨٠٧٧٠٨
بريد إلكتروني: al-turath@al-turath.com
الموقع على الإنترنت: www.al-turath.com
التراث



تأليف

اليزابيث مونرو

ترجمة

أحمد عمر شاهين

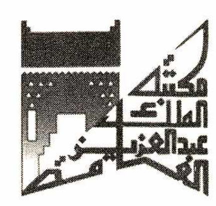
مراجعة

عبدالله محمد المنيف

Philby of Arabia

by

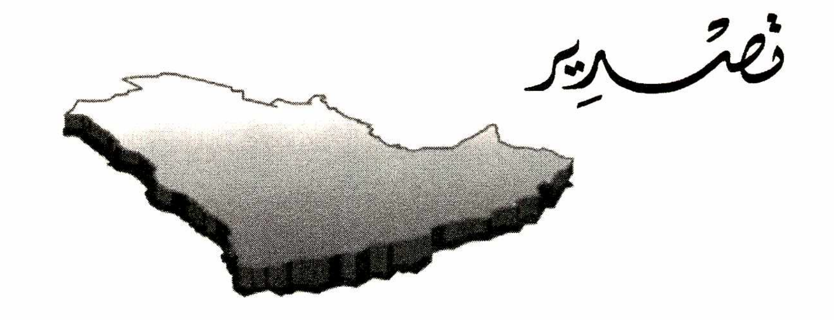
Elizabeth Monroe







تصدير



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تُعنى المكتبات بدور معرفي مهم في عصرنا الراهن؛ من خلال تقديم خدمات نوعية متميزة للباحثين وطلاب العلم، وتساعد على التدارس والتباحث، وتسهم في تطور البحث والمراجعة، باعتبارها الذاكرة الوطنية التي تحفظ النتاج الثقافي الذي تصدره الأمّة.. وتعد مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، إحدى الصروح المعلوماتية النموذجية العربية المعاصرة؛ تحقيقاً للأهداف الكريمة التي رغب صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد، نائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس الوطني، والرئيس الأعلى لمجلس إدارتها - في تفعليها وما ينبغي أن تكون عليه حاضراً ومستقبلاً .. وفي سياق برنامجها للنشر العلمي والترجمة؛ تقدّم للقارئ العربي عامة، والمهتمين بتاريخ الجزيرة العربية خاصة إصداراً مترجماً مهماً (فيلبي الجزيرة العربي)، تأليف إليزابيث مونرو، ترجمة الأستاذ أحمد عمر شاهين.. فالكتاب رصدٌ أمين لسيرة واحد من أبرز الشخصيات المتميزة.. إنه «الحاج عبدالله فيلبي» أو «سانت جون» الموظف البريطاني في الإدارة البريطانية للبلاد في بداية القرن العشرين، العارف لكثير من لغاتها، ثم الممثل السياسي للسيد «كوكس» في المملكة العربية السعودية، وأحد الذين تعاملوا عن قرب مع الملك عبدالعزيز رحمه الله، إبّان فترة التوحيد، وهو بعد كل هذا مستكشف الجزيرة العربية على حقيقتها.. له العديد من الكتب التي يرصد من خلالها رحلاته وصولاته في مجالات السياسية والإدارة والآثار.

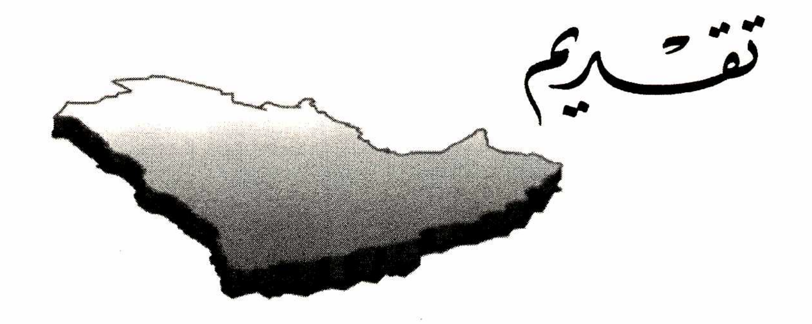
فبالإضافة إلى كونه سيرة حياة لهذا المستشرق البريطاني، يعدّ في الوقت نفسه وثيقة تاريخية مهمة ترصد أحداث المنطقة العربية عامة والمملكة العربية السعودية خاصة في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود، طيّب الله ثراه، كما وصفه «فيلبي» بأنه «رجل رائع وعظيم في رئاسة دولة عربية موحدة».. والكتاب في المحصّلة النهائية دعوة إلى قراءة آثار هذا المستشرق فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية والجزيرة العربية..

ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة، وهي تقدّم هذا العمل لباحثي تاريخ هذه المنطقة الحيوية من العالم ودارسيها؛ يسرها أن يحقق الغرض الذي صدر من أجله، وينفع به.

والله من وراء القصد،،،

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

تقديم



«أعظم المستكشفين للجزيرة العربية» هذه الكلمات هي التي نقشها «كيم» على شاهدة قبر أبيه «فيلبي»، وقد يعترض القليلون على ذلك، لكن أين تكمن عظمته؟

كان رجلاً مثيراً للسخط، ومتوافقاً فقط مع تناقضاته، في شبابه كان عضواً في حزب المحافظين، وأصبح في منتصف عمره اشتراكياً، ليسترضي هتلر وموسوليني، دعا إلى السلام وفي الوقت نفسه تاجر بالأسلحة، يعدّه العرب بطلاً، وهو الذي أيّد هجرة اليهود إلى فلسطين؛ وطني بريطاني ومع ذلك تم اعتقاله في أثناء الحرب لكونه خطراً على بلاده؛ متمرد على رجال السلطة البريطانية، ويحب جمعية تطوير العلوم الأدبية والعلمية، وجريدة التايمز، وإحصاء الفوز والخسارة في لعبة الكريكت وقائمة الشرف في الأنعام الملكية. يعامل زوجته بقسوة وبكرم ولا يلاحظ الفرق، كان أنانياً، حاد الطبع، بعيداً عن التواضع، مرؤوساً صعباً وزميلاً لا يطاق.

قابلته مرتين فقط حين كان رجلاً عجوزاً، وفي كلتا المناسبتين كان محاطاً بشباب عرب، بدا لطيفاً حلو المعشر، ومستمتعاً بإعجابهم به. لكن من السهل ملاحظة أنه كان معجباً بنفسه أكثر من اللازم، فظاً كسمكة صغيرة تحط من قدر حوت كبير، ففي الحقيقة كان شخصاً ينقصه التهذيب.

أقل ما يقال عن أسلوبه النثري أنه جاف، وأما كتبه فمع أنها مملوءة بالمعلومات، إلا أن معظم القرّاء يجدون صعوبة في مواصلة قراءتها، ولكن يالها من معلومات!

نأتي الآن على ذكر فضائله: تعدّ اليوميات التي واظب على كتابتها في أثناء رحلاته،

مفاجأة مدهشة، فهو يسجل اسم كل مكان من تلال وأودية وآبار وأشجار، ويجمع الطيور والخنافس والسحالي والزهور والعينات الجيولوجية ويرسلها إلى المتحف البريطاني، ويقيس درجات الحرارة والضغط الجوي والارتفاع عن سطح البحر واتجاهات البوصلة، ويرسم تخطيطاً للمعالم الأرضية، وينسخ النقوش، ويستجوب بدقة كل المرشدين والغرباء الذين يقابلهم عن التاريخ والمجتمع، وعن الأصول القبلية والعادات الصحراوية. يقوم بكل ذلك مسافراً على قدميه أو على ظهر بعير عبر قفر شديد البرودة أو الحرارة، يعيش على حفنة من التمر وقربة من ماء آسن، ويجلس في آخر النهار ليكتب على ضوء مصباح بخط مرتب مقروء نتيجة ملاحظاته واستجواباته، وهو مرهق جسدياً بسبب مشقة السفر، ونفسياً بسبب ارتياب البدو المصاحبين له. لم يلن قط، وذلك هو السبب بأنه أعظم من استكشف الجزيرة العربية.

تختلف كاتبة سيرته، إليزابيث مونرو، عنه تمام الاختلاف، فهي أكاديمية متخرجة من أكسفورد، وصحفية متميزة، لا تنقصها الثقة بالنفس، وعلى خلاف فيلبي، فقد تكيفت مع عادات مجتمعها الذي تعيش فيه: التواضع، الوقار، التعبير عن الواقع بصورة تخفف من تأثيره؛ كما كانت حية الضمير، وتراعي الرسميات بدقة. وفي لحظة ما من كتابة هذا الكتاب، وقع هذان الجانبان من شخصيتها في صراع، فذهبت إلى المملكة العربية السعودية لتجمع الذكريات الماضية من أناس عرفوا «فيلبي».

كانت في جدة حينها، وأخبرتنا أنه بعد اختيار عائلة «فيلبي» لها لكتابة سيرته، جاءها من موسكو خطاباً من «كيم فيلبي» الذي عرفته منذ زمن، وقد كتب لها معبراً عن سعادته لاختيارها، وأن هناك الكثير في جعبته ليخبرها به: «الآن وبعد أن سقطت الأقنعة».

شعرت بالسخط والازدراء من ذلك، فبالنسبة إليها لم تكن هناك أقنعة قط، وقد تغلب موقفها التقليدي من الخيانة على رغبتها الأكاديمية في طرْق كل مصدر، فتجاهلت رسالة «كيم» لها.

لم يكن كتابها سيئاً، فهو شامل لكنه غير منظم، شديد اللهجة لكنه ليس شديد اللوم،



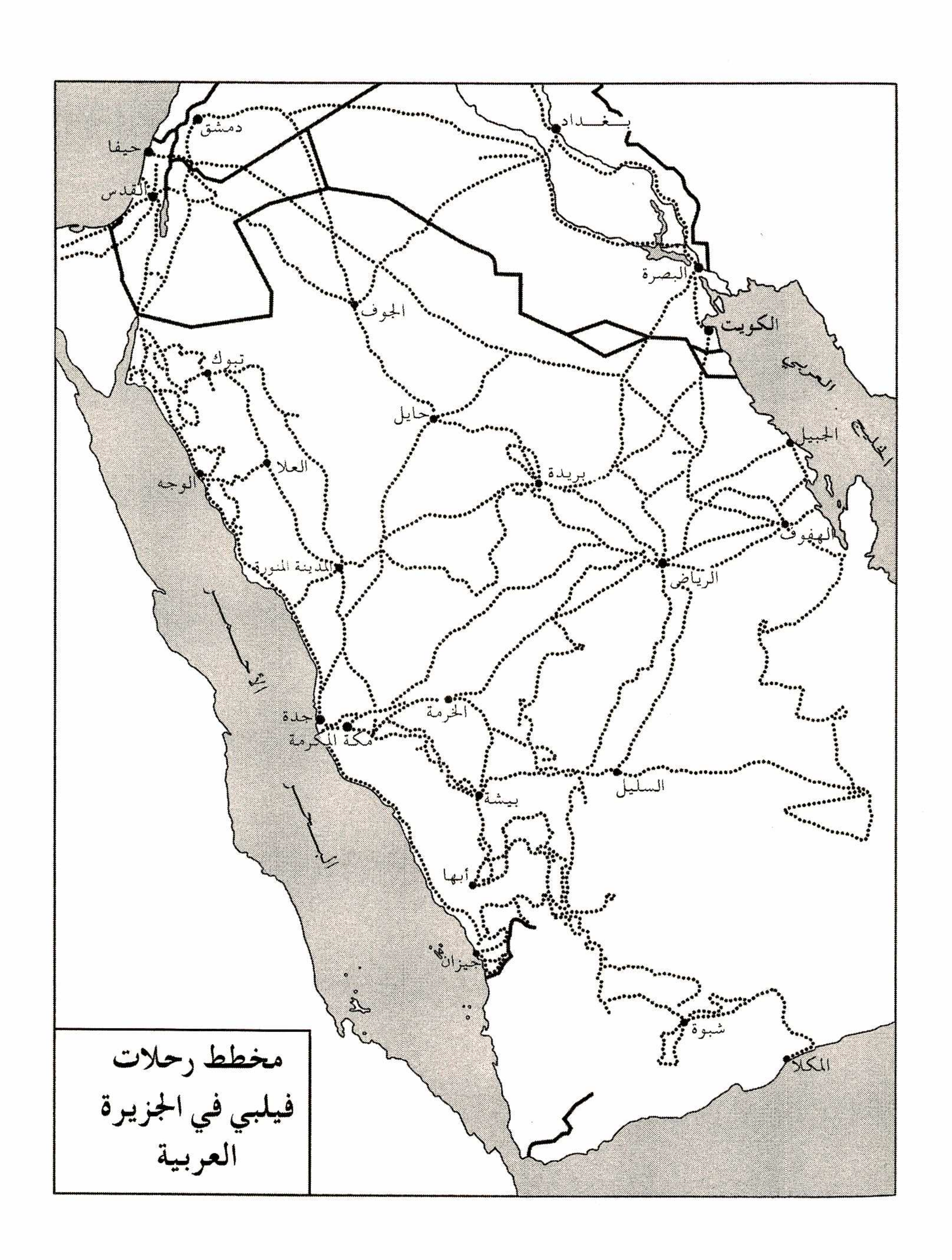
لم يحذف العيوب، لكنه أتاح مساحة واسعة للحسنات، ومع ذلك كله، كانت عباراته سهلة القراءة على عكس كتابات «فيلبي»، ويعدّ هذا الكتاب، باختصار، نتاجاً جيداً لشخصيتين متناقضتين.

بعد عدة سنوات من رحلات فيلبي العظيمة، فإن شركة نفط بطائراتها وسيارتها الصحراوية والتكنولوجيا الجديدة، وبعض العرب الممتازين، بإمكانها أن ترسم كل خرائط فيلبي بسهولة وبشكل أسرع، ولكن بتكلفة مالية أكثر بالطبع؛ وهي فكرة محزنة إلى حد ما.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد أُهملت إنجازات فيلبي ونادراً ما يحدث ذلك.

جيمس كريج

١٤١٩(١٩٩٨م)



مخطط رحلات فيلبي في الجزيرة العربية



استهلال

بحثاً عن فيلبي

«الكنز لا يقارن برحلة البحث ذاتها»، هذا ما كتبه صديق فيلبي «دوغلاس كروتشرز» في بحثه عن الظبي العربي أو وحيد القرن الخرافي[١]. فالبحث عن حياة، يشبه رحلة صيد، ويكون أكثر متعة لو كانت الطريدة شخصاً غامضاً جوالاً، غريب الأطوار، اكتسب شهرته بالحفاظ على كل القواعد والتقاليد.

أعطتني مطاردة «سانت جون فيلبي» الشعور بالمسرات التي يصفها «كروتشرز»، وقد استلزم ذلك جغرافياً رحلات إلى شبه الجزيرة العربية للعمل بين أكوام من الأوراق تركها هناك بعد وفاته، واستدعى ذلك معاينة المشهد الصحراوي لاكتشافاته وزيارة المدن التي عرفها. وسار بي البحث شرقاً إلى «لاهور» لمراجعة إدارة السجلات العامة في الباكستان حول خدمته في «البنجاب»، ومن هناك إلى تلال «سولت رينج» والسهول حول «راولبندي» حيث قضى سنوات تدريبه وقابل زوجته، كما قمت بعدة زيارات إلى العراق، ومصر، وفلسطين ولبنان؛ وهي الأماكن الأخرى من الشرق الأوسط التي شهدت أنشطته، بحيث إنني عرفت بعض الأشياء عن العالم العربي الذي قضى نصف عمره فيه.

قابلته أول مرة سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨م)، وعلى الرغم من معرفتي القديمة به إلا أنني لم أعرفه حق المعرفة.

---

(١) دوغلاس كروتشرز، «Arabian Adevnture»، لندن ١٣٥٤(١٩٣٥م)، ص٥.

وقد كانت المطاردة ثقافياً مثيرة تماماً، فقد كانت اهتمامات فيلبي واسعة، كان نهماً للعمل وعلى استعداد لمعالجة أي موضوع ماعدا الموسيقا والمعدات الآلية. جال عقله بثقة في التاريخ والكلاسيكيات، وآداب عدة لغات حديثة، وعلم الآثار والعلوم والسياسة والاقتصاد والموارد المالية والجيولوجيا وعالم الحيوان.

قادني تتبعه لدراسة موضوعات متنوعة: الإسلام وتاريخ ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، إلى النيازك ومراقبة الطيور، واستخدام «آلة السّدسية» لقياس الارتفاعات ومعرفة خطوط العرض، إلى حقوق النفط الممنوحة، وإلى الكتابة المنقوشة وآثار القِدم التي تكسو الرسوم على الصخور، إلى صرصار الليل والعثة، إلى القضية الفلسطينية والسياسات الداخلية لبريطانيا، وصعود الملك عبدالعزيز آل سعود إلى سدة الملك.

وظن «فيلبي» أنه يستحق أن يكتب أحد عن حياته، وحين اقترح على صديقة العائلة «مارجريت جودبير» أن تقوم بذلك، قالت لها زوجته: «لا تلمسيه، فليس لديك أدنى فكرة عن أكوام الرسائل والقصاصات والوثائق التي كدّسها، ستقود أي شخص إلى الجنون»، أي شخص ما عدا مدمن البحث، ومع ذلك تشكل هذه الكمية من الشواهد مشكلة، فكلها تقريباً ترسم صورة لشخصية «فيلبي».

عندما يرتكب شخص ما خطأ، ولا يرى إلا وجهة نظره، لا يعترف بأنه مخطئ، إلا إذا قوبل بشخص يحبه ولدى ذلك الشخص حقائق موثقة يصعب دحضها، ولابد من مقارنة آرائه كلما أمكن، مع تلك التي يقولها شهود آخرون.

اعتقد معظم الرجال الإنكليز الذين استشرتهم أنه على النقيض مما ظننت، ولأنه عاش نصف حياته في الجزيرة العربية، فإنه، ودون أن يدرك، لم يعد يفهم بريطانيا التي تاق إلى أن يكون ممثلاً لسياستها.

ينظر إليه العرب دوماً ـ ومازالوا ـ كإنجليزي، مع أنهم يضيفون: «أصبح أقرب لفهم عقليتنا من أي إنجليزي آخر»[١]، وبالنسبة إلى الأوروبيين الآخرين، والأمريكيين

---

(١) ملاحظات لـ «عبد العزيز بن سليمان» جدة ١٣٩٠(١٩٧٠م).



والنساء، فقد كان يجذبهم إليه إخلاصه الداخلي وحماسه لقول الحقيقة، ومناقشاته ومعلوماته الوافرة في الموضوعات الكثيرة التي عرفها، إضافة إلى سلوكه الجيد وصحبته الممتعة حين تسير الأمور على هواه.

كان يتجرأ بين حين وآخر، ويتلفظ بعيوبه ليمتع بعض المراسلات الصحفيات، لكنه يوازن ذلك ببعض التقدير والاعتزاز بالنفس: «مهنتي التي خططت لها أخفقت تماماً، تبعثرت إلى شظايا عدة مرات، وربما لا تتناسب طبيعتي مع أي خطة أو روتين، لكني مع كل صدمة، استطعت أن أشق طريقي ثانية في الحياة، وأنجز جيداً على الرغم من جهود أعدائي في القضاء علي».

ما الدافع إلى هذه المرونة والحيوية؟ «ريتشارد بيرتون» المستشرق الذي يشبهه في تكبره وشغفه وولعه بالاستكشاف وعدم تحمله للسلطة، عزا مرة قوة فيلبي الدافعة إلى الشيطان، ولكنه في قصيدة كتبت قبيل البدء في البحث عن منبع النيل، أعطى تلك القوة اسماً آخر:

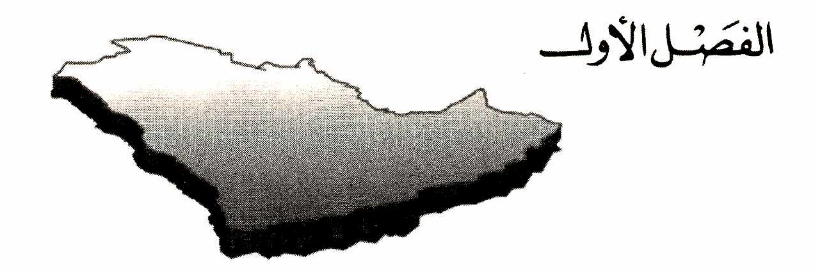
ليست صورتك أيتها الشهرة
في قلب يصلح تماماً لأن يكون مقاماً للعبادة
قد يجني الآخرون مئات الهبات
لكن رغبة واحدة كانت لدي
الأمل في ابتسامة
والعيش لحظة على صدرك[١]

اعترف «فيلبي» حين بدأ أول محاولة لاستكشاف الربع الخالي بالقوة ذاتها: «طموحي كان إلى الشهرة، مهما عنى ذلك ومهما كلّفني، حاربت من أجلها بضراوة.. ولو كان طموحي هو جمع المال، لكان ذلك أسهل على الفهم».

---

(١) مقتبس من كتاب «The Denil Drives» لـ «فاون م. بدرودي» لندن ١٣٨٧(١٩٦٧م) ص١٣٧.

الفصل الأول



بداية تقليدية

«برود» هو امتداد واسع من المياه الصالحة للملاحة في شرق «نورفولك»، أحب جاك فيلبي دائماً الاعتقاد أن أسلافه قد جاؤوا من هناك. وفي الوقت الحاضر تقوم عائلة آل فيلبي مرة كل ثلاث سنوات بزيارة كنيسة تقع إلى جانب ذلك المكان، يتبادلون الآراء حول أنسابهم، بغض النظر عن الطريقة التي يلفظون بها الاسم (فيلبي أو فلبي)، لكنهم لم يجدوا قبوراً لآل فيلبي في فناء الكنيسة. أما فرع العائلة، الذي يكتب اسمه على شكل (فيلبي) فقد ظهر أول مرة في منطقة في أقصى الجنوب في «لوتون»، «إسكس»، فهناك صف من القبور يرجع تاريخها إلى عصر الملكة ڤيكتوريا، تخص «جوزيف فيلبي» الذي ولد سنة ١٢٠٤ (١٧٩٠م) في «جولدنجز» الواقعة في المقاطعة نفسها وابنه وحفيدته وزوجها. الابن هو هنري «آدامز فيلبي»، محام، ولد في تايلورز في مقاطعة صغيرة مجاورة لـ (تشي جويل) سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢م) ودفن في سنة ١٢٩٩ (١٨٨٢م)، وقد كان جد «جاك فيلبي».

تحكي سجلات المقاطعة في تشيجويل الكثير إلى حد ما، فهناك منزلان باقيان لهما أهمية عائلية؛ منزل آل تايلور، وله واجهة جميلة من الطوب الأحمر على الطراز الجورجي تطل على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر بيت أكبر يسمى «بلمونت» أصبح ملكاً لآل بردجر منذ سنة ١٢٣٩ (١٨٢٤م) ، وهي عائلة تجارية محترمة لمن يريد أن يطلع.

عمل «جورج بردجر» في منتصف القرن التاسع عشر، بائع طيور داجنة وأرانب في

شارع «ليدن هول»، وباشر ابنه من زواجه الثاني «جيمس» عملاً في المقاولات في «الدجايت»، واشترى بيت «بلمونت» الريفي، وأصبح عماد شركة «دريبر» للمقاولات، وفي سنتي ١٣٥٠ و١٣٥١ (١٩٣١ و١٩٣٢م) أصبح صاحبها.

مات جورج بردجر سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦م) عن عمر يناهز الثمانين، وخُلّدت ذكراه في كنيسة المدينة «القديسة كاثرين كري» في المقاطعة التي أمضى فيها ٦٧ سنة من حياته[١]، ومات ابنه الأكبر، المسمى «جيمس» أيضاً في تشيجويل سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨م) بعد أقل من سنة من زفاف ابنته الثانية «ماري» إلى عريسها وجارهم هنري آدامز فيلبي. لم يعرف «جاك» قط جده هذا، ولكن جدته «جراني بردجر»، كما كانت تسمى دائماً لتمييزها من جدته لأمه، عاشت حتى سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥م)، كانت حادة المزاج ولا تتحمل الكلام الفارغ.

تحكي سجلات «تشيجويل» قصة أولادهما التسعة؛ ثلاثة صبية وست بنات تعمدوا على التوالي، وتزوج معظمهم في كنيسة تشيجويل، وارتقى الابن الأكبر «جيمس بردجر فيلبي» إلى مصاف المهن الراقية، وأُرسل إلى كلية لنكولن في أكسفورد في عهد رئيسها المشهور «مارك باتيسون»، ودخل عالم الكهنوت سنة ١٢٩٦ (١٨٧٩م)، وقام بتقاليد الزواج لأخواته الست خلال ثمانينات القرن التاسع عشر، كان أزواجهن من الأشخاص المحترمين: عسكريين وتجاراً، ويقيمون في «تشيجويل» ويعدون أنفسهم من السادة. كان شقيقاه الصغيران أقل إيماناً منه، وقد تزوج هربرت في «كامبرويل» سنة ١٣٠٧ (١٨٩٠م) امرأة، كتب جاك فيلبي أمام اسمها في شجرة العائلة بالقلم الرصاص «نادلة؟»، وأما «هاري مونتيج» والد جاك فيلبي الذي كان يعرف دوماً باسم «مونتي» فقد أُرسل إلى سيلان (قبل أن تُسمى سيرلانكا) في سبعينات القرن التاسع عشر ليجرب حظه في تجارة البن.

كان البن المحصول الرئيس للمزارع الأبيض في سيلان منذ سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠م)، وازدهرت تجارته أكثر من ثلاثة عقود، لكن الفترة الذهبية لصنع الثروة كانت قد ولت

---

(١) يقع الشاهد المنقوش عليه هذه الكلمات في الممشى الجنوبي في الكنيسة، ويخفيه جزئياً جدار فاصل.



تقريباً حين اشترى مونتي حصة في مقاطعتي كوكووالا وجالولا في مكان جبلي كثير الخضرة يسمى «بادولا» قرب «نيوراليا».

كان «مونتي» رجلاً وسيماً مرحاً واجتماعياً، ومولعاً بالرهان على أشياء يستحيل عليها الرهان في نظر أصدقائه، وكلما أتيحت له الفرصة كان يذهب إلى «كاندي» في كولمبو ليتشاقى ويرقص. وفي إحدى زياراته لكولمبو سنة ١٣٠٠ (١٨٨٣م) قابل الابنة الكبرى للضابط المشرف على الحامية المحلية، الكولونيل جون دنكان من كتيبة دبلن المسلحة، ووقع في حبها. لم تكن «كويني» بهية الطلعة فقط، بل كانت مفعمة بالحيوية، تجيد الرقص، واسعة الحيلة، وحاضرة الذهن، وكانت في التاسعة عشرة حين تزوجا في سنة ١٣٠٠ (١٨٨٣م).

تنحدر «كويني» أو «ماي» كما يفضل آل فيلبي أن يدعوها، وكما سندعوها خلال دورها الكبير في هذا الكتاب، من سلالة أصيلة من كلا والديها. فأمها من آل «كاردو» سليلة قساوسة وعسكريين من مقاطعة كورنوول في إنجلترا، وكان جدها الأكبر «كورنيليوس كاردو» يحمل دكتوراه في اللاهوت، وهو الذي خلدت ذكراه في كاتدرائية ترورو، وقد أثار حفيظة جمهوره آنذاك بالتمني علناً أن ينال الأمريكيون استقلالهم. كانت أسرته كثيرة النسل وتجهر بآرائها صراحة، وقبل أن يموت سنة ١٢٤٦ (١٨٣١م) كان أباً لعدد كبير من الأطفال، بحيث إنه خدم من سلالته في الحرب العالمية الأولى ١٤١ فرداً، من بينهم أربعة من آل فيلبي ومجموعة من آل إليوت لوكهارث، وبيتون، وهوبر الذين تميزوا بخدمتهم إما في الجيش وإما في السلك الدبلوماسي، أشهرهم برنارد مونتجمري الذي أصبح بعد ذلك الفيلدمارشال لورد مونتجمري بطل معركة العلمين.

والد «ماي»، الكولونيل جون دنكان الذي ولد في الهند، له عدد من القصص الغريبة. وكان شقيقها يدعى جون أيضاً (كما كتب بعد ذلك في مفكرته وهو يحدثها عن أسلافهما): «كنت في حيرة بأنه ليس لي أقارب يحملون اسم عائلتي نفسه». وحين سأل والده ماذا كان يعمل جدهما، خدعه بقوله: لقد مات صغيراً، هذه الإجابة المختصرة أثارت فضوله، وحين بحث المسألة وجد أن هذه الإجابة غير صحيحة، فقد كان جده عسكرياً وصل إلى رتبة فريق، وسكن حتى مماته، عن عمر يناهز ٧٦ سنة،

في حيّ راقٍ من أحياء لندن، ولكن اسمه كان «دنكان ماكلويد» من جينيز في «أيستر روس»، ولقد تزوج وأنجب ولداً ربّاه جده في جينيز، وتدرج في الجهاز الحكومي في الهند ليصبح نائب حاكم البنجاب، ومات بلا أولاد كآخر فرد في الأسرة. لم يتزوج «دونكان ماكلويد»، ثانية بعد وفاة زوجته، وعلى الأقل، لم يكشف بحث «جون» في سجلات «كلكتا» عن آثار لزواج ثانٍ، ولكنه تبنّى طفلين وهو في الستين من العمر؛ وهما جون ١٢٥٥ (١٨٣٩م)، وجيس ١٢٥٧ (١٨٤١م)، وقد منحهما اسمه المسيحي كاسم للأسرة، ووضعهما في بيت لأطفال الضباط في كلكتا، ثم أقاما بعد ذلك بشكل مؤقت مع عائلة في سهول أسكتلندا، وأرسلا إلى مدارس راقية.

لم تضايق اللاشرعية تلك آل دنكان غير المتعصبين، ومع أنها كانت تعد وصمة عار في تلك الأيام إلا أنها تركت أثراً ضئيلاً، لعدم وجود أم تهان أو تقابل بالإعراض وعدم الزيارة. وحين تقدم جون ـ الابن غير الشرعي ـ للحصول على عضوية شركة الهند الشرقية ـ في السنة التي سبقت التمرد ـ تقدّم باسم الرجل الذي رباه، الفريق «دنكان ماكلويد»، كتوصية إلى مديره الذي رشّحه. وبعد ذلك قطع صلته بالماضي وسار في خط متميز خاص به، ورشح نائباً للقنصل بدل «لاكناو»، ولأنه كان خبيراً جيداً في اللغات فقد أصبح في سبعينات القرن التاسع عشر، معلماً في كلية هيئة أركان الحرب في «كامبيرلي»، وفي الثمانينات شغل وظيفة عالية في الإدارة العامة المساعدة للقيادة الآيرلندية في سيلان، وفي التسعينات أصبح نائباً للجنرال المساعد في وزارة الحربية، وكان له منزل كبير في ميدان «برنس» في «بينزووتر»، حيث تأتي عربة تقله يومياً إلى «وايت هول».

مات سنة ١٣١٦ (١٨٩٨م) في أثناء خدمته في «بومباي»، وقد أنجب أحد عشر طفلاً من زوجته «أميلي كاردو»، كانت «ماي» والدة فيلبي الابنة الكبرى، وجون الولد الأكبر. وهكذا انحدرت «ماي» من أسرة عسكرية، وكما فعلت والدتها اختارت «كامبيرلي» بعد ذلك موطناً لها.

لم تكن التقاليد العسكرية تجري في عروقها وحدها فحسب، بل روح آل دونكان ودم آل ماكلويد من جينيز؛ وهي فرع من عشيرة «اسينت» التي قام أحد أفرادها «ليرد نيل» التاسع (اعتماداً على السياسات الأسكتلندية) بخيانة «مونتروز».



وضعت «ماي» المتزوجة حديثاً في سيلان أربعة صبية لـ «مونتي فيلبي» في السنوات الست بين ١٣٠١ و١٣٠٦ (١٨٨٤ و١٨٨٩م)، وكان أسوأ ما واجههم، المصاعب المالية التي غرق فيها مونتي مع كثيرين بسبب آفة البن التي أثرت في الأراضي الجبلية سنة ١٢٩٧ (١٨٨٠)، وتسببت سنة ١٣٠٧ (١٨٩٠م) في إفلاس كل المزارعين الذين كانت تنقصهم الشجاعة ورأس المال لتغيير نظام زراعتهم والتحول إلى إنتاج الشاي. كان «مونتي» أقلهم تورطاً، ويبدو أنه أغرق أحزانه في النساء والخمر.

كان مع زوجته «ماي» في إنجلترا حين رزقا بالطفل «رالف مونتيج» في تايلورز حيث كانت تعيش الجدة «بردجر» سنة ١٣١١ (١٨٩٤م)، وولد هاري سانت جون بردجر (فيلبي) سنة ١٣٠٢ (١٨٨٥م)، وهارولد باين سنة ١٣٠٤ (١٨٨٧م) في سيلان، الأول على ما يبدو في مقاطعة تسمى سانت جون، ولقد أعطت أولادها الأسماء: توم، جاك، تيم على التوالي، وهي الأسماء التي حملوها مدى الحياة.

ذهبت «ماي» إلى بيت والدها في دبلن سنة ١٣٠٦ (١٨٨٩م) لتضع طفلها الرابع، تاركة أولادها الثلاثة وهم تحت سن الخامسة في رعاية الخدم من أهل البلاد، ووالد مثقل بالمشكلات. كان «دينيس دنكان فيلبي» ابنها الرابع، وقد لقبته لسبب ما باسم «بادي»، وعادت إلى سيلان في رعاية مربية آيرلندية متدينة، لكنها قاسية، وقد روعت توم وجاك برواياتها عن آلام الصلب وعقاب الخطيئة.

تحملت «ماي» تصرفات زوجها ومغامراته الطائشة حتى سنة ١٣٠٨ (١٨٩١م)، في تلك السنة تركت منطقة «بادولا» الجميلة الموحشة ـ لم تعد جنة بسبب الآفة ـ إلى زوجها وديونه، وغادرت عائدة إلى الوطن على متن سفينة بمساعدة المربية مع أولادها الأشقياء الثلاثة وطفل في أولى خطواته. وعند وصولهم، قادتهم تحت رذاذ المطر وسحر أضواء لندن لتلقي بهم وبنفسها على والديها في «برنس سكوير»، وقد كان أصغر أطفالهم ـ الأخوال والخالات ـ في سن توم وجاك.

كان البيت كبيراً، لكن الهرج والمرج اللذين تبعا ذلك الغزو من سيلان كانا شديدي الوطأة على الجدة «كاردو»، فتركت «ماي» المنزل مع أولادها الأربعة لتبدأ حياة

ترحال دامت حتى سنة ١٣٢١ (١٩٠٣م)، إذ بدأت مشروعاً ناجحاً بإدارة نُزل للغرباء في «كوينز جايت».

كانت تمضي الإجازات أحياناً في تشيجويل حيث كانت الجدة «بردجر» على قيد الحياة في منزل آل «تايلورز»، وكان أولاد الخال بودمور وكروسمان وبيلي يلعبون مع أولادها وكلهم من عشيرة بردجر.

لم يكن بحوزة «ماي» سوى القليل من المال، وقد أدرك «جاك فيلبي» منذ صغره أن أمه كانت تعاني الفقر والحاجة، فهو يتذكر الإحراج في الدكاكين، ودفع والدها مصاريف أولادها ليذهبوا أولاً إلى الحضانة وبعد ذلك إلى مدرسة «السيد كلينج» في «جلوسستر تيراس»، كما دفع مصروفات المدرسة الإعدادية التي تعلّم فيها أولاده الصغار أيضاً.

كان توم نشيطاً، وجاك أكثر ذكاءً ونشاطاً بالعمل، وقد تأثر الاثنان بالتأسيس العلمي الممتاز الذي حصلا عليها في المدرسة الداخلية للمرحلة الابتدائية؛ حيث سنحت لهما الفرصة، مع أربعة تلاميذ آخرين، للالتحاق بتلك المدرسة سنة ١٣١١ (١٨٩٤م).

قام «مونتي» (الوالد)، الذي كان في إنجلترا في ذلك الوقت، بإحدى زياراته النادرة إليهم، ليعهد بهم إلى السيد «ستيفنز» في «هنفيلدهاوس» في «سسكس» حيث كان التعليم جيداً، والتسلية متنوعة، وقد اكتسب «جاك فيلبي» عدة ميول هناك رافقته طوال حياته، من حبٍّ للكلاسيكيات، ومراقبة الطيور، ولعبة الكريكيت، وأُعدّ هناك تماماً للالتحاق بمدرسة «ديست جيت» سنة ١٣١٤ (١٨٩٧م) التي كان يديرها والد أ. أ. ميلن، وتفوق «جاك فيلبي» بسهولة على أخيه وخاله، وخلال سنة نال منحة دراسية إلى «كلية دوفر»، لكن «جيه. ف. ميلن» ناظر المدرسة، الذي كان مكتشفاً للمواهب، نصح «ماي» والدة فيلبي ألا تقبل المنحة.

توسم ناظر المدرسة الموهبة عند هـ. ج. ويلز فجعله في سنة ١٣٠٥ (١٨٨٨م) معلماً مبتدئاً؛ معتمداً فقط على حدسه دون الرجوع إلى شيء آخر، وكان ويلز وقتها شاباً مفلساً ضعيف البنية. وقال لها: إن جاك يستحق أكثر من ذلك، وينبغي عليه أن



يتقدم إلى تحدي «وستمنستر» ـ كما كان يسمى امتحان المنحة آنذاك ـ في السنة التالية، فالتعليم هناك أفضل من أي مكان آخر، وقد كان ولداه أيضاً في وستمنستر. وافقت «ماي» على ذلك، وفي سنة ١٣١٦ (١٨٩٨م) دخل جاك الامتحان وكان في الثالثة عشرة من العمر، وفاز بمنحة الملكة، ولقد تأثر كثيراً ببيئة الدير حيث أقيم الامتحان، وبدأ الطموح عندها بالنمو.

كان «مونتي» (الوالد) في طور الانحطاط من حياته، حين كان جاك (الابن) يعيش حياة من الازدهار. حان الآن وقت الحديث عن نهاية «مونتي» الموحشة، فقد تعرف في «سيلان» على الإخوة «بيكر»: صمويل وجون وڤالنتاين. وجد صمويل الذي كان يقوم بالاستكشاف في آسيا وافريقيا، وجد سيلان جذابة، فأنشأ مع أخويه مستوطنة إنجليزية من ١٨ شخصاً في «نيويرا إليا» سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨م). ومع أن غرام «صمويل بيكر» بالاستكشاف وصيد الحيوانات جعله يطوف جميع أنحاء العالم، إلا أنه كان لـ"سيلان» مكانة خاصة في نفسه في العشرين سنة الأخيرة من حياته.

كان يدير أطياناً في «ستانفورد أورلي» قرب «نيوتن أبوت» في «ديفونشير»، وقد عطف على «مونتي» وعينه بمرتب صغير ليعتني بالجماعات التي تخرج إلى الصيد، ثم اشترك كمدفعي في حرب جنوب إفريقيا في «لوك هورس»، وعاش بعد ذلك في «تنموث» التي تقاعد فيها شقيقه القس، واعتاد هناك أن يتحدث إلى فتيات العائلة الصغيرات اللواتي كن يشاركنه في الطعام حكايات عن سيلان وعن صبيته الأربعة الصغار. وقد كتبت إحدى الفتيات ـ هيثر ويلسون ـ التي أصبح زوجها، ج. د. رودكن، فيما بعد رئيساً لفيلبي في الهند: «كنا جميعاً مغرمات به، ومن المحزن أننا لم نعرفه قط على حقيقته».

ولقد رأى «جاك فيلبي» «هيثر ويلسون» مرة واحدة بعد ذلك، سنة ١٣٧٦ (١٩٥٧م) تقول: «آخر مرة رأيته فيها كانت في «وستمنستر» بمرافقة والدتي، أعتقد أنه أخذني إلى الغداء، وهي مناسبة لا أذكر منها شيئاً سوى أني شعرت بعدم الراحة، فقد كنت في سن تجعلني أفهم أنه قد هجر والدتي».

قام «مونتي» بمحاولة أخرى، فقد كتب إلى «جاك» قبل عيد الميلاد مباشرة سنة

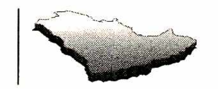
١٣٢٥ (١٩٠٧م)، قائلاً: إنه مازال حياً، وكم هو نادم أن «الظروف الخارجة عن طور إرادتي، اقتضت أن أعيش بعيداً عنكم جميعاً»! احتفظ «جاك» بالخطاب، لكنه لم يجب عليه «بسبب جاذبيته التي حدثتني عنها جدتي ذات يوم». وقد كتب في سن متقدمة: «لقد تخلى في نهاية المطاف عن أمي، وتلك خطيئة لا تغتفر».

مات «مونتي» سنة ١٣٣١ (١٩١٣م) ولم يخلِّف وراءه شيئاً، عدا صورتين باهتتين من أيام مجده، وكأساً لـ «توم»، وعلبة كبريت فضية نقش عليها إهداء من «ماي»، ووسام حرب بأربعة مشابك من جنوب إفريقيا، كما ورث جاك صلابته من جانب أمه.

ترتبط مدرسة «وستمنستر»، بشكل جيد بالبنية الوطنية للكنيسة والدولة أكثر من أي مدرسة إنجليزية عامة أخرى، فمنذ تأسيسها في ظل دير «وستمنستر» والأناشيد المدرسية تتلى فيها يومياً، وتخلد ذكرى مؤسستها الملكة إليزابيث الأولى بترتيل مراسم لاتينية حول قبرها في ضوء الشموع. يشارك تلاميذها في المراسم الوطنية والملكية بما فيها حفل التتويج. ويقع مبنى البرلمان أمامها عبر الطريق، ويتمتع التلاميذ في مراسم افتتاحه بالمشهد من الجانب المقابل، كما أن لهم الحق في حضور المناقشات التي تحدث فيه.

وتقع ساعة «بيج بن» في مدى السمع، وللساحة الصغيرة حول غرفة رئيس الدير، حيث توجد كل مباني المدرسة، شيء من جو ساحة كلية في الجامعة، بتعاقب الهدوء والحركة والصخب، ولتلاميذها الحرية في أن يتجولوا في الدير وحرمه، وينهلوا من التراث والتاريخ إذا رغبوا، وحين اصطحبته أمه لامتحان التحدي الذي عقد في «وستمنستر» سنة ١٣١٦ (١٨٩٨م)، ترك القبر الجديد «لجلادستون» هناك، أثراً طيباً في نفسه.

يعد الطلبة الذين يدخلون المدرسة بمنحة من الملكة ـ والذي أصبح واحداً منهم ـ صفوة المدرسة، لكن الحياة التي عاشوها هناك كانت حياة تقشف عسكرية، وكما هي الحال في جميع المدارس العامة في العهد الفيكتوري، كانت تمارس عدالة خشنة، فبدلاً من الأساتذة، كان الأولاد الأكبر سناً يحفظون النظام ويطبقون بحذافيره على من هم



أصغر سناً. كانت غرف النوم أشبه بالثكنات، حيث يتناول الطلاب وجباتهم على ألواح عارية عفا عليها الزمن، ومياه الاستحمام باردة، والطعام نادراً ما يكون شهياً، لكن التقاليد تنص على عدم الراحة، وأي تغيير في العادات الموضوعة يمس الشعور حالاً، وعلى سبيل المثال، أول ناظر لفيلبي، و. ج. رذرفورد، وهو متزمت وملائم للمنصب، لم يكن تلميذاً في مدرسة عامة، قدم كثيراً من التجديدات بما فيها إعطاء رتب للتلاميذ الأذكياء من أولاد المدينة الذين لم يأخذوا منحة، وهو تغيير عدّه فيلبي إلى الأسوأ من بين إصلاحات أخرى، مثل: رفع مستويات التعليم إلى الأفضل، وجذب أولاد المهنيين من رجال لندن ـ خاصة الأذكياء منهم ـ إلى المدرسة[1]، وعلى الرغم من التعليم الجيد الذي أحدثه، فقد ظل يُعنّف على «تعسفه» من معاصري فيلبي. وقد كان في سنة ١٣١٦ (١٨٩٨م) مريضاً وعلى وشك التقاعد، وأما الناظر الثاني لـ فيلبي، «د. جميس جاو» الذي جاء إلى «وستمنستر» من مدرسة «نوتنجهام» العليا (حيث علّم هناك د. هـ. لورانس)، فقد انتُقد بسبب تجديداته بطريقة مماثلة، وعلى سبيل المثال، ظهوره بسترة قصيرة بدلاً من رداء القس الطويل ذي الحزام. لكن «جاو» كان متعدد المواهب، مشهوراً ليس فقط لتضلعه في الأدبين اليوناني والروماني، بل أيضاً في الرياضيات وعلم اللغة، وقد عدّ «فيلبي» السنوات الثلاث التي قضاها تحت رئاسته بين سنتي ١٣١٩ و١٣٢٢ (١٩٠١ و١٩٠٤م)، من أسعد سني حياته.

كان «فيلبي» تلميذاً ناجحاً، حصل على درجات عالية طوال فترة دراسته؛ وقد صمم على أن يكون في القمة، فحاز على مرتبة رفيعة بين لاعبي الكريكيت وكرة القدم، كما لعب كرة اليد، وتألق في الشطرنج، وبرز دوره في جمعية المناظرة المدرسية. كان يتحدث غالباً لمصلحة التقاليد والسلطة ورجال الحكومة.

ناصر أصحاب العمل ضد العمال سنة ١٣٢١ (١٩٠٣م)، وآزر روسيا ضد اليابان سنة ١٣٢٢ (١٩٠٤م). كان قصيراً ممتلئ الجسم وبصحة جيدة، متجدد النشاط عقلياً وبدنياً، كان يوقظ صديقاً له في الصيف ـ إريك ماكسويل ـ الساعة السادسة صباحاً ليقرأ معه مسرحيات يونانية، قائلاً: إنها أسهل للفهم إذا قرئت بشكل جماعي.

---

(١) جون كارلتون، «Westminster School»، لندن، ١٣٨٥(١٩٦٥م)، ص٧٥. أنا أدين بالفضل لـ «جون كارلتون» في حصولي على وثائق ومعلومات عن «فيلبي».

زادت الإجازات المدرسية من عدد أصدقائه ومن اهتماماته، فأصبح هاوياً لجمع الفراشات والحشرات، وأقنع الصبية الآخرين أن يفعلوا مثله، وكانوا يجهدون أنفسهم في حدائق حول لندن بحثاً عن اليرقات، مالئين غرف «ماي» في «بمليكو» بصناديق صغيرة من العينات التي بدأت بالتفريخ. ومنذ كان في الخامسة عشرة، بدأ الأولاد الذين يملكون بيوتاً في الريف، يطلبون منه البقاء معهم، ويمنحونه الفرص للتمتع أكثر برؤية إنجلترا.

لم تكن الحياة في البيت رحبة، وفي سنة ١٣٢١ (١٩٠٣م) قلّ عدد أفراد العائلة بسبب التحاق «توم» بالبحرية الملكية الهندية، فقامت «ماي» ببعض التغييرات فيه، فاقترضت نقوداً من أشقائها، وبدأت مشروع نُزل ناجح في لندن في ١٠٨ أ.م. «كوين جيت». وكان على أولادها الثلاثة الصغار أن يتأقلموا مع الوضع قدر استطاعتهم، وقد كتبت فرحةً إلى «جاك» في وستمنستر» بدأت بشكل جيد، وليس لدي أي شاغر»، لدرجة أنها تخلت عن غرفتها الخاصة في نهاية الفصل الدراسي ليتسنى له المكوث فيها. ومع ذلك، فإن مغامرتها قد أثمرت. كانت غرفها مشغولة بأناس ظرفاء، بمن فيهم كثير من الأصدقاء من الهند والجيش.

وكان «جاك» يتطلع منذ زمن إلى الهند، وإلى الوصول إلى قمة الجهاز الحكومي الهندي هناك. أراد تيم وبادي أن يلتحقا بالجيش، وقدّرت «ماي» أن الأصدقاء الجدد لهما في «كوين جيت» سيوضحون لهما طبيعة المهن المختلفة، وقد يكونون مفيدين لاحقاً.

أعجب نزلاؤها بشجاعتها، وكانوا يدعونها إلى المسارح والحفلات، فاستمتعت بذلك كثيراً بعد سنوات الضنك. وكان «جاك» في الثامنة عشرة حينها، ويشارك في الحديث والمتعة كلما سنحت له فرصة الحضور في البيت.

اشترك تلاميذ «وستمنستر» عادة في المراسم الملكية التي كانت تقام في الدير. ولحسن حظ «فيلبي» فقد حدث ذلك مرتين خلال السنوات الخمس التي قضاها في المدرسة.

ماتت الملكة العجوز في سنة ١٣١٩ (١٩٠١م)، وحضر الأربعون تلميذاً الذين نالوا



منحتها الدراسية مراسم جنائزية تذكارية في الدير بعد أخذ التابوت إلى «وندسور» للدفن، وجاءت قمة الأحداث المثيرة سنة ١٣٢٠ (١٩٠٢) بحفلة التتويج، فقد أصبحوا تلاميذ على منحة الملك إدوارد السابع. عادوا إلى المدرسة في ٩ أغسطس ليتجمعوا أمام المكان المخصص للكورس والقسيسين، مرتدين ملابس المساء والرداء الكهنوتي الأبيض، يحملون الملابس الرسمية إلى المذبح، ويمرون على المنصة، ثم يهبطون إلى المكان المخصص للكورس، ثم إلى أماكنهم في شرفة الكنيسة. وقد شعروا بالامتعاض لحدوث تغيير لم يسبق حدوثه من قبل، فالكلمات الشهيرة «عاش الملك»، التي كانت تقال لقرون «وضعت في وسط نشيد»، واستخدم ذلك التقليد من وقتها، وحصل كل الحاضرين على وسام التتويج.

عاد فيلبي في صيف ١٣٢١ (١٩٠٣م) من آخر مباراة كريكيت في الموسم منزعجاً من أدائه غير المتقن للعبة سهلة، ليفاجأ بما أسماه في مفكرته «بأعظم هزة في حياتي»، كان معه زميلان: أحدهما صديقه «دونالد روبرنسون» (الذي أصبح بعد ذلك أستاذ الأدب اليوناني في كامبردج)، وكانا ماهرين في الكلاسيكيات، وأكثر جدارة منه، ومع ذلك فقد أُخبر أنه سيكون آمر المدرسة ورئيس الطلبة الحاصلين على منحة الملك، في السنة الأخيرة من حياته المدرسية.

تعد «وستمنستر» مدرسة ديموقراطية، ويمتلك آمر المدرسة والمراقبون سلطة كبيرة في فرض النظام، لكن قبل أن يغادروا المدرسة، كانت تقام احتفالية خطابية يبدي فيها المسؤولون رأيهم في إدارة الآمر والمراقبين للمدرسة، وبطريقة مماثلة فإن الآمر لديه الفرصة ليسجل رأيه في دفتر الأستاذ (الذي بدأ استخدامه سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) في فترة وكالته وأساتذته وزملائه والسابقين عليه (ودوماً باستعمال مسمى الوظيفة وليس بالاسم). وسأل «فيلبي» في مذكراته التي كتبها سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨م) هل - «سجله في سنة توليه منصبه آنذاك» - قد سلم من الغارات الجوية التي تعرضت لها «وستمنستر» في أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد حدث ذلك، وكذلك صورة للمدرسة عندما كان آمراً فيها، وجدت في سجل خَلَفِه «بيرسيڤال ووتر فيلد».

كانت حدة «ووتر فيلد» وفطنته وهو في الثامنة عشرة، جعلتاه متميزاً ليُرشّح في

آخر حياته قاضياً في الجهاز الحكومي البريطاني، وقد وصف الفترة التي قضاها «فيلبي» آمراً بأنها «مزيج من الخير والشر»:

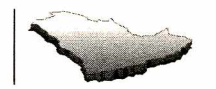
لقد رفع الأخلاق من الوهدة المنخفضة التي سقطت فيها، واستعاد النظام بعد أن تفشت الفوضى. لا أنكر ذلك، إلا أن نظامه الذي أثق بأنه أثمر جيداً، لم يكن ناجحاً تماماً. فقد كان حاكماً مطلقاً ذا يد فولاذية، ولم يستطع إخفاء ذلك بنجاح، فكانت النتيجة شقاقاً داخلياً في أثناء فترة ولايته.

ويستمر في وصف «فيلبي» بأنه أكثر اهتماماً بالعالم الضيق للتلاميذ منه بالمدرسة كلياً، يحتقر أولاد المدينة، ويعمل ضد الأساتذة أكثر من العمل معهم، مخفقاً في ممارسة السلطة المتاحة له لكونه من بين الأوائل ومتميزاً في المباريات الرياضية.

تكشف رواية «فيلبي» الخاصة عن فترة إمرته بالمثل بعض صفاته في حياته اللاحقة. إنها ـ كما هي مكتوبة على الورق ـ ملتوية وشخصية جداً، وفي بعض الحالات تصبح يوميات تقريباً، تحتوي على روايات تافهة عن جدل مع الأساتذة وأعضاء نادي الشطرنج في المدرسة، ولا تتحدث بصراحة عن «المواجهات القاسية» والأفعال التي سببت التشنج في المدرسة، وهي تبين أيضاً كم كان تقليدياً ومتصلباً وهو في تلك السن!

كان التلاميذ أصحاب المنح «مثار إعجاب وتساؤل» أولاد المدينة ومثلاً لهم «في الأصل الراقي والسلوك القويم» وإن تغاضى أولاد المدينة عن ذلك، فلابد من تجاهلهم، كل هذا كان ضرورياً في رأيه: «ليستعيد للكلية بعض قوتها وانضباطها الأصليين»، وذلك لكي: «أقوم بواجبي بصفتي مسؤولاً رفيعاً في واحدة من ألمع المدارس في العالم». وكما هي الحال غالباً، كان هدفه نزيهاً ومستقيماً، لكن طريقته لتحقيق ذلك كانت خاطئة.

ارتبطت «وستمنستر» منذ تأسيسها بمنح دراسية مع «ترينيتي كوليج» ـ كامبردج، و«كرايست تشيرش» ـ أكسفورد.



مُنع «فيلبي» من تقديم امتحانات «ترينيتي» في عام ١٣٢١ (١٩٠٣م)، وفاز صديقه «دونالد روبرنسون» بمنحة دراسية، وعزا «فيلبي» سبب ذلك إلى عدم قدرته على إقامة علاقة صداقة مع أستاذ الصف السابع.

كان امتحان «ترينيتي» الذي فاز به في مارس التالي فرصة لإرضاء نفسه وإظهار معرفته بالكلاسيكيات. ومرة ثانية، فإن ذكاءه وفّر النقود لـ«ماي». كان فصله الدراسي الأخير، كما يحدث في المدارس عادة، أسعد أوقاته: تأكدت السلطة، انتهت الصفوف، توقف الأساتذة عن التدخل، والخطب تسير بما يرضيه، و«كامبردج» تقبع أمامه مع أصدقاء سيرحبون به بشدة. ولكونه الأول في السلم الهرمي في المدرسة، فقد ساعد ذلك على تكوين قناعة لديه أن الصراحة تجدي نفعاً، وأن الفظاظة لا تهم.

كانت «كامبردج» بالنسبة إلى «فيلبي» بعد أيام الدراسة مثل الهواء النقي بعد هواء الأزقة الفاسد في المدينة، وعند وصوله إلى هناك في ١٣٢٢ (١٩٠٤م) أُعطي غرفتين للإقامة أول مرة في حياته، وكان فخوراً بذلك لدرجة أنه التقط صوراً كانت مزينة بذوق عصره وما يناسب سنّه، فالطاولات مغطاة بالمخمل، والرف والحائط فوق المدفأة مزدحمان من الحافة إلى الحافة بصور مؤطرة لزملاء الدراسة والفرق الرياضية؛ فريق كرة القدم يقف متباهياً وفريق الكريكيت متأنقاً باللباس الأبيض، وإلى الجانبين، وعلى شكل أشجار من الفن الحديث تتسلق الجدران العالية بشكل مائل نحو الإطار، تضم نسخاً ضمن أطر صغيرة تشبه طوابع البريد بشكلها المطاول، وفتاة «جروز»، إطار «البارثينون»، الطفل الفضي لـ «فيلا سكونر»، و«فينوس» لـ «ميلو» والقبلة لـ «رودون»[١].

كانت كامبردج، مدينة هادئة كقطعة من العهد السابق كما وصفها «جوين راڤيرات»، في الصفوف العليا كان هناك أتباع بتلر وداروين وكورنفورد وكينيسي وتريفيليان، يأتون بعربات تجرها الخيول، ويخرجون للنزهة بقوارب صغيرة ذات مجاديف، وكانت كلية «ترينيتي» على مستوى الزمالة، وهي مركز «إشعاع غير عادي للتألق

---

(١) معلومات من د. «اندرو جو»، كامبريدج ١٣٨٩(١٩٦٩م).

الفلسفي»[١] سبّبه «جاك تاجارت» و«وايتهد» و«براترند رسل» و«ج. آي. مور». وقد ترعرعت مجموعة شهيرة من الخريجين على كتاب «مور» «مبادئ الأخلاق»، وبحثوا عن «مراكز ترضي الذات»، بدأت بماي ناردكيتنر الذي ذهب إلى الجهاز الحكومي في الهند، وتوبي ستيفن إلى بلومزيري، وساكسون سدني تيرنر إلى وزارة المالية، وكليف بل إلى باريس، وليونارد وولف إلى سيلان، وليندون ستراتشي، وهو يفوق الآخرين، إلى لندن، وقد كتب كينز: «كنا ضمن آخر الطوباويين أو الإصلاحيين»[٢]. وقد حل مكانهم، وإن لم يكن على الفور، نوع آخر من المصلحين أقل شهرة من الفابيين في «كمبردج».

كان الفابيون سياسيين عمليين، تحدثوا في «اتحاد الطلبة» واعتزلوا أفكار «مور»، واتجهوا إلى «الثروة والرفاهية» لبيجو، وصفقوا لقوله: «أعتقد أننا هنا بالفرص العظيمة المتاحة لنا أوصياء على الفقراء»[٣]. وبرزت الفابية في سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) بجهود هيو دالتون وروبرت بروك، وكان مؤسسها «بن كلينج» معاصراً لـ«فيلبي» في كلية «ترينيتي».

لم ينتم «فيلبي» إلى أي جماعة، لكنه، كما سنرى، كان لديه أصدقاء في كل منهما من خلال حبه لقراءة المسرحيات.

يتذكر أي طالب في «ترينيتي» أول يوم خطا فيه من البوابة الكبيرة إلى القاعة الرئيسة بشعور أنه ينتمي إليها، بعضهم يدخل وهو يشعر أنه جديد، عديم الخبرة، أما الذين درسوا في «وستمنستر» فيشعرون براحة أكبر؛ لأن كثيراً من زملائهم يرحبون بهم.

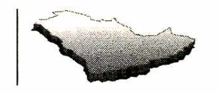
وصل «فيلبي» مع دونالد روبرنسون، وبل هاباك، وف. هـ. ستيوارت، وجورج بوج الذي كان آمراً قبل فيلبي، وأضيف إليهما لاحقاً أصدقاء جدد، مثل أرنولد جوم، و.

---

(١) «لونارد وولف «Sowing» لندن ١٣٧٩(١٩٦٠م)، ص١٣٢.

(٢) مقتبسات من «جي.أم.كينز» في كتاب «روي هارود»، «The life of John Maynard Keynes»، لندن: ١٣٧٠(١٩٥١م)، ص٨٠-٨١.

(٣) «هيون دالتون»، «Call Back Yesterday»، لندن، ١٣٧٢(١٩٥٣م)، ص٥٩.



ن. أوير، ونورمان نبتوتش، وبن كلينج الذي لم يوافق فيلبي على انضمامه إلى جماعتهم؛ لأن غرفته كانت مزينة بملصقات جديدة تبين عمال العالم وهم يعلنون: «إلى الأمام فالصبح يبزغ».

كانوا ينادون بعضهم باسم الأسرة، في يوميات «فيلبي» ورسائله كان دونالد روبرنسون، صديق حياته، دائماً هو دونالد، أما الآخرون فهم هوباك وبوج. كان دونالد ونيكولز وجوم يدرسون الكلاسيكيات في السنة الأولى لدخوله، وكان بوج ومارجاريث بوندنيلد في السنة السابقة على التحاقه، وأندرو جاو ـ تلميذ آخر قديم من «وستمنستر» ـ وروبرت بروك من ردجبي التحق في السنة التالية له. كان ينط هنا وهناك مستمتعاً بالمعنى الجديد للحرية وبالملابس المناسبة، ونادراً ما يوفر الفصل الدراسي الذي يستغرق ثمانية أسابيع، الوقت الكافي لتشرب الأفكار الجديدة المتعددة، وممارسة وسائل الترفيه الممكنة.

لعب مع فريق كرة القدم الأمريكية كلما أمكن، وواصل لعب الكريكيت، وانجذب إلى الهوكي، غير أنه لم يعط قط لمباريات كرة القدم العادية، الاهتمام الذي عرف عنه في المدرسة، فهناك الكثير الذي يجب عمله، ولعب الشطرنج ولعبة الواحد والعشرين، وقرأ المسرحيات، وكتب أغاني مقفاة على أصدقائه، وتحدث في اتحاد الطلبة مرة واحدة، في دفاع تقليدي عن الحكومة البريطانية ضد النقد الليبرالي لسلوكها في حادثة دنشواي الشهيرة في مصر سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦م) (حين مات أحد الجنود البريطانيين الذين كانوا يصطادون الحمام بدنشواي، بضربة شمس، والأحكام القاسية التي أصدرتها المحكمة ضد الفلاحين الثائرين وتضمنت الشنق، وتغاضت الحكومة البريطانية عن ذلك)، كما حصل على الهدايا الكبيرة التي تقدمها الجامعات البريطانية تشجيعاً للتفكير بدلاً من مجرد إعادة ترديد ما تعلمه المرء، وتحدث مرتين أو ثلاثاً عن طرد الطلبة من بعض الغرف، وفي جمعيات المناظرة التي تزايدت بسرعة آنذاك، وكتب في يومياته: «النقد والجدل كانا ملح الحياة وطعمها في كمبردج تلك الأيام، حين بدأت مراجعة القوانين الراسخة للفلسفة والسياسة والاقتصاد وكل شيء آخر».

استغرقت قراءة المسرحيات أمسيات طويلة مبهجة، والتحق بجمعية شكسبير التي أُنشئت منذ فترة طويلة، وانضم إلى جمعية «إكس» مع هوباك وجيمس ستراشي

وشقيق ليتون التي أنشأتها مجموعة وولف وستراشي لقراءة مسرحيات لغير شكسبير[١]. ومن قراءة المسرحيات انتقل إلى التمثيل الذي أُعجب بنفسه فيه، لكن تقديراته كانت متوسطة، وقام بدور صغير في مسرحية «طبيب رغم أنفه» التي أخرجتها زوجة مدرسه للغة الفرنسية، وفي سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) اشترك مع جمعية «مارلو» في مسرحية «د. فاوست» التي أدى فيها «روبرت بروك» دور «مفستوفيلس». وقد سخر منه أصدقاؤه لميله إلى التمثيل وأيضاً لمحافظته المتزمتة، وقد تركوا أغنية في غرفته في أثناء تجارب (بروفات) مسرحية «فاوست» ظلت عالقة في ذهن «و. ن. أوير» مدة ستين سنة:

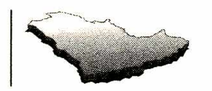
آه يا سانت جون ب. فيلبي
مهما كنت أو سيكون
مصيرك الذي أخذته إلى المسرح الآن
فإنك كنت ومازلت
فابياً متحمساً.

ولكنه لم يلتحق بالجمعية الفابية حتى جرّب وخزات الجهاز الحكومي مدة ١٦ سنة. وفي الفصل الدراسي الأول قدمه «جورج بوج» إلى جمعية المناظرة الخاصة بأصحاب الأذهان الخالية التي تعقد جلساتها في أمسيات أيام الجمع، وموضوعاتها عادة تافهة، وعلى المتحدث أن يتكلم باقتناع لا يقل عما قضت به الجمعية. وبمجرد التحاقه طُلب من فيلبي التقليدي أن يتحدث في موضوع «إلغاء اللباس العادي للرجال اليوم». وفي هذه الجمعية قابل طلاباً من سنوات أخرى من بينهم: والتر ليتون، وليم مالكن، كلاود إليوت، ج. ر. م. بتلر (أصبحوا بعد ذلك بالترتيب: محرر مجلة الإيكونومست، رئيس القسم القانوني في وزارة الخارجية، مديراً ثم رئيس كلية إيتون، زميلاً في ترينيتي والرئيس الرسمي لمؤرخي الحرب العالمية الثانية).

كان أحد الذين قدمهم بنفسه للعضوية في الجمعية جواهر لال نهرو، وناقشوا «لا أخلاقية الحرب» (ولم تنجح)، ومساوئ التبغ، والاتجاه الحديث لتعليم الجماهير

---

(١) «مايكل هولرويد»، «Lytton Strachey»، لندن، ١٣٨٧(١٩٦٧م)، مج١، ص١٢٣.



بوسائل خاطئة (نجحت)، أداروا محاكمات مصطنعة، ونقاشات تافهة حول الموسيقى، وحين التحق «فيلبي» بالجمعية، ثم أصبح سكرتيراً لها (مرحلة تحسنت فيها وقائع الندوات كثيراً في الكتابة والنوعية) اقترح سباقاً مرحاً لحفل موسيقى يجبر فيه الحضور على الخروج باستخدام الدخان، ومواكب احتفالية مصطنعة ساخرة، وحفلات رقص.

لم يبرز قط في كمبردج كما كان في المدرسة، لكنه كان كُفُؤاً ومحبوباً لدرجة أنه انتخب رئيساً لجمعية (م/س) في ترينيتي، وهو في الفصل الدراسي الأخير، ولجمعية القراءات المسرحية التي تقام بين الكليات المختلفة التي تسمى «تابارد»، وهو دور كان يشغله قبله ليونارد وولف.

انتمى في الفصل الدراسي الثاني، إلى نادي مناظرات أكثر رزانة ـ جمعية الأحد للمقالات ـ التي أسست قبل عشرين سنة من أجل «مناقشة موضوعات تتعلق بالدين» ويديرها المستشرق الكبير في كلية ترينيتي «أنتوني أشلي بيفان»، هنا المحاضر والطلاب يقدمون ويصغون إلى أوراق تعليمية في أمسيات الأحد المتبادلة في موضوعات تراوح بين «علم الأخلاق في الأناجيل» و«الزمن وعلاقته بالأبدية»، وأحياناً يُدعى ضيف من كلية أخرى أو حتى من أكسفورد ليتحدث أمام الطلبة.

استمع «فيلبي» إلى «جولدي لويس ديكنسون» في «المعرفة والإيمان»، وأصيب بالاشمئزاز عند سماعه «ليتون ستراشي» في سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥م)، حين تحدث في موضوع «علم الأخلاق في الإنجيل» فاضحاً التعاليم المسيحية. واستمع من الآنسة الصغيرة «جين هاريسون» من نيوتام إلى مقال جديد كلياً بعنوان: «بعض أبحاث فيما بعد الكانتية»، وحين جاء دور الطلبة، استمع إلى مقال «دونالد روبرتسون» «الضياع»، وكان مقالاً تأملياً نموذجياً، وكان مقال فيلبي بدوره نموذجياً «ملاءمة التقاليد التي اصطلح عليها». بعد قراءته لهذا المقال الذي كتبه بعد أن حصل على القسم الأول من امتحان البكالوريوس في الكلاسيكيات صيف ١٣٢٤ (١٩٠٦م)، حتى استولت عليه فكرة شوشت عقله، لدرجة أنه اعتقد أن ما ناقشه واستنتج منه أن كل المعتقدات التي تمسك بها حتى ذلك الوقت كانت كلاماً فارغاً في معظمها. وبما أنه استمر في حمل هذه الأفكار الجديدة طوال حياته، فمن الجدير أن

نستعرض ما قاله، وقد احتفظ بالمقال وسط أوراقه، وهو بحث مطول قليلاً حول العلاقة بين الدين والفلسفة، ووقف فيه بشدة إلى جانب الدين:

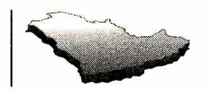
«... هو من كل العادات أعظمها، في كونيته وأصوليته وكجزء من النظام الإنساني... قوي في مقاومته لكل من يعارضه». مؤيدوه يمتلكون الأفضلية لكونهم أقل سلبية ونقداً من الفلاسفة المعاصرين، يقدمون فرضيات جسورة «مقنعة تماماً لا تقبل الدحض» وهم بذلك يقيمون نسقاً لنظام أخلاقي «مبني على مشيئة الله»، وهو طريق «مقنع تماماً» لجعل العالم يسير. أما الفلسفة الحديثة، فمع أنها قد تقوم مقام الدين بالنسبة إلى النخبة المثقفة، فهي بالمقارنة به جبانة، وعلى غير استعداد لفرض أي مذهب على طلابها. ومع أن هؤلاء على استعداد للسخرية من التقاليد، فقد أثبتوا عملياً عجزهم عن التخلص منها، وأنهى مقاله بالمقارنة بين المسيح وأرسطو، وختم بالقديس بولس ونيتشه.

«كل واحد منهم لديه رسالة إدانة، واحد للشرير، وآخر للعالم الغيبي، عن هلاك الروح الأبدي، أكثر رعباً وأكثر عظمة وأكثر تأثيراً».

كان خارجاً في نزهة، بعد عرضه هذا المقال عن إيمانه، توقف ناظراً إلى آثار أقدامه (كما يحب أن يقول) وقال لنفسه: «هل حقيقة أومن بهذا الكلام؟» وخلال بقية حياته، في كتاباته ومناقشاته، كان يتحدث عن يوم الأحد ذاك بأنه السبب في التغير الكامل لحالته العقلية: «كانت الأغنية الأخيرة للفنان في بطولتي المتعلقة بالأصولية»، وعدم الإيمان بما تمسك به لسنوات، «التمسك العاطفي الشديد بالحقيقة» الحقيقة غير المبعثرة بالتقاليد السياسية والاجتماعية الحياتية.

لم يتح له صيف ١٣٢٤ (١٩٠٦م) الوقت للتفكير المتروي بهذه الأفكار الجديدة، فخلال أيام علم بالأنباء المحزنة، نال «دونالد روبرتسون» المرتبة الأولى في الامتحان الأول للبكالوريوس في الكلاسيكيات، وحصل هو على المرتبة الثانية. انزعج، وشعر بالإهانة، وقرر أن يتحول إلى موضوع اللغات الحديثة ليتألق فيه، فقضى إجازة صيف عام ١٣٢٤ (١٩٠٦م) يدرس اللغة الفرنسية في باريس، ويتجول على الدراجة في أنحاء فرنسا.

مازالت السنة الأخيرة له بوصفه طالباً في الجامعة، تشكل يوميات عادية، وقد ظل



شخصاً اجتماعياً، يتحدث ساعات كثيرة من الليل، لكنه يعمل بجد أكثر من قبل. حسّن من لغته الألمانية بقضاء إجازتين مع عائلة في «البرفيلد»، وظل يواصل تحسينها سنوات لاحقة.

وبينما هو في باريس يواصل دراسته للفرنسية، إذ أبرقت له «ماي» (والدته) بالأخبار السارة في عيد الفصح سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م)، بأنه قد نال منحة دراسية في كلية «ترينيتي» ستساعد في تغطية سنة أخرى، إذا كان عليه أن ينجح في امتحان للعمل في الجهاز الحكومي البريطاني في الهند. كانت الجائزة مرحباً بها من كليهما، فقد كانت تقترض كثيراً على الرغم من نجاحها كمالكة عقار.

في سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) كان في دوامة، فقد حصل على البكالوريوس التمهيدي في اللغات الحديثة، ثم احتفل بالحرية في مسابقات مايو في حفلة ترينيتي مع دونالد وشقيقته، وأرنولد جوم والفتاة جوم التي تزوجت بعد ذلك الفنان فيلبس أمرسون. وفي اليوم التالي سمع فيلبي الأخبار الجيدة بأنه قد حصل على المرتبة الأولى.

جاءت «ماي» مندفعة إلى كمبردج لتشاهده وهو يتسلم شهادته، وغادر في الحال إلى مركز تدريب الموظفين في «تدورث» في سهل «سالزبوري»، ثم ذهب إلى مدرسة «بيرلتز» ليصقل لغته الألمانية، وأخيراً ذهب في أغسطس إلى «مركز برلنيجتون» مع جورج بوج ليؤدي امتحان الخدمة في الدوائر المدنية للدولة. واستحق إجازة تفرغ، أخذها طوال سبتمبر، وذهب مع مجموعة من الأصدقاء على الدراجات إلى أودية يوركشير والمناطق الجبلية الأسكتلندية.

ذهبت «ماي» التي كانت قلقة وواثقة إلى «مركز برلنيجتون» لتحصل على نتيجة امتحانه، وأبرقت له شمالاً، لكنه كان في الرحلة، وقرأ النتيجة في جريدة في «كارلسل»، لقد نجح بالدرجة السابعة والأربعين، وبوج بالدرجة الخامسة عشرة، وكلاهما قُبل للعمل في الجهاز الحكومي في الهند، وكان عليهما أن يقضيا سنة أخرى في كمبردج في دراسة اللغات الشرقية والقانون الهندي والتاريخ، مقابل ١٥٠ جنيهاً، وتصريح بالذهاب إلى الهند.

كان المرشد والوصي عليه في سنة التخرج تلك، آي. ج. براون (جوني)، الذي ما من

أحد عمل معه إلا وتاقت نفسه إلى الذكريات. فمقدرة الرجل على جرّ العقول وراءه كانت سحرية، يشد الانتباه حين يحاضر ويسرح في ميدان الدراسات الشرقية، وكان عاشقاً للبشر ومتحدثاً فصيحاً، وربما أكثر المدرسين شعبية في كمبردج، ينضح علماً، وأي سؤال ذكي يجعله «ينطلق في أثر الصيد الذهبي»(١). في الوقت الذي كان فيه فيلبي يدرس معه اللغة الفارسية، كان يقود حملة قوية لمصلحة القومية في فارس، ويؤيد بقوة الحركة الدستورية هناك التي انتهكت بالمعاهدة الإنجلو ـ روسية سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) التي تقسم البلاد إلى مناطق نفوذ للقوى الأجنبية. كانت أفكار «براون» حول الموضوع مشابهة لأفكار فيلبي اللاحقة حول العرب، ومن المدهش أن اهتمامه بالقومية الفارسية لم يعد يشدّ انتباهه. لاشك أن دراسة الهندوستانية والفارسية استعداداً للغة الأوردية «Urdu» أخذت من وقته وانتباهه أكثر بكثير من الفرنسية والألمانية، ثم كان هناك اختبار مضجر لركوب الخيل لم يتفوق فيه.

لم يوطن نفسه على علاقته ببراون كي ينجز ما يريده كما يفعل الطلبة المتكاسلون، بل عمل بجد أكثر من ذي قبل، يتوقف فقط من حين إلى آخر لقراءة مسرحية في جمعية «تابارد»، أو من أجل حفلة موسيقية في الجمعية أو من أجل التمثيل في مسرحية «فاوست». ولقد وضعته مقدرته اللغوية التي ورثها عن والد «ماي» في موقع جيد، وغادر بخلفية ممتازة في اللغتين الشرقيتين اللتين درسهما.

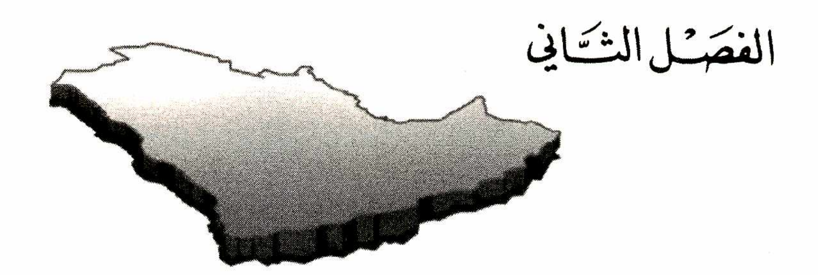
كانت إجازة صيف سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨م) مزدحمة، اقترض خمسين جنيهاً من عمه «جون دونكان» ليحضر تجهيزاته من «هايتز» التي كانت تبيع آنذاك أفضل الأشياء المناسبة للمناخ الحار، وكان هو و«ماي» يشتريان أحسن الأنواع (وضايق عمه؛ لأنه لم يعد النقود التي عدّها ديناً)، ثم اندفع إلى حضور حفلة مع تيم في «ساندهرست»، ووقع في غرام «روث بيل» ابنة العميد في أثناء مكوثه في «جويرنزي»، وقد كتب إلى أمه: «من الغباء الذهاب إلى الهند دون أن تقولي شيئاً..» وقد عبرت عن رفضها، ولراحة بالها فقد تلاشت هذه العلاقة الغرامية تماماً.

أبحر إلى الهند في سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨م)، هاهو ذا يعمل بأجر في النهاية، ووعد أن يساعد «ماي» في تعليم شقيقه «بادي» من مرتبه، لقد جاءت المسؤولية وقد رحب بها.

---

(١) «ريدر بولارد»، «The Camels Must Go»، لندن، ١٣٨٠(١٩٦١)، ص٤٧.

الفصل الثاني



موظف مدني في الهند

تختلف الحياة والخدمة في الهند البريطانية اختلافاً كبيراً من إقليم إلى إقليم، بسبب المناخ وبسبب عادات السكان الهنود ومعتقداتهم. ويفضل الإنجليز التقليديون الخدمة وسط أجناس تخضع لقانون معروف، فهم يشعرون أن فهم المسلم بعقيدته التوحيدية أسهل من التعامل مع مصطلحات غامضة - في رأيهم - مراوغة كالهندوسية.

أُرسل «بوج» إلى «مدراس»، بينما أُعلم «فيلبي» وهو مازال في إنجلترا، أنه عُيّن في الأقاليم المتحدة، وعلم، وهو يبحر، لحسن حظه أو بواسطة نفوذ أمه، أن حاكم «البنجاب» «يسعده أن يضمه» إلى مؤسسته. ويزعم أن الخدمة في «البنجاب» محجوزة للمرشحين من أصحاب النفوذ أو الروابط العائلية؛ فالحياة العائلية هناك أكثر سعادة منها في أي مكان آخر، والفضل يعود إلى المناخ الجيد، والمشاهد المتنوعة، والسهول الخصبة، والأنهار الضخمة، والتلال والجبال مغطاة بثلوج دائمة، وتنوع الطيور وحيوانات الصيد التي تعدّ جانباً آخر في أفضلية البنجاب.

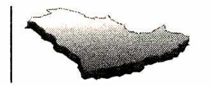
تصادف وصول «فيلبي» إلى الهند مع وجود أفكار جديدة في قمة الهرم الوظيفي البريطاني، فقد خلف «لورد منتو» «كرزون» نائباً للملك في الهند سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥م)، وقد اختارته حكومة المحافظين، ولكنه قرر بحس ذكي، أن تحسين أوضاع الهند يعتمد على تعاونه مع حزب الأحرار، والأفراد الذين قضوا وقتاً في الإدارة الهندية في لندن تحت إشراف «كامبل - بنرمان» في سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥م)، واتفق مع وزير الخارجية «جون مورلي»: «لكي نتكلم بصراحة، كل شيء يعتمد على

أن نكون على وفاق». وفي الوقت الذي هبط فيه فيلبي أرض الهند سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨م)، كان «منتو» قد أرسل الرسائل إلى زملائه بأنه قد عين هندياً في مكتب الشورى، وأبعد الأغلبية الرسمية (البريطانية)، ليس فقط في مكاتب شورى الأقاليم، بل في الإدارة الرئيسة ـ المنتخبة جزئياً ـ التي تدير الهند البريطانية.

أصيب كثير من مرؤوسيه بالرعب، ولكن في النهاية اقتصر التغيير على مستوى الأقاليم فقط، وحين نشرت إصلاحات «مورلي ـ مونتو» سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩م) زادت من عدد الممثلين الهنود في الحكومة، وتبع هذه الإصلاحات سنة ١٣٢٨ (١٩١٠م) سلسلة من المحاولات المتطرفة للاعتداء على أرواح البريطانيين، بجرائم من النوع المناسب ليصبح ثمناً للاستعمار، حين يتحد الطموح الوطني مع وخزات الضمير الحر في السلطة الإمبراطورية.

كان العرف الاجتماعي، تمييزاً له من السياسة، هو الذي يتحكم بالمرأة الإنجليزية هنا (الخاتون) التي وصفها كبلنج منذ عشرين سنة في كتابه «حكايات صريحة من التلال». لا أحد يفكر في تناقض النظام الهندي المغلق والمستهجن، بينما يحافظ هو على نظام اجتماعي مغلق خاص به، ولدهشة «فيلبي»، حين أُخذ إلى نادي «جيمخانا» في أحد أيامه الأولى في «لاهور»، اقتربت منه سيدة لطيفة لكنها سطحية، لتسأله كيف استطاع أن يتدبر أمر اختياره في «البنجاب» دونما واسطة، والتي في رأيها هي السبب في اختيار باقي مجموعته.

كانت مشقة وصوله ستنهك شاباً أكثر منه خشونة، وصل إلى «بومباي» مع زميله «جيرارد يونج» في الثامن من ذي القعدة ١٣٢٦ (الثاني من ديسمبر ١٩٠٨م)، ليعلما أن عليهما أن يقدما نفسيهما حالاً في «لاهور»، فركبا قطاراً في المساء استغرقت رحلته يومين وليلتين، وبعد يوم مغبر من نفث الدخان عبر أرض ريفية مسطحة قليلة الخضرة، خلدا إلى النوم، وفي الليلة التالية، عند «أمبالا» اصطدمت مقدمة القطار بالإكسبريس السريع المتجه جنوباً، فأيقظ التصادم الجميع عدا «فيلبي». عند بزوغ النهار، قام الاثنان المرعوبان مما رأيا وسمعا بعمل ما يستطيعان لانتزاع القتلى والجرحى الهنود من شظايا العربة التي في المقدمة، وبعد اثنتي عشرة ساعة، كانا في المقر الفخم للإدارة الحكومية في «لاهور»، وانزعجا من وجود



المبجلين «سير لويس» و«الليدي دين»، فقد فقدا أمتعتهما في حادث التصادم، وكانت ملابسهما غير ملائمة.

خففت عنهما «الليدي دين»، وقدِّما إلى عالم جديد من عروض الفروسية العامة، ولعبة البولو، ونوادٍ لا يستطيع أي هندي أن يدخلها إلا خادماً.

مكث «يونج» في «لاهور»، أما «فيلبي» فقد أُرسل على الفور إلى منطقة «جيلوم» شمالاً، حيث الحياة أرخص، عند نهاية بعض الجبال التي تسمى «سولت رينج»، والتي تطل على مشهد رائع لثلوج «كشمير».

كانت السلطات القضائية والتنفيذية المرهوبة التي يمنحها الجهاز الحكومي الهندي لشباب في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين موصوفة جيداً في كتاب لأحد الأسلاف المباشرين لفيلبي في البنجاب وهو «مالكولم دارلنج»[١]. مضت ستة أشهر في امتحانات تمهيدية في اللغة الأوردية، والإجراءات المالية والإيرادات، بحيث أصبح القادم الجديد مع أحد المساعدين الهنود ضليعاً في الموضوعات السابقة، وترأس محكمة قضاء محلي(Kutcherry)، ولديه السلطة للحكم بالسجن لمدة ستة أشهر، وخلال سنتين سيكون بوسعه سجن مذنب لمدة سنتين، والأمر بالجلد، وأن يسجن شخصاً أوروبياً ثلاثة أشهر.

بدأ، وبمساعدة أحد الهنود المطيعين، بتحديد مقدار الضريبة المفروضة على هذا المحصول، أو ذاك للرجال المسؤولين في القرى، مع سلطته بإلغائها إذا خاب المحصول. هذه الدرجة من المسؤولية لم تكن تتناسب مع الأجر الذي يبدأ به الشاب، نحو ٤٠٠ روبية (أقل من ثلاثين جنيهاً إسترلينياً) في الشهر، لكن الحياة كانت رخيصة، وقد كتب دارلنج: «حتى في لاهور، استطعت الحياة بمرتبي مادمت أمتلك حصاناً واحداً ولا ألعب البولو». في هذه المناطق، كانت أجرة المنزل من طابق واحد تعادل جنيهاً إسترلينياً في الشهر، والطعام أربعة جنيهات، وأما في «جيلوم»

---

(١) «مالكوم دارلنج»، «Apprentice to Power»: الهند ١٣٢٢-١٣٢٦(١٩٠٤-١٩٠٨م)، لندن ١٣٨٦(١٩٦٦م).

و«سولت رينج» وضواحيها التي انتقل إليها «فيلبي» سريعاً، فكان يوفر من مرتبه ليرسل لأمه، وقد أعطى تعليمات للبنك باقتطاع مبلغ كبير وإرساله لها شهرياً.

اكتسب «فيلبي» في «سولت رينج» وحولها، سمعة بنهمه للعمل، ولم يذهب ذلك هدراً، وبعد خمسة أشهر هناك فقط، اجتاز الامتحان الأعلى في اللغة الأوردية بتفوق. كان دائماً سعيداً بتغير نمط الحياة، يتنقل من عالم إلى آخر، من الثرثرة مع الفلاحين والموظفين الهنود، إلى الملاّ (Maulvi) الذي درَّسه تعاليم المسلمين، والزملاء الهنود وزوجاتهم، وقام بأول تجربة بتناول «طعام هندي تماماً»، تبع ذلك عرض لصراع الكلاب لتمضية الوقت. في الرسالة التالية أخبرها أنه يطوف «سولت رينج» مع رئيسه، بطريقة تتطلب إرسال خيم إضافية مسبقاً كل ليلة لتكون جاهزة لليلة التالية، مع خدم يحزمون الأمتعة ويعدون أدوات المائدة للعشاء في المخيم. وفي أوقات الفراغ، يصطادون البط النهري الصغير والظباء الهندية البنية اللون التي تعج بها منطقة «سولت رينج»، أو يتجول ليشاهد الحياة المحلية، فقد كان أقل لا مبالاة من رفيقه بما يفعله الهنود. ولم ينس قط احتفالاً رآه قرب «شواسودان شاه» في القرية الرئيسة هناك، وهي جنة من الأزهار في الربيع، حيث ذهب إلى تلة قريبة تشرف على بركة ماء، ويوجد هناك معبد هندوسي يزوره الناس ويستحمون فيه أيام الأعياد. وكان محظوظاً أن شاهد ذلك المنظر في أروع تجلياته، موكب طويل من الفقراء العراة يدورون حول المعبد بعد خروجهم من الماء.

انتقل ثانية إلى «جيلوم»، واشترى فرسين صغيرين ومصيدة، وتعلَّم ألعاب الورق، ولعب الكريكيت مع أولاد المدرسة الهندية المحلية. وُعدَّ زميله «مالكولم دارلنج» متحرراً جداً، لذكره كثيراً إمكانية الحكم الذاتي للهند، وحين شرح آراءه لضباط الفرقة العسكرية الذين كان يقضي وقت فراغه معهم، لقبوه على الفور بـ«الرابع عشر من يوليو»، لم يبال بإزعاجهم وتمسك بآرائه.

انتقل في شعبان ١٣٢٧ (سبتمبر ١٩٠٩م) إلى حياة مدنية نسبياً في «راولبندي»، التي كانت نسخة محلية من «الدرشوت»، وحولها كانت مجاري المياه العميقة تقطع السهول الخضراء بالقمح في الربيع، وتصلح موقعاً ممتازاً لإجراء مناورات الجيش في الخريف والشتاء، وكانت مهولة نتيجة استخدام البريطانيين للأرض الخصبة.



كُلِّف «فيلبي» في شتاء ١٣٢٧ (١٩٠٩م) بالعمل على تقدير الخسائر في المحاصيل، وكان سعيداً بالخروج مبكراً كل صباح في البرد المنعش، يخب فوق ما تبقى من الزرع بعد الحصاد باحثاً عن آثار مرور الجيش، ثم يقضي بقية اليوم يساوم المسؤولين في القرى على التعويضات، كان يركب من قرية إلى قرية طوال الطريق على نهر السند مفكراً كيف تدبر الإسكندر الأكبر جيشه عبر النهر، وكان على استعداد دائم للحديث.

التقط اللغة البنجابية بسرعة حتى إنه اجتاز أول امتحان رسمي فيها خلال سنة من وصوله إلى الهند. وفَّر له العمل الشاق وإمكانياته أيضاً الحصول على ٥٠٠ روبية لاجتيازه امتحان المهارة في اللغة الأوردية في ربيع الأول ١٣٢٨ (مارس ١٩١٠م). ولقد كتب رؤساؤه في تقاريرهم أنه «فوق المتوسط»، وليس في اللغات وحدها، بل كتب في أحد التقارير الفصل الخاص بـ«راولبندي» حول الماشية ومنتجات الألبان في البنجاب، وقام بعمل واعد بمراجعة وإكمال كتيب في القانون المحلي[١].

نال إعجاب كل شخص حين عُين سكرتيراً للجنة التي تمتحن الآخرين في لغات الإقليم، والتي تعني مراقبته لرجال أكبر منه بكثير، وكتب إلى «ماي» في إحدى رسائله الأسبوعية الطويلة، أنه يفضل المهمات خارج «راولبندي»، ففيها: «لا يملك المرء أي فرصة للعمل وسط الناس».

كان سعيداً لسببين، حين عُيّن في جمادى الأولى ١٣٢٨ (مايو ١٩١٠م) ضابطاً مؤقتاً لمنطقة فرعية في «سارجودا» في السهول الحارة جنوب «سولت رينج»، وأصبح المسؤول الأول عن هذا القسم الفرعي في البنجاب، وكتب إلى أمه متهللاً حول السلطات غير المقيدة التي لم يتمتع بها منذ «وستمنستر» (مع أن رئيسه مسؤول المنطقة لا يبعد أكثر من عشرين ميلاً في شاهبور)، والسبب الثاني للسعادة، أنه بقيامه بالعمل في وظيفة أعلى، يحصل على مرتبها الأعلى ـ القيام بعمل موظف كبير في أثناء غيابه، كان أمراً مرحباً به من الشباب الصغار الواعدين،

---

(١) «جي أم دونيت» و «هـ.ب. فيلبي: «The Customary Law of th Rawalpindi District»، لاهور. مطبوعات الجريدة الرسمية المدنية والعسكرية ١٣٢٨(١٩١٠م).

ليس فقط بسبب الإجازة التي نالها، بل أيضاً الأسابيع الستة أو الثمانية التي يستغرقها ذهابه وعودته.

استمتع «فيلبي» بالحياة خارج أوقات العمل، فلاهور كانت مشهورة بمباهجها في أسبوع أعياد الميلاد، وجرَّب ذلك في عيد الميلاد سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩م). سافر إلى هناك من «جيلوم» في قطار حيث يميلون من النوافذ عند كل محطة، ليروا الواقفين هناك من أجل الدفء على الرصيف البارد، ويطلقوا التحيات للأصدقاء الذين يحملون «مضارب الكرة، وحزم عصي البولو، ومقابض الكريكيت الغالية»، كما وصفها كبلنج في «وليم الفاتح».

كان النادي في «راولبندي» منطقة متعة أخرى، إذ لعب الكريكيت في ملاعبه الخضراء، ومارس الرقص في صالته، وفي إحدى هذه الرقصات قابل الآنسة «دورا جونستون»، التي كانت ذات جمال أخاذ، بشعرها الأحمر المنسق، وصحبتها الجميلة، وإجادتها لعب التنس، حتى إنها كانت تُدعى في كل مكان، وتختار من شباب الفرق العسكرية الرائعة الذين هم خلاصة مجتمع «راولبندي» ـ فرقة الفرسان أو «شباب المجد أو الموت». (على الرغم من أن أباها، أدريان هوب جونستون مهندس سكك حديدية كبير إلا أنه ليس من علية البريطانيين).

أصاب «ماي» القلق حين كتب إليها «فيلبي» في صفر ١٣٢٨ (فبراير ١٩١٠م): «الآنسة جونسون إحدى حسناوات «بندي»، راقصة جميلة شرفتني بالرقص معها عدة مرات في الأوقات التي استطعت حضورها... لا تلعب البريدج ولا تدخن ولم أسمعها قط تتكلم عن أحد بما يسيء إليه». كانت تعرف أنه سريع التأثر، ويستمتع بالتخلي عن الآخرين، ولا يستطيع أن يتحمل خطوبة فما بالك بالزواج، وذلك إذا أراد أن يجيد في عمله، ويخصص لها مبلغاً من النقود وينتهي الموضوع. ولكن حين أُخبرت بعد شهرين، أنه دعا دورا وأمها للعشاء في بيته، وأنه خطبها، احتجت بقوة. وهنا بدأت على المدى الطويل والخطى البطيئة للبريد البحري أول مشاجرة جادة بينها وبين ابنها «جاك» في حياتهما. ولم تتأثر بتأكيده أن المبلغ الذي يرسله إليها سيستمر، وأنه يمكنه أن يقترض ليجعلها لا تحتاج إلى أحد من التجار. كان تقدمه في عمله هو الذي في ذهنها، وهي أيضاً قد شكّت في أنه كان يقترض على



مسؤوليته، وكان ذلك صحيحاً، ولم تشعر بالراحة من تأكيداته بأن كل واحد يفعل ذلك، وأن ائتمان الخدمة جيد حتى إنه أحياناً يحصل على فائدة على القرض مجاناً.

كانت السلطات بجميع أنواعها في الهند، من الجهاز الحكومي إلى الجيش، ومن البنوك وشركات الأعمال، تستنكر الزواج لتكاليفه العالية في السنوات الثلاث أو حتى الخمس الأولى من الخدمة، وبعضها يمنعه، أما الجهاز الحكومي فهو لا يشجعه. وقامت أولى مناوشة بينه وبين رؤسائه حين أعلن خطبته، متجاهلاً عطف السير لويس دين في البداية، فقد ظل يحمل حقداً ضده طوال حياته لمعارضته الزواج بعد أقل من سنتين من الخدمة. وبما أن قوة السلطات ليست مطلقة، فقد مضى في خططه لإقامة حفل الزفاف في سنة ١٣٢٨ (١٩١٠م).

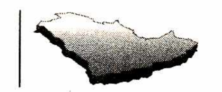
تغير رضا السلطات عن كدّه في عمله بسبب هذا التحدي، وقبل موعد الزفاف أصابت سمعته وصمة كبيرة أخرى خاصة بالعمل؛ كان موظفو المناطق في باكستان يتوقعون أن يقضوا على الأقل عشرة أيام من الشهر في جولة رسمية (كانوا يسافرون في عربة، ومعهم أوراق عمل أكثر من فيلبي، وظن بعضهم أن الحصة غير مناسبة، واعتقد هو أنها قليلة)، وفي الجولة في «جيلوم» وصل إلى مدينة أغلبها من المسلمين تسمى «البهيرة» ليجد، في حفل زفاف أقيم هناك بين عائلتين مرموقتين من الفرقة الأحمدية المحلية القوية، أن شحاذاً هندوسياً قد دخل طالباً الصدقة، وضُرب حتى الموت، وقد أمر فيلبي الذي كان في الخامسة والعشرين ومسؤولاً قضائياً أولياً في قضية يُشتبه أنها قتل، بتشريح الجثة، وقام طبيب محلي مسلم - مساعد جراح - ويساعده خادم على ذلك، وجاء تقرير الجراح أن الشحاذ الفقير كان يعاني تضخم الطحال، ويمكن أن تقتله «مجرد دفعة». لم يقتنع «فيلبي» بالتقرير، وكذلك قائد البوليس المحلي، وشرعا في القضية بحماسة، وطلبا أن يقدم الرجل الذي دفع الفقير للمحاكمة - في الجلسة القادمة في محكمة الإقليم - بتهمة القتل. وفي الوقت نفسه شك في أن الجراح المسلم قد أخذ رشوة ليقدم دليلاً كاذباً، وحصل على أمر من المسؤول الطبي البريطاني بإيقاف الجراح مؤقتاً عن العمل. فاستشاط مسلمو «البهيرة» غضباً، وابتهج الهندوس. ولم يقتنع القاضي في المحكمة بالدليل، وطلب مواصلة التحقيق.

دُفن القتيل في منتصف أغسطس، والتشريح الجديد للجثة في أوائل سبتمبر كان عملاً مروعاً في أكثر الأوقات حرارة من السنة، لكن قام بذلك جراح إنجليزي بحضور «فيلبي». وجد هذا الجراح ـ واسمه جودواين ـ أن الطحال طبيعي، واقتطع منه جزءاً ليتأكد من سلامته، واتهم «فيلبي» ـ الذي برئت ساحته ـ الجراح المسلم والخادم باليمين الكاذبة، وأمر بأن يوضعا في السجن في انتظار قاضي المنطقة لمحاكمتهما، ورفض إطلاق سراحهما بكفالة، وهنا كانت غلطته، فحسب القانون فإن تهمة شهادة الزور يمكن إطلاق مرتكبها بكفالة.

أسرع إلى محطة السكة الحديدية مباشرة (فقد كان في طريقه إلى «موري» من أجل زفافه) وسمع بطلب الكفالة وهو في المحطة، فرفضه. وبينما هو يقفز في القطار، لا يعلم أحد هل تم إخباره أم لا بأنه ليس لدى البوليس سوى قيد واحد، وهكذا قيد الطبيب والخادم معاً واقتادوهما في عربة مكشوفة إلى «سارجودا» ليراهما الجميع. بعد ذلك، ودون معرفة «فيلبي»، أُجبرا على السير مسافة عشرين ميلاً على الأقدام من «سارجودا» إلى مقر قيادة المنطقة في «شاهبور» (حيث يعرف القائد هناك القانون أفضل من فيلبي، ووافق على الكفالة). وسواءٌ أعرف فيلبي أم لم يعرف ما حدث عند مغادرته المحطة، فقد كان مخطئاً برفض الكفالة، وهكذا كان عليه أن يتحمل اللوم على الضجة التي تبعت ذلك في الصحف الهندية، وأسمتها «هياج سارجودا»، كما كتبت إحدى الصحف: «لا توجد عقوبة تشتمل على تعذيب نفسي لا يوصف أكبر مما حدث لسيد هندي ـ الطبيب ـ مهما كانت سقطته».

قامت السلطات بجهد شاق لتهدئة الأوضاع، وأخيراً برأت مساعد الجراح على أساس أن قطع الطحال الذي قام به الجراح الإنجليزي قد دمر الدليل الضروري للقضية، وعوقب «فيلبي» بحرمانه من القيام بمسؤولية القيادة في منطقة فرعية «حتى يثبت صلاحيته لذلك»، وكانت هذه ضربة مالية خطيرة لشخصٍ متزوج حديثاً.

لم يطبق ذلك على الفور لحسن الحظ، وأسرع فيلبي إلى «موري» من أجل زفافه، وأقيم الاحتفال في العشرين من سبتمبر «بجوقة كاملة» في كنيسة موري القوطية الفكتورية، وكانت شقيقتا «دورا» وصيفتين للعروس، وبما أن توم ـ شقيق فيلبي ـ كان في البحر، فإن ابن عمه من بعيد «الليوتينانت برنارد مونتجمري» كان على رأس



الذين شرفوا الحفل، وبعد أسبوع عسل أمضياه في «شانجلا جالي»؛ وهي منطقة مرتفعة مشهورة، عادا إلى «سارجودا» حيث كانت هناك عربة مزينة بالورود والياسمين، أعدّها أنصاره من الهندوس.

أعقل قرار اتخذه «فيلبي» في حياته كلها، أنه تزوج من «دورا جونستون»، ولكن «ماي» - التي أصبحت بعد ذلك النصيرة المحبة لدورا - استرضيت ببطء عن الزواج الذي أخفقت في منعه، وكان أحد أسباب قلقها النقود، وسبب آخر هو ارتيابها مما سمعته من بعض الأقارب المتكبرين عن مكانة دورا الاجتماعية، فهي لا تريد أن يعرقل شيء ما طريق «جاك» إلى أعلى المراتب، وقد بدّد هذه السحب، فوالد دورا، مع أنه في إدارة إقليم البنجاب الهندوسية، إلا أنه قرب قمتها الوظيفية، ومن أصل اسكوتلندي طيب. وجدها ألكسندر جونستون كان رساماً فيكتورياً محبوباً، وكانت رسوماته للمشاهد الدينية والتاريخية تعرض في الأكاديمية، لوحته «فلورا ماكدونالد» علقتها الملكة فيكتوريا في «بالمورال»، وشقيقها الذي توفي كان موسيقياً جيداً. ولم يذكر شيئاً عن «والدة دورا» التي ولدت في «أوكوتور»، سوى أنها نشأت في الهند، وأن دورا جاءت إليه بدم إيرلندي. وأكد لـ«ماي» أن مخصصاتها المالية ستستمر، لكنه علم، مع ذلك، أنها في ضائقة، فقد وجد في انتظاره عند عودته من أسبوع العسل مع دورا، برقية تطلب منه نقوداً، واقترض ليرسلها لها.

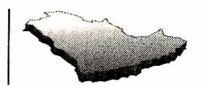
استمر خلال أربع سنوات سيل متواصل من الرسائل والنزاعات حول النقود، وكان دائماً يتيه طرباً، فقد كتب إلى أمه سنة ١٣٢٩ (١٩١١م): «لو حالفني الحظ أن أنال وظيفة المسؤول عن «ملتان» في هذا الجو الحار لابتسم الحظ لنا»، لكن لم توافق السلطات على عرضه بسبب ماردده دوائر لاهور عن حادثة «سارجودا». ولم يتوقف حبه واحترامه لأمه مع الرسائل المتزايدة لطلب النقود، فقد واجهت صعاباً كثيرة حتى ربّت أربعة أولاد سعداء. وكما كتب وهو في الهند عند وفاة والده سنة ١٣٣١ (١٩١٣م): «لا أعرف قصة كقصتك.. بالطريقة التي واجهتِ بها العالم مع أربعة أطفال جوعى، وجعلتِ منهم رجالاً بطريقة رائعة، وأنت تعرفين تماماً أنه لا أحد يعرفك جيداً، ويعجب بك ويحبك أكثر مني، وإنه حظي فقط الذي جعلني الأكثر شجاراً معك، لكن في النهاية فقد ورثت عقليتك، وبهذه العقلية وبطبيعتك الخاصة، أنت تعرفين أن كلينا صامد كالصخور».

هدد الدائن والدته بالحبس في نهاية سنة ١٣٢٩ (١٩١١م) بسبب عدم فك الرهن، وصمم «فيلبي» أن يشرف على حساباتها ويتولى أمر الدين، وأقنعها ببيع «جوينز جيت»، وأن تضع أثاث البيت عند أمها في «كامبرلي»، وتقبل دعوته بالمجيء إلى الهند؛ لأن لها ثلاثة أولاد هناك الآن؛ «بادي» الذي كان نائب ملازم في «أحمدي جار» في إقليم «بومباي»، وسفينة «توم» كانت ترسو في «بومباي».

وقابلها «جاك فيلبي» في «دلهي» حين وصلت في ذي الحجة ١٣٢٩ (ديسمبر ١٩١١م)، في الوقت المناسب تماماً لحضور احتفالات استقبال الملك الجديد جورج الخامس.

وبالأخذ في الحسبان المسافات الكبيرة التي قطعاها، وكم الترحال الذي قام به مع زوجته «دورا» في السنة الأولى من زواجهما، لا يملك المرء إلا الإعجاب بقوة تحملهما، فقد غادر «سارجودا» لتدريبه القضائي في «ملتان» ـ أكثر الأماكن حرارة في العالم وفي البلاد ـ وتعلم هناك اللغة البلوشية في ستة أسابيع، وحين نجح في الامتحان الذي أقامه الإقليم في هذه اللغة، كوفئ بـ ٥٠٠ روبية. في أبريل كان في «لاهور» مراقباً في لجنة الممتحنين، وفي مايو، ذهبت «دورا» إلى أمها في «راولبندي» لعدم قدرته على تحمل نفقات بيت جبلي، وفي يونيو علمت بفرح أنها حامل، فأسرع إلى «موري» لرؤيتها، وفي يوليو أصبح مؤقتاً نائب المسؤول عن منطقة «راجانبور» في الصحراء فيما وراء نهر السند ـ البرية الموحشة الملأى بالشجيرات العشبية الصغيرة والأعشاب الشوكية، ودرجة حرارتها أجبرته على القيام بكل الأعمال الخارجية قبل العاشرة صباحاً أو بعد الخامسة مساءً ـ كان ما يجذبه إلى ذلك النقود الجيدة، فقد أخذ عملاً إضافياً في عاصمة الإقليم «ديرا غازي خان» مشرفاً على بناء بلدة جديدة؛ لأن البلدة القديمة دمرها فيضان النهر: «كنا دائماً نحصل على بعض النقود بالعمل في الجو الحار». وعاد ليلتحق بـ«دورا» في «كشمير» في إجازة طويلة لمدة شهر في أغسطس، مسافراً في المرحلة الأخيرة في الطريق إلى «ستراناجار» في عربة غير مريحة.

عادا إلى «ديرا غازي خان» في سبتمبر، وكان نهر السند في أوج فيضانه يغطي ستة أميال عرضاً، ويوماً بعد يوم، كانا يراقبان ويلتقطان الصور للنهر الذي يدمر الشجر



والأسواق والمعابد، والمدينة القديمة تتحطم قطعة قطعة في المياه المزمجرة، وأخيراً، وفي نهاية سبتمبر حل طقس معتدل، وكان على «فيلبي» أن يقوم بمهمة في «أمبالا» كمساعد لجمع إيرادات الدولة في منطقة جميلة قرب حدود الأقاليم المتحدة، في ظروف قحط تمر بها البلاد وتهديد بالمجاعة. رحب بهذا العمل هروباً من العمل القضائي المدني المتعلق بالمجرمين «الذي أثار اشمئزازه».

كان البيت الصغير (البانجالو) الذي يقيمان به في «أمبالا» متداعياً، لكن «دورا» جعلت منه مكاناً لطيفاً، وقد ولد فيه أول أولادهما في المحرم ١٣٣١ (يوم رأس السنة ١٩١٢م) ولقب باسم كيم كبلنج، وقضيا هناك أربعة عشر شهراً - أطول من أي وظيفة أخرى - وأحبا المكان، فالثكنات العسكرية في «أمبالا» كانت تفيض بالمرح، فيها كثير من ملاعب الكريكيت التي يحبها «جاك» وملاعب التنس لدورا. كان العمل قليلاً، وهناك الكثير من الوقت يقضيانه في القرى.

أقاما في سنة ١٣٣٠ (١٩١١م) حفلاً عائلياً، وانضمت إليهم «ماي» بعد حضور حفل الاستقبال، وجاء «بادي» من «أحمدي جار» ليقابل دورا.

لقي عمل «فيلبي» الاستحسان كالعادة، لكن حاجته إلى النقود كانت لا تنتهي، ولذا تابع دراسة اللغات، بالليل إذا لم يمكنه ذلك بالنهار، للحصول على الجوائز المادية التي يحصل عليها عند الامتحان - وهي جوائز تكون أكبر إذا كانت اللغة نادرة ومستوى التحصيل عالياً - وقد بدأ دراسة اللغة العربية: «إذا حصلت فيها على مرتبة الشرف فسأنال أكثر من ٣٠٠ جنيه، وسيرحب بي في الدائرة السياسية مع أني متزوج..»، كانت عينه منذ البداية على هذه الدائرة، ليس فقط للشرف الذي تمثله، بل لأنها توفر وظائف في إيران والخليج العربي وبلاد الرافدين، وهو يرحب بالخدمة في أي منها. كان عظيماً في بناء قصور في الهواء، إن الذين يحذقون اللغات استفادوا مالياً بدرجة كبيرة، فقد كسب فيلبي بين سنتي ١٣٣٠ و١٣٣٤ (١٩١١ و١٩١٥م) أكثر من عشرة آلاف روبية لنتائجه الرائعة في امتحانات اللغات، كل التقارير عنه كانت حماسية وجيدة، ما عدا أمراً واحداً سنتحدث عنه.

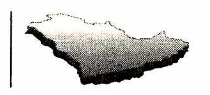
طلب منه أن يتقدم إلى عمل في الإدارة المالية للحكومة المركزية، لكن ذلك لم يلق

ترحيباً منه، وبعد عملية عرفت باسم: «تدريب على المشروعات» ـ الاستعداد لشق قناة كبيرة من مجموعة القنوات في السهول التي كانت أعظم عطايا الحكومة البريطانية للبنجاب ـ وقيل: «إن لديه دليلاً واضحاً على امتلاكه ميزات الموظف الكفء لهذه المشروعات»، لكن أياً من هذه الامتيازات لم تجلب له العمل الذي يرغب فيه ويشعر أنه يستحقه، وبدأ يعبر عن ضيقه من نكران حكومة البنجاب لمواهبه، وعزا اختياره لوظائف من الدرجة الثانية إلى الحقد ـ الذي تخيل ـ أن «السير لويس دين» يحمله له بسبب زواجه، أو بسبب قلة نفوذه، أو عدم قدرته على تحمّل نفقات لعبة البولو وتكوين صداقات مع الخاصة، وعزّى نفسه بفكرة أنه ينسجم بشكل أفضل مع الهنود أفضل من أي واحد من رواد النوادي في «لاهور». فالاختلاط بهم اجتماعياً كان أصعب بالنسبة إلى المتزوج منه إلى الأعزب.

حين تكون «دورا» معه، نادراً ما يطلب منهم الحضور إلى منزله، فهي قد جاءت من وسط يرى أن صحبتهم في الحفلات أمر سيّئ وغير ضروري، لكن إذا لم تكن موجودة فإنه يمارس المبادئ التي تمسك بها منذ كان في «كامبرديج»، عبر عن اشمئزازه من التمييز العنصري بإدانته حملة من أجل مرشح لاتحاد الطلبة قامت خصيصاً من أجل إبعاد هندي عن كرسي نائب الرئيس. والآن، إذا كان وحده في البيت، فغالباً ما يدعو بعض الهنود من زملائه لصحبته.

وفي سنة ١٣٣٢ (١٩١٤م) في «ليلابور» حين شاركه في السكن «رام شاندرا»، قدم ضيفه إلى عضوية النادي، وقاوم غضب الأعضاء الذين هددوا بألا يصوتوا لعضوية أي هندي، ولكنه كسب حين أعلن أنه سيستقيل من النادي إذا لم ينتخب «رام شاندرا».

أوصت لجنة «اسيلنجتون» في سنة ١٣٣١ (١٩١٣م) بحق دخول أعداد أكثر من الهنود في الجهاز الحكومي، فكتب في رسالة إلى الوطن أن هذا التغيير ليس عادلاً فقط، بل إنه سيقلل مجال المحاباة: «إنه لغز ألا نفضل جميعاً الاشتراكية، إن بريطانيا دولة غبية ومحافظة ولا ترعى الحق، ترى أن العقلانيين مجانين وخلافيون وعموماً لا يطاقون».



وحاول مؤخراً، لكن عبثاً، أن يزيد من مرتبات الشرطة كي يقلل من ميلهم الطبيعي إلى الرشوة، وكان يشعر بالمرارة من العاملين بكد وجهد لدى كبار الملاك الذين لا يتأثرون بآراء الموظفين الصغار الذين عرفوا الحياة الهندية عن قرب. وأحياناً، كانت آراؤه في المساواة بين الأعراق، تعود بالجدوى عليه، وفي أثناء خدمته في إقليم «أمبالا» سنة ١٣٣٠ (١٩١٢م)، كان يسير صباح يوم حار في مايو في مكان يسمى «جاكادري»، فقابل مجموعة من أولاد المدارس يسيرون صفاً واحداً في زقاق ضيق، وكان مدرسهم وقحاً معه، فلكمه على أذنه، وأدرك على الفور أنه أخطأ، فكتب مذكرة بالحادثة إلى مفوض منطقته، الذي أرسل إلى الهندي المعني، وأنهى المسألة ودياً، والفضل له للسرعة التي أبلغ فيها عن الموضوع، وقد أخذ المفوض في الحسبان العلاقات الممتازة عادة بين فيلبي والهنود، وأدرك أن اللكمة المندفعة الغبية التي قام بها لم تكن من صفاته.

كانت الهند في سنة ١٣٣٠ (١٩١٢م) مثل علبة كبريت، وأي هفوة من جانب أحد الإنجليز كافية لإشعال اللهب، فاستغل شخص ما في البلدة الحادثة التي تناسب تماماً الصحافة المحلية، وأرسل بالحكاية تحت اسم مستعار إلى حاكم البنجاب، فاتخذ الحاكم «سير لويس دين» موقفاً جاداً من هذه الجنحة، وخصوصاً أن هناك نقطتين سوداوين سابقتين في سجل «فيلبي»، واقترح بتخفيض درجتين دائمتين من سلسلة درجات الترقي إلى قمة الهرم الوظيفي. وكان ذلك يعرقل عمل الحكومة في الهند، ولأن عدم الترقي دائماً عقوبة صارمة، فقد أوصى بدلاً من ذلك أن توقف ترقيته سنتين(١).

كانت نتائج هذه العقوبة القصيرة والسريعة وخيمة على «فيلبي»، فهو الآن مثقل بالديون - بعضها عليه والكثير منها على «ماي»، وعرف أنه لن يستطيع تدبير أموره إذا كان القرار يشمل القيام بأعمال الإنابة وأيضاً الدرجة المادية. وحين اكتشف في نهاية سنة ١٣٣١ (١٩١٣م) أن الإدارة المالية قد وضعت القرار موضع التنفيذ، أصابه الإحباط، وشرح وضعه المالي بأكمله إلى رئيس الإدارة في حكومة البنجاب، وكان من

---

(١) التقارير والملاحظات حول صنائع «فيلبي» والموجودة في سجلات الأمانة المدنية لحكومة البنجاب، مكتب السجل العام، لاهور، الملف ب.ف.(1913)1331 Home / Fazette .

رأي هذا الموظف الرسمي أن الرجال الجيدين يؤدون أعمالهم بشكل سيئ إذا كان لديهم مشكلات مالية. وأدى له هذا الموظف «بارون» عدة خدمات جيدة. وبناء على نصيحته طلب مقابلة شخصية مع «سير لويس دين». ولابد أن «فيلبي» كان مقتنعاً، فقد اقترح «دين» حكماً متوسطاً بالنقل إلى «سملا»، لكن حكومة الهند، التي تمتلك الحكم النهائي، أصرت على إيقاف أي ترقيه له لمدة سنة.

لم يتوقف فيلبي عن متابعة القضية التي يعتقد أنها عادلة. وحسب قواعد الجهاز الحكومي الهندي فإن الموظف لـه الحق مرة واحدة في حياته أن يقدم مذكرة إلى نائب الملك إذا ظن أن رؤساءه أخطؤوا في حقه. وحين فكر فيلبي في الأمر ملياً، قرر أن هذه اللحظة قد حانت. المسودة الأولى من المذكرة التي رفعها والتي بقيت بين أوراقه، كانت غير حكيمة، وتبين كم كان غضبه لما يراه عقوبة متراكمة لثلاثة أخطاء من فئات مختلفة ـ الزواج ضد رغبة السلطة، عدم الخبرة بقانون العقوبات الهندي، والغلطة التي اعترف بها وحده والأسوأ: ضرب هندي!

وقبل أن ترسل النسخة الأخيرة من عريضته إلى نائب الملك، قامت يد حكيمة بتهذيبها، وربما يكون «بارون»، وأزالت الزيادات التي تتحدث عن التحيز الشخصي ضده من نائب الحاكم. إن استياء فيلبي وانزعاجه من قلة النقود جعلا منطقه معوجاً، وإن إرسال نائب الحاكم لهذه المذكرة، تضر بحديث فيلبي مهما كان ملتوياً، عن أحقاد سنة ١٣٢٨ (١٩١٠م) ـ معارضة زواجه المبكر وتحيزه إلى مسلمي البهيرة التي لا يزال يهتم بها «سير لويس دين».

في النص الأخير لمذكرة فيلبي: «يأسف بشدة، ولم يتوقف عن الندم لأعماله المتسرعة، لكنه يريد أن يوضح بتواضع أن الظروف التي وجد نفسه فيها لا محالة تسبب فقداناً مفاجئاً للأعصاب، ومع ذلك لا عذر للنتائج التي ترتبت على ذلك».

استرسل بأنه يعمل بالمنطقة الحارة الرابعة، وأن عمله ـ ضربه للهندي ـ ليس إشارة إلى موقفه العام من الهنود. وهذا الرأي الأخير كان معروفاً أنه حقيقي، وحين أرسل «دين» المذكرة، كتب في الخطاب المرافق أن: «اللين قد يوضع في مكان ليس أهلاً له». ومرة أخرى ثقل حركة الآلية الحكومية أخذت وقتها لتصدر حكماً، بعد أكثر من



سنة من التداول، عرف فيلبي أن فترة وقف ترقياته قُلّصت إلى تسعة أشهر، وكانت قد مرت تقريباً، ولقد سجل «بارون» الطيب: «لقد كان محظوظاً ليخرج منها بهذا الحكم المخفف».

كانت الحياة في «أمبالا» بعيداً عن هذا القلق سارة ومتنوعة، والجزء الأقصى الشرقي من البنجاب هو مدخلها الأقرب إلى الأدغال حيث الفرص لصيد النمور والفهود، وقد دعاه أحد أصدقائه الهنود إلى الصيد، واستلزم الأمر السير في رتل واحد في ممر الغابة، وقد سُرَّ حين قال له المضيف من خلفه: «أنت الإنجليزي الوحيد الذي أعرفه يتحدث باللغة الأوردية دون أن يدير رأسه». وكانت الأسرة تعسكر كثيراً، الزوج والزوجة والطفل والجدة في التلال الريفية الرائعة في الشمال، وكانوا قريبين من لاهور وراولبندي بحيث يُمكن لدورا أن تضع طفلها مؤقتاً عند أمها، وتلعب التنس في أفضل المباريات الدورية، وهكذا فإن الساعات التي يقضيها فيلبي في دراسة لغاته لا تثقل عليها. أما «ماي»، وقد تحررت أول مرة منذ عشرين سنة من المعارك اليومية مع فواتير التجار، فقد استمتعت بدرجة كبيرة وكانت تُدعى في كل مكان، وكان قلقها الرئيس أن «جاك» لم يعمّد «كيم» بعد، وقد كتبت إلى «تيم»: «من الجميل أن تكون مميزاً، لكن الناس المميزين لا يتقدمون دائماً، وفي المدرسة سيكتشف التلاميذ سريعاً أن الطفل وثني، ويمهلونه لتغيير ذلك».

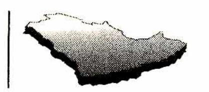
لامت دورا لعدم تمسكها بآداب المجتمع: «إنها لا تذهب أبداً إلى الكنيسة»، وكانت قلقة ومعها جاك على «بادي» الذي بدا لهما أنه سهل الانقياد بسهولة: «ليس لديه إرادة، ويشرب الخمر قبل الفطور ثم السيدة «أوّ». وعلى النقيض، توم العاقل تزوج سعيداً «بكيتي»، ويعمل في سفينة ترسو في «بومباي»، وأما «تيم» الأقل تعليماً من الأربعة، فيقوم بأعمال الجندية في غرب افريقيا، ثم ابنها جاك الذي تزوج امرأة لطيفة، وله ولد ظريف.

وجدت «ماي» أن دورا متهيبة قليلاً في البداية، وعلى استعداد لأن تحمل «كيم» - طفلها - وتذهب إلى أمها، لكنها بدأت تحبها مع مرور الأيام، وقبل أن تنتهي سنة على وجودها في الهند وجدتها الأنسب لجاك، وفي قمة الرشد.

عُيّن «فيلبي» في صحراء «راجانبور» سنة ١٣٢٩ (١٩١١م)، وكان لهذه الوظيفة الكئيبة سحر الطرافة «عند حدود بلاد الجِمال»، لكن أحداث سنة ١٣٣١ (١٩١٣م) التي أعادته إلى هناك بدرجة أقل كانت مؤلمة له، أيجب عليه ألا ينفذ الأمر بدل أن يقوم بمهمات صغيرة في البنجاب؟ ولكنه بدأ مع دورا وكيم رحلته في قفارها المتربة، وغرق هناك في إتقان الفارسية على أمل أن يُنقل إلى إيران، وكانت دورا مشتاقة إلى الشمال وساخطة للمسرات القليلة في مقرهما المحلي «فورت مونرو»، فأخذها لقضاء أسبوع عيد الميلاد في «لاهور»، ليكسر رتابة الحياة المملة بشيء ساحر، ورفعا من روحهما المعنوية بوضع خطط للسفر إلى الوطن في إجازة سنة ١٣٣٢ (١٩١٤م)، وعلى دورا والطفل السفر بحراً في أبريل ليلحقا بـ«ماي» في «كامبيرلي»، ويتبعهما فيلبي براً في الخريف، عن طريق البصرة وحلب، ولم يتحقق مشروع السفر هذا، ولم يكن نشوب الحرب العالمية الأولى هو السبب الوحيد في ذلك.

عادت «ماي» التي تركت الهند في أوائل سنة ١٣٣١ (١٩١٣م)، مما سبّب القلق ثانية لـ«فيلبي»، ولقد أفزعته فأغضب أخاها «جون»، وكلاهما فيلبي وماي مدينان له بالنقود، وسافرت إلى كندا مصممة على العمل، وبرباطة جأشها المعتادة وجدت عملاً في مجال الفنادق في «بانف» في «روكي»، ولكن الشتاء المخيف هناك دعاها إلى السفر شرقاً، وحصلت على عمل آخر في فندق في «وينيبج». وفعل فيلبي كل ما في استطاعته ليثنيها عن ذلك، أولاً في مجال الاستثمار في الفندقة، والأسوأ، في وضع نقودها في أملاك غير منقولة، وكتب إليها: «هناك نصّابون في كل البلاد الجديدة التي تنمو بسرعة». وأبدى استعداده لمدها بالنقود إذا تركت كندا، وبدا أنه يشعر بتوقها إلى الحرية بعد عشرين سنة من العمل الطويل الممل: «هل تقبلين عملاً في أي حركة من الحركات التي تطالب بحق التصويت للمرأة، إذا استطعت أن أوفره لك؟ وأخيراً، مستخدماً كل حجة استطاعها ليرجعها إلى إنجلترا، كتب لها: «سنرسل لك قريباً الطفل لتعتني به وتعلميه، وسيكون من الأفضل على كل حال أن يكون لك مسكن دائم».

تدبر أمر عودتها بدفع تذكرة السفر عبر الأطلنطي، وأقامت مع أمها في «كامبيرلي» في بيت يسمى «كروس ويز»، وسيبقى هذا بيتها لبقية حياتها، ويصبح مكاناً يرحب بكل عائلة «جاك» وليس طفله فقط.



تحول الذهاب إلى الوطن في إجازة سنة ١٣٣٢ (١٩١٤م) إلى سراب، حين حصل فيلبي على عمل جديد أسعده كثيراً. تحدث به مع والد زوجته عن تعيين «سير مايكل أودوير» بدلاً من «سير لويس دين» - لاستبداده - نائباً للحاكم في «البنجاب». طاف الإقليم كله في بداية تعيينه، حتى أماكن الوظائف البعيدة فيما وراء نهر السند.

سمع فيلبي بفرح بعد أشهر قليلة، أنه سيعمل مدة أربعة أشهر نائباً مفوضاً في «ليلابور»، وتعدّ هذه البلدة جنّة بعد «راجانبور». إنها أقدم وأكبر مستوطنة بريطانية شُقّت فيها الترع، وفيها كل سبل الراحة: «ثلج، طعام جيد، أناس ممتازون للتحدث معهم، ولعبة البولو» بالإضافة إلى مسؤولية متزايدة يرتضيها.

كتب إلى «ماي»: «من المفيد للمرء أن يتحدث بشكل راقٍ بعد المناقشات العقيمة في «راجانبور».. الشعور بالسلطة الحقيقية والأهمية إحساس مبهج جداً، ولم أعتد بعد رؤية حارسي وهو يقوم بنوبة الحراسة وأنا نائم».

كتب إليها قبل بدء الحرب بأسبوعين: «إني أستمتع بعصارة الحياة»، وفي رمضان ١٣٣٢ (أغسطس ١٩١٤م) أصبح هذا الشعور مملاً، وبدأ يقلق لأنه ليس على خط النار.

بدأت الحرب مع ألمانيا، وكان جاك فيلبي في «ليلابور»، وتوم على ظهر سفينته في «رانجونش، وتيم وبادي، والاثنان في الجيش، في «إنجلترا»، وقد قيل للشبان الموظفين في الهدف الذين أرادوا أن يلتحقوا بالجيش بإحساسهم الغريزي: إنهم لا يستطيعون ترك وظائفهم، وإن الجنود المدربين، الذين كان أكثرهم في وظائف مدنية هم الذين سيستدعون أولاً. وقد استفاد «فيلبي» في هذا الوقت فائدة قصوى من هذا القرار، وواصل عمله الحالي «بالحفاظ على الأسعار منخفضة والثقة بالسوق» وتسجيل الأجانب، واستقبال «الوفود الموالية». وقبل أن تصبح هذه الأعمال مملة سمع في آخر أغسطس أنه سيحصل على «فرصة عمري»، التعيين في إدارة التحقيقات الجنائية في «سملا» والعمل لحكومة البنجاب التي تقضي الصيف هناك.

كان عليه أن يكتب ويصدر نشرة صحفية أسبوعية للإقليم، ويراقب الصحافة البنجابية لضرورة هذا الإجراء، وكان مسؤولاً مباشرة أمام «سير مايكل أودوير»،

وهنا كانت فرصته «لأظهر ما يمكن أن أفعله في هيئة أمانة السر»، وكانت سعادته أكثر؛ لأنه اختير لجدارته ودون «نفوذ من أي نوع». وشملت تعليماته مراقبة مراتع الوطنية مثل جامعة «اليجار» وقد كتب إلى «ماي»: «أشعر بشرارة ضئيلة تدفعني نحو التحريض، ومن المضحك أني لو كنت صحفياً لكنت أكبر محرض وشوكة دائمة في جنب الحكومة، ومن المدهش ما يفعله المرء بسبب الحاجة».

لم تذهب «دورا» إلى الوطن كما كان مخططاً وبسبب الانتقال، وقد كان والدها، الذي تقاعد في الحال، يعمل في «سملا»، فاستقرت هناك مع أهلها، لكن الحياة الاجتماعية في «سملا» أزعجت فيلبي، فكثير من الناس يتصرفون كما كانوا يفعلون أيام السلم؛ إقامة الحفلات، والرقص، والغزل دون أدنى حسبان لمن يخدمون في بلاد الرافدين أو لأصوات المدافع في فرنسا.

وعلى الرغم من سروره في عمله، فقد بدأ في أوائل الخريف يناشد «ماي» أن تكتب لأي شخص تعرفه ـ سير هنري ماكماهون في القاهرة أو ابن عمها العسكري في وزارة الحرب ـ ليجدوا له عملاً يرتبط بشكل مباشر بضرب ألمانيا، بمرتب أو بغير مرتب أراد أن يصل فرنسا.

ازداد إلحاحه في نوفمبر بعد تلقيه الأخبار السيئة بمقتل «بادي» بعد يومين من وجوده في خنادق القتال، وأبرق إلى «ماي» أن تأتي إليهم على الفور، وحين رفضت، عاد يرجوها أن تساعده في الانتقال إلى أوروبا، أو كما كتب إليها أنه يتطلع: «إلى الأرض المفتوحة جديداً حول البصرة». كان «توم» يرافق نائب الملك في الخليج العربي لتفقد القوات في بلاد الرافدين، وكان «تيم» برتبة نقيب في فرنسا، كل واحد من أترابه بدا أنه يقوم بعمل أهم من عمله. وكما اتضح أن الحرب لن تكون قصيرة، فإن معظم الشباب الذين يشغلون وظائف مدنية، بدأ القلق يعتريهم أكثر فأكثر. وفي ربيع الأول سنة ١٣٣٣ (فبراير عام ١٩١٥م) خف سخطه بتغير مفاجئ في الحظ، فقد ذهب من «لاهور» إلى «كلكتا» ليؤدي امتحان درجة الشرف في اللغة الأوردية، ويكسب ٣٠٠٠ روبية لو نجح، وحقق نجاحاً كبيراً، وعلى الفور استعد بدفتر شيكاته ليسدد ديونه المعلقة، وحين قال: وداعاً لممتحنه «الميجر بيرت»، ذهل حين علم أن «بيرت» سيغادر على الفور، وأنه ـ أي فيلبي ـ سيحل محله في رئاسة لجنة اللغات،



وهو عمل سيدر عليه ضعف مرتبه الحالي، وكتب بفرح إلى «ماي»، وأبرق إلى «دورا» بأن لا أحد في مدة خدمته القصيرة حصل على مرتب كهذا، والضرر الوحيد في الموضوع هو ضرورة الانتقال إلى «كلكتا»، وهو ما لم يسعد «دورا» قط، فقد كانت تفضل مكان أهلها في «سملا» و«لاهور».

بدأ الحياة الجديدة في نادٍ «بكلكتا»، بمقابلة ما استطاع من الهنود، واشترى أول سيارة فهي: «أرخص من تاكسي الأجرة»، يجهز أوراق الامتحانات، ويكمل دراسته للفارسية والعربية، ويجمع مادة في تاريخ الأدب الأوردي، ويحدد عدداً من السفريات كي يشرف على الامتحانات، ومن خلال ذلك يتمكن من رؤية مشاهد في دلهي، وبتنا ولكهنو، متجولاً حول الأولى على الدراجة ليتفقد أماكن التمرد والمكان الذي ألقيت فيه قنبلة على نائب الملك في أوائل سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م) .

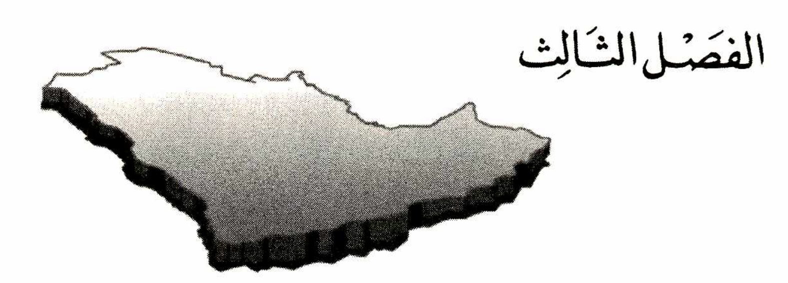
أصابته حمى شديدة في كلكتا، وكانت «دورا» على حق في عدم ذهابها إلى هناك، لكنه افتقدها واشتاق إلى «كيم» الذي بدأ يثير اهتمامه، ولابد أن يُعدَّ ليأخذ منحة في «وستمنستر». كان ذكاء الولد واضحاً وهو في سن الثالثة، وكتب «جاك» إلى «ماي» قائلاً: إنه يريده أن يتعلم الألمانية على يد مربية ألمانية، في وقت كان الذي اسمه «شميدث» في بريطانيا يغيره إلى «سميث»، والزوجات اللواتي ولدن في ألمانيا يقاطعن، ورواد صالات الموسيقى يصفرون إذا عُزف شيء لفاجنر، ردت عليه مشدوهة، وهو المحصن من الانحياز في البنغال: «ألا تعتقد أن أمي الضئيلة لديها شيء من ضيق الأفق»؟!

انضمت إليه «دورا» في كلكتا، مصطحبة معها شقيقتها «أفيس» قبل ذهابهما إلى «دارجيلنج» بسبب حرارة الطقس. كان يزورهما هناك كلما استطاع، ومتذكراً طفولته، فقد اصطحب «كيم» ليرى منطقة مزروعة بالشاي. كان يلعب البريدج، ويكسب منها نقوداً دائماً، وانكب على دراسة الفارسية، وأنهى تقريراً سنوياً عن الصحافة في «البنجاب»، بينما «دورا» و«أفيس» تجهزان الملابس التي تليق أن تظهر بها زوجة موظف كبير في «كلكتا». متناسياً مبدأه الخاص: «إتقان العمل ضروري إذا أردت أن أتقدم»، فقد انزعج من طريقة قضائهما الوقت وهذرهما، فعنفهما لتفاهتهما، فأجابتاه بسرعة بأنه كالكلب الممل الذي لا يتوقف عن العمل. فقال: يجب على «دورا» أن

تحمد الله على طالعها بأنه ليس كوالدها. وبين المناقشات كانوا يستمتعون بالمباريات والمناظر الطبيعية، لكن قلقه عاد إليه حين وصلت أعداد الإصابات الكبيرة في فرنسا أكثر من تلك التي في الدردنيل. متى سيأتي دوره؟ وحاول ثانية مع «ماي» في سنة ١٣٣٣ (أواخر صيف عام ١٩١٥م): «أريد أن أفعل شيئاً ما، فأنا أشعر بالقدرة الضرورية للفعل، وأنا الآن أعيش حياة خاملة بينما ينبغي أن أكون هناك لأفعل شيئاً، حاولي وانظري ما يمكنك أن تفعليه لأجلي».

جاء الفرج في النهاية من حيث لا يتوقع، فقد ذهب مع «دورا» إلى «بومباي» في أواسط أكتوبر لقضاء إجازة «البوجا» مع «توم» و«كيتي». وهناك، أُعلم برقياً أن دفعة إلى الأمام متوقعة في بلاد الرافدين، وأن «سير بيرسي كوكس» الضابط السياسي المسؤول عن الأراضي التي احتلتها قوات الحملة على بلاد الرافدين، قد أبرق بحاجته إلى خبراء في اللغة؛ لأنه يتوقع عند تحرك الجيش إلى بغداد عجزاً في الإداريين المدنيين. وكان اسم فيلبي في قائمة الذاهبين إلى هناك، وتم كل شيء بأقصى سرعة. بيعت السيارة، ومراهنة «دورا» الصغيرة حول الملابس عُدّت خسارة، وعليها أن تعود مع «كيم» إلى الوطن عند «ماي»، دافعاً لها ما تعيش به بالطبع. وحصل لهما على رحلة مجانية إلى الوطن في ١٤ نوفمبر، وفي اليوم التالي أبحر إلى البصرة، وكتب لها حين وصل إلى «مسقط»: «طموحي الأكبر أن أشارك بجزء في هذه الحرب مرتبطاً بالعمل وسط العرب». وكما حدث مع كثيرين من الذين عاشوا الحرب العالمية الأولى، فإن نمط حياته كلها قد تشكل بخدمته في تلك الحرب.

الفصل الثالث



بلاد الرافدين

١٣٣٣ - ١٣٣٥ (١٩١٥ - ١٩١٧م

أبحر «فيلبي» وزملاؤه من خبراء اللغات في شط العرب، ورسوا في «البصرة» في سنة ١٣٣٤ (العشرين من عام ١٩١٥م)، وكتب في يومياته: إن الطريق المائي «كان يعج بالسفن» وكأنها في مهمة، وهكذا ينبغي أن تفعل، فالقوات التي أرسلت من الهند لتمنع الأعداء من دخول الخليج العربي، وتحتفظ به صديقاً لبريطانيا، «كانت تعمل في خدمتي أكثر من سنة». لكن عند الرسو علموا أن المظاهر خادعة، فإرسال الجنود إلى بلاد الرافدين قُصد به في الأصل أن يكون مجرد مظاهرة. فالقوة التي أرسلت من الهند تكوّنت من ٥٠٠٠ جندي، وكان مع الضابط السياسي المرافق لهم، «بيرسي كوكس»، مساعد بريطاني، وموظف هندي، واثنان من السعاة لخدمته. وكان من المفروض تحقيق ثلاثة أهداف من استعراض القوة هذا: مساندة الحكام والشيوخ العرب، وحماية حقول النفط في جنوب إيران، والتي تديرها شركة بريطانية، وتعدّ المصدر الوحيد الذي تتحكم فيه بريطانيا لتزويد البحرية بالبترول، وإقفال الممر المائي أمام تسلل العملاء الألمان إلى إيران وأرجاء الهند المختلفة.

كانت حقول البترول آمنة في الوقت الذي وصل فيه «فيلبي»، وبعض العرب أصدقاء بريطانيا، لكن هناك بعض المشاكل السياسية لم تحلّ بعد، على الرغم من جهود «بيرسي كوكس» الذي سيعمل معه.

كان «كوكس» عسكرياً في الأصل، ونقل إلى العمل السياسي في تسعينات القرن التاسع عشر، وكان المقيم السياسي لحكومة الهند في الخليج العربي من١٣٢٢ -

١٣٣١ (١٩٠٤ ـ ١٩١٣م)؛ ولذا فهو يتمتع بميزة لا تقدر بثمن، من خلال معرفته بالقادة العرب الذين سيتعامل معهم الآن، ومن أهم هؤلاء كان «مبارك» شيخ الكويت، وخزعل (شيخ المحمّرة) الذي كان يتحكم في الجانب الفارسي لشط العرب حتى مصفاة النفط في عبدان، وعبد العزيز بن سعود أمير نجد في الجزيرة العربية الذي كان قوياً لدرجة أنه أخرج الأتراك من منطقة «الأحساء» الساحلية سنة١٣٣١ (١٩١٣م). وكان «كوكس»، والفضل للخبرة الطويلة، لديه معيار لمعرفة شخصية أكثر مراوغة، «السيد طالب ابن نقيب البصرة» الذي قال: إنه يريد اعترافاً يتوافق مع ما أعطي لجيرانه في الكويت و«المحمّرة»، وكان «كوكس» يشك في إخلاصه؛ لأن «طالب» قام بمغامرات مريبة في أثناء خدمته في تركيا قبل الحرب[١]. ولكن بمجرد هبوط البريطانيين، تسلل ليستشير «عبدالعزيز آل سعود» كيف يتصرفون؟ وعاد طيّعاً، وكتب «كوكس» في تقرير له «مذعن تماماً». وقد أخذ «كوكس» بالحيطة، وأرسله إلى «بومباي» ضيفاً على الدولة.

بدا الجنود، بعيداً عن حماية حقول النفط، أقل نجاحاً. كانت طوابيرهم خارج البصرة تتعرض لهجوم دائم من قبائل الصحراء التي أغارت في البداية على المدينة. كان الجنود الهنود التابعون لبريطانيا قد تدربوا لهدف آخر تماماً، وهو محاربة روسيا على الحدود الشمالية الغربية، كما أن معداتهم لحرب الصحراء كانت ناقصة. فضلاً عن أن وسائل النقل التي استخدموها كانت من نوع غير مناسب، كما كانت تنقصهم الخرائط الجيدة، ومعلوماتهم عن توزيع القوات الحربية التركية أقل بكثير مما كان يجب أن يعرفوه، لأنه من النادر ما اعتنوا بالتجوال في الهند من أجل الضباط الإنجليز الذين عرفوا البلد جيداً. (نضرب مثالين لرضاهم عن أنفسهم: لقد تركوا على الحدود الشمالية الغربية أحد مستكشفي الصحراء العربية الكابتن ج. أي. ليتشمان من فرقة ساسكس الملكية، منهكاً، وكان قد قام بزيارتين طويلتين لقبائل بلاد الرافدين، وكان يعرف عبدالعزيز آل سعود. بينما الكابتن «هيوبرت يونج» الذي عاد من إجازته سنة ١٣٣١ (١٩١٣م) براً، أخبرته المخابرات الهندية العسكرية أنها

---

(١) «جيه، لورايمر» «Gazetter of the Persian Gulf»، كلكتا، ١٣٣٣(١٩١٥م) الجزء IB، ص٩٨١، طبعة ثانية: «شانون» ١٣٩٠(١٩٧٠م).



لا تحتاج إلى أي «معلومات خاصة» عن المناطق التي سيعبرها[١]). كما أن الجهل العسكري بالروابط القبلية كان كبيراً، والقتال في بلاد الرافدين يختلف عنه في غرب الجزيرة العربية، وقد حارب العرب الذين ساندوا تمرد الشريف حسين ـ شريف مكة ـ إلى جانب بريطانيا. أما قبائل بلاد الرافدين فليس لها زعيم واحد، وتحارب إما لمصلحتها الخاصة وإما كحلفاء غير دائمين للأتراك المسلمين مثلهم. وبمفهوم القوة البريطانية فقد كانوا يغيرون من أجل الحصول على السلع والسلب، ولا فائدة منهم دون ذلك. وبسبب نقص المعلومات عنهم، كانت القيادة البريطانية غالباً ما تسيء تقدير حكمة التودد إليهم.

كانت المعلومات لدى «كوكس» والقلة التي معه من السياسيين والعسكريين أفضل، ومع ذلك فهم يعرفون فقط الشيوخ المشرفين على المناطق الساحلية، كما أنهم يعملون في ظروف لا تعرفها أي من إدارات الحكومة البريطانية المخولة بالتصرف في بلاد الرافدين، سواء مكتب الهند أو الحكومة الهندية أو قائد القوات المسلحة في الهند، أو وزارة الحربية، أو وزارة الخارجية، أو وزارة البحرية، وما يمكن أن يحدث إذا تم احتلال الأراضي.

نظر بعضهم إلى مستقبلها من وجهة نظر الإستراتيجية الاستعمارية، وطالب بإنشاء خط سكة حديدية تسيطر عليه بريطانيا، ويمتد من البحر المتوسط حتى الخليج العربي، ويستخدم في نقل القوات العسكرية في حالة الحرب مع روسيا، وآخرون يريدون ملكية الأرض؛ لأنهم اشتموا رائحة النفط في الموصل، أو لأنهم، من خلال الغمامات الهندية (استعمارهم للهند) أرادوا تخصيصها مستعمرة، مثل «جنة عدن» تشرف الهند على ريها وإدارتها واستقرار المحاربين من البنجاب فيها[٢] . وأحد التصرفات الجيدة التي قام بها كوكس أنه تصرف تجاه العرب، وكأن الأتراك لن يعودوا أبداً، وبذلك بدّد خوفهم من يوم الانتقام، بينما أعطى لحلفاء بريطانيا الانطباع

---

(١) «إن. إن. أي. باري»، «A Paladin of Arabia»، ١٣٥٥(١٩٣٦م)، ص٢٥٨. أيضاً «هوبرت يونج»: رسالة بتاريخ ١٤/٦/١٣٣١(٢١/٥/١٩١٣م)، موجهة من United Service Club، وثائق «يونج»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

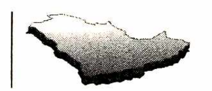
(٢) «أي. تي. ويلسون» رسالة خاصة إلى الكولونيل «سي. أي. بيت» ١٣٣٤(١٩١٦م).

بأنها - أي بريطانيا - لا تخطط لاحتلال دائم للأراضي التي كانت ملكاً للعثمانيين، وكانت المشكلات الدينية والسياسية متراكمة على مكتبه؛ هل تستخدم القوات المسلحة الهندية المساجد العربية بحرية؟ ماذا يفعل بالمساهمات التي يريد المسلمون إرسالها إلى أماكن العبادة في تركيا؟ من الذي سيضمن للقوات الهندية المسلمة أن الأماكن المقدسة، إذا فتحت البلاد، ستظل في أيدي المسلمين؟

ولمساعدته على التعامل مع هذه المشكلات، جنَّد رجلاً أو رجلين جيدين كان يعرف طبيعة عملهما في الخليج العربي، أرنولد ويلسون الذي يعرف جنوب إيران، وو.هـ شكسبير المندوب السياسي في الكويت، وأرسل الأخير لإقناع «عبدالعزيز آل سعود» بمهاجمة العدو التقليدي للدولة السعودية وحليف الأتراك «ابن رشيد» في حائل وسط الجزيرة العربية.

أصبح الهجوم المتواصل على دفاعات البصرة مزعجاً، ولذا فقد وافق «كوكس» وعساكره في صيف سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م)، على المقامرة بهجوم يحمي «البصرة» بشكل أفضل، ويكسبهم احتراماً محلياً، وفي الهند أيضاً. واندفع الجيش، في حرارة الصيف، شمالاً، فاستولى أولاً على «القرنة» حيث يلتقي دجلة والفرات مكونين شط العرب، ثم المدن الواقعة على النهرين وما بينهما، واستنّ «كوكس» الذي يفتقر إلى هيئة إدارية، قاعدة بوضع ضابط سياسي في أي مكان يحتله الجنود، أملاً في تأمين خلفية الجيش، وليسبق تعليقات غير الأصدقاء من العرب، بتقديم معاملة للمشكلات المتشابهة. وفي أكتوبر، مع برودة الجو ونجاح الجيش، أصبح هناك ما يسوغ للقيام بخطة أكثر طموحاً؛ ضربة واحدة (كما جاء في سجلات أحد المكاتب الهندية) نحتاج إليها لتوازن عدم النجاح في «جاليبولي Gallipoli» ونقطع الاتصالات الألمانية/التركية مع إيران التي تشكل تهديداً للهند. واعترف الجميع بأنه إذا ردّ الأتراك بسرعة فإن تعزيزات كبيرة من أوروبا لن تأتي، وكذلك من الهند لأسباب تتعلق بالأمن الداخلي، لذا فإن الأسباب السياسية تحتم الاندفاع إلى بغداد.

كان وَقْعُ الاسم ساحراً، لكن العبء سيكون كبيراً، وكان هذا الأمل في اكتساب مساحات كبيرة من الأرض بما فيها مدينة كبيرة، هو الذي دفع «كوكس» للإبراق إلى الهند، طلباً لمزيد من الضباط السياسيين، ومؤكداً على ضرورة وجود عدد من خبراء اللغة.



كان رفاق «فيلبي» في السفر عسكريين، ومن بينهم «هيوبرت يونج»، وخبير جيد في اللغة هو د. ر. ل. لوريمر، وعندما اتصلوا بمكتب «كوكس» عند وصولهم علموا بالأخبار السيئة، لقد ردّ الأتراك الضربة، وخاض الجيش الإنجليزي تحت قيادة الجنرال «تاونسهند» معركة حامية عند «قطسيفون Ctesiphon»[1] جنوب بغداد فهُزم، وتراجع بالفعل إلى «الكوت» نحو ثلث المسافة إلى البصرة، وكادت السفن التي في شط العرب تتحول إلى مستشفيات غير صحية مكتظة بالجرحى وينقصها المتخصصون، وكان مكتب «كوكس» يغوص بالحيرة، وهو نفسه كان بعيداً في أعالي النهر، وأرنولد ويلسون انهار من كثرة العمل، وبالنسبة إلى فيلبي و«يونج»، فقد كان واحد منهم سيذهب إلى بغداد، والآن لا أحد يعرف من الذي سيذهب أولاً.

كتب «فيلبي» في رسالة إلى الوطن بعد ثلاثة أيام من انتظار الأوامر والتشوق إلى الاشتراك في الحرب: «إنه شعر بالملل»، وبدأ يحاول مع لغته العربية المتعثرة (كان يستطيع القراءة لا الحديث بها) بالحديث مع العمال الذين يعبئون التمر بعد أن يضغطوه بأقدامهم العارية، ولكي يسمع اللغة، ذهب إلى ما يسمى بالنادي الليلي، حتى إلى كنيسة تقام فيها المراسم بالعربية ويديرها منصِّر أمريكي هو «جون ڤان اس»: «إنها أول مرة أدخل فيها كنيسة منذ تزوجت».

قابل «فيلبي» بعد أسبوع «كوكس» الذي بدا نسخة طويلة من «دوق ويلنجتون»، وأُخبر أن مهمته هي دراسة الموارد المالية للأراضي المحتلة، وأن يُعد منهجاً منتظماً للحسابات المالية المدنية، وكان هذا ما يتقنه، وسعد بذلك، ووجد أن الموارد المالية تُدار تبعاً للمدونة المالية المدنية الهندية، واكتشف في الواقع أن النظام الحكومي كله قد اتبع نظام الخدمة الهندي بغض النظر عن الظروف المحلية.

كل شيء أُخذ عن الهند: القانون، النظام، العدالة، الجمارك، نظام الشرطة، العمل، حتى الخدم وعمال الآلات والأولاد الذين ينشون الذباب أتوا بهم من الهند «ليحلوا مكان العمالة المحلية غير المدربة». والأوامر التي جاءت من لندن «بأن إقليم البصرة ليس الهند أو أياً من أجزائها، ولا يجب أن تُجرى أي محاولة لتغيير نظامها الإداري» لقيت

---

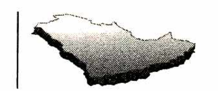
(١) موقع بين سلمان بك شمالاً والصويرة جنوباً.

آذاناً صماء؛ لأن الأتراك المعروفين بإدارتهم السيئة، تمكنوا بنظام جيد أن يحملوا معهم الملفات، وسجلات الأراضي، والإيرادات المالية، وكان على الموظفين الهنود أن يديروا الأراضي بالطريقة التي يعرفونها، فلم يكن أمامهم سوى القيل والقال عن الوضع السابق. وفضل «فيلبي» أن يستخدم سلطته التنظيمية في طريق آخر، وبدا واضحاً له أنه سيوفر الوقت والجهد لو ابتدع نظاماً للحسابات لا يشمل الإنفاق المدني فقط، بل العسكري أيضاً. وعمل ساعات طويلة ليعد نظاماً كهذا بحيث يكون جاهزاً للتطبيق في أول يناير، وعندما كان يصيبه الإجهاد من كثرة العمل في الليل، كان يقرأ «العهد الجديد» بالعربية بصوت عالٍ لخادمه العربي.

وذات مساء في أثناء لعب البريدج، سمع كلاماً أوحى له بأن عمله لن ينفَّذ كما يأمل. كان اللاعبون يناقشون العودة الوشيكة إلى «أرنولد ويلسون» من إجازته المرضية «الذي يبدو عليه أنه شخصية قوية وذو نفوذ كبير لدى كوكس». وتقابلا معاً، وتجادلا بشدة عدة مرات في البداية، وأوضح له «ويلسون» أن النظام الذي وضعه لا يعجبه، ولكنه لا يملك الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع، واستمر «فيلبي» على طريقه.

كانت البصرة، ومازالت، كأنها ثلاث بلدات لا بلدة واحدة: الميناء، والبيوت التي على جانبي النهر، وحي الأعمال المتباعدة عندما تكون وسيلة المواصلات الوحيدة بينها «الحنتور» أو الدراجة، وكان مكتب «فيلبي» بعيداً تماماً عن مكتب «ويلسون»، وكان أيضاً بعيداً عن الملفات الضرورية، وقد حلَّ هذا العائق بتجاهل ظروف زملائه، وقد تذكر ذلك برضا بعد ثلاثين عاماً، إذ كتب: «أنشأت ملفاتي الخاصة، برضا الوالدين، وملأتها بالأوراق المسروقة من المكاتب السياسية وغيرها.. وبدأت أثبت نفسي ببطء وثقة بمهمتي المالية».

كان عيد الميلاد سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م) مزعجاً بسبب الطقس القاسي؛ كل الطرق تملؤها المستنقعات، وقضى الجنود الذين ينامون في الخيام الليلة بملابس مبللة بالماء. وكان «فيلبي» نفسه يعيش حياة خشنة، وعلى استعداد لكل طارئ، مع خادم (أصلاً صاحب قارب) لإعداد الطعام، ويتذكر الزوّار أن الطعام كان رديئاً جداً، ولكنه كان مدعواً إلى عشاء احتفال رأس السنة الميلادية، وتدفق الخمر من أقبية الشركة



التجارية الألمانية «وونخهاوس»، مما وفَّر جواً عابثاً، ولعب الجميع لعبة «أب جينكنز» ولعبة الكراسي الموسيقية على أنغام عزفت على الأمشاط حتى ما بعد منتصف الليل. وفي حفلة كهذه، نطق فيلبي بملاحظته الكلاسيكية التي اتخذت ضده لسنوات، والتي كان يفسرها دائماً حسب نصفها الأول، لقد قال: «لا أستطيع سماع ما تقول يا أدموندز، لكني أخالفك الرأي».

كل واحد في «البصرة» كان يعمل ثلاثة أرباع اليوم، وابتدع «فيلبي» وسائل لجعل التجار العرب الذين كونوا الثروات من الاحتلال، يدفعون الضرائب، واتخذ من مصرف محلي خزانة مالية للإدارة، ورتب لسلامة الملاحة بوضع نظام سندات إذنية، تقلل من إرسال شحنات سبائك الذهب أو الفضة من الهند وإليها.

كان «كوكس» مسروراً بنشاطه وكفاءته الشاملة، لكن «فيلبي» لم يكن محبوباً من زملائه الأقل درجة؛ لأنه كان مستبداً في عمله. والعمل الجليل الذي يذكرونه به هو عمله الطوعي، فقد طُلب من السياسيين أن يحسّنوا من العلاقات العامة، بمراجعة أعمال الجيش المعتادة في مصادرة المواقع على جانبي النهر لإقامة بيوت إيواء للجنود، أو معسكرات، أو أرصفة أو مخازن أو مستودعات ذخائر بحجة حالة الحرب. وتطوع «فيلبي» بعمل معقد هو تحديد التعويضات الذي يعني مقابلة الملاّك، وفحص صكوك ملكيتهم المطلسمة تقريباً، ويصنف أرضهم، ويقدر أثمان بناياتهم، ومزارع النخيل التي يمتلكونها، وتوصل إلى رقم اشترى به مساحات كبيرة من الأراضي بالفدان، وافق عليه جميع الملاّك إلا واحداً، وربما أدرك المعترض في البصرة، قوانين الحرب التي تسمح بمصادرة أراضي الأعداء، ولكنه حرّم ذلك المكسب. وكان بالمناسبة وكيل «عبدالعزيز آل سعود».

كانت سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) من أسوأ سني الحرب في بلاد الرافدين، ففي الأشهر الأربعة الأولى منها حوصر «تاونسهند» في «الكوت»، وشاهد البريطانيون في البصرة قوارب محملة بتجريدات بريطانية وهندية تصعد في النهر بعضها وراء بعض لتدمر في محاولة غير مجدية لفك الحصار، وتعود هذه القوارب بعد ذلك تجر قوارب مسطحة (Bargs) مكدسة بالقتلى والجرحى، الذين نقل المحظوظ منهم ليعالج في الهند. ويبدو أن الهيئة التي مع «كوكس» في البصرة لم تكن واعية تماماً

بفضائح هذه الحملة التي وصفها «كرزون Curzon» بعد ذلك: «أسوأ معركة في عدم الكفاءة البريطانية منذ معركة كريميا Crimea» وعندما كُشفت أحداثها الحقيقية المروّعة، تسببت في استقالة وزير الدولة في الهند، وانكب السياسيون على العمل دون توقف ليسكنوا حالة الجرحى الكثيرين، وشملت المأساة الجميع وهم يقرؤون قائمة الإصابات، ليس فقط في أعالي النهر، بل في فرنسا أيضاً.

كان «فيلبي» لكونه موظفاً صغيراً نسبياً، يعرف القليل عن سياسة بريطانيا الشاملة في الشرق الأوسط، وقد كلفه «كوكس» بعد وصوله مباشرة بجمع ٢٠ ألف ليرة ذهبية تركية ليأخذها هدية «لعبدالعزيز آل سعود» الذي قابله «كوكس» في جزيرة «تاروت» قرب شاطئ إقليم «الأحساء» في سنة١٣٣٤ (عام ١٩١٥م). كان «فيلبي» يعرف الجهد الذي سيكلفه جمع هذا الذهب أكثر من معرفته عن مغزى اللقاء، وهو أيضاً لا يعرف شيئاً عن الخلاف بين «كوكس» ولندن حول بعثة غريبة إلى بلاد الرافدين قام بها «أوبري هربرت» و«ت. إي. لورانس» اللذان وصلا من القاهرة بتعليمات لرشوة القائد التركي الذي يحاصر «الكوت» بمليون جنيه إسترليني إذا رفع الحصار، وترك القوات البريطانية تغادر بحرية. وكان «كوكس» الذي يُعَرِّف هذا القائد بأنه: «... عثماني من عائلة محترمة وأمين جداً»، وقد عدَّ العرض لا فائدة منه ومخزياً، واحتفظ بالأمر سرّاً، ومرة ثانية عرف «فيلبي» أن عليه، فقط أن يجمع الليرات الذهبية ويرسلها هذه المرة إلى «تاونسهند».

كان «كوكس» بين حين وآخر يطلع فيلبي على بعض أسراره السياسية، وذات مساء في ذي الحجة سنة ١٣٣٤ (أكتوبر ١٩١٦م) انتقد وزارة الخارجية وفرعها «المكتب العربي»: «لقد اضطرتنا القاهرة إلى الموافقة على عدم ضم هذه الأجزاء، ولكي نقوم بمجرد إدارتها لحساب الأمة العربية». ولكن هذا الميل إلى المبدأ الجديد لاستقلال العرب، فات على فيلبي، فمازال رجل حكومة الهند تماماً، حتى إنه كتب في يومياته: «هذه ضربة إلى حد ما، ولكن المرء يأمل ألا تتسبب هذه الغلطة الشنيعة بشيء، التي اتخذت دون استشارة، وضد آراء كوكس».

بدأ «فيلبي» في أثناء تأدية عمله يجول في المناطق المحتلة، ولم ينس قط رحلته الأولى، التي كانت بناءً على طلب «كوكس»، وقد أخذته الرحلة ليطل على «الكوت» في



المساء التالي لاستسلام «تاونسهند». وأبحر صاعداً في النهر ببطءٍ شديد، حتى إن العرب الذين يخوضون في المياه الضحلة، رافعين أثوابهم حتى خصورهم، كانوا يتقدمون والماء يتطاير من حولهم ليبيعوا البيض والدجاج، ولا يقبلون الدفع إلا بالروبية الفضية، ويرفضون أوراق البنكنوت.

وصل أخيراً، خيمة «كوكس» في «الفلاحية»، حيث يمكنه أن يرى الدخان يتصاعد من مكان الإبادة الأخير لتاونسهند، واكتسب فكرة ما عن محنة المحاصرين التي خاضوها هم ومن ذهبوا لإنقاذهم. كان ذلك في أبريل، ورائحة الموتى ووباء الذباب أمر لا يطاق؛ الذباب «يلقي بنفسه في علب المربى المفتوحة.. يستقر فوق كل قطعة من الطعام، ونحن نرفعها إلى أفواهنا، كان مروعاً.. ونحن نتجول في أرض المعركة المحاطة بالخنادق، يستقر فوق ملابسنا محولاً اللون الكاكي إلى الأسود، وأتعجب كيف وجدت قواتنا هنا، دعك من كيف حاربت». معظم رحلاته كانت أقل درامية، تتكون من زيارات لضباط المناطق لمناقشة تحصيل إيرادات الدولة، كان غالباً مرحباً به، فهو تغير في حياة العزلة. وقد كتب «هارولد ديكسون» ضابط إحدى المناطق: «أنا سعيد جداً بزيارته، ليأخذ فكرة عن متاعبي في تحصيل الإيرادات، وعن فوضى منطقة السوق»[(١)].

في «العمارة طرح القانون جانباً، وتحدث مع د. ر. ل. لوريمر، الذي كان رئيسه عدة سنوات، بطريقة قررت معها السيدة لوريمر أن تعنفه، وقد كتبت له خطاباً رافقه على الدوام:

«حين يجد شاب دون خبرة واسعة أو متنوعة، نفسه مختلفاً حول السياسة العملية مع رجل أكبر منه، ومسؤول رسمي يتصرف في ظروف لا يعرف الشاب عنها شيئاً، فمن العقل أن يفترض أن يكون هناك جانبان للمسألة، أعتقد أن هذه قاعدة لا يختلف فيها اثنان، ولا تفقد قوتها حين نطبقها على رجل ذي خبرة، وشخصية ومقدرة مثل المسؤول في «العمارة».. وآخر شخص تلجأ إليه في المسألة هي زوجة الرجل، لذا

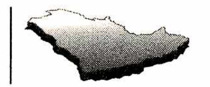
(١) «ايتش. آر. بي. ديكسون»: رسالة إلى والدته بتاريخ ١٢/١/١٣٣٦(٦/١١/١٩١٧م)، وثائق «ديكسون»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

حين تأتي في المرة القادمة، دعنا نترك اسم الميجور لوريمر خارج الموضوع، لا يعنيني مثقال ذرة ما تظنه في مالية العمارة، وأشعر بودٍ غامر لأجازف بانزعاجك المؤقت بإعلامك تجاهلك المستمر لمبدئي».

كان «فيلبي» وهو في الحادية والثلاثين، يتقبل النقد من أولئك الذين يحترمهم، فهو معجب بالسيدة لوريمر التي كانت خبيرة باللغة مثل زوجها، واعترف بأن صراحتها لها ما يسوّغها، قائلاً: إن زوجته لن تستمتع بتعليق مثل «ذلك الأحمق الصغير فيلبي» من «لوريمر»، لكن تأثير مثل هذا التأنيب لا يستمر طويلاً، فخلال شهور، امرأة أخرى قوية الإرادة «جيرترود بيل» كانت تحاصره «مثل أخته» لكونه مستبداً وصعباً، وعلى استعداد للتضارب مع السلطات العسكرية حول تداخل مشترياتهم المحلية مع «جمعه» لإيرادات الدولة.

التحقت «جيرترود بيل» بهيئة أركان «كوكس» في جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ (مارس ١٩١٦م)، كانت في أواخر الأربعينيات من العمر، ولها سمعة لافتة للنظر لكونها مستكشفة، وخبيرة لغات، وعالمة آثار، ومترجمة للشعر الفارسي، ومتسلقة لجبال الألب، وقد أنقذت، وهي فتاة، بشجاعتها وحضور ذهنها، حياة مرشديها السويسريين في «فنستيراهورن». زودتها خلفية عائلتها بكثير من الأصدقاء في مناصب عليا، وقد استفادت وزارة الخارجية من خبرتها في سورية وشمال الجزيرة العربية، التي اكتسبتها في أثناء رحلاتها الجسورة في الصحراء قبل الحرب، وأرسلتها إلى القاهرة والهند لتعد تقريراً عن الآراء المختلفة حول كيفية استثمار عداوة العرب للأتراك ومكانه. وقد أرسلها صديقها القديم نائب الملك «لورد هاردينيج» من الهند إلى «كوكس»: «لكونها امرأة رائعة ذكية بعقلية رجل»، وكانت إضافة مفيدة إلى مكتب «كوكس» في البصرة، لأنها تتكلم العربية بطلاقة، وتعرف أكثر من أي شخص آخر، عدا «ليتشمان» بالطبع، الكثير عن القبائل العربية. وكذلك هي إضافة إلى مجتمع «البصرة» الذي لا يشتمل على امرأة غير متزوجة في مثل وضعها، وعدد قليل من الزوجات، عدا «الليدي كوكس» و«السيدة لوريمر»، لكنها كانت مفيدة للرجال أكثر منها للنساء.

كانت زوجة المنصر الأمريكي «دوروثي. ڤاس. اس» هي المرأة التي انجذبت إليها



بدرجة كبيرة، وقد مالت إلى «فيلبي» سريعاً بسبب اهتمامه بالمأثورات القبلية، وعلم الأنساب الصحراوي، وهو بدوره شعر نحوها بالاحترام بسبب سعة معرفتها التي تمنى أن يمتلكها، ولأنها قامت بنوعيات من الرحلات تمنى أن يقوم بمثلها لو كان لديه وسائلها. وحسدها على استكشافها في الصحراء سنة١٣٣٠ (١٩١٢م) ووصولها إلى «حائل»، وكادت تصل إلى «الرياض» عاصمة «آل سعود» لولا أن عائلة «آل رشيد»، سجنتها وأعادتها ثانية. واتفقت مع «فيلبي» على أن الطرائق الأخلاقية الحميدة، وليس الوسائل الفظة التي يستخدمها «ليتشمان»، هي الأفضل في الحصول على ما يريده المرء من عرب الصحراء.

فاقت كفاءة فيلبي سلبياته في ذي الحجة سنة ١٣٣٤ (أكتوبر ١٩١٦م)، بحيث رقّاه «كوكس» إلى مفوض إيرادات الدولة مكان موظف أعلى أصابه المرض، وعليه العودة إلى الهند، وتهلل فيلبي للعمل المأمول «الذي كان يؤدَّى بالطريقة الهندية القديمة» والذي سيؤديه «بالطريقة المصرية الجديدة والأفضل». وكان مسروراً لتشريفه بحصوله على لقب «آمر في الإمبراطورية الهندية»، واعتقد أنه أصغر رجل نال ذلك الشرف، وانتقل إلى منزل مريح قرب «آل كوكس» و«آل اسيس»، وبدأ يتوق إلى أن تلحق به «دورا».

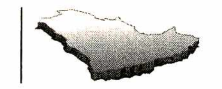
كانت «دورا» في هذا الوقت قد عادت إلى الهند، وتبحث جادة عن عمل في البصرة، بعد رحلة حزينة إلى الوطن، وعندما وصلت هناك وجدت «ماي» في حداد على موت «بادي»، وقبل أن تغادر، لم تفقد أخاها فقط، بل كان عليها أن تعزي «ماي» في وفاة «تيم» أيضاً. وكانت حزينة لتركها ابنها «كيم» الذي كان في الرابعة من العمر، والذي كان ذكياً ومرحاً، لكنه بدأ يتلعثم في الكلام، وهو أمر أرجعته دورا أخيراً إلى انفصاله المبكر عن والديه، وأما «ماي» التي تعزت عن فقدان ولديها بوجود حفيدها، فتساءلت إذا ما كان «جاك» قد ضغط على ولده كثيراً، في طموحه إلى أن يكون ابنه مثله حين كان طفلاً.

وصلت «دورا» إلى الهند في نهاية صيف سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م)، ولم تلحق بـ«فيلبي» الذي كان هناك قبل وقت قصير في بعثة سريعة أرسله فيها «كوكس» إلى «سملا»، لينظم الإجراءات المالية المدنية والعسكرية، وقد اكتسب «فيلبي» هناك

سلطة مالية واسعة، وهو ما أراده كوكس، لكنه حزن وصدم حين علم بوصول «دورا» إلى «بومباي»، والحياة الإنجليزية في الهند مازالت «موقوفة كلياً على التفاهات»، وقد كتب: إنهم بدوا غير مهتمين بالموت المتواصل في بلاد الرافدين، إضافة إلى المذابح في فرنسا.

أخذ «فيلبي» إجازة لبضعة أيام سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م)، قضاها مع «جيرترود بيل» وزميل موظف في الجهاز الحكومي الهندي، في زيارة عرب الأهوار "Marsh Arabs"، ويعرف المسافر العادي الآن هؤلاء الأناس البدائيين. والفضل يعود إلى الكتب التي كتبها «ولفريد شيسجر» و«جاڤن ماكسويل» وآخرون، وقد عرفهم الخبراء قبل ذلك، «جون. ڤان. اس» من النهرين التوأمين، و«أرنولد ويلسون» من الجانب الإيراني، وكانت المستنقعات في سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) أرضاً جديدة في الواقع، وقدَّم عيد الميلاد فرصة مسبقة لمتع الاستشكاف التي تحبها «جيرترود بيل»، ويشتهيها «فيلبي»، ومكثوا في القاعات الكبيرة الجميلة، المقامة من القصب (البوص) المقوس والحصير المنسوج، وتسمى «مضافة»، حيث يجلس عرب الأهوار للحديث ولمسامرة الضيوف. راقبوا الطيور، واصطادوا الحيوانات، وقدموا لضيوفهم الأدوية، وناقشوا معهم الحرب. (ليس فقط هناك إمكانية لتدمير وجود ألمانيا كأمة، بل إن ذلك أمر ضروري)، وكم هو معقول أن تضم بريطانيا البصرة وتحتفظ بها!

عادوا إلى البصرة في الوقت المناسب ليرحبوا بـ«دورا» التي تغلبت على كل العقبات، وسُمح لها باللحاق بزوجها. وقد أصبح التنقل الآن سهلاً، فقد نال «كوكس» طائرة تنقله جيئة وذهاباً، وتحسن النقل بالمراكب التي استخدمها «فيلبي» في جولاته التفتيشية على الإيرادات المالية وعدم مركزية العمل، تاركاً مكتبه لأتباعه، شاعراً برغبة في إشباع ميله إلى السفر في الأشهر الأولى من عمله، ونجح في إعادة التوازن للنفقات المدنية بدرجة أفضل، مكنت «كوكس» من تقديم مبلغ ١٢٠ ألف جنيه إسترليني، تقريباً إلى خزانة الدولة من أجل الأمور العسكرية، كما قدم في الوقت نفسه مذكرة إلى «كوكس» حول الموارد الزراعية لبلاد الرافدين، وكان يرى أن تحتفظ بريطانيا بالبلاد، وهو الرأي الذي يعتقده معظم الرجال القادمين من الهند، وأن على الخبراء الإنجليز، إنشاء قناة وإقامة نظام صرف يشبه ذلك الذي في



«البنجاب»، مما يحول البلاد إلى مخزن للحبوب، ولم يغير رأيه حول المستقبل الصحيح للبلاد إلا حين قابل عرباً لديهم المقدرة على القيادة.

كان الجنود، بعد إمدادهم بتعزيزات كثيرة، قد بدؤوا بالتقدم إلى أعلى النهر في بداية سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م)، وقد أشرفت وزارة الحربية على الحملة بقيادة جنرال من اختيارها، وليس من الهنود؛ وهو «الجنرال مود» الذي يعدّ أكبر المنظمين العسكريين بالنسبة إلى زملائه، وأوجد التقدم مشكلة إيجاد ضباط مناطق للأراضي الجديدة المحتلة. ولم يُسّر فيلبي حين أخبر أنه سيكون واحداً من هؤلاء، وأنه سيصبح ضابط منطقة في «العمارة»، منطقة زراعة الأرز على نهر دجلة، فتصادم مع «السيدة لوريمر»، ورأى في هذا التعيين إبعاداً، لكن عزاءه الوحيد أنه سيكون سيد نفسه، وبإمكانه أن يتجنب الحياة المكتبية، وكان يختلق الإثارة لنفسه بالاندفاع إلى الحدود الإيرانية ليشتري الأغنام للقوات، عابراً بها خلال فيضانات النهر الربيعية. لكن الجيش انتصر في النهاية، وتحولت العمارة إلى مجرد محطة على الطريق بعد استيلائه على بغداد في جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ (مارس ١٩١٧م) وحلت محلها مدن في الشمال حتى في شراء الماشية. أصابه الملل، وغار من السياسيين الذين استدعوا لمرافقة «كوكس» في بغداد، وزاره عدد منهم وهم في طريقهم شمالاً، فقدم طلباً للانتقال، وعلى سبيل الترضية سمحوا لدورا باللحاق به، لكن بقاءهما معاً لم يستمر إلا شهرين. وقد حقق طموحه في مايو، وجاءت الأوامر له باللحاق بكوكس كمساعد خاص، وعلى دورا ألا ترافقه وتعود إلى الهند.

وصل إلى بغداد ليجد أن «كوكس» المركزي جداً بطبيعته، يقوم بعمل كل شيء بنفسه، حتى تصحيح المقالات في الصحيفة الجديدة التي أنشأها باسم «العراق» (وهو الاسم الذي حل محل بلاد الرافدين)، وبدأ «فيلبي» العمل بجد في المكتب، وأعد أوراقاً «لكوكس» في موضوعات شتى: هل نبعد الموظفين الرسميين الذين خدموا مع الأتراك ولديهم بعض الخبرة المهنية أم لا؟ كيف نعالج القلق في المعاقل الإسلامية المحافظة في كربلاء والنجف؟ وهل يمكن الدخول في علاقات مع زعماء إيرانيين عبر الحدود، والذين يشكلون قانوناً بأنفسهم بسبب حالة الفوضى التي تعم أرض فارس؟

أصبحت القبائل في غرب العراق أكثر وداً الآن بعد انتصار بريطانيا في المعارك، وعبارة: «نحن قادمون» هي لغة المكتب لخضوعهم، وكانت «جيرترود بيل» هي المسؤولة الرسمية عن مقابلة شيوخهم، وقيادتهم لمقابلة «كوكس»، بينما كان «فيلبي» يهتم بعمله المكتبي.

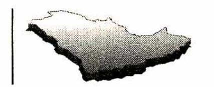
اشتمل عمل «فيلبي» على إعداد مذكرة قوية عن الأوضاع في وسط الجزيرة العربية، والصفة المميزة لهذا البحث، يمكن الوصول إليها، إذا أدرك هو وزملاؤه في بغداد أنهم ينظرون إلى الموضوع بعيون الحكومة الهندية.

لقد تغير نموذج الحرب في الشرق الأوسط بحلول سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م) دون تعديل كبير في وجهة النظر الضيقة في التعامل مع الأمور. إن السيطرة الشاملة على الحرب مع الأتراك تدار بالطبع من لندن، لكن جزءاً كبيراً من السلطة خُوّل لمركز قوة آخر وهو القاهرة التي تنفذ الخطط التي ترسل عادة إلى الهند، وليس إلى «كوكس» بالتأكيد.

استطاعت القاهرة والخرطوم باستخدام النقود والوعود في منتصف سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) تنشيط مشاركة شريف مكة - حسين - الذي بدأ ثورته ضد الأتراك، ولم تكتسب حملته قوة دافعة لمدة سنة، لكن كان من نتائجها السريعة تزويده وتزويد أبنائه بالأسلحة والعتاد البريطاني الذي أبهج مُواليه، وأزعج منافسيه في الجزيرة العربية.

لم يكن في ذهن لندن في سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م)، بعد عدم النجاح في «جاليبولي»، إلا اختيار العرب لفتح جبهة أخرى لمحاربة الأتراك، وكان الشريف حسين هو الاختيار الواضح، وخصوصاً بعد أن فاتح عبد الله بن الشريف حسين «كيتشنر» المعتمد البريطاني في مصر قبل الحرب بكراهيته للأتراك.

كان الشريف حسين معروفاً بحسن اطلاعه على الأحوال العالمية، والفضل في ذلك يعود إلى السنوات التي قضاها في «إستانبول»، وكان يحكم مكة، وله أربعة أولاد متعلمين يعرفون الأوضاع السياسية ويدركون درجة السخط التي تسود الإمبراطورية العثمانية. اعتقدت حكومة الهند أن هناك مخاطرة في هذا الاختيار، فإن تعاون حاكم



مكة مع غير المسلمين، قد يثير، كما ظنت، الرأي العام المسلم في الهند، لكن تم تجاهل رأيها، ولم تعر لندن اهتماماً للرجل ـ عبدالعزيز آل سعود ـ الذي أدّى خدمات ممتازة لحكومة الهند، فبمقارنته بالشريف حسين المشهور بحكمته، فهو مجرد أمير صحراوي يحكم مجموعة من مؤيديه، الملتزمين في الصحراء. وبما إن «شكسبير» قد قُتل في إحدى معارك «عبدالعزيز آل سعود» مع منافسه في «حائل»، فلم يعين ممثلاً يهتم به بالطريقة التي قام بها «لورانس» مع الأمير فيصل بن حسين. وقد قابل «كوكس»، «عبدالعزيز آل سعود» مرتين، مرة عندما وقع معاهدة معه في «تاروت»، ومرة أخرى بدعوته لرؤية الأسلحة والطائرات البريطانية واستحسانها. أما معاونه الكولونيل ر. أي. أ. هاملتون الذي كان المفوض السياسي البريطاني في الكويت، فقد كان على اتصال معه بخصوص منع المهربين من استخدام موانئ الخليج العربي في تهريب البضائع عبر الصحراء للأتراك، لكن «عبدالعزيز آل سعود» الذي له حزازات طويلة مع شريف مكة، استاء من خدمات بريطانيا للأخير، ولم يفعل شيئاً لتعزيز المجهود الحربي البريطاني في بلاد الرافدين.

وكان «فيلبي» الذي يطلع على كل أوراق «كوكس» السياسية، يعرف النزاعات بين «عبدالعزيز آل سعود» وشريف مكة، وأيضاً بين القاهرة والهند حول معالجة أمور هذين المتنافسين. وعرف أنه فيما يخص جهود بريطانيا الحربية، فإن شرق الجزيرة العربية يخيم عليه السكون، بينما مغامرة القاهرة في غرب الجزيرة العربية تسير قدماً، فخشيت حكومة الهند أن تؤدي ثورة الشريف حسين إلى إثارة مسلمي الهند أو الجيش الهندي، وقد ثبت أنها بلا أساس، ومخاوفها مما تفعله القاهرة، لم تكن كذلك.

كانت القاهرة تعطي وعوداً للشريف حسين تصطدم مع مخططات حكومة الهند في بلاد الرافدين، وبدأت تتحدث مع العرب ـ ليس مع الحجازيين في مكة فقط، ولكن مع المسؤولين في القاهرة ـ عن استغلال العرب وأمة العرب، وهذه اللغة وصلت العراق وجعلت المدخل الأبوي لبلاد الرافدين الذي استخدمته حكومة الهند يبدو محدوداً ولا معنى له.

كان «فيلبي» يعدّ تقريراً إلى «كوكس» عن الأحداث في الجزيرة العربية، وفي الوقت نفسه كانت هناك بعثة جديدة في طريقها إلى «عبدالعزيز آل سعود»، وتسعى إلى أن

يكون تعاونه النشيط، إن أمكن، في الاندفاع ضد منافسه «ابن رشيد» في حائل، الذي يتعاون مع الأتراك، وعلى الأقل في شكل يمتنع فيه عن الاصطدام بخصمه الآخر شريف مكة. وحسب المعلومات التي وصلت إلى بغداد من الكويت، فقد أصبح «عبدالعزيز آل سعود» القائد الديني والسياسي لقبائل وسط الجزيرة العربية، عدا تلك التي تعتمد على «ابن رشيد» في حائل والمؤيدة للأتراك، والعجمان على حدود بلاد الرافدين، والتي لا يمكن الوثوق بها. لكن «عبدالعزيز آل سعود» لا يحبذ شريف مكة، ولابد من الحديث معه، وإلا فإنه سيكون خطراً على الثورة العربية في الحجاز، ومن الأفضل اختيار شخص ملم بشؤون شريف مكة، لهذا العمل. ووقع الاختيار على «رونالد ستورز» الذي كان منذ سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩م) مسؤول الشؤون الشرقية في الهيئة الدبلوماسية البريطانية في مصر، ونصحه «كوكس» بحساسيته نحو مشاعر «عبدالعزيز آل سعود» تجاه شريف مكة، أن يتعرف إليه قبل أن يتطرق إلى موضوع عقد اتفاقية مع منافسه.

بدأ «ستورز» رحلته في حرارة يونيو اللاهبة سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م)، مسلحاً بدعوة «عبدالعزيز آل سعود» وبوصلة من «جيرترود بيل»، (وقد كان يرى أن من يقطع الصحراء لابد أن يكون صلباً، وليس محباً لحياة الرفاهية المدنية)، لكنه عاد بعد يومين مصاباً بضربة شمس بعد سفره على ظهر جمل، وتُرك التعاون المباشر مع «عبدالعزيز آل سعود» معلقاً حتى الخريف.

عرف «فيلبي» كل ذلك، والتقرير الذي أعدّه كان يعالج الخصومات والعقبات التي واجهت «عبدالعزيز آل سعود» بفقدانه الدخل الذي كان يحصل عليه من نقل التجارة بين موانئ الخليج وسورية، وتوقفت قوافل الجمال بسبب الحصار البريطاني للخليج، وقد عرف «فيلبي» ذلك أيضاً، وما إن انتهى الصيف، حتى كان لابد من إرسال مبعوثين إلى «عبدالعزيز آل سعود» من القاهرة أو بغداد أو كلتيهما. وكان العمل يناسب ميل «فيلبي» إلى التغيير والوسيلة المتاحة، لكنه غض النظر عن ذلك بسبب وجود مرشحين أفضل وأكثر تأهيلاً ـ «ستورز» في القاهرة، وأما في بلاد الرافدين فهناك ليتشمان الذي سبق أن قام برحلتين إلى أواسط الجزيرة العربية، أو «هاملتون» في الكويت، وكلاهما يمتلك الميزات ذاتها، خبرة كبيرة بالمجتمع العربي، ومعرفة «عبدالعزيز آل سعود».



وصل «أرنولد ويلسون» من «البصرة» في منتصف أكتوبر، وزُوّد فيها بصلاحيات كاملة، لرؤية «كوكس» الذي كان يثبّت نفسه في بغداد، كان في حالة من الإحباط والاستياء؛ لأن أوامر من بغداد تعوق خططه لإدارة إقليم «البصرة»، وصرح بهمومه لـ«كوكس»، معترضاً فيما يبدو، على افتراض «فيلبي» الثابت بأن الآخرين على خطأ، ولابد من تقويمهم. ولدينا فقط رواية «فيلبي» عما حدث حين خرج «ويلسون» من مكتب «كوكس»، وبما أن المحادثة غيرت مجرى حياة «فيلبي»، فإن روايته لها تستحق أن نقدمها، مع العلم أنه لم يكتبها في يومياته في وقتها، بل دوَّنها سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠م) في كتاب غير منشور يسمى «Mesopotage»، ومسجلة كالآتي:

ويلسون: لا تعجبني الطريقة التي تدار بها الأمور هنا، وقد تناقشت مع كوكس حول هذه الأمور، وأقترح أن أناقش الترتيبات معك.

فيلبي: ما الذي تريد تحقيقه؟ لنكن صريحين تماماً، هل تريد أن تحصل على العمل الذي أقوم به؟

ويلسون: أفترض أن الأمر يصل إلى ذلك، لا أستطيع الاستمرار في العمل بالبصرة إذا كنتم هنا تنتقدون خطتي وترفضونها.

فيلبي: إذاً، لا أعتقد أن هناك حاجة إلى الشجار، تعرف أننا نعد الترتيبات لإرسال بعثة إلى الجزيرة العربية، لو أُرسلت إلى هناك لخلا لك المكان هنا، إذا استطعت أن ترتب الأمر مع «كوكس» فأنا على استعداد لأن أسلمك مكاني على الفور.

واستطاع «ويلسون» أن يرتب الأمر، أما كيف تحددت مهام البعثة، فذلك أمر غير واضح، فالبرقيات المتداولة بين «كوكس» ولندن والقاهرة توضح أن «كوكس» سيرسل فيلبي ممثلاً سياسياً له، و«الكولونيل ف. كانيلف أوين» عضواً عسكرياً، والكولونيل «هاملتون» من الكويت، وهو الوحيد الذي يعرف عبدالعزيز آل سعود، لمناقشة التحسينات في معالجة الحصار ضد الأتراك. ومما سبب الإزعاج لبريطانيا، أن قافلة كبيرة تسللت أخيراً عبر الأراضي التابعة لعبدالعزيز آل سعود من «حائل»، ويُشك أنها بتسهيلات كويتية، وكان على «هاملتون» أيضاً أن يحاول إزالة الخلاف بين «عبدالعزيز آل سعود» وشيخ الكويت، على شرط أن يوافق الأخير على لجوء

المتمردين من قبيلة «العجمان» التي غيَّرت ولاءها أخيراً. وكان على «ستورز» الذي شفي الآن، أن يلحق بهما عبر الجزيرة العربية بعد مقابلته الشريف حسين في جدة، ولكن الشريف أحبط هذا الجزء من الخطة برفضه السماح لـ«ستورز» عبور أراضيه.

تكشف رواية «هاملتون» للترتيبات عن سوء الفهم الذي يمكن أن ينشأ حين تكون وسائل الاتصال بطيئة عبر الصحراء، فعندما وصلت بغداد أنباء نجاح وقف قافلة من «حائل»، أصدر «كوكس» تعليماته إلى «هاملتون» بالذهاب إلى «عبدالعزيز آل سعود» على الفور للاطلاع على سير الحصار، وتوقع «هاملتون» المسؤول الذي يكبر «فيلبي» بأربعة عشر عاماً والصديق القديم للأمير - أن يرأس البعثة، كأمر طبيعي - حين وصول بقية أعضائها، وفي هذه الأيام، كان يُعلن عن وصول المسافرين حين تقترب القافلة بدرجة كافية لإرسال مبعوث يسبقها.

كانت قافلة «فيلبي» على بعد ساعة من الرياض حين وصلت رسالة إلى «هاملتون» تقول: إن هناك «إنجليز» يرافقونها، وخرج هاملتون للترحيب بهم، وتقابل المبعوثان، وناوله «فيلبي» رسالة من «كوكس»:

«لو أن أيدينا لم تكن مكبلة بمسألة قافلة «شمّر» هذه، كنت أنوي أن أفوضك كما تعرف، لكنني مضطر إلى تفويض موظف آخر بعد استلام رأي حكومة صاحب الجلالة، أستطيع أن أزوده بالأوامر والتعليمات النهائية... ومن المهم أن يكون الموظف الذي أزوده بتعليماتي مسؤولاً أمامي، لذا فإني أترك إدارة البعثة بين يديه، وأنا واثق من أنني أستطيع الاعتماد على ولائك وقبولك هذا الوضع في حالة لقائكما كما آمل أن تفعل».

أدى «هاملتون» واجبه وكان محقاً في انزعاجه، وناقش فقط الموضوعات التي تخص الكويت، وعاد بعد ذلك إلى الساحل، تاركاً «فيلبي» في المكان الذي يفضله، مسؤولاً عن نفسه فقط، وبعيداً عن أي اتصالات، عدا جمل سريع، مع أقرب مكتب تلغراف في البحرين أو الكويت.

الفصل الرابع

في الجزيرة العربية

إنَّ الرحلة عبر وسط الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب، التي أكسبت «فيلبي» شهرته الأولى كمستكشف، وبعد ذلك حصوله على ميدالية مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية، قام بها قبله إنجليزي آخر، ففي حرارة صيف ١٢٣٤ (١٨١٩م) القاسية، أُرسل الكابتن «فورستر سادليير» في الفرقة السابعة والأربعين من الهند للمساعدة في القضاء على القرصنة البحرية للقائد المصري إبراهيم باشا في مياه الخليج، وكان إبراهيم باشا آنذاك يخمد الحركة الوهابية في شرق الجزيرة العربية بالنيابة عن سيده سلطان تركيا، ووصل «سادلبير» إلى نجد، لكن إبراهيم باشا المنتصر كان قد غادرها قبل يومين. وتبع سادلييرالمصريين غرباً عبر ميدان المعركة «الذي تتناثر فيه جثث الضحايا» لكنه لم يلحق بهم، ووصل إلى «بئر علي» قرب المدينة؛ مركز الدعوة الإسلامية. لقد وصلت رسالته، وعاد إلى الهند عن طريق البحر الأحمر.

قام رجال إنجليز آخرون وامرأتان؛ السيدة آن بلنت والآنسة جيرترود بيل برحلات طويلة داخل البلاد، ولكن الرحلة من البحر إلى البحر ـ عدا رحلة «سادليير» ـ كانت تتم عبر الطرق التجارية المطروقة التي تربط الخليج العربي بالبحر المتوسط. هذه الرحلة الشمالية قام بها «ليتشمان» قبل الحرب بفترة قصيرة في طريق إجازته إلى إنجلترا سنة ١٣٣٠ (١٩١٢م)، وكذلك قام بها «شكسبير» من الكويت إلى السويس سنة ١٣٣٢ (١٩١٤م)، كلاهما ابتلي وخصوصاً «شكسبير» عند عبوره الصحراء بابتزاز الأدلاء، فيتفق مع الدليل ليرشده إلى الساحل، ويدفع له بناء على ذلك الاتفاق، ثم يتضح أنه يريد مالاً آخر ليتقدم أبعد من مضارب خيام قبيلته.

انطلق «فيلبي» في وسط الجزيرة التي لا توجد خرائط لها، عبر طريق يسيطر عليه أنصار الإمام محمد بن عبد الوهاب، وهو يُستخدم للحج أكثر منه للتجارة، وهو بذلك يعرض نفسه للمخاطر ذاتها. كانت سلامته مرهونة في ثقته بسيطرة «عبدالعزيز آل سعود» على قبائل وسط الجزيرة، حتى هذه الميزة أصبحت غير مضمونة عندما وصل إلى حدود الحجاز المسكونة بقبائل مشكوك في ولائها. لكن المخاطرة تتلاشى حين دخوله الحجاز نفسها، إذ كان هناك ممر آمن اتفقت بريطانيا عليه مع الشريف في القاهرة.

لم يدر كل ذلك في خلده، حين سحبت البحرية المركب الشراعي الذي يحملهم - كولونيل كانيلف أوين وخادمه الجندي الأسكتلندي «شوفيلد» - إلى «العقير» في سنة ١٣٣٥ (نوفمبر ١٩١٧م)، ولقد طوّر فكرة عبور الصحراء بعد مقابلته لعبدالعزيز آل سعود والتعرف إليه عن كثب. أعطتهم بداية رحلتهم فكرة مسبقة عن التنقل العربي المحبط الذي لا يشجع على طلب المزيد، وكما توقعوا، لم يكن هناك جِمال، ولا مؤن سوى تلك التي أنزلوها معهم، ولا خطط لاختراق الصحراء. قيل لهم: إن الجِمال كانت تنتظر، لكنها أُرسلت لترعى عندما تأخر مركبهم في الوصول. انتظروا في قلق حتى وصل قطار محمل بجِمال الأمتعة، وأرادوا أن يتخذوها مطايا لهم.

يرى العرب أن جمل الأمتعة لا يقدم مطية للضيف، فالمطية المناسبة هي الناقة الذلول، لكن الأوروبيين الذين نفد صبرهم فضلوا ألا ينتظروا. وهكذا ركب ثلاثتهم وبدؤوا رحلتهم على مطايا غير مريحة، غير مدركين أن هذه المشقة لا ضرورة لها. بالإضافة إلى الطعام والماء والبنادق، فقد حملوا معهم ليس معدات الخرائط فقط - الساعات والبوصلات ومقاييس الحرارة - ولكن أيضاً كاميرات ومناظير مقربة، صناديق كبيرة للشفرة، وحقائب مملوءة بالذهب. وبعد الهرج الذي يصحب عادة توزيع الأحمال، بدؤوا رحلتهم في الخامس عشر من نوفمبر، متجهين إلى «الهفوف» عاصمة الواحات الكبرى في «الأحساء» والمدينة الأساسية في الإقليم الشرقي، وبعد وقفة قصيرة في «الهفوف» للراحة والتزود بالمؤن، كان عليهم أن يتجهوا إلى الرياض عاصمة «الملك عبدالعزيز آل سعود».

يبدو أن السفر بالقوافل ميل مكتسب، وهو يزعج المبتدئين؛ لأنهم يجب أن يعيشوا



بشكل علني، كل فرد في الجماعة يسمع كل ما يقال، ويرى كل ما يفعله زملاؤه، وفي بلد رتيب هناك القليل الذي يفكر فيه. وكل مساء، يخلد رفيقا «فيلبي» في خيمة إلى عزلتهما، لكن «فيلبي» كان يستمتع بأساليب الحياة العربية التي يبدو أنها ناسبته. أما «كانليف أوين» الذي يرافق «سكوفيلد» لبعض الوقت، لم يجد جاذبية في التصرف مثل العرب إلا قليلاً، وفضل استخدام السكين والشوكة وعلب الطعام على دفع كرات الأرز الملأى بالدهن في فمه بيده اليمنى. بينما انجذب «فيلبي» إلى هذا السلوك بتلذذ. ومنذ البداية، استمتع بالانتصارات الصغيرة، مثل تقصير فترة التأخير، أو اكتشاف صدق مرافقيه أو كذبهم، أو إحباط محاولات بعضهم لجعل القافلة تسير ليلاً بحجة أنها أكثر سلامة من المغيرين، فقد أراد، هو وأوين، أن يريا البلد ويسافرا في النهار. وفي بعض الأمسيات، يترك رفيقيه مع علب «البولوبيف» والتعقيم، ويتحرك من دائرة إلى أخرى حول النيران، يرتشف عدداً كبيراً من فناجين القهوة الصغيرة المرة بنكهة «حب الهال»، المشروب الرئيس للبدو، ويلتقط المفردات التي يسمعها، ويعلم أخبارهم في الرعي أو السلب أو تحركات القبائل.

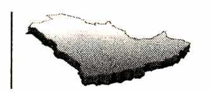
كان لابد من مراقبة مشددة تجنباً للمغيرين حتى وهم يسافرون في حماية «عبدالعزيز آل سعود». الامتدادات المتعاقبة من الكثبان المنخفضة والسهول الجرداء الرتيبة التي يعبرونها، تبدو خالية، لكنها في الشتاء تكون مسكونة، وسفوح الأودية ومجاريها تُخفي الخيام وحيوانات الرعي عن الناس الذين لم تتغير طرقهم لقرون، والتي فرضتها قسوة الطبيعة حولهم. فهم يخافون كل عابر، ونبهتهم غريزتهم أن يبقوا تحت مستوى الأفق إلا إذا كانوا مسلحين بشكل جيد، وركبوا ليكونوا المهاجمين، وكانت الإغارة بالجِمال رياضتهم ووسيلة عيشهم، فالجمل يعادل المصنع بالنسبة إليهم، والنوق تزودهم بالحليب والجبن واللحم في أحيان نادرة، والروث للوقود، والوبر للغزل، كما أنه وسيلة للتنقل، والنقود إذا كان صاحبها محظوظاً ليؤجرها. وأول لمحة للغرباء توقظ فيهم دافعاً لإخفاء كنزهم بعيداً عن العيون، لكن إذا بدرت من هؤلاء الغرباء إشارة سلام، مثل صيحة، أو إلقاء حفنة من الرمل، أو التلويح بغطاء الرأس، فمعنى ذلك نية طيبة، ويتبع ذلك إحدى المسرات القليلة في حياة البدوي: تبادل الأخبار. وبالنظر إلى حالة عدم الثقة التي يعيشها كل واحد دوماً، فإن معدل انتقال الأخبار فيما بينهم مدهش. وقد علم «فيلبي» سنة

١٣٣٥ (١٩١٧م) أنه حتى في الأودية البعيدة، يعرف الناس أخبار سير الحرب؛ أن الأتراك والإنجليز أعداء، وأن شريف مكة مسلم مريب؛ لأنه يحارب مع المسيحيين، وأن البريطانيين قد استولوا على بغداد. وحين تحدث «فيلبي» عن عدم أمان حياة الصحراء، ردّ أحد سكان المدن بأنه بالحكم عما يسمعه عن الحرب، فإن الظروف في أوروبا غير آمنة بالمثل .

إن رؤية واحة كبيرة بحجم «الأحساء»، بعد يومين من السير المرهق عبر صحراء رتيبة، متعة لا يتخيلها مسافر معاصر يقطع المسافة خلال ساعتين بالسيارة. بدت لفيلبي ورفاقه خضراء بدرجة لا تصدق، مروا ببساتين وحدائق من النخيل، وينابيع باردة وساخنة، ولكل بيت بئره الخاصة، ويمكن للناس أن تستحم وتلبس ملابس نظيفة، والأروع من ذلك أنها كانت مركزاً لحكومة منظمة، يديرها، نيابة عن أميرها، عدد قليل من الأتراك المحنكين الذين بقوا بعد رحيل الإدارة العثمانية، وقد استضافوا «ليتشمان» سنة ١٣٣٠ (١٩١٢م)، وكانوا سعداء بالحديث مع زوّار من العالم الخارجي.

كان أمير إقليم «الأحساء» عبد الله بن جلوي ابن عم عبدالعزيز آل سعود وأكثر أتباعه قوة، وكان نموذجاً للحاكم الحازم، ويمتلك كل الثقة بأن هذه العلاقة مثمرة، فرحب بزوّاره، وشجّعهم على الفرجة في الواحة، وأعارهم خيولاً من مزرعته لهذا الغرض، لكن الحامية التي أُرسلت معهم كانت أقل استعداداً للمخاطرة بمواجهة السخط الشعبي، ودفعت بالغرباء بالزي الأجنبي في أزقة فرعية خالية من الناس بدل أن تريهم الأسواق والطرق المفتوحة. أزعج خجلهم «فيلبي» الذي كان يتوق إلى الشراء والتفتيش والتمحيص، لكن الطبيعة الرسمية للبعثة، جعلت من ذلك أمراً غير وارد، وقنع بأن يطلب من الأمير معروفاً بذلك. وهكذا سُمح لهم بزيارة مستودع الأسلحة والجامع الكبير أيضاً. ولاحظ «كانليف أوين» أن في المستودع بعض الأسلحة التي أرسلت إلى عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م) لتعزيز الجهد الحربي البريطاني ومازالت في صناديقها. وعُنف «فيلبي»، عندما بدأ يقيس قبة المسجد، وكان محظوظاً أن سمحوا له بتصويرها.

زودهم «ابن جلوي» بجِمال أفضل، قبل بدء رحلتهم إلى الرياض التي استغرقت



خمسة أيام، وأصر على أن يرتدوا الزي العربي؛ لأنهم سيعبرون إقليم نجد المتشدد، وأكرمهم بهذا الزي: «الثوب»، وبالنسبة إلى أناس في مركزهم لابد أن يرتدوا فوقها سترة ملونة «زبون»، وأخيراً العباءة المشهورة في كل الجزيرة، المنسوجة من وبر الجمال، وياقتها مطوقة بخيوط ذهبية، ثم الصندل وغطاء الرأس المعروف ليكتمل الزي، وقد رأى فيه «أوين» لباساً غريباً يمكن أن يرتديه فوق ملابسه، ولم ينجح «سكوفيلد»، على الرغم من كل محاولاته، أن يبدو كشخص عربي، أما «فيلبي» فقد شعر بالراحة في هذا الزي، وتصوّر به على الفور، وبدأ بالفعل بإطلاق لحيته، وهو الأمر المعتاد في الجزيرة العربية.

سار الموكب تحت حراسة حامية جديدة، عبر السهول والجروف وحزام الكثبان الرملية الحمراء المرعب والمسمى «الدهناء»، ولاحظ «فيلبي» أن رعب هذا الحزام الرملي مبالغ فيه بشدة. وبعد خمسة أيام صعدوا آخر سلسلة من التلال مع تكبيرات بحمد الله، ليروا أمامهم خط الخضرة لبساتين الرياض.

كان «فيلبي» في اليوم السابق قد أرسل مذكرة بوصولهم إلى عبدالعزيز آل سعود، وبذلك علم «هاملتون» أن بقية البعثة قد لحقت به، وجاء لمقابلتهم ثلاثة رجال يركبون الخيل، أحدهم المراسل الخاص لهاملتون، والآخران من أتباع «عبدالعزيز آل سعود»، خصص أحدهما ليكون رفيقه عدة أشهر قادمة. وكره «فيلبي» ذلك «كُرْهاً يتزايد كل يوم من رفقتهما»، هذا الرجل كان «إبراهيم بن جميعة»، رئيس المراسم عند عبدالعزيز آل سعود وقائد حرسه ـ للوهلة الأولى سار كل شيء بطريقة حسنة، نزلوا التل وهم يتبادلون التحيات. وفي الطريق، قابلوا «هاملتون» الذي أصيب بصدمة - كما أسلفنا – حين أعطاه «فيلبي» الرسالة التي أحضرها من كوكس.

كان الوقت ١٥ صفر ١٣٣٦ (الثلاثين من نوفمبر ١٩١٧م)، واليوم جمعة ظهراً، بوابات المدينة مغلقة، والمدينة صامتة، فكل سكانها في الصلاة.

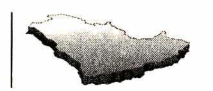
«فجأة كانت هناك حركة كحفيف ورق الشجر، فتحت أبواب المدينة على مصاريعها، وعادت الحياة إلى طبيعتها في عالم بدا ميتاً». وقفت الجماهير الخارجة من المسجد برهة، لتحملق في المشهد غير المألوف، والموكب المتخفي يسير ببطء في ساحة

القصر. ولدهشة «فيلبي»، حين أرشدوهم إلى الداخل، لم يقابلهم «عبدالعزيز آل سعود» على الفور، بل والده «عبد الرحمن»، وكان «رجلاً يميل إلى البدانة، حاد الملامح، بعينين متألقتين، وقادنا إلى الوسائد المصفوفة لنجلس». هذا هو الرجل الذي أعاد «عبدالعزيز آل سعود» فتح نجد باسمه، لكنه لا يأتي هذه الأيام إلى القصر إلا نادراً، ومجيئه إلى القصر اليوم، بسبب صلاة الجمعة، فهو يظهر كل جمعة ليؤم المصلين ويقوم بزيارة مجاملة لابنه، وتصادف أن جاء الزوّار في اليوم والساعة التي يحضر فيهما. وتبعاً للعادات العربية، فمادام هو في القصر فله الأسبقية على أكبر أبنائه. بعد فترة خرج «عبدالعزيز آل سعود» لتحية الضيوف، ولم ير «فيلبي» ثانية الأب والابن معاً بعد ذلك.

أُسكنت البعثة مؤقتاً في القصر، وأطعمت من المطابخ الملكية، وكانت هناك حامية تنتظرهم لحراستهم إذا أرادوا الخروج. لكن معظم وقتهم كانوا يقضونه في اجتماعات حيث كان لديهم عمل شاق، فقد كلفهم «كوكس» بثلاثة أعمال رئيسة: أهمها استطلاع ما يمكن أن يفعله «عبدالعزيز آل سعود» لتعزيز الحملة البريطانية ضد الأتراك. وكان على «أوين» أن يقدر كمية الأسلحة التي يحتاج إليها إذا وافق على عمل ما يتوافق مع الأهداف البريطانية بمهاجمة عدوه «ابن رشيد» في «حائل» الذي كان حليفاً للأتراك.

كان على «فيلبي» و«هاملتون» أن يصلحا بين «عبدالعزيز آل سعود» وجاريه الشرقيين: شيخ الكويت الجديد، وقبيلة «العجمان» على حدود الكويت، وإذا نجحت محاولتهما، فستتحسن فرصة حصار الأتراك وحلفائهم في وسط الجزيرة العربية.

كانت البضائع تُهرب شمالاً بأرباح طائلة لمن يقومون بذلك، وكان من الصعب تنظيم الحصار؛ لأن ميناء الكويت كان محطة لتخليص البضائع لنجد وبلاد الرافدين وللأراضي التي في أيدي الأتراك أيضاً. وأخبرهم «عبدالعزيز آل سعود» أن عداوة الكويتيين والعجمان له منعته من التحرك شمالاً ضد «حائل» في الصيف الماضي. وكانت المهمة الثالثة للبعثة تصفية الأجواء وتنقيتها بين «عبدالعزيز آل سعود» وشريف مكة.



لم يكن «فيلبي» و«هاملتون» يعرفان شيئاً عن وجهات النظر في المهمة الأخيرة. و«رونالد ستورز» الذي كان من المفروض أن يكون معهم لم يصل بعد، وقد علموا أن شريف مكة رفض السماح له بالمرور؛ لأن عبور الصحراء موضوع خارج البحث؛ لأنه خطير وغير مضمون حتى مع وجود مرافقين، مما يبرهن على أن «عبدالعزيز آل سعود» ليس في موقف يمكنه من السيطرة على أواسط الجزيرة العربية. وهكذا كان المبعوثون البريطانيون الثلاثة الذين لا يعرفون سوى وجهة نظر حكومة الهند حول السياسة في الجزيرة العربية، على مسؤوليتهم الخاصة.

وجدت البعثة أن «عبدالعزيز آل سعود» رجل لا يكل، يقوم بالمقابلات، يستمع إلى العرائض، يحكم في القضايا، يتناقش مع زوّاره، يتوقف فقط من أجل الصلاة، ولم يقطع هذه العادة إلا مرة أو مرتين خلال وجود البعثة لحضور احتفالين: أحدهما زفاف في العائلة وقد دعوا إليه، ومرة في استعراض لركوب الخيل اشترك فيه مع أبنائه. في هذه الأوقات، وكذلك في إحدى المرات التي زارهم فيها في مكان إقامتهم، ولم يقل شيئاً عن رائحة التبغ المنتشرة، تأدباً، رأوه مسترخياً وسعيداً، وكان في باقي الأوقات مشغولاً، يعمل مكتفياً بالقليل من النوم، حيث يُطفأ المصباح النحاسي الهندي المعلق أعلى العمود في القصر، حين يخلد إلى النوم. وجدوه محدثاً طلق اللسان، غير معتاد على أساليب التفكير الغربية، لكنه مفاوض صلب، وضليع في سياسات الصحراء، وطبيعة ولاء القبائل وتحالفاتها من بلاد الرافدين حتى الحجاز. وأحياناً حين يريد تمهيد الأرض لموضوع جديد، يرسل إلى مضاربهم بابن عم له دمث ومنصف، هو أحمد بن ثنيان الذي نال تعليماً جيداً في إستانبول، ويتحدث التركية والفرنسية، وغالباً ما يظل صامتاً حين يعالج «عبدالعزيز آل سعود» الموضوع بنفسه. وحين يعقد اجتماع دون جدول أعمال، أو تنظيم للأفكار، أو أهداف متفق عليها، يكون هناك مجال واسع للاستطراد، ومن الصعب الوصول إلى أساس للتفاهم.

كان الوفد البريطاني مخولاً بسماع وجهات النظر فقط، وأما التعهدات بإرسال السلاح والنقود فتبت فيها بغداد أو الهند. كانت طلبات «عبدالعزيز آل سعود» شديدة، وأُخذ البريطانيون ببلاغته وجو السلطة حوله، وزكوا بتزويده بما طلب: أربعة مدافع ميدان، وعشرة آلاف بندقية، وذخيرة كافية، وعشرين ألف جنيه إسترليني لشراء

الطعام وحيوانات النقل، وخمسين ألف جنيه إسترليني شهرياً، يدفع منها عشرة آلاف للرجال الذين سيقومون بحملة على «حائل» تستغرق ثلاثة أشهر.

كان «فيلبي» مخولاً أن يقرضه النقود، وأعطاه عشرة آلاف أحضرها معه من الساحل، وترك عشرين ألفاً وراءه في «العقير»، وعلّل مع «أوين» توصياتهم بالموافقة بأنه إذا حقق «عبدالعزيز آل سعود» سيطرته على شرق الجزيرة العربية، وهو ما يناسب بريطانيا، فهو يحتاج إلى مساعدتهم، بالقدر نفسه وربما أكثر من حاجة البريطانيين إلى مساعدته.

بدا «عبدالعزيز آل سعود» متردداً أكثر من البعثة، واعتقد «هاملتون» في لحظات معينة، وهو الذي لديه خبرة أكبر بسياسات شرق الجزيرة العربية، أنه يماطل؛ لأن الأتراك مازالوا يعززون مواقعهم في الجزيرة العربية، واستولوا على المدينة المنورة، وفي وضع يسمح لهم بإرسال التعزيزات إلى «حائل»، والمدينة أقرب من بغداد، واعتقد «هاملتون» أن نتيجة الحرب غير مضمونة بمعايير «عبدالعزيز آل سعود»، وإذا انتصر الأتراك فإنه سيكون وحده، ويرضى بسقوط شريف مكة، لكن إذا انتصرت بريطانيا فإنه يحتاج إلى أسلحة كافية ليتأكد أنه على الأقل سيحصل على معاملة متساوية مع صنيعتهم الشريف: «لكي يكون مفيداً لنا سيحتاج إلى وضع يواجه به ملك الحجاز»[(١)] ـ كما كان البريطانيون يدعون الشريف آنذاك. وهكذا، وافق هاملتون ـ بعد تردد ـ على دعم قائمة مطالب الإمدادات الطويلة لعبدالعزيز آل سعود.

نشأت بعد عشرة أيام من المفاوضات بعض المساومات المتوقعة حين يتطلب الإنجاز موافقة القبائل التي لم يكن ممثلوها حاضرين، أو ليس هناك سيطرة كاملة عليها. سيبذل البريطانيون ما في وسعهم لتقليم أظافر «العجمان»، وسيبذل «عبدالعزيز آل سعود» جهده لمنع تسرب الإمدادات من الكويت إلى الأراضي التي تسيطر عليها تركيا، وإذا زوّد بالأسلحة والنقود الكافية، فسيهاجم «حائل» في الوقت الذي يراه مناسباً. لكن لم يحدث أي اتفاق بخصوص شريف مكة، وفي ٤ ديسمبر،

---

(١) «أي. أو. أل/بي و إس/ ١٠/ ٣٨٩، ص١٨-٢٨٩١». تقرير هاميلتون للندن بواسطة المكتب العربي، ١٣٣٦(١٩١٨م).



غادر «هاملتون» إلى الكويت عندما اعتقد أنه أدى دوره وكبح غضبه، وأما «فيلبي»، الذي كان يأمل في نتائج أكثر دقة من تلك التي حصلوا عليها في مناقشات عامة، فطلب مقابلة خاصة، ووافق «عبدالعزيز آل سعود» على ذلك «في مكان مريح ملحق بالجناح الملكي».

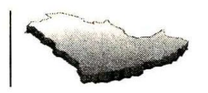
كان «فيلبي» في هذه المرحلة من مغامراته في الجزيرة العربية، لا يكتب يوميات مفصلة كتلك التي توافرت في السنوات الأخيرة، إلا إذا كان مسافراً في الصحراء. كان يعتني بشدة بمذكرات سفره، ومنذ اللحظة الأولى التي خطا فيها بأرض بلا خرائط، وبخرائط مشوشة، سجل الأوقات، واتجاهات البوصلة، والمسافات التي قطعها، والارتفاعات والمعالم الأرضية، في أوقات الراحة التي كانت أحياناً لا تتعدى الدقائق. أما تسجيله للمحادثات فهو بالضرورة أقل دقة بسبب عدم اللياقة بكتابة ملاحظات مع صحبة جليلة. الرجال الذين لا يستطيعون الكتابة يعتمدون على ذاكرتهم، ولا يثقون بأي أوروبي يحاول تدوين ما يقولونه. كل ما نعرفه إذاً من مئات اللقاءات الخاصة مع «عبدالعزيز آل سعود» في هذه المرحلة الأولى، أن هذا اللقاء استمر خمس ساعات، ومن بين الموضوعات التي تمت مناقشتها موقف «عبدالعزيز آل سعود» من المسيحية، وتوقه إلى هزيمة شريف مكة.

أخبر «عبدالعزيز آل سعود» «فيلبي»، أن المسيحيين أصحاب عقيدة و«أهل كتاب»، ولكونهم مؤمنين حسب شريعتهم، فهم أقل عداوة من المشركين أو أولئك الذين يشركون مع الله كائنات أخرى يعبدونها. الإيمان النقي بالله هو الأكثر أهمية بالنسبة إليه من أي شيء آخر. العادات المتساهلة للحجازيين والأتراك، بقبولهم الفساد الذي لم يكن معروفاً أيام الإسلام الأولى، واتباعهم البدع الحديثة، وإجلالهم لمقامات الأولياء، وتساهلهم بشأن الموسيقى والتدخين وشرب الخمور، كانت أموراً بغيضة إلى شعبه، الذي أخذ على عاتقه - بقيادة عبدالعزيز آل سعود، وباستلهام تعاليم «محمد بن عبدالوهاب» - تطهير الممارسات الدينية من درن القرون الذي علق بها، والدعوة إلى العودة إلى عقيدة وحدانية الله، وقد عرفوا ضرورة الإيمان الفردي، وحقيقة الجزاء لكل المؤمنين المخلصين. هذه العقيدة النقية نشروها لمدة قرنين، ولو احتاج الأمر لاستخدام السيف. والنواة الصلبة للمؤيدين الحاليين للدعوة، هم إخوانه من البدو الذين دعاهم للقيام بهجرة جديدة، وهي تعادل المستوطنات التي

تجهز المحاربين لنشر الدعوة. قبل أربع سنوات، دفعتهم حماستهم لطرد الأتراك من إقليم «الأحساء»، وقد ظن «فيلبي» أن أهدافه سياسية، لكنه اقتنع برأي الإخوان أن السياسة والدين شيء واحد ولا ينفصلان.

لم يكن، بأي حال من الأحوال، كل المؤمنين يتفقون معه في الرأي حول المسيحيين، أو حكمة المساعدة الممكنة للبريطانيين، فبالنسبة إلى بعض رجاله: كل المسيحيين مشركون، لا يجوز الأكل معهم أو حتى الحديث إليهم، وأنه بتعاونه معهم يقوم بعمل مستهجن مثل الشريف حسين، وحين قتل رجال «ابن رشيد» «شكسبير» مثلاً، حملوا خوذة الشمس الخاصة به كتذكار للنصر، وقام الأتراك بعرضها في المدينة دليلاً على تهاون «عبدالعزيز آل سعود»، وصدَّق بعضهم الحكاية. لكنه لم يكن يستبيح الحرمات، بل كان مصلحاً، وبتوسيع أرضه فهو ينشر الإيمان الصحيح، ولا مانع من التحالف مع المسيحيين، إذا كان هذا التحالف يخدم أهدافاً إسلامية.

حوّل «فيلبي» دفة الحديث إلى موضوع أكثر إلحاحاً بعد سماعه لهذا الخطاب الكرومويلي (نسبة إلى كرومويل)، وطلب مصالحة ما مع شريف مكة، فعبّر «عبدالعزيز آل سعود» عن ذلك بقوله: «من هو إذن ليدعو نفسه ملك العرب؟ ولماذا يأخذ راتباً أميرياً من بريطانيا، بينما المعونة التي تقدم إليه زهيدة؟» (كانت معونة بريطانيا لعبدالعزيز آل سعود منذ ربيع الأول ١٣٣٥ (يناير ١٩١٧م) تعادل خمسة آلاف جنيه إسترليني في الشهر، بينما المعونة للشريف في ذلك الوقت تعادل ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني تدفع بالعملة الذهبية). وعبثاً حاول «فيلبي» أن يوضح أن الشريف يقدم لبريطانيا خدمات قيمة مقابل نقودها، بينما «عبدالعزيز آل سعود» لم يحرك إصبعاً لمساعدتها. واستطرد «عبدالعزيز آل سعود»: ألا يقنع أحد الشريف بأن «عبدالعزيز آل سعود» يحكم الجزء الأكبر من وسط الجزيرة العربية؟ وفي مرحلة من هذا التنديد بالشريف، ذكر «فيلبي» اسم «ستورز». ورد «عبدالعزيز آل سعود» لو رأى «ستورز» الرياض بنفسه، فسيقنع الشريف بأن نجداً تسيطر على أواسط الجزيرة العربية، ولماذا لا يسافر «ستورز» إلى البحرين بحراً ومن هناك يقوم بزيارته المرتقبة منذ فترة؟ وأجاب «فيلبي» بأنها ستكون عملية بطيئة جداً، وعرض في تلك اللحظة ما رآه فكرة صائبة تناسب ميوله، وفي الوقت ذاته تعرف



إلى اعتداد «عبدالعزيز آل سعود» بنفسه. قال: لابد من تسوية ما مع الشريف، وللوصول إلى ذلك، عليه مع «ستورز» أن يحملا شهادة عن مجال سيطرة «عبدالعزيز آل سعود». فلماذا لا يعبر الصحراء إلى «الطائف» في الحجاز، ويقابل «ستورز» هناك، ويعود به إلى الرياض؟ وبذلك يقلبون المائدة على الشريف، بتفنيد مزاعمه بعدم أمان السفر عبر صحاري «عبدالعزيز آل سعود». وقد كتب «فيلبي» لاحقاً: «لابد أن أعترف أن دوافعي لتقديم العرض كانت ذات طبيعة مختلطة، وليست مبنية بشكل كلي على متطلبات الوضع الحقيقية، ولكن تلك دعابة، ولم أندم على عملي قط». قد تبدو الفكرة كدعابة أو كشيء بسيط، لكنها كانت تعبر عما يفضله، ويبدو أنه لم يفكر برد الفعل المرجح عند الشريف حين يرى دليلاً يقلقه، ويثبت أن «عبدالعزيز آل سعود» يسيطر سيطرة كاملة على وسط الجزيرة العربية، إذا وصل عنده سليماً معافى.

انتهت المقابلة الدافئة بسعادة، فقد عثر «عبدالعزيز آل سعود» على خطة تجعل الشريف يخرج عن طوره، وذلك يتفق مع حسه للدعابة ومع سياسته أيضاً، ووضع الخطط الفورية لمغادرة «فيلبي» على أفضل الجِمال، يحرسه رجال من كل قبيلة على طول الطريق، وأرسل «فيلبي» في الحال مراسلاً إلى ساحل الخليج يحمل برقية يعلم فيها بغداد بقراره، ويطلب من «كوكس» أن يرتب مع القاهرة كي يقابله «ستورز» في «الطائف»؛ المدينة الجبلية جنوب مكة. وتحدد موعد المغادرة في التاسع من ديسمبر - قبل وصول رد بغداد بالموافقة أو الرفض بوقت طويل - ووكله «عبدالعزيز آل سعود» إلى رعاية الله، وأعطى الحراس تعليمات بطاعته في كل شيء، وانطلق «فيلبي» تجاه الغرب، راضياً تماماً، إلا عن «إبراهيم بن جميعة»، القائد الذي وُكِل إليه، وسيقوم«أوين» و«سكوفيلد» برحلة محلية واحدة، ليتفقدا مزرعة خيول «عبدالعزيز آل سعود»، ثم يعودان بعد ذلك إلى الساحل الشرقي: «وهكذا في كل تجوالي في الجزيرة العربية كنت وحيدًا».

بقي وحيداً، نعم، عدا حراسه العرب، ووقع في رحلته، بما وقع فيه ت. إي. لورانس بشكل طبيعي في الحجاز، مع الأساليب الديموقراطية العربية عند إقامة مخيماتهم: «لا يوجد تمييز بين العرب، بشكل طبيعي أو تقليدي، إلا السلطة الخفية التي تُعطى لأحد الشيوخ بفضل إنجازاته، وقد علموني أنه لا يمكن لرجل أن يكون قائدهم إلا إذا

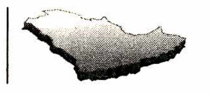
كان يتناول طعامهم، ويرتدي لباسهم، ويعيش في مستواهم، ومع ذلك يبدو أفضل منهم في ذاته»[(١)].

«أن تبدو أفضل» ليس أمراً سهلاً حين تسافر مع متشددين دينيين في نجد، ولاحظ «فيلبي» أن الدليل الرئيس الذي يقودهم يتناول طعامه مع حراس الأمتعة، وليس مع الحامية المرافقة له، وعلم أن سبب ذلك مرافقته البعثة على كره منه، فهو ينتمي إلى الدائرة الداخلية للإخوان، وهو غير مستعد لأن يتناول الطعام مع كافر (أي فيلبي) حتى لو كان يلقى القبول عند «عبدالعزيز آل سعود»، وبسبب معرفة هذا الرجل بالصحراء وأسماء الأماكن التي فيها، بدأ يتودد إليه، وقد انتفض فرحاً كالطيور حين وافق ذات يوم على أن يتناول الطعام معه (كانت الإيماءة مؤقتة، وذوت حين تقابلا ثانية في جو نجد الأكثر رطوبة). إذا ما تركنا رسم الخرائط جانباً، فإن وقت فراغ «فيلبي» كان محدوداً، ومع ذلك فقد كان يمتع نفسه بالتقاط العينات الجيولوجية، وفي كل مساء يتشرب المأثورات الشعبية عن العادات الاجتماعية، والأنساب القبلية، ويستمع إلى الحكايات الشعبية عن الحجارة التي مشت، وعن الملائكة التي تقرع الطبول لصنع الرعد، وسمع تخمينات كثيرة حول الحرب؛ لو لم يكن تعدد الزوجات مقيداً في أوروبا، لكان كل رجالهم قد قتلوا الآن في الحرب! اهتمامه بطريقة تفكير الرجال وازن المضايقات الصغيرة في السفر، مثل التوقف غير المبرر. كان في عجلة من أمره، وذات مرة حين بدا له أن وقت التوقف للصلاة طويل، عبَّر عن عدم رضاه بالركوب وحيداً، فدفع ثمن استعجاله، إذ توقف الجمل، ورجع عدواً ليلقي به إلى جانب صف المصلين.

تعرف المناطق المرتفعة في الجزيرة العربية بالبرودة ليلاً، وقد ابتليت البعثة بعواصف مطرية غزيرة متقطعة، رجال حراسته المضطرون للسفر بملابس مبتلة الذين يرتعشون من البرد، لا يرتاحون لما يذكره لهم بأن الشتاء في بلاده دائماً بهذا الشكل، ومع ذلك كان وقتهم جميلاً، وكانت المسافة من الرياض إلى الطائف أربعمئة ميل على خط مستقيم، والطريق التي ساروا فيها تزيد خمسين ميلاً. قطعوا المسافة

---

(١) «تي. أي. لورانس»، «The Seven Pillars of Wisdom»، الفصل ٢٥، ط.١٣٥٤(١٩٣٥م)، ص١٥٧.



في خمسة عشر يوماً، وفي الواقع لقد ساروا في طريق الحج المميز ببقايا مواقد النيران التي أشعلها الحجاج في سنوات سابقة.

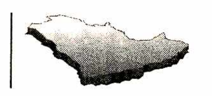
تختلف الصحراء من يوم إلى آخر في لونها وتركيبها، وتنتشر في أواسط الجزيرة العربية أصقاع على شكل أهلة يجب أن يقطعها المسافر في طريقه من الشرق إلى الغرب، وأول هذه المنحنيات الطويلة «الدهناء» الحزام الرملي الأحمر الذي كتب عنه «فيلبي» إنه مُبالغ في تقدير رعبه، وقد نظر إلى الرمال بجدية أكثر حين عرف امتدادات أوسع وأكبر. على بعد قليل شرق الرياض يقع الحاجز الجبلي لجبل «طويق»، واسمه يعني الدائرة الصغيرة، لكنه أكبر من ذلك بكثير، فرجال الحراسة يرونه حيث يرتفع بعيداً في الشمال من إقليم «القصيم» في الطريق إلى «حائل»، ويقال إنه ينتهي في الجنوب المجهول الذي لم يكتشفه أحد. وإلى الغرب قبل الوصول إلى جبال الحجاز، تنتشر في الصحراء «اللابة» التي تدفقت من براكين سابقة، وتقع الآن على مساحات واسعة تسمى «الحَرَّة» .

مرت الرحلة بـ«الدرعية» على خُطا «سادليير Sadlier» حيث خرائب سنة ١٢٣٤ (١٨١٩م) لا تزال موجودة، كما هي الآن: حائط مهدم هنا، وقوس مقنطر منهار هناك، شاهدة على بطش إبراهيم باشا. مروا في اليوم الثالث من رحلتهم بقمة جبال طويق التي تشبه كل حواف الجبال في الجزيرة، ترتفع بالتدريج من جانبها الشرقي، ثم تهبط إلى جرف منحدر في جانبها الغربي. وتكره الجِمال السير على الصخور المنحدرة، فأقدامها خلقت للسير على الرمال الناعمة، هبطت متمايلة تئن إلى أسفل المنحدر، وأينما نظر «فيلبي» خلفه، فلن يرى آثاراً للطريق التي ساروا فيها. الميزة الوحيدة لمنتصف الشتاء هنا، أن العشب ينبت، ومياه الأمطار تتجمع في برك، وتكثر حيوانات الصحراء وطيورها آنذاك؛ غزلان وأرانب برية وثعالب وغربان والحجل والحبارى. وعند قدوم الشتاء، يحدث بين حين وآخر، أن تمر وسط خيام الرعاة السوداء، يرعون قطعانهم من الجمال والأغنام والماعز، ومعظم الحيوانات حوامل؛ لأن هذا هو وقت التلقيح. وبينما هم يتقدمون من منطقة رعي إلى أخرى، يعرّف أحد رجال الرحلة نفسه كرفيق، بأن يصعد على قمة ربوة، ويعلن اسم قبيلته ودوره كمراسل لعبدالعزيز آل سعود، ويدعو كل من يأتي إلى الطعام والقهوة. لم يكن الطعام المقدم وافراً، فالعرب يسافرون خفافاً، وعدا صيد أرنب بري أو اثنين، فالطعام

مكون من الأرز والتمر. ويصعدون بصورة غير ملحوظة، ويدرجون بتثاقل عبر سهول كبيرة، تقطعها أحياناً نتوءات بركانية، وبعيداً في الشمال والجنوب ترتفع جبال بقمم حادة، يسأل «فيلبي» عن أسمائها التي لا يعرفها الأدلاء غالباً. وكلما ازداد البرد والرطوبة، هبطت روح المرافقين المعنوية وثقلت خطواتهم، حتى لجأ «فيلبي» عند نهاية السير من كل يوم إلى تقديم جائزة مالية لأول من يصل إلى هدف مرئي: «لم أستطع أن أقنعهم بالخضوع إلى اختبار تحمل للمسافات الطويلة». وبدا الخطر فقط، حين وصلوا إلى مضارب القبائل على حدود نجد ـ الحجاز ـ وهي التي تتأرجح في الولاء بين «عبدالعزيز آل سعود» وعائلة الشريف الهاشمية. رؤساء هذه القبائل «عتيبة» و«حرب»، إلى الغرب، قبيلة «البقوم»، ويقال: إنها موالية للشريف. عند ظهور راكب جمل هنا على قمة جرف يثير الإنذار بالخطر وقصص الحروب السابقة، ولكن الحراسة المرافقة لفيلبي كانت كبيرة وكافية، وتسافر خفيفة بحيث لا يمكن تعرضها لغارة مفاجئة. ولمدة خمسة أيام لم يروا أحداً، حتى تهاونوا، وأصابهم رعب مزعج قبل مسافة قليلة من «الخرمة» المدينة/الواحة، فقد تعرضوا لكمين ـ صف من مواسير البنادق، وصياح متحدٍ قاس أجش. الرفقاء الذين كانوا في الخلف لحقوا بهم وبدؤوا النقاش. وهدأ الاضطراب أخيراً، واستطاعوا تحويل المواجهة إلى حوار، ولكن «فيلبي» أُبعد عن ذلك، فحضور شخص مشرك، إذا اكتشف، قد يغيّر الموقف. ومن ذلك الوقت فصاعداً، بدؤوا يتحركون بحذر شديد، وأخيراً، عرّج «فيلبي» على البلدة المسماة «الخرمة»، تعباً من التهاب سببه له رحل الجمل، إضافة إلى نقص الطعام. وقد كاد صبره ينفد من «إبراهيم» الذي يعارضه مع أن العكس هو المتوقع؛ فهو يتباطأ حين يريد أن يسرع، ويحمّل الجِمال حين يكون هو تعباً.

كل رجال البلدة كانوا خارجها يحاربون بنقود الشريف، وأميرها خالد بن لؤي، تحول إلى موالاة الوهابيين، وكان خارج البلدة، وتقول الشائعات: إنه يفضل عدم إظهار ولائه لأي من الطرفين. الرضا الوحيد، ليس إلا قطع أربعة أخماس المسافة، وجبة طيبة من لحم الجمل الذي يتذوقه «فيلبي» أول مرة: «خشن وصعب المضغ، لكنه مشبع مثل لحم البقر الذي لا يقبل عليه الأهالي».

انطلقوا في أرض الحجاز في اليوم التالي، داعين الله أن يحميهم، تاركين البرية



الكبيرة المتصاعدة في صحراء معروفة، إلى حاجز الجبال المجهول الذي يفصل وسط الجزيرة العربية عن البحر الأحمر، ولدهشتهم لم يواجهوا أي عقبات، وكان «البقوم» الذين يعبرون أرضهم يرعون قطعانهم بسلام. وفي ليلة عيد الميلاد المقمرة، على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم في البرد والهواء القارس، فكر «فيلبي» أن المشهد كأنه في «بيت لحم». وأفسد عليه دخول الطائف مضايقة إبراهيم الأخيرة، توقف فترة طويلة بحجة الصلاة، بينما «فيلبي» يجلس محرجاً وسط العرب المحليين الذين سمعهم يتساءلون لماذا لا ينضم إلى رفاقه. واتضح أن التوقف راجع إلى رغبة إبراهيم في انتهاز الفرصة وارتداء ملابس أنيقة تجعل من ملابس «فيلبي» التي تمزقت من السفر تبدو مخجلة، لكن الإحساس بالإنجاز خفف من ضيقه. إنه يوم عيد الميلاد، وقد قاموا برحلة دون منغصات، تعد مستحيلة في رأي الشريف، وبسرعة غير متوقعة.

تعد الطائف المنتجع الجبلي لجدة ومكة، وللرياض الآن، وتقع على هضبة تحفها قمم قاحلة، وقرب جرف ينحدر نحو السهول الساحلية على البحر الأحمر. بُنيت قصورها العالية البيضاء التي زينها أصحابها الأتراك بشرفات ذات درف مزخرفة. وبدت بعض المباني بلا نوافذ وخربة نتيجة لفعل الحامية التركية حين بدأ الشريف تمرده سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م)، لكن التأثير العام كان نوعاً من الروعة لم تشهده نجد من قبل. تصعد إلى منازلها على درجات عالية بيضاء، وللمساجد مآذن أنيقة رائعة، والحارس يظهر سلاحه بتدريب متقن. كان الوصول خيبة أمل لفيلبي، لم يكن أحد يتوقعه، و«ستورن» غير موجود ليقابله. لا أحد قد سمع عن أحد منهما، وعلى عكس ما أخبروه، لم يكن هناك تلغراف أو تليفون إلى جدة أو مكة ليسأل عن الرسالة التي أرسلها عن طريق بغداد ليخبر أنه في طريقه إلى الطائف. رحب به المسؤولون المحليون التابعون للشريف، بكرم الأخلاق المعتاد، وقدموا له الطعام وغرف النوم، وكان عليهم أن ينتظروا في «الطائف» حتى يعود الرسول من مكة المكرمة الذي غادر ليسأل الشريف ماذا يفعل معهم؟ فظلوا معلقين مدة ثلاثة أيام.

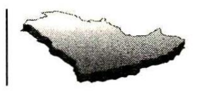
كانت الرسالة التي جاءت من مكة مؤدبة جداً، ولكنها محملة بأوامر إلى أمير الطائف تبين أن الشريف لم يكن سعيداً، لقد دعا «فيلبي» إلى جدة، ورفاقه المسلمين إلى مكة المكرمة، وأُخبر الأمير أنهم يجب أن يغادروا الطائف بكل حوائجهم أمراً جعل

شك «فيلبي» في محله بأنه لن يستطيع رؤيتهم بعد ذلك، وأنه لا يتوقع عودته إلى الطائف، ومن ثم إلى الرياض كما كان يعتزم، وفكر في حيلة مراوغة، إذ ترك بعض قافلته وحوائجه بحجة معقولة؛ لأن نصف جِماله قد أرهقها التعب، مؤملاً أن يحدث الأفضل، وسار في اتجاه جدة والسهل الساحلي الرطب.

كان الوصول إلى هناك عودة إلى رفاهية الحياة الأوروبية، حيث الأسرّة الجيدة، والوجبات المنتظمة والمشروبات لاستعادة صحة الجسد المتعب؛ حصل «فيلبي» على كل ذلك في مقر البعثة البريطانية لدى الشريف، وعلى يدي رئيسها التنفيذي «الميجور ياسيت»، فقد كان المندوب البريطاني الكولونيل س. إي. ويلسون غائباً، وكان الوصول أيضاً عودة إلى عالم الحرب المكتوب، الأخبار والجرائد وبرقيات وكالة رويتر.

وصل «فيلبي» جدة في اليوم الأخير لسنة ١٣٣٦ (١٩١٧م)، ولقد حدث الكثير منذ ترك البحرين في نوفمبر، حتى إن التغيرات الحربية لا يمكن استيعابها في جلسة استماع واحدة. الخبران اللذان صدما «فيلبي» أول وهلة، احتلال الجنرال اللينبي للقدس، ووفاة الجنرال «مود» بالكوليرا في بغداد. لحسن الحظ، أن الشريف الذي كان في مكة المكرمة، لم يكن في عجلة من أمره لمقابلته، وكان لديه أسبوع من الفراغ يستوعب فيه أخبار الحرب الأخرى، فقد كان هناك أخبار كثيرة مهمة عليه أن يهضمها. والأمر الأكثر خطورة أن «البلاشفة الشيوعيين» استولوا على السلطة في روسيا، ووقعوا هدنة مع الألمان، وبالنسبة إلى رجل تابع إلى حكومة الهند فإن هناك عواقب خطيرة لهذه الكارثة تتمثل في تأثيرها المحتمل في القوات الروسية في فارس والقوقاز، فإذا استسلمت هذه القوات سيصبح الطريق إلى آسيا مفتوحاً للأتراك والألمان، ومن الذي سيوقفهم؟ القلق الأكثر إلحاحاً بالنسبة إلى رجال البعثة في جدة، هو نشر البلشفية للمعاهدات السرية التي توصلت إليها بريطانيا وفرنسا وقيصر روسيا سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) باقتسام الإمبراطورية العثمانية، وهي الترتيبات التي عرفت باسم معاهدة سايكس ـ بيكو .

علم «فيلبي» أن بعثة «ستورز» لعبدالعزيز آل سعود قد فات أوانها ومنطقها ولكن هناك مبعوث آخر، هو القائد د. ج. هوجارث من المكتب العربي في القاهرة، وهو في طريقه جنوباً، لمقابلة «فيلبي» من ناحية، ومن ناحية أخرى لتفسير ما كشفه



البلاشفة البلهاء لشريف مكة، الذي يخدم تركيا كمادة دعائية. وقد كتب والي سورية «جمال باشا»[(١)] عن ذلك بشكل منطقي إلى شريف مكة وأبنائه «عملاء بريطانيا»[(٢)] وأخبار أخرى عن الشؤون العالمية؛ أخبار حين ندركها بعد ذلك نجدها أكثر أهمية في تأثيرها في العلاقات الأنجلو ـ عربية صدمت «فيلبي» بدرجة أقل. ففي لندن، أعلن البريطانيون وعد بلفور الذي يعد اليهود بوطن قومي في فلسطين، وهناك حدثان لهما الأهمية ذاتها على المدى الطويل، جريا وفيلبي يقضي وقته في جدة، حين أعلن جورج لويد في خطابه لنقابات العمال في لندن في٢٢ ربيع الأول١٣٣٦ (٥ يناير ١٩١٨م) عن شروط قد تصرف انتباههم عن عروض السلام البلشفية، زاعماً أنه سيعترف «بشروط الاستقلال القومي لكل من الجزيرة العربية وأرمينيا وبلاد الرافدين وسورية وفلسطين». وبعد ثلاثة أيام في واشنطن، أعلن الرئيس ويلسون نقاطه الأربع عشرة، والتعهدات التي جاءت بها «بأن تُترك القوميات التي تحت الحكم التركي لتحكم ذاتها وتطور نفسها دون تدخل»، وولد تعبير «تقرير المصير» آنذاك، والارتباك والشكوك المشوشة لاتفاقيات ما بعد الحرب اتخذت شكلها فجأة، وتقلصت بعثة «فيلبي» نيابة عن «عبدالعزيز آل سعود» إلى حجم ضئيل.

تمثلت مهمة «هوجارث» الأصلية في مقابلة «فيلبي» ومن معه: «لتذليل الصعاب بين الملك حسين والملك عبدالعزيز آل سعود، وتأمين اتفاق عملي بينهما يخدم الوحدة العربية»[(٣)].

في الوقت الذي غادر فيه «فيلبي» إلى جدة، كلف بمهمة إضافية، هي أن فلسطين، بما لها من أهمية للديانات الثلاث، لا تشملها المساحة المقترحة للاستقلال العربي، وأن يقنع شريف مكة أن مستوطنات اليهود هناك لن تتدخل في حقوق السكان العرب، وعليه انتحال الأعذار عن الحقيقة المرة حول المعاهدات السرية، وأن يوضح الفرق بين استقلال العرب ومناطق نفوذ القوى الكبرى.

---

(١) يعرف هذا باسم أحمد جمال باشا (المرجع).٢٢.

(٢) النشرة العربية، القاهرة، العدد ٧٤، تاريخ ١٣٣٦(٢٤/١٢/١٩١٧م)، ص٥١٠.

(٣) المرجع السابق، رقم ٧٧، ١٤/٤/١٣٣٦(٢٧/١/١٩١٨م)، ص٢١.

واصل «فيلبي» في أثناء انتظاره أولاً «هوجارث»، ثم في أثناء انتظارهما الشريف، استمتاعه بجدة على الرغم من جوها غير المناسب الذي يتغير حتى في يناير بين الرطوبة والحرارة المحملة بالبعوض، والهبوط المفاجئ في درجات الحرارة الذي يسببه تغير اتجاه الرياح والعواصف المطرية الشديدة. زار المكان الوحيد في جدة الذي يستحق أن يزار، القبر الأسطوري لحواء، ومشى متفحصاً الأزقة الصغيرة المظلمة بين منازل عالية مرجانية اللون، معجباً بشرفاتها الشبكية، وشاقاً طريقه بين البدو، والجِمال، والسقائين والشحاذين، ولم يسمح له بالابتعاد خارج سور المدينة، فاحتال على الأمر ليتفحص بلدة من الأكواخ والعشش تضم آلافاً من الحجاج الإفريقيين السابقين ينتظرون فرصة للعودة إلى «النيجر»، كانت أكواخهم سيئة جداً، وتنافس الأسقف المدببة في إفريقيا، وقد قدموا له فتاة صغيرة ليشتريها، متماسكة جسداً وروحاً لتقوم بأحقر الأعمال التي لن يقوم بها أي عربي حجازي حتى لو قدر على ذلك.

وصل «هوجارث» في السادس من يناير، متشوقاً إلى رؤية «فيلبي»؛ لأنه يعي تماماً أن لا أحد آخر في جدة لديه المعرفة القيمة التي اكتسبها من رحلته عبر الجزيرة العربية. كان «هوجارث» في وقت السلم عالم آثار ومشرفاً على متحف «اشموليم» في أكسفورد، وقد كتب قبل خمسة عشر عاماً كتاباً عن استكشاف الجزيرة العربية - اختراق الجزيرة العربية - الذي مازال كتاباً كلاسيكياً في موضوعه، وكان سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) له الكلمة الأخيرة في الموضوع. بعد حديثين أو ثلاثة، وجد في «فيلبي» صحبة ممتازة، لكن تفكيره محدود إلى درجة كبيرة:

«ذكاء حاد، لكنه ينافي الواقع من وجهة نظر استعمارية. يبدو أنهم في بلاد الرافدين ليس لديهم إدراك عام للموقف، وكرسوا أنفسهم بعناد للأمور المحلية، واستنتج أن الهند يمكن أن تكون أسوأ...».

بدأت المقابلات بشكل جيد حين وصل الشريف بعد يومين، كان رجلاً عجوزاً، ضئيل الجسم، هادئاً، كيِّساً، يفيض عطفاً وهو يرحب بهم، ويداعب «فيلبي» بشأن ملابسه النجدية، ويربت أياديهم، ويدعوهم يا أبنائي. لكن ما إن ذكر «عبدالعزيز آل سعود» حتى تلاشى هدوؤه، وومضت عيناه الجاحظتان قليلاً، وصبَّ غضبه على تسلل



«فيلبي» الخفي للوصول إليه. وازداد انزعاج «هوجارث» من «فيلبي» بسبب جرأته الزائدة التي تعرض نجاح المفاوضات المأمولة للخطر. (وقد ظهر انطباع «هوجارث» في رسالة كتبها «فيلبي» إلى «دورا» في ذلك الوقت يقول فيها: «لا تسنح الفرصة للمرء كل يوم ليستغفل ملكاً». وتصاعدت شكوك «هوجارث» في تقديرات «فيلبي» للأمور، حين مضى بعربيته الفصيحة في جدال شديد آخر. وعبَّر الملك بوضوح عن قلقه من الوصول السري لرجل إنجليزي عبر الصحراء. وقد أصبح ذلك الآن معروفاً للجميع كالشمس، وهو يؤكد الادعاءات التركية على عزم بريطانيا على ضم الجزيرة العربية. وأرسل «باسيت» الذي كان حاضراً أيضاً، تقريراً إلى القاهرة يذكر أنه قد صُدم «بطريقة «فيلبي» التي ينقصها الاحترام»[١] خلال المقابلات المختلفة. طرائق المخاطبة التي يحصل عليها المرء في «نجد» أقل صقلاً من تلك المجاملات التي تعلمها في إستانبول، والانطباع الذي خرج به البريطانيان المرافقان لم تمحه القبلة التي طبعها الملك على جبين «فيلبي» في نهاية أحد أسوأ النقاشات.

كانت نتيجة هذه الحدة، أن وجد «هوجارث» الملك ـ كما كان يدعوه دائماً ـ معتدلاً في كل القضايا التي عرضها، إلا موضوع «عبدالعزيز آل سعود»: «فكان الدبلوماسي العجوز الأكثر عناداً وتمسكاً برأيه». قال الشريف حسين: إنَّ «عبدالعزيز آل سعود» وافق سنة ١٣٢٨ (١٩١٠م) على أن القبائل التي على الحدود بينهما، وخصوصاً عتيبة وحرب، لا تدفع الضرائب له أو لابن رشيد في حائل، بل تدفع النقود إلى مكة المكرمة فقط. ولكن «عبدالعزيز آل سعود» الذي يقود حركة إصلاحية ضد مكة، يجول بينهم يبشر بحركته وينتزع ولاءهم. والأكثر فإن كل القبائل في وسط الجزيرة العربية، تذهب وقت الحصاد إلى «نجد» و«القصيم» لتشتري التمر، وينتهز «عبدالعزيز آل سعود» هذه الفرصة ليضمهم إلى الحركة الوهابية. وأضاف الملك بحق، على كل حال لم يفعل «عبدالعزيز آل سعود» شيئاً لمهاجمة «حائل» فلماذا الاهتمام بالاتفاق معه؟

وأرجع «هوجارث» تصرف الملك بهذه الطريقة، ليس لمجرد خيبة أمله من «فيلبي»، بل لغيرته وخوفه من «عبدالعزيز آل سعود». ورأى أن ذلك ينعكس على رغبة

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./٨٨٢/٩. أرشيف المكتب العربي. ملاحظات ١٣٣٦/٣/٢٩(١٢/١/١٩١٨م).

«الحسين» في أن يخاطب بـ«ملك العرب» وليس مجرد «ملك الحجاز»، ويرى أن مخاطبته بأقل من ذلك «وهم بلا معنى». كذلك فإن الخوف يمكن تعليله في رأي «هوجارث» ليس بالتنظيم النسبي للإخوان الذين برهنوا على تفوقهم على أتباع الحسين من البدو فقط، بل لأن أفضل العناصر في جيش الملك بعيدة عنه، بعضها في الشمال مع ابنه فيصل، والآخرون تحت قيادة ابنه عبد الله يحاصرون الأتراك في المدينة. وقد كتب «هوجارث» في تقريره: «لم يكن في الواقع آمناً في موقعه الحالي، أو قدرته على السيطرة على الوضع العربي هنا، وهناك وفي كل مكان بقوة السلاح».

وواصل «هوجارث» بوضوح:

«لقد ولد ليحكم، ولكن ليس أبعد مما ترى عيناه، ولو قدر له أن يكون ملكاً لأمة العرب، فلابد لهذه الأمة أن تكون فيدرالية من دول مستقلة ذات استقلال محلي كامل، وتكون سلطته الشكلية ببساطة رمزاً للوحدة والائتلاف»[(١)].

و«فيلبي» الذي يفكر بالطريقة ذاتها، ويعتقد أنه ليس ثابتاً تماماً على عرشه، ألَحَّ على «كوكس» بعدد هائل من البرقيات، كلها تحمل النغمة ذاتها:

«كل ما يريده بالفعل إشارة ظاهرة بقبول «عبدالعزيز آل سعود» بالاعتراف بملكيته (لكونه ملكاً)، وليس قيامه بأي عمل مستقل بوصفه حليفاً لنا»[(٢)]، لأن حضور «فيلبي» يؤدي دائماً إلى الحديث عن «عبدالعزيز آل سعود»، أحجم «هوجارث» عن اصطحابه إلى الاجتماعات التي تعقد مع الملك في موضوعات أخرى من اختصاصه، يناقشها في أحاديث طويلة، ودية جداً لدرجة أن الملك بدا متفهماً رغبة بريطانيا في استقرار بعض اليهود في فلسطين، يقطع هذه الأحاديث الاستماع إلى ذكريات الرجل عن مراحل حياته المختلفة، خبراته في الصحراء، والسياسة العالمية، ونفيه إلى إستانبول.

---

(١) النشرة العربية، العدد ١٩٢، ١٣٣٦/٣/٢٧(١٩١٨/١/١٠م).

(٢) آي. أو. ال/بي & أس/١٠/٢١٨٢/١٣، من «فيلبي» إلى «كوكس» بتاريخ ١٣٣٦/٣/٢٦(١٩١٨/١/١٠م)، ومكررة من بغداد إلى الهند تحت رقم ١٩٢ بتاريخ ١٣٣٦/٣/٢٧(١٩١٨/١/١٠م).



وسجل الملك نقطته الأخيرة ضد «فيلبي» حين طلب هذا، بعد التأكد من عدم نجاح مهمته، إذناً رسمياً بالسماح له بالعودة إلى «نجد» بالطريقة التي جاء بها. وحاز الملك على رضا كبير وهو يقول «لا»، ومع الغم الذي أصاب «فيلبي» تقبل الضربة وغادر مع «هوجارث» على ظهر طراد حربي إلى مصر.

أبحرا على ظهر «الطراد هاردنج» التابع للبحرية الملكية البريطانية، في ١ ربيع الآخر سنة ١٣٣٦ (١٤ يناير عام ١٩١٨م)، وجاء الرجل العجوز ليتأكد من مغادرتهما، وأصر على اصطحابهما على ظهر الطراد، على الرغم من هياج البحر، قائلاً: إن الطقس الرديء لا يخيفه، وإنه معتاد على ركوب القوارب الصغيرة. استعرض طاقم البحارة، أطلق المدافع، تناول الطعام الجيد، وصلّى الظهر في غرفة القيادة، وغادر في قارب بخاري تابع للسفينة، عالماً بأفضل ما عند أحد الزائرين على الأقل. وفي الطريق شمالاً، خلع «فيلبي» رداءه العربي، وحلق لحيته، واستعار زياً ليظهر به وسط أماكن مصر المترفة. وقد كتب إلى دورا من القاهرة: «أجمل مدينة رأيتها». ولكن الذي أزال خيبة أمله في جدة، غير جمال المدينة، المديح الذي أظهره له البريطانيون هناك حول رحلته عبر الجزيرة العربية. وجد نفسه يدعى إلى المقر الرسمي للبعثة البريطانية، ليخبر «ريجنالد ونجيت» عنها، ويتحدث في فندق شبرد إلى الضباط الذين يحتفلون بإجازتهم، حول هذه الرحلة، ويعامله ضباط مخابرات المكتب العربي الذين يريدون معرفة الكثير عن وسط الجزيرة العربية، كرجل مهم. أما «هوجارث»، الذي يأمل أن يوسع معرفته بالأحداث العالمية، فقد أخذه إلى قيادة الجنرال «اللينبي» وإلى القدس. كانت المدافع هنا مازالت ترمي حممها على الأتراك من قمة «جبل الزيتون». وبدت المدينة جميلة على الرغم من قذارتها، والعلامات الرهيبة للعسر الذي تحمله سكانها في أثناء الحرب، وبرد يناير في مدينة بلا وقود مع قليل من الطعام.

يصعب تقدير مدى ما استفاده «فيلبي» من الوضع العام للحرب، في أثناء تلقينه المفترض في القاهرة والقدس، لكن من البديهي أنه كلما تقدم «اللينبي» شمالاً، قلّت أهمية «عبدالعزيز آل سعود» ودوره، وكان هذا ما يشغله بين حين وآخر، لكنه كان يبعده عن ذهنه. القوة التركية المحاربة، التي عززها الألمان بقيادة «الجنرال ڤون فالكنهاين» مازالت هائلة. وفتح «اللينبي» للقدس لم يكن ثمنه زهيداً، فقد امتدت

خطوط مواصلاته، وكان الجو في ذلك الربيع سيئاً جداً، ولم يخرج الأتراك من فلسطين حتى سبتمبر التالي.

حين أبحر «فيلبي» إلى شرق الجزيرة العربية في منتصف جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ (فبراير ١٩١٨م)، لم يهتز عزمه، بل قابل رجالاً فطاحل، وحسد صناع السياسة، وأمله في الحصول على عمل أخير في الشمال كان عالياً، ولذا فإن «عزيزي السيد فيلبي» لم تذهله مواعظ «جيرترود بيل» الأخوية المؤرخة في١٧ شعبان ١٣٣٦ (٢٨ مايو ١٩١٨م) لكونها محبة له، وتعمل من حين إلى آخر لمصلحته. من الواضح أن ذلك كان رداً على بعض ملاحظاته حول حصوله على عمل أفضل: «لا أرجح أنك ستحصل على عمل في سورية، وأرفق رسالة من السيد «هوجارث» أخشى أن تكون مفاجئة لك. من الأفضل، من وقت إلى آخر، أن يرى المرء نفسه كما يراه الآخرون (مثلاً لقد أخبرني الكولونيل ليتشمان في أحد الأيام، أن غروري الذي لا حد له، هو في حديثي عن العراق) لكن نادراً ما يكون ذلك ساراً، خاصة حين تأتي هذه المفاجأة من رجل عادل ومتحرر مثل السيد «هوجارث». أنت تعرف كم هو صعب عليّ أن أحكم عليك بطريقة غير متحيزة، فقد كنت دوماً تشعرني بالبهجة، لكني لا أستطيع، كما لا يستطيع أحد آخر، أن يتجاهل تهمة كهذه. إني أرسل هذه الرسالة على أمل - أو لا يوجد هناك أمل - أن تقع مخافة الله في قلبك، كما يقول: كن حكيماً جداً في تعاملك، وابذل قصارى جهدك لتسهيل الأمور».

لقد تلاشت التهمة، ولكن دليل انزعاج «فيلبي» مازال قائماً؛ لأن «جيرترود بيل» كتبت إليه في سبتمبر التالي:

«بالطبع لن أُطلع «هوجارث» على خطابك ذاك، إنك مخطئ تماماً في اتهامه، أو محاولته تشويه صورتك أمامي، فأنا في مثل هذه الأمور أتفق معه، ويستطيع دائماً أن يكتب لي بصراحة عن آرائه في كل شخص وكل شيء. وبوصفي صديقتك، أرجوك أن تهتم جداً بما كتبته لك، وأن تكون كريماً لتسامحني فيما كتبته».

وفي النهاية، سامحهما كليهما، «جيرترود بيل» بسبب احترامه لعلمها، ولأنها أصبحت حليفته في كراهية «أرنولد ويلسون»، و«هوجارث» بسبب المديح الحماسي الذي أبداه



في المواجهات الأخيرة في إنجلترا، لمساهمات «فيلبي» في استكشاف الجزيرة العربية، فتصفيق الخبراء يدفئ قلب المرء.

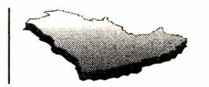
عاد إلى «عبدالعزيز آل سعود» بأسرع طريقة متاحة آنذاك، وذلك بمركب بريد بخاري إلى «بومباي» (اختطف عدة أيام إجازة مع «دورا» التي كانت تعمل بالتمريض هناك)، ثم إلى «البصرة»، وعلم أن «بيرسي كوكس» قد أُرسل إلى القاهرة ولندن ليطلع على الموقف العسكري من زاوية مختلفة، وتُرك «أرنولد ويلسون» مسؤولاً في بغداد، وكان ممتناً حين تلقى تعليمات «ويلسون» بالذهاب إلى «عبدالعزيز آل سعود» ثانية، بأسرع وقت ممكن. وقد كتب إلى دورا: «إنه أمر جيد فأنا على مسؤوليتي الخاصة في الجزيرة العربية»، ونصحها بالعودة إلى الوطن والاعتناء بـ «كيم» بدلاً من البقاء في الهند بصورة غير محددة على أمل أن تلحق به. كما أنه ليس لديه فكرة عن المدة التي سيغيبها دون أن تستطيع الاتصال به، فيما عدا ذلك، فإن أموره العائلية كانت وردية، فديونه تحولت إلى: «رصيد كبير في البنك، وزوجته وأمه تعيشان كالأميرات.. وليمنعني الله من العودة إلى الهند بعد تذوق الأشياء الأفضل».

علم من خليفة «هاملتون» عند عبوره الكويت أن الحصار مازال سارياً، وأن البضائع ـ الملابس والسكر والوقود ـ تصل عن طريق قوافل الجِمال إلى دمشق بدرجة من الأمان جعلت الأسعار تنخفض هناك، وأن الصحراء كلها تكسب النقود في هذه المعاملات التجارية. سار عبر طريق مختصر وسط أراضي المهربين، وكان بصحبة مجموعة من المهتمين بذلك يخدمونه عند وصوله إلى مخيم «عبدالعزيز آل سعود» على أطراف «الدهناء»، هذا المخيّم الصحراوي أعطاه إحساساً: «كأنه شبيه بالعودة إلى الوطن».

رحب به «عبدالعزيز آل سعود» في اجتماع عام، بالمديح والقهوة، وما إن أصبحا وحيدين حتى فتح موضوع احتياجاته، وما الذي أحضره «فيلبي» له؟ وكان السؤال محرجاً، وما كلف «فيلبي» بتقديمه يُعد أقل ـ في السلاح والنقود ـ مما وعد به مع «أودين» قبل أربعة أشهر، وكل ما استطاع قوله، إن عشرة الآلاف التي أخذها قرضاً، تعد الآن هدية، وأن هناك ألف بندقية في الطريق. ورد «عبدالعزيز آل سعود» بسرعة، إذا كان ذلك كل شيء، فإن رجل مكة العجوز قد قام بعمله جيداً، ووقع البريطانيون

في خطط الشريف لإضعاف «نجد». وواصل شكواه من الرسائل البريطانية التي تلومه على تغاضيه عمن يخترقون الحصار، ومن توجهات البريطانيين لمحاباة كل أعدائه - ليس الشريف حسين فقط، ولكن جيرانه الأقرب مثل «العجمان» وحاكم الكويت - فكيف يمكن أن يقوم بعمليات ضد «حائل» بينما هو محاط بالأعداء، والمبالغ التي زُوّد بها لإدارة تلك العمليات غير كافية مع المبلغ الشهري الزهيد؟ لابد أن تكون المساعدة أكثر من ذلك، ولا تضطره إلى شراء البنادق من الموالين للشريف، والذين يبيعونها في الصحراء كلها، ليكون مسلحاً بشكل جيد مثل الأتراك أو حتى «حائل». وحاول «فيلبي» الذي يتعاطف سراً مع وجهات نظره، أن يخفف عنه من خلال أن رحلة القاهرة قد مكنته - على الأقل - من أن يوصل قضية «عبدالعزيز آل سعود» إلى أعلى السلطات البريطانية. لكن بحدود العرض الذي أحضره معه، فقد كان دفاعه ضعيفاً، والشيء المهم الوحيد الذي استطاع تقديمه «لعبدالعزيز آل سعود» هو صحبته المبهجة.

كان ذلك مقبولاً، فحين يبتعد «عبدالعزيز آل سعود» عن موضوع «حسين» أو «حائل»، يحب أن يستمع إلى أخبار الحرب من «فيلبي»، كما يبادله الحديث بالكلام عن تاريخ داخل الجزيرة العربية، أو عن أساليب الأتراك وغيرها مما يزود «فيلبي» بمعلومات عامة حول الموضوع، ويسأله مثلاً بأي لغة يتكلم الأمريكيون؟ وما رأيه بالطريقة التي يدفن بها الهندوس موتاهم؟ هل هناك برقيات جديدة من وكالة رويتر وصلت مع الحقيبة التي تسلمها في الحال؟ ومرة سأله سؤالاً يكشف عن السرعة التي تنتقل بها الأخبار في الصحراء سواء في زمن الحرب أو غيرها، مع أن «فيلبي» لم يُعر السؤال اهتماماً آنذاك، وسأله هل حقيقة تعاني بريطانيا الصعاب في فلسطين؟ وأجابه «فيلبي» بالنفي، وأنه كان مؤخراً في القدس، ولم يشاهد شيئاً من ذلك. ربما أحد أصدقاء «عبدالعزيز آل سعود» أو عملائه أوصل له الذعر الذي أصاب السوريين في القاهرة وعرب فلسطين حين علموا بإعلان «بلفور». وقد قابل «فيلبي» وهو في القاهرة، بعض مسؤولي المكتب العربي الذين كانوا يتصارعون مع المحتجين العرب منذ ديسمبر، ولكن لم يعبر أحد من هؤلاء المسؤولين عن انزعاجه أو أنه لم يدرك معنى ما قالوه، ولم يعبر المكتب العربي عن مخاوفه حول قلق العرب، إلا بعد مغادرة «فيلبي».



«من العبث افتراض أن كل من له أملاك يمكن أن يشعر بالراحة في فلسطين»[١].

كان «عبدالعزيز آل سعود»، الذي يحتفظ إلى جانبه بمنظار مكبر، يقطع الحديث في منتصف الجملة، ويستخدمه في مراقبة القادمين والذاهبين وسط الخيام المقامة عبر الوادي كله، ويعلق، عادة، على ما يلاحظه. وكان ينفذ العدالة بحذافيرها، ولقد رآه «فيلبي» يأمر بجلد رجل، وتأديب آخر كان وقحاً في حديثه، وكان إعجابه بحديث «فيلبي» وردوده السريعة بادياً بوضوح، بينما كان أتباع «عبدالعزيز آل سعود» على العكس من ذلك. وحين يتجول «فيلبي» وحده، يعبرون عن استيائهم من وجوده. والرجال الذين كانوا ودودين معه في رحلته إلى الطائف، يتجنبونه الآن، ولا أحد من الإخوان يرد سلامه إذا حياهم، وبعضهم يغطي وجهه بيديه لتجنب رؤيته، ولا ينسى أبداً لعنة أحدهم، الذي أبدى أسنانه وهمس «يشهد الله أني أكرهك». وإذا كان الغريب شخصاً طيباً، يبدأ بالشك في دوافع خفية، ومن حين إلى آخر كانت هذه العداوة المتجهمة تسبب له الاكتئاب.

عندما حثته بغداد سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) على استعجال العرب، أجاب: «يجب أن تدركوا أن الغالبية العظمى من الناس يقضون نصف يومهم في الصلاة وممارسات دينية أخرى، ولا ينبغي التعامل معهم كأناس عقلانيين تماماً، رؤيتهم للأمور محدودة وبلا أمل في إصلاحها، ونفوسهم مملوءة بالتعصب»[٢].

كانت خيمته ـ لحسن الحظ ـ منصوبة في نطاق المنطقة الملكية لعبدالعزيز آل سعود، ويمكنه أن يرافق بعض الشخصيات العربية المتحررة من العصبيات، والذين ألفوا ذلك؛ أحدهم كان «أحمد بن ثنيان»، والآخر تعرف إليه حديثاً، وسيصبح صديق حياته وهو «عبد الله القصيبي» وكيل أعمال «عبدالعزيز آل سعود» في البحرين، وأحد أربعة إخوة من التجار لهم فروع لأعمالهم في «الهفوف» و«بومباي».

يقال الكثير عن الطريقة التي اتبعها «فيلبي» لإقناع «عبدالعزيز آل سعود» للقيام بالهجوم على «حائل». فبعد مناقشات دبلوماسية كثيرة، وافق «عبدالعزيز آل سعود»

---

(١) النشرة العربية، العدد ٨٣، بتاريخ ١٤/٦/١٣٣٦(٢٧/٣/١٩١٨م)، ص٩٢.

(٢) أي. أو. آل/بي & اس/١٠/٣٨٩، ص٥٣٣٥/١٨. من «فيلي» إلى بغداد بتايخ ٢٠/١١/١٣٣٦(٢٧/٨/١٩١٨م).

أن يسير إلى «حائل» إذا أقرضه «فيلبي» النقود كلها التي خزّنها في «العقير» عند وصوله، وحين تُشفى جِماله من الجرب، وينتهي شهر رمضان، وقد سلمه «فيلبي» النقود التي تبلغ عشرين ألف جنيه إسترليني، على مسؤوليته الخاصة قبل أن يفعل «عبدالعزيز آل سعود» شيئاً.

جاء رمضان سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) في أكثر الشهور حرارة من السنة - يونيو ويوليو - وحين بدأ تنفيذ الصفقة، طلب منه «عبدالعزيز آل سعود» أن يبتعد: «لا أريد أن يظن أحد أني أعد العدة ضد «حائل» بتحريض من الإنجليز». واقترح عليه الذهاب إلى الكويت، لكن «فيلبي» اقترح خطة تناسب ميوله، لماذا لا يسافر إلى الرياض، ومن هناك يزود بحراسة وينطلق ليكتشف منطقة الجنوب حتى «ليلى» في إقليم «الأفلاج»، وربما إلى ما بعد ذلك شرق وغرب وادي «الدواسر» الكبير الذي يشق «جبال طويق»؟ لقد سمع عن هذا الوادي وهو في طريقه عبر وسط الجزيرة العربية، لقد كان الطريق القديم الذي تنقل عبره تجارة البن من اليمن إلى داخل الجزيرة، ولو سمح له بالعودة من جدة براً، فقد كان يعتزم السير فيه حتى «السليل»، ومن هناك يتجه شمالاً إلى الرياض، وهاهي فرصته ليقطع نصف الطريق.

اقترح الخطة على «بغداد»، ولكنه مرة ثانية غادر قبل أن يرد رؤساؤه بالرفض: «في هذا الظرف، فإن مكانك مع «عبدالعزيز آل سعود» لتسهل أمورنا» هذا ما كتبته «جيرترود بيل» في رسالة لم تصله إلا بعد أن عاد. حين رأى أنه لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً حتى انقضاء شهر رمضان، استبعد موضوع الحرب من ذهنه، وبمباركة «عبدالعزيز آل سعود» سار أولاً إلى «الرياض» وفي الخامس من مايو انطلق إلى الجنوب البعيد.

عيّن «عبدالعزيز آل سعود» «إبراهيم بن جميعة» رئيساً للحرس المرافق له، ولم يدرك «فيلبي» الشرف الذي عومل به بإرسال رئيس التشريفات الملكية برفقته. من ناحية أخرى، فقد أسعده وجود الدليل «جابر بن فرج»[١] الذي كان يتحدث عنه دائماً بأنه أفضل من عرف.

---

(١) جابر بن فرج المري، وقد صحب فيلبي وجاء له ذكر كثير في كتاب: فيلبي الجزيرة العربية.

عزم «فيلبي» على رسم خريطة بعد أن حصل على معدات جديدة لإعداد الخرائط من القاهرة. وفي رحلته إلى «جدة» عرف الاتجاهات فقط وملامح الطريق طوال خط سيره، أما الآن، فهو يقيس الزوايا، ويحدد الاتجاهات وتقاطعاتها، يسير في المنعطفات وأحياناً يسير في دوائر ليحددها، وهو أمر لم يفهمه رجال حراسته، ممّا أدى إلى جدل في حرارة مايو ويونيو المتزايدة. لقد وجد الناس في طريقه: «غير ودودين بدرجة كبيرة»، لكن ماذا يهم، ماداموا يتركونه يعبر أرضهم. تحرشوا به فقط عند نهاية رحلته في «اللدام» في وادي «الدواسر».

استطاع، بمعداته الجديدة، أن يعيّن بعض خطوط العرض، وأن يجهز للجمعية الملكية الجغرافية، المادة الأساسية لأولى الخرائط للجزيرة العربية التي لم يكن لها خرائط، وهو العمل الذي اشتهر به. وقد أصبح بعد ذلك قادراً على القيام بأقسى التمرينات إذا لزم الأمر. وكان «المكتب العربي» مبتهجاً: «بالأهمية القصوى السياسية والأثنولوجية والخرائطية» لمغامرته. أما «اللجنة العليا» في بغداد فقد كانت أقل سروراً بغياب مبعوثها مدة خمسين يوماً، وأما «فيلبي» فقد كتب إلى «دورا»: «لو كان لدي بعض التبغ لكنت راضياً تماماً.. الآن وقد أنجزت هذا الجزء من العمل، فقد قررت حتماً أنها المرة الأخيرة التي أكون فيها في البرية. كنت أؤثر أن أكون حاكماً لدمشق حين نستولي عليها، فلا شيء لي في بلاد الرافدين مادام أ. ت (ويلسون) هناك».

تبدو القصور الهوائية جميلة حين يتخيلها المرء وهو يحدق في أرض الجزيرة العربية الجنوبية التي لم تقع عليها عين أوروبي قط، وانهارت هذه التخيلات حين عاد إلى الرياض، ووجد في انتظاره توبيخ «هوجارث» المحبط للآمال، معززاً برسالة «جيرترود بيل» كما سبق وصفه.

انتهت قصة بعثة «فيلبي» إلى «عبدالعزيز آل سعود» بخيبة أمل محزنة، بسبب التغيرات المذهلة لفرص بريطانيا في الحرب، والأصابع الكثيرة التي تعبث في في شؤون المسألة العربية، وبتقاطع البرقيات، ووضوح الصراع العنيف بين الملك عبدالعزيز آل سعود والملك حسين.

فهم «بيرسي كوكس» في أثناء وجوده في لندن في سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، أسلوب الحرب، مثله مثل صانعي السياسة هناك، ووافق على أن الأحداث في فلسطين قد قللت من الحاجة إلى هجوم «عبدالعزيز آل سعود» على «حائل»؛ ولأنه لا يريد أن يخيب أمل «عبدالعزيز آل سعود»، أقنع «لندن» بانتظار عودة «فيلبي» إلى الرياض والتقرير التالي. وفي طريق عودته من رحلته، تشاور مع زملائه في القاهرة، واعترف بأنه قد يكون هناك بعض الفائدة من ترك «حائل» سالمة لتوازن بين الرياض ومكة، واتفق الجميع على أنه يجب ألا تُجر بريطانيا إلى صراعات في وسط الجزيرة العربية، وأن الخطة المطورة آنذاك يجب أن تركز كل المساعدة البريطانية في الحجاز، وإلى جانب «اللينبي»، وعدم تشجيع «عبدالعزيز آل سعود» مع الاحتفاظ به عن طريق الإعانات المالية التي يقدمها له «فيلبي».

أعد «فيلبي» كل ترتيباته بكل ثقة في أبريل، دون أن يعرف شيئاً عن ذلك، وعند عودته في يونيو من وادي «الدواسر» إلى الرياض وإلى حقائب بريده، كاد شهر رمضان ينتهي، ومن غير المريح التراجع الآن، وفكرة بريطانيا في تهدئة الانفعالات في وسط الجزيرة انقلبت بتفجر حدودي جديد بين الملك حسين والملك عبدالعزيز آل سعود. فالأول، في فورة غضب على أمير «الخرمة» الذي عينه ثم انقلب وتمرّد عليه وأصبح من أتباع الحركة الإصلاحية فأرسل قوة لتحتل الواحة مرتين، وكان هدفه دينياً وسياسياً، فقد أراد أن يعتقل طلائع الوهابيين في المدينة ويثبّت نفسه فيها، كان الإخوان لا يميزون بين الدين والسياسة، وقد أجبروا رجاله على مغادرة المدينة مرتين. وبعودة «فيلبي» إلى الرياض، سمع من بعض أتباع «عبدالعزيز آل سعود» مصادفة قولهم إنه من الأفضل كثيراً استخدام القوة التي يجمعها «عبدالعزيز آل سعود» ضد مكة بدلاً من حائل.

أصبح «فيلبي» وسط هذه النيران المتقاطعة (وبما أن كل الرسائل لابد أن يحملها مراسل من وإلى الساحل) متأخراً أسبوعاً عن الأنباء، فبدأ يمطر بغداد منذ لحظة عودته إلى الرياض بالرسائل والاقتراحات، وكان ثرثاراً لدرجة أنه ألحق الضرر بقضيته، وعزز الانطباع الذي أخذته عنه لندن منذ بداية عمله في جدة، أن: «عبدالعزيز آل سعود» قد خلب لبه، ولم يكن وحده الذي يقف مع جانب دون آخر، فالكولونيل سي. آي. ويلسون في جدة كان بنفس تشدده، لكن مع الجانب الآخر،

والقاهرة كانت موالية للشريف، وكان طبيعياً أن تزداد شكوك «عبدالعزيز آل سعود» في استقامة بريطانيا، وفي ١٦ شوال ١٣٣٦ (٢٥ يوليو ١٩١٨م) كتب إلى «صديقنا العزيز السيد فيلبي»: «أصبحت الحكومة البريطانية وكأنها حكومتان: تلك التي في مصر (التي تسترشد بكلمات الشريف، وتصدقه وتنفذ ما يلبي طموحاته سواء أكانت خطأ أم صواباً)، وتلك التي في العراق التي ترحب بأعدائنا، وتمنعنا من معاقبتهم»(١).

كان يقصد العجمان وحائل، وكان غضبه يتفاقم من لهجة الرسائل الفظة التي كان يتسلمها من الملك حسين ومن ابنه عبد الله الذي بلغت به الجرأة لشراء جِمال من «القصيم»؛ الإقليم الذي يقع بين الرياض وحائل.

أربك «فيلبي» بغداد خلال شهر ذي القعدة ١٣٣٦ (أغسطس ١٩١٨م) بسيل من الرسائل الملحة لتأييد استيلاء «عبدالعزيز آل سعود» على «حائل». وكان ذلك معقولاً لو افترض المرء أنها صادرة من «نجد» متجاهلة أن مدّ الحرب قد انقلب ضد الألمان في فرنسا، وأن «اللينبي» آنذاك كان يحصل على الإمدادات العسكرية التي يحتاج إليها حتى يقوم بضربة النصر. وذكر «فيلبي» أن الهجوم على «حائل» سيصرف انتباه «عبدالعزيز آل سعود» عن الشريف: «في رأيي إن النشاط الحقيقي هو الدواء لجميع العلل الناتجة من الكسل الطبيعي في حياة العرب»(٢).

إن أفضل ما يمكن عمله - بالتأكيد - هو دفع «عبدالعزيز آل سعود» للاستيلاء على «حائل»، ودفع الشريف للاستيلاء على المدينة، ثم تقسيم وسط الجزيرة بينهما. وأفضل الحدود الطبيعية، إعطاء «الخرمة» لعبدالعزيز آل سعود، وترك سهول الجزيرة فيما وراء مكة إلى الملك حسين، والشيء الجوهري أن نبقي كلا الحاكمين، معتمدين على بريطانيا. وبالنسبة إلى المتطلبات الفعلية: خمسة آلاف بندقية وعشرة آلاف جنيه إسترليني شهرياً كافية الآن لعبدالعزيز آل سعود، وعلى بريطانيا ألا تفقد ولاءه

---

(١) ذكر سابقاً، من «ابن سعود» إلى «فيلبي» بتاريخ ١٦/١٠/١٣٣٦(٢٥/٧/١٩١٨م).

(٢) ذُكر سابقاً من «فيلبي» إلى بغداد، بتاريخ ١١/١١/١٣٣٦(١٨/٨/١٩١٨م).

بأي ثمن، وبالنسبة إلى الحدود فإني أضمن التزام «عبدالعزيز آل سعود» إذا قُدم له عرض جدي»[١].

تقلص تنسيق الجهد البريطاني إلى درجة التلاشي، وفي الخامس من أغسطس انطلق «عبدالعزيز آل سعود» شمالاً من الرياض عازماً على تجنيد قوات إضافية من «القصيم» للهجوم على حائل، وذهب «فيلبي» معه. ولم تكن البعثة في عجلة من أمرها، وتلكأت في «القصيم» نحو ثلاثة أسابيع متيحة فرصة لفيلبي الذي استولى عليه الاستمتاع لاستكشاف مدينتي «عنيزة» و«بريدة» التي يُضرب المثل بأولاهما بالضيافة المؤثرة، وبالأخرى بانغلاقها الصارم على نفسها. وتقع المدينتان على طريقي التجارة الشمالي ـ الجنوبي إلى دمشق ـ والشرقي ـ الغربي إلى المدينة، فهما سوقان وموقعان ممتازان لالتقاط أخبار الصحراء، فقدم «فيلبي» إلى «بريدة» متشوقاً، لكنه تلقى هناك ضربة قاسية، فقد رفض «عبدالعزيز آل سعود» أن يتركه يصحب القوة إلى «حائل»، إما بسبب رغبته في تهدئة الإخوان، وإما لأنه لا يريد أن يفقد «شكسبيراً» آخر في المعركة.

كتب «فيلبي» إلى «دورا»: «ظللت أناقشه مدة يومين قدر استطاعتي.. من المؤسف جداً ألا يسمح للمرء برؤية الحملة التي استغرقت عشرة أشهر من الإقناع لتحقيق هذه النتيجة».

اضطر إلى العودة إلى «عنيزة» ولا يفعل شيئاً سوى انتظار الأحداث، وحين يمل يضج بالشكوى: «الحياة في المدينتين كئيبة، وطوال النهار لا يفعلون شيئاً سوى الصلاة، والأكل، وشرب القهوة».

هذه الكلمات الموجزة تصور الضجر الذي هو العلامة المميزة للحياة في بلد يقلل فيه العمل اليدوي من وقار الرجل، ويرجع الفضل لسير الحياة إلى العاملات من النساء أو العبيد الأجانب من أماكن مختلفة، سواء بأجر أو من غير أجر.

عاد الجيش المنتظر لمدة أسابيع في ٢١ سبتمبر، على دفعات. لم يستول على

---

(١) ذُكر سابقاً من «فيلبي» إلى بغداد، بتاريخ ١/١١/١٣٣٦(٨/٨/١٩١٨م).



«حائل»، وكان متهللاً؛ لأنه استولى على غنائم كثيرة خارج أسوار المدينة، ومما زاد من الشعور بالنصر، أن «عبدالعزيز آل سعود» تلقى خبراً من «الخرمة» أن الملك حسين هاجمها للمرة الثالثة وقد هزم. وفي الوقت نفسه، ارتفع رصيد «فيلبي»، فقد تلقى تفويضاً من بغداد أن يحول المبلغ الشهري المقدر بعشرة آلاف جنيه إسترليني والمخصص للحملة إلى إعانة مالية ممتدة. لكن رضاه لم يستمر طويلاً، ففي الثاني من أكتوبر، وهو في طريقه إلى الرياض لإعادة التجهيز، تلقى حقيبة بريد تحتوي على: «أكثر الرسائل المذهلة والباعثة على الاكتئاب التي تلقيتها منذ بدء بعثتي». كان عليه أن يخبر «عبدالعزيز آل سعود» أن الحملة التي تعهد بالقيام بها غير مرغوب فيها، ولا ضرورة لأي عمليات أخرى، وكان على «فيلبي» أن يكون شحيحاً بالسلاح، وأن يقول إن الألف بندقية التي وُعد بها بديلة للشحنة المرسلة من «ونشسترز»، لن تصل إلى نجد، ولخص التقرير الرسمي عن حملته، الكدر الذي أصابه في جملة واحدة: «عمل سنة كاملة ينهار أمام عيني».

وعزا هزيمته ـ ولم يعد لديه ساق يقف عليها، كما فعل «عبدالعزيز آل سعود» ـ إلى حيل الشريف حسين، واقترح العودة إلى بغداد ليرى ما يمكن عمله لتغيير قرار يعد كارثة في العلاقات الإنجليزية ـ النجدية، لأنه كما قال عبدالعزيز آل سعود: «من الذي سيضع ثقته فيكم بعد هذا؟ لقد وضعتني موضع السخرية أمام شعبي.. وإذا رفضت حكومتك تعديل سياستها.. فلا فائدة من عودتك».

غادر «فيلبي» إلى الكويت ثم إلى بغداد، وهذا النقد العنيف يدوي في ذهنه، وبمغادرته القفار، سهّل الأمور على السلطات البريطانية عن غير قصد، فقد قررت استبداله بمبعوث أقل انبهاراً بعبدالعزيز آل سعود، وأكثر مقدرة على جعله «هادئاً». وبينما كان «فيلبي» ينتظر في «القصيم»، تناقلت خطوط التلغراف ما أخبر به «أرنولد ويلسون» الهند:

«فيلبي، الذي تغيب نحو سنة، قضى أكثر من نصفها في ظروف غير مريحة بعض الشيء، وفي عزلة تامة في وسط الجزيرة العربية، وقد جاب أراضي واسعة، وتعد خبرته مادة قيمة جداً للطلبة والمسافرين، لكن لم يبق في قوس صبره منزع فيما

يختص ببعثته إلى عبدالعزيز آل سعود»[١]. السبب الحاسم لهذا الحكم لم يكتشفه «فيلبي» إلا حين وصل الكويت، إذ مرت بهم قافلة في الطريق، تسير في الاتجاه المعاكس، وأخبرت رجاله بأن البريطانيين قد استولوا على دمشق، ولم يصدق «فيلبي» ذلك، بسبب معرفته ببطء سير الحرب، وأن الكويت على استعداد «لفبركة» الأخبار لخداع منافسيها في الصحراء. وقد علم بالحقيقة المذهلة حين وصل إلى الوكالة البريطانية في الكويت بأن «اللينبي» قد استولى على فلسطين كلها، وأن «فيصل» في دمشق، والأتراك يتراجعون إلى شمال العراق، وأن الحرب ضدهم قد انتهت في واقع الأمر.

سرت الأنباء بهذه الأمور المحيرة، فجلس وكتبها إلى «عبدالعزيز آل سعود» على الفور، ولكن حرباً أو لا حرب، يجب عليه أن يحصل على ألف بندقية جيدة ويرسلها إليه، الوعد وعد مهما تغيرت الظروف، وقد أنجز ذلك وسط خليط الصراعات المتشابكة في الجزيرة العربية، وغادر إلى بغداد ومن ثم إلى الوطن.

أصيب بخيبة أمل في المرحلة الأخيرة، إلا أن مغامرته الصحراوية عادت عليه بالفائدة، لأنه جعل من «عبدالعزيز آل سعود» صديقاً وصفه بعد ذلك بأنه «لا يقدر بثمن». إن مقابلاته مع العرب بجو الحرية الفطري الذي يعيشونه والاستقلال أثَّر في حكمه.

عندما كان في بلاد الرافدين، لم يقابل مسؤولاً عربياً طموحاً لدرجة أن يجعله يتخلى عن وجهة نظر حكومة الهند، أو يتوقف عن التفكير بأن الملكية الدائمة للبصرة ستكون مفاجأة للهند على جهودها في الحرب، ولكنه منذ أول حديث مطول له مع «عبدالعزيز آل سعود»، بسبب متعة الصحبة العربية أثارت الأفكار الاشتراكية التي مازال يدّعيها.

أشبعته تجارب الحرب، ولم يحدث له قط أن فقد الإحساس بالرفقة التي اكتسبها

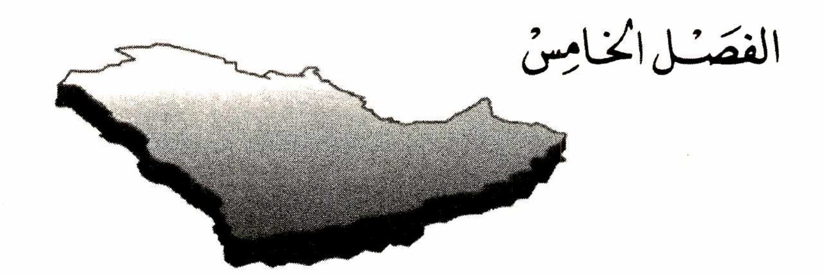
---

(١) آي. أو. إل/بي و إس/١٠/٣٨٩، ص٣٥٣٥/١٨. من بغداد إلى حكومة الهند، بتاريخ ٩/١٢/١٣٣٦(١٥/٩/١٩١٨م).

معاصروه في الخنادق؛ لحظات الخطر المشتركة، التوتر، الحشمة، الابتهاج، واليأس. هذه التجارب بعينها جعلت الكثير من رجال جيله يرون القتال في الحرب العالمية الأولى أكثر التجارب عمقاً في حياتهم. لقد حصل في الجزيرة العربية على «أفضل سنة في حياتي حتى الآن»، لكنها الأفضل في العزلة.



الفصل الخامس



التجربة والخطأ في العراق

كتب «فيلبي» إلى دورا، على عجل، وهو في طريق عودته إلى بغداد في صفر ١٣٣٧ (نوفمبر ١٩١٨م): «تجري الأمور بسرعة في هذه الأوقات، إذ ينال المرء الرضا غالباً، برؤية مثالياته السابقة لعصرها تتحقق قبل أوانها، وإني لسعيد أن أكبرها قد لاقى القبول». كان يتحدث عن السماح لعدد أكبر من الهنود بالخدمة في الجهاز الحكومي الهندي، كما تعززت في الوقت ذاته إحدى مثالياته المتقدمة الأخرى.

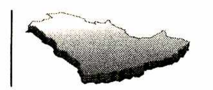
أعلنت بريطانيا العظمى وفرنسا بياناً رسمياً مشتركاً موجهاً إلى العرب يتطابق مع أفكار «فيلبي» الجديدة حول استقلال العرب قبل أربعة أيام من توقيع الهدنة مع ألمانيا، في صفر ١٣٣٧ (٧ نوفمبر ١٩١٨م)، وقد كان البيان مرناً إلى درجة تناسب ما أراده «لورانس» لفيصل بن الحسين في سورية، كما زاد اقتناع «جيرترود بيل» أن هناك عراقيين ذوي كفاءات جيدة لتأسيس إدارة وطنية في بلاد الرافدين. وأصبح هذا الإعلان الأساس الصلب الذي بنى عليه «فيلبي» نقده كله للممارسات الفرنسية والبريطانية في الأراضي التي «وضعت تحت الانتداب»، وليس ذلك بلا سبب، فقد انتقد تفسيرهما «للأمانة المقدسة للحضارة» التي تشكل ورقة التوت التي تخفي النوايا الاستعمارية، ولكي نبين الأساس الذي بنى عليه موقفه، نقتطف فقرة مطولة من البيان:

«إن الهدف الذي تسعى إليه فرنسا وبريطانيا العظمى من متابعة الحرب التي أشعلها طموح ألمانيا في الشرق، هو التحرر التام للشعوب التي طال اضطهاد الأتراك لها، وإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر للسكان الوطنيين.

ولتحقيق هذه الأهداف، فإن بريطانيا وفرنسا تشجعان معاً وتساعدان على إقامة حكومات وإدارات وطنية في سورية وبلاد الرافدين التي حررها الحلفاء الآن، وفي الأراضي التي يقومان بتحريرها وتأمينها والاعتراف بها بمجرد قيامها الفعلي».

لا ترغب الحكومتان في فرض أي مؤسسات معينة على سكان هذه الأقاليم، فهما مهتمتان بضمان العمل المنتظم للحكومات والإدارات التي يختارها السكان أنفسهم بحرية، عن طريق العون والمساعدة الملائمة. (لم تستطع أي من الحكومتين أن تتخلف كثيراً عما ورد في مبدأ تقرير المصير الذي أعلنه الرئيس «ويلسون» في نقاطه الأربع عشرة) وبأي مقياس، فإن وعود الحرب تنقسم إلى فئتين، الوعد الذي يقدمه محارب وظهره إلى الحائط، كي يكسب الحلفاء، وعلى أمل أن ينقذ نفسه من الهزيمة. مثل هذه الوعود تعد مقامرة بالنسبة إلى من أعطاها وإلى من أعطيت له، وتحقيقها على نطاق واسع، قد يثبت بعد ذلك أنه مستحيل، ويقع ضمن هذه الفئة، وعد «مكماهون» إلى العرب سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م)، وإعلان «بلفور» لليهود سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م). والفئة الثانية هي الوعد الذي يقدمه المنتصر لحظة انتصاره، لأنه في موقف يستطيع فيه المحافظة على كلمته. قال «فيلبي» بعد ذلك: إن المنتصرين الفرنسيين والإنجليز قد نكثا بوعدهما للعرب سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، عندما أجبرت فرنسا «فيصل» على مغادرة دمشق تحت التهديد بالقتل سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م)، وعندما عجّلت بريطانيا دون دراسة كافية بالمعاهدة الإنجليزية العراقية من خلال بعض أعضاء البرلمان العراقي سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)، وعندما قيّدوا استقلال «شرق الأردن» بربط أميرها عبد الله بخيوط تدار من فلسطين.

وصل «فيلبي» إلى بغداد، ولم يجد إلا القليلين ليحتفل معهم بإمكانية تصرف بريطانيا وفرنسا وفقاً للمبادئ التي أعلنت. لقد نُقل «بيرسي كوكس» إلى فارس لحل التعقيدات السياسية في طهران، و«جيرترود بيل» في الخارج تتعافى من ملاريا شديدة أصابتها، و«أرنولد ويلسون» الذي تُرك في موقع المسؤولية، ثبطت همته من تقرير المصير المأمول، وأخبر «فيلبي» أنه مذهول من تسامح الإعلان الفرنسي ـ البريطاني، فقد يثير الطموحات الآسيوية التي لن يكون بإمكان الأوروبيين تحقيقها، وارتعش من مجرد التفكير في عواقبها في الهند.



لا تقارن الهند ـ في رأي «فيلبي» ـ بالجزيرة العربية، فهي قد ابتليت بالشقاق بين مجتمعاتها وطبقاتها المتعددة، بينما العرب قادرون على الوحدة، لقد رأى ـ عن قرب ـ عربياً يصلح لحكم الجزيرة العربية: فعبدالعزيز آل سعود فاق الملك حسين وأبناءه من الهاشميين. والأكثر من ذلك أنه ديموقراطي بمعنى أنه يعمل بما جاء به القرآن الكريم: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[1] وهو دائماً في خدمة رعاياه.

كان «فيلبي»، في أثناء وجوده في بغداد، قد رسم تخطيطاً أولياً للبنية الديموقراطية التي ظن أنها تناسب العراق، وتكتمل بمجلس نواب منتخب ورئاسة جمهورية، وأنه لا يرى الفرق، أو لا يريد أن يعترف به، بين «الاستشارة» كما يطبقها «عبدالعزيز آل سعود»، بمعنى أنه يستمع إلى رعاياه ثم يفعل ما يراه الأفضل، و«شورى مجلس النواب» التي تُقام لتكبح الحكم المطلق. وهناك عيب آخر في استدلاله المنطقي، وهو أنه يحكم على كل المواقف تبعاً للشخصيات المتعلقة بها، فالهاشميون دائماً على خطأ، وعبدالعزيز آل سعود دوماً على صواب. وفي منتصف المسافة بين لبيراليته بكل معنى الكلمة، وطريقة «أرنولد ويلسون» الأبوية في الإدارة بكل معنى الكلمة، تقع وجهة النظر البريطانية بأن هناك ميزة في فرض الأمن العام كي تمنح العرب هدأة لرؤية موقع أقدامهم. لكن «فيلبي» لم يعترف قط بمعقولية هذا المسار، ومع ذلك فإن موقفه الثابت بأن بريطانيا وفرنسا لم تنجحا في المحافظة على وعدهما الذي جاء في بيانهما، لم يكن عديم الجدوى، فالعرب الذين لا يعجبون به شكُّوا فيه، وقليل منهم احترمه. أما زملاؤه الإنجليز فقد انقسموا حول موقفه، فبعضهم اعتقد أن مغالاته وخيمة، بينما آخرون احترموا صلابته، «أرنولد ويلسون» الذي لم يكن معجباً به قط، كتب إليه سنة ١٣٥٢ (١٩٢٤م): «لقد رفعت من شأن سمعتنا القومية التي تتعلق بالأمانة والاستقامة بالتزامك الصريح بمبدئك».

لقد تحدث مع «ويلسون» في بغداد سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) بلطف كبير على الرغم من اختلاف وجهتي نظرهما. لقد كان «ويلسون» متحمساً لسماع كل ما أراد «فيلبي» قوله عن شؤون عبدالعزيز آل سعود وآماله، وقد أبرق له بأن: «لا أحد قام بعرض

---

(١) القرآن الكريم، الشورى، الآية٣٨.

احتياجات سعادتكم وآرائكم ببيانٍ واضح مما فعله فيلبي»[١] كانت الرسالة غامضة، لأن رأي «ويلسون» الخاص أن حماسة «فيلبي» مفرطة، وأن حكمه ليس قوياً بسبب المدة الطويلة التي قضاها في الصحراء، لقد أرسل تقارير كثيرة إلى الهند ولندن حين ودّع «فيلبي» إلى الوطن في إجازته الطويلة المتأخرة.

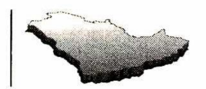
كان الوطن هو «كامبرلي» ـ في هذا الوقت ـ حيث كانت دورا تعيش مع «ماي». لم يكن «فيلبي» قد رأى دورا منذ نحو سنة، ولم ير أمه منذ مقتل أخويه، ولم ير ابنه كيم ـ في حوالي السابعة الآن ـ منذ كان في الثالثة من عمره؛ ولذا كانت عودته فرحة للجميع، لكنه وجد إنجلترا بلداً مختلفاً؛ الناس يبدون في ضيق، والنساء يرتدين ملابس الحداد، واطلع على القائمة المرعبة للضحايا وقد قُتِل اثنان من إخوته، وشقيق دورا وعدد من الأقارب، وكذلك بعض أصدقائه المقربين في كمبردج، مثل «بل هاباك» و«بن كلينج». كان النصر أجوف، والبلد يعاني نقصاً في الفحم، وكوبونات الطعام، والحصص محددة من الخبز، ورجال السكك الحديدية يهددون بإضراب عام، أمة متعبة تصارع مع انتخابات كوبونات «لويد جورج»، واكتسحت البلد الأنفلونزا الإسبانية، وتغيرت أفكار الناس من «لا يمكن أن يحدث ثانية أبداً» إلى «اشنقوا القيصر»، وبدأت كراهية «فيلبي» للحرب منذ سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م).

أراد أن يعوض أمه ودورا عن كل ما مرّ بهما، ودار بهما على المسارح والحفلات الراقصة التي تتبعها حفلات كوكتيل، وهو مزيج جديد للسيدات، وأخذهما لتحضرا منحة (C.I.E.) لخدمته في الهند في قصر باكنجهام، وبدأ مع «دورا» يبحثان عن بيت في لندن.

أراد أن يعيش في قلب الأحداث في لندن؛ لأن تجاربه العربية أوصلته إلى طبقة اجتماعية في الحياة الإنجليزية لم يعرفها من قبل، كانت «جيرترود بيل» قد قدمته إلى رجال من علية القوم، أمثال آرثر هرتزل من وزارة الهند، و«آير كراو» من وزار ة الخارجية، وفالنتين شيرول من جريدة التايمز، جميعهم أرادوا الاستماع إليه وهو

---

(١) آي. أو. إل/بي و إس/١٠/٣٨٩. ص٢١٨٢،/١٨. من «ويلسون» إلى «ابن سعود»، بتاريخ ٨/١/١٣٣٧(١٤/١٠/١٩١٨م).



يتحدث عن الجزيرة العربية، ودفعوه إلى أعلى ليحكي قصته إلى وزراء الحكومة، مثل كرزون في وزارة الخارجية، وأدوين مونتاج في وزارة الهند، رُحب به ليس لأخباره السياسية فقط، بل لاستكشافه الصحراء أيضاً، وحاضر في الجمعية الملكية الجغرافية عن رحلته في وادي الدواسر سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م) في الجزيرة العربية. لقد أعجبه التكريم، وبدأ يأمل في أن يكون له الحق في عمل خارج الهند، وارتفعت روحه المعنوية حين دُعي في سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م) ليعبر عن آرائه في مستقبل الجزيرة العربية أمام لجنة «كرزون» للشؤون الشرقية المشتركة.

ترك «فيلبي» الرياض سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، ولم يحلّ أحد مكانه، وفي هيجان صنع السلام، أسقط «وايت هول» فكرته الأساسية بضرورة وجود ممثل بريطاني في الجزيرة العربية يعرف المشهد العربي من وجهة نظر الجانب الحجازي. وبدلاً من ذلك يقوم «أرنولد ويلسون» بإرسال الشاب هارولد ديكسون ليهتم بالشؤون العربية، ليظل على اتصال بعبدالعزيز آل سعود من قاعدة في البحرين. ولم يكن هناك مراقب بريطاني في وسط الجزيرة العربية، حين قام عبدالعزيز آل سعود في ربيع الأول سنة ١٣٣٧ (١٩١٨م)، بناءً على رغبة إخوانه، وقد تخلّص من منافسه في حائل بحملته في الصيف، باستخدام أسلحته ضد عدوه الحقيقي حسين ملك الحجاز الذي اندفع نحوه بقواته. ووصلت الأخبار إلى لندن بأن جماعات من الإخوان تقوم بمناوشات حول «الخرمة»، وقال بعضهم: إنهم يقتربون من مكة.

كل إدارة بريطانية لها مصلحة في الجزيرة العربية مدت يد العون لمن يتمتع برعايتها؛ وزارة الخارجية والقاهرة ساندتا «الملك حسين»، ووزارة الهند وبغداد قررتا ألا تتخذا خطوة تنفر «عبدالعزيز آل سعود». عقّدت هذه الآراء المتنافسة تصرفات المتنافسين العرب، فقد تصرف الحسين بطريقة مشاكسة لعدم تنفيذ رغباته، وهدّد بالتنازل عن العرش مراراً، بينما تصرف «عبدالعزيز آل سعود» بوقار ودعا بريطانيا إلى الفصل في النزاع. لكن التورط في الجزيرة العربية خطوة لا يريد أي وزير بريطاني أن يخطوها، بينما صنع السلام يتعثر في أوروبا.

كان «كرزون» هو القائم بأعمال وزير الخارجية في أثناء وجود «بلفور» في باريس، ومع ذلك قام بمحاولة، وكان هذا في مجاله الملائم عندما يتناول مشكلات آسيا،

وكان سعيداً بأن تقوم اللجنة التي يرأسها للشرق الأوسط بالتوصل إلى قرار بخصوص السياسة في الجزيرة العربية. وتقدم «فيلبي»، الذي كان في إجازة آنذاك، بخدماته للمساعدة على التعامل مع «عبدالعزيز آل سعود»، فقُبل عرضه[١].

وفي اجتماع اللجنة الذي عقد في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧ (١٠ مارس ١٩١٩م)، تكلم «كرزون» بثقة: «سياستنا هي سياسة حسين». وحين دعي «فيلبي» لإبداء رأيه، أفزع أعضاء اللجنة بقوله: إن بمقدرة «عبدالعزيز آل سعود» أن يستولي على مكة متى أراد. وكتبت اللجنة رأيه على الفور بأنه لا يتفق مع السياسة البريطانية، وغادر «فيلبي» الاجتماع متأكداً أنه قد قطع «آخر علاقة له بالعرب»، وفكر وهو في طريق عودته أنه لا مخرج إلا بالعودة إلى الهند.

لكن هذه النتيجة المؤسفة التي توصل إليها ثبت أنها زائفة، فقد أصدر الملك حسين التعليمات لابنه «عبد الله» بالتقدم إلى «تربة» ومن هناك إلى «الخرمة» ليستعيد سلطة الهاشميين عليها. كان «خالد بن لؤي» قد حسم موقفه والتحق بعبدالعزيز آل سعود، وأُمر «عبد الله» بالقضاء على تمرده. وفي ليلة ٢٥/ ٢٦ مايو نامت قوات عبد الله في خيامها، وفاجأها «الإخوان» في نومها، ومزقوها إرباً، وهرب عبد الله بملابس النوم وكان الانتصار تاماً. عند سماع هذه الأنباء، استدعيت لجنة «كرزون» للاجتماع على عجل، وقررت ضرورة التدخل، ولابد من إرسال مبعوث ليقوده. كان الاختيار الواضح هو: ت. إي. لورانس، لكن لم يعثر عليه أحد (كان في الواقع في طريقه إلى القاهرة لجمع معداته، وقد وافق على السفر برحلة تجريبية للطيران على القوة الجوية الملكية)، وكان الاختيار الثاني: «فيلبي».

لم يكن «فيلبي» يعرف شيئاً عن معركة «الخرمة»، وعندما وقعت كان في خلوة في «ايستبورن» يكمل كتابه الأول «قلب الجزيرة العربية»[٢]، ودهش حين تلقى استدعاءً ثانياً من «كرزون» في ١٣ يونيو يقول فيه: «هل يمكنه أن يترك كل شيء ويحضر

---

(١) «بي. سي. بوش» «Britain, India, and the Arabs»: ١٣٣٢-١٣٣٩(١٩١٤-١٩٢١م)، الصفحة ٣٢٥ وما بعده.

(٢) نشر الكتاب مترجماً سنة ١٤٢٣/٢٠٠٢م، عن طريق مكتبة العبيكان.

اجتماعاً ثانياً للجنة الشؤون الشرقية الذي لن يعقد إلى أن يحضر؟ وعلم فور وصوله لندن أن «الإخوان» قد أثبتوا صحة رأيه، وأن كرزون كان على خطأ. واعترف «كرزون» بذلك في الاجتماع. قال – وقد أعطاه موقف «عبدالعزيز آل سعود» قوة – لا حلّ إلا أن تراجع بريطانيا سياستها. قيل لـه: هل أنت على استعداد للذهاب إلى القاهرة وتضع نفسك تحت إمرة «اللينبي»، ومن هناك تذهب إلى الحجاز وإلى نجد إذا استدعت الضرورة، كي تقنع «عبدالعزيز آل سعود» بوقف تقدم محاربيه؟[١]. وأدرك «فيلبي» أنه لا توجد لحظة كي يضيعها، وهاهي ذي فرصته لتحقيق الشهرة، وخلال ثلاثة أيام كان في طريقه إلى مصر. وعلى أمل أن يعبر الصحراء مرة ثانية حمل في حقيبته مِزواة (أداة لقياس الزوايا في المساحة) وكرونوميتر (آلة دقيقة لضبط الوقت).

لحق بالطائرة التي تحمل لورانس ـ في كريت ـ وكانت غير صالحة للطيران، وتقابل الاثنان أول مرة. لم يكن لدى «لورانس» أي أخبار حديثة، وأصغى باهتمام إلى «فيلبي»، وهو يروي التطورات في الجزيرة العربية. وسأله أخيراً كيف توصل لمعرفة كل هذا؟ ومن هو؟ وقال «فيلبي» اسمه، فقال لورانس: أنت فيلبي.. أأنت هو؟ ولم يزد. وهنا انغمسا في حديث مفعم بالحيوية عن الشؤون العربية، غير أنه عندما ذكر الوحدة العربية، فاجأ «فيلبي» بعدم اهتمامه بما يتعلق بالجزيرة العربية، ويعد الوحدة إقامة مملكة لفيصل في سورية. وطار الاثنان إلى القاهرة في الطائرة التي تقل «فيلبي». وهناك اختفى «لورانس»، وأعلن «فيلبي» حضوره في مقر المعتمد البريطاني ليأخذ الأوامر التالية من «اللينبي» الذي حمّله تعليمات إضافية، بأن عليه وبأي ثمن أن يثني «عبدالعزيز آل سعود» عن أداء فريضة الحج الوشيكة، إذ إن ظهور الوهابيين في مكة قد يشعل فتيل المشكلات. وأوضح له، أن الملك حسيناً، الذي نفد صبر الجميع منه، يرفض أن يوفر لـه طريقاً آمناً، كما يرفض التحكيم بينه وبين عبدالعزيز آل سعود، ومع ذلك ليس هناك وقت للوصول إلى «نجد» عن طريق البحرين قبل موسم الحج، لذا على «فيلبي» أن يذهب إلى «جدة»، على أمل ترتيب الأمور عندما يصل إلى هناك.

---

(١) أي. أو. إل/بي و س/ ١٠/ ١٩١٩/٣٣٤٠. محضر جلسة لجنة الأقسام العامة، بتاريخ ١٨/ ٩/ ١٣٣٧(١٧/٦/١٩١٩م).

أبحر «فيلبي» مدة ثلاثة أيام في حرارة أوائل يوليو، ووصل «جدة» مترقباً رضا الحسين. وفي الوقت نفسه وصلت الأخبار إلى «لندن» بأن «عبدالعزيز آل سعود» لم يواصل الاستفادة من موقفه، وعاد إلى الرياض معلناً أنه لن يحج ذلك العام. مهما كانت أسبابه التي دفعته إلى التراجع، فهو عن غير قصد أنهى فرصة «فيلبي» في الشهرة. وللمرة الثانية، تنتهي رحلة فيلبي التي بدأت مدهشة، بخيبة أمل. وكتب «كرزون» عن الحسين بأنه «مزعج وكثير الشكوى»، وأمر «فيلبي» الذي أصيب بالغم، بالعودة إلى لندن.

استأنف «فيلبي» إجازته، وعزّى نفسه بأخذ «ماي» و«دورا» و«كيم» في عطلة إلى أسكتلندا، وأسعده ـ وهو هناك ـ خبران: الأول أن «دورا» حامل، وقد بدأ الاثنان يشكان في إمكانية إنجابها الأطفال آنذاك، فابتهجا، والثاني يتعلق بمهمة عربية إذا وافق أن يقطع إجازته مرة ثانية، فقد رغبت بريطانيا في إظهار تقديرها للخدمات التي قدمها «عبدالعزيز آل سعود» وأمير الكويت في أثناء الحرب، فدعت شخصية من كل أسرة لزيارة بريطانيا. فهل يوافق أن يكون رفيقاً ودليلاً لهذه البعثة؟ وافق على الفور؛ لأنه يرى أن أي عمل يقيم رابطة مع عبدالعزيز آل سعود يستحق القيام به.

وصل الضيوف في نهاية صفر ١٣٣٨ (أكتوبر ١٩١٩م)، والأمير الذي اختاره «الملك عبدالعزيز آل سعود» ليستمتع بالرحلة، هو ابنه فيصل الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، والذي أصبح فيما بعد ملكاً للمملكة العربية السعودية.

قابل «فيلبي» الضيوف في «بلايموث» ورافقهم طوال إقامتهم. حين وصل لندن، وجد أن ترتيبات الضيافة قد سارت بشكل خاطئ، فلم يكن هناك حجز في فندق، وأن الفندق المتاح كان في «أبرنوروود» وانزعج النزلاء العاديون، فجر اليوم التالي، من الأذان إلى الصلاة. في المرة التالية، أدى المسؤولون البريطانيون الذين شعروا بالخجل، واجبهم بشكل أفضل. وراوحت واجبات «فيلبي» بين الترجمة في أثناء تبادل السيوف مع الملك جورج الخامس في قصر باكنجهام، والحفاظ على دفء الضيوف بالحصول على ملابس داخلية صوفية من إدارة التجهيزات الملكية، وأخذهم إلى مسجد اليقظة، ومرصد جرينتش، وإلى رؤية شوشن شو والميكادو وحديقة الحيوان، وروف جاردن سيلفردج، كما زاروا «كرابيت» لرؤية «ولفرد بلنت»

ومزرعته لتربية الخيول العربية، وابنه «كيم» في مدرسة «ايستبورن» الإعدادية. كما ذهبوا إلى «كمبردج» وقدم لهم أي. ج. براون شاباً عربياً من فلسطين يدرس القانون هو «موسى العلمي»، كي يشعر الأمير بارتياح. كذلك صدرت التعليمات لفيلبي، أن يصحب الضيوف لرؤية «ويلز» و«إيرلندا»، واستمتعوا بروائع نائب الملك في دبلن ودعوا لرؤية المزيد من الخيل في مقاطعة «ويكسفورد». وقد كتب مضيف فيصل الأيرلندي: أخذه «جوي» في نزهة بعربة يجرها حمار «وكاد يقتل الأمير». والضيافة الأخيرة كانت زيارة ميدان معركة «الفلاندرز»، والتي غاصت في أوحال ديسمبر.

كان للزيارة جانبها السياسي، فقد كان فيصل مصحوباً برجال يعرفون شيئاً ما عن العالم، ومن بينهم ابن عمه أحمد بن ثنيان وعبد الله القصيبي، وكلاهما معروفان لفيلبي. كان «أحمد بن ثنيان»، من هذا الجانب، الشخص المختص بإجراء المعاملات التي ائتمنه عليها «عبدالعزيز آل سعود»، وفي اجتماع مشترك مع وزارة الخارجية ووزارة الهند، طالب بحماية استقلال نجد وعدم التدخل في شؤونها، وبحدود تشتمل على «الخرمة» و«تربة» وتفويض بريطاني بتحديدها، وبرفع الحظر عن الحجاج الذي فرضته بريطانيا في أثناء الحرب، وبإعانة مالية دائمة، وبتعيين «فيلبي» مفوضاً سياسياً في نجد[١]. فوجئ البريطانيون بهذه الطلبات، ومعظمها يصطدم مع التعهدات السابقة التي أعطوها للملك حسين. شعروا أنهم قد ذعروا من تهديد «عبدالعزيز آل سعود» للأماكن المقدسة في مايو الماضي، وأن عليهم الآن أن يتراجعوا. ورد «كرزون» المتحمس لإثبات أن البريطانيين أقدر على معالجة قضايا الجزيرة العربية من الأتراك، على «ابن ثنيان» باقتراح أن يتقابل المتنافسان، وهكذا وضعه برنامج عبدالعزيز آل سعود الطموح على خريطة وزارة الخارجية.

ضاعفت زيارة «فيصل» من وجهة نظر «فيلبي» الخاصة، من توقه إلى العمل في الجزيرة العربية. فالقبول الذي لقيه أول كتاب رحلات له شحذ همته لمزيد من الاستشكاف، وقرر أن يكون أول من يملأ أكبر الصفحات البيضاء في الجزيرة

---

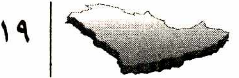
(١) بي. آر. أو. إف. أو./ ٣٧١/ ٤١٤٧. رقم ١٤٢/ ١٥٢٢٩٨، بتاريخ ١٣٣٨/٢/٧(١/ ١١/ ١٩١٩م).

العربية ـ الصحراء ـ التي بلا ماء ولم يطرقها أحد والمسماة بالربع الخالي، وهذا الطموح سيلازمه في الاثنتي عشرة سنة القادمة.

زاد التجوال مع فيصل معارف «فيلبي» وسط المهتمين بالحصول على اتفاق عادل للعرب: «بدأت أجد جمهوراً لمواعظي». وتخيل فكرة كسب رزقه بالحديث والكتابة في إنجلترا، وغدا أكثر حماسة، لأنه في سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م) كانت لندن تكتظ بأناس وجماعات مالوا لتشكيل عالم ما بعد الحرب في مجتمع مفتوح وحر في تعامله مع الشعوب الأخرى. وكان مصير المستعمرات الألمانية والأقاليم العثمانية السابقة على رأس جدول رجال يرون الاستعمار السبب الأساسي لحرب القيصر، وكانوا مقتنعين بأن عصبة الأمم الجديدة لابد أن تكون الوصي على الأراضي التي تتطلع إلى الاستقلال.

إن التأخير في صياغة معاهدة سلام مع تركيا، بسبب موقف الرئيس الأمريكي «ويلسون» وما تبع ذلك من عدم الثقة في النيات الأمريكية في الشرق الأوسط، أعطى مجالاً لكثير من التخطيط غير المنصف لمستقبل العرب. ولأن «فيلبي» كان دائماً على استعداد للانضمام إلى الحملات التي تستهويه، فقد وجد نفسه مطلوباً من عدة لجان ووفود مفوضة؛ فكان عضواً في لجنة عصبة الأمم، مع سياسيين وزملاء ومحامين وصهاينة مكلفين بإعداد «انتداب مثالي». وانضم أيضاً إلى لجنة كوَّنها ت. إي. لورانس لإنقاذ الشرق الأوسط من «القبضة الضارة» لوزارة الهند ووزارة الخارجية. وطلبت هذه المجموعة من «كرزون» ووزارة خالية من الإدارة المتوسطة وشبه الدبلوماسية لتضع حداً للصراعات حول السياسة البريطانية في العالم العربي بين الإدارات الحكومية المتنافسة، ومع لورد روبرت سيسل، ود. ج. هوجارث، وليونيل كيرتز، وأرنولد توينبي، وت. إي. لورانس، وأوبري هربرت، وسياسيين من الأحزاب الثلاثة، «اختيروا لحفظ التوازن»، وطالب «فيلبي» وزارة الخارجية بالضغط لعمل مثل هذا التغيير، ليهزمه «كرزون» «بوجهة النظر الهندية».

كان «فيلبي» قد رأى «لورانس» كثيراً في الأشهر القليلة الماضية، وكان لا يتفق معه دائماً بخصوص الشؤون العربية، فأحدهما يمقت الهاشميين، بينما الآخر يعمل على الحصول لهم على عروش في العراق والأردن. لكن موضوعاً واحداً التقت فيه



وجهات نظرهما وهو اعتقادهما بأن إدخال العقل والأموال اليهودية إلى العالم العربي قد يحسن من نجاح الفرص العربية للاستقلال.

يستطيع لورانس الذي منح عضوية زمالة مدة سبع سنوات في كلية «أول سولز» في أكسفورد، أن يستمتع بعضوية الجمعيات والقيام بالرحلات والكتابة الحرة، أما «فيلبي» فلديه عائلة تحتاج إلى الطعام، وإجازته قاربت على الانتهاء، فهو يحتاج إلى عمل يدر عليه المال، وقد طرح جانباً رغبة «دورا» في العودة إلى الهند مع وظيفة مضمونة، وكان يتطلع إلى وظيفة في البلاد التي تستهويه. وفي سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م) قدم طلباً للحصول على عمل مع البعثة المالية التي ستعيد ترتيب الشؤون الفارسية آنذاك، لكنه لم ينجح. وبعد شهرين حاول الاستفادة من أحد معارفه في لجنة عصبة الأمم للحصول على وظيفة في فلسطين.

وقد كتب إلى زميله ليونارد ستين: «آمل باتفاق مُرْضٍ مع الدول العربية على وجه الخصوص، وسنضع مقدمة لتطور فلسطين على خطا معقولة من وحي الإعلان الصهيوني»[(١)].

وذكر «ستين»، الذي رأى قدرة «فيلبي» على العمل الشاق، هذه الأفكار العاطفية إلى قائد الحركة الصهيونية «حاييم وايزمن»، وأرسل «وايزمن» اسم «فيلبي» دون أن يقابله، إلى «هربرت صمويل» الذي عُين مندوباً سامياً في فلسطين منذ فترة قريبة. ولسوء حظ «فيلبي»، كان «صمويل» رجلاً حذراً، وطلب رأياً آخر من «هوبرت يونج» الذي عرف «فيلبي» في العراق، وكتب «يونج» بصراحة رسالة لم تكن في صالح «فيلبي» قائلاً: قد تحصل على رجل ذكي ونهم للعمل، ولكن:

«أخشى أن تجد ولعه بالجدال ينقلب إلى إزعاج لك. وهو عرضة لأن يتخذ موقفاً إلى جانب معين ويثبت عليه»[(٢)]. وكان لدى «صمويل» الكثير من الأشياء الذين يتعامل معهم، فرفض «فيلبي».

---

(١) من «فيلبي» إلى «ستين»، بتاريخ ١٣٣٨/٦/٩(١٩٢٠/٥/٢٤م)، وثائق «صاموئيل»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

(٢) من «يونج» إلى «صاموئيل»، بتاريخ ١٣٣٨/٩/١٥(١٩٢٠/٦/٢م)، وثائق «صاموئيل»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

بحلول أواسط صيف سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠م)، بدا له أن العودة إلى «كدح الهند» هو الأمل الوحيد لكسب عيشه، عندما حدث فجأة تحول فادح في الأحداث مرة ثانية غيّر مجرى السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، ومعها حياة «فيلبي». فقد أجبرت فرنسا «فيصل» على مغادرة دمشق برؤوس الحراب، وفي الوقت نفسه كان مصطفى كمال الذي يعارض وخزات الحلفاء في ترددهم تجاه تركيا، يسارع في النهضة القومية في الأناضول، وأيضاً في الوقت ذاته انفجر تمرد عنيف في العراق ضد الحكم البريطاني المطلق على خطا حكومة الهند. وحدث اغتيال للضباط البريطانيين، ومنهم «ليتشمان» في كل البلاد، وهذا ما أدى إلى عمليات عسكرية بريطانية مكلفة للانتقام، وقطع «أرنولد ويلسون» الذي مازال في موقع المسؤولية، الأمل في استرضاء المتطرفين، ونصح لندن بأن تحكم مباشرة أو تخرج. حتى «جيرترود بيل»، التي كانت في وقت ما متفائلة كتبت إلى والدها في أغسطس: «في ضوء أحداث الشهرين الماضيين، لا مفر من الاعتراف بأننا قد حققنا إخفاقاً ذريعاً هنا»[1].

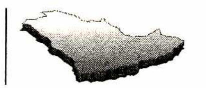
وكان علاج الحكومة البريطانية للمأساة في العراق، أن ترسل «بيرسي كوكس» الرجل الذي له سمعة كافية هناك ليهدئ الاضطرابات في الريف والمدن. قبل «كوكس» المهمة وطلب مجموعة من الرجال الذين يعرفهم، ومنذ سنة ١٣٣٤ (١٩١٦م) كان يقدر عقلية «فيلبي»، ونشاطه الهائل، وقدرته التنظيمية، لذا وضع اسمه في القائمة، ووافق على ذلك، وكتب «فيلبي» إلى «دونالد روبرتسون» في كامبردج بتاريخ ٢٢ أغسطس:

«لقد انتظرت طويلاً الأوامر بالذهاب إلى بلاد الرافدين، لكي أكون مستشاراً لأحد الوزراء في حكومة عربية.. وغني عن القول أنني فرح بعملي المحتمل هناك.. أهرب من الهند، والحكومة العربية التي حلمت بها، ستكون تجربة، لا شيء أفضل من ذلك..»

أبحر «كوكس» مع المجموعة التي اختارها بنفسه في نهاية ذي الحجة سنة ١٣٣٨

---

(١) «اليزابيث بوردون»، «Gertrude Bell: from her Personal Papers»، لندن، ١٣٨٠(١٩٦١م)، مج٢، ص١٥٩.



(أغسطس ١٩٢٠م). وعند وصولهم، وجدوا التمرد قد تضاءل، لكن نصف البلاد مازال في اضطراب، والمسؤولون البريطانيون يحكمون بمستشارين من العرب، وليس العكس. في البداية، بدا، أن التغيير غير مطروح، ومعظم المسؤولين الذين عملوا تحت إمرة «أرنولد ويلسون» اعتقدوا أن التغيير مستحيل، لكن «جيرترود بيل» و«فيلبي» كانا مُصرَّيْن مثل «كوكس» على إثبات خطأ «ويلسون»، ووضعوا قائمة بالشخصيات المشهورة التي يجب استشارتها لإحداث التغيير.

إن تشكيل مجلس وزراء عربي عمل يحتاج إلى ملاك، والمرشحان الممكنان لرئاسة الوزارة، أحدهما كبير جداً في السن، والآخر عنيد إلى درجة لا تجعله مثالياً؛ الأول نقيب بغداد العجوز وعميد عائلة الكيلاني المتدينة جداً والتي تلقى احتراماً كبيراً، لكن النقيب كان متردداً في تحمل مثل هذه المسؤولية، والرجل الآخر كان السيد طالب، ابن نقيب البصرة، الذي نفاه «كوكس» إلى الهند سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م)، ولكنه عاد وهو تواق إلى السلطة. بالنسبة إلى «كوكس» الذي تعود تجربته مع «طالب» إلى أيام خدمته مع الأتراك في الخليج العربي، فهو يراه مبتزاً جشعاً، وهناك على الأقل جريمة سياسية واحدة في ملفه[١]، وقد لقبته «جيرترود بيل» بأنه «موفق في الجريمة»، و«فيلبي» بـ«الشرير البارع». وبعد محاولات كثيرة لإقناعه، وافق النقيب العجوز على أن يرأس مجلس الوزراء، وأصبح «السيد طالب» وزيراً للداخلية لكونه أذكى الرجال المتاحين. وفي الوقت ذاته، نال «فيلبي» تقريظ «كوكس» بتكليفه تنظيم هيئة السكرتارية ووضع قواعد العلاقات بين الوزراء العراقيين ومستشاريهم من الإنجليز، وعندما تم ذلك، أصبح «فيلبي» مستشاراً لـ«طالب» في وزارة الداخلية، وهي وظيفة رئيسة بدأ من خلالها يثير غضب زملائه الإنجليز بتصرفاته الطاغية.

ناسب العمل ميوله، وأكسبه السلطة و٢٥٠٠ جنيه إسترليني، وفي الوقت الذي وصلت فيه «دورا» مع طفلتها الجميلة «ديانا»، كان قد استأجر بيتاً على النهر مستمتعاً بأجمل مشهد في بغداد؛ الانحناءة الكبيرة لنهر دجلة وهو ينساب جنوب المدينة، فعاشوا وتمتعوا إلى درجة لم يحلم بها منذ غادر «كلكتا». كانت بغداد محاطة بثكنات يسكن فيها معظم الجنود الذين استقدموا لإخماد الفتنة، ويبلغ عددهم نحو

(١) «جيه، جي لورايمر»، الفصل الثالث، الملاحظة الأولى وأيضاً «بورجوين»، ص٢١٤.

(٨٠) ألف جندي، وكانت الحفلات تقام كل يوم، ورحلات صيد ونزهات إلى بابل، وكان يدعى مع دورا إلى كل مكان، واشتريا حصاناً وأدخلاه السباق، رقصا ولعبا وفازا في المباريات الدورية. وعلى الرغم من الشتاء البارد والموحل الذي عرفته دورا، فإنها كتبت إلى «ماي»: إن الأيام تطير بسرعة، وكان «فيلبي» راضياً ومشغولاً.

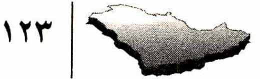
في الأمسيات التي يكون فيها بلا عمل كان يكتب الجزء الثالث من تجربته في الجزيرة العربية، وكان عمله، كما قال لدورا: «هو صنيعة أحلامه»، «هل تدركين أنه من المحتمل أن نبقى هنا بقية حياتنا، ربما في هذا البيت ذاته؛ لأنه لا يوجد أفضل منه في بغداد، ولا أرى شيئاً يتعارض مع هذا الأمل، ولا أرغب بشيء أكثر من ذلك»، ولا هي كذلك، فقد وجدت بغداد مرحة كالهند. وهي عروس اختلطت بعائلتها وأصدقائها البريطانيين فقط، ولم تهتم بأهل البلاد. وخلال حياة «فيلبي» كلها، كان يحب تعليم نساء بيته، والآن، بدأت «دورا» تتشرب السياسة، وتحب مقابلة الرجال الذين يتحدثون عن أعمالهم، والاستقراطيين من العرب بقدر ما يتكلمون الإنجليزية.

كان قلقه الأساسي سواء في الوزارة، أو في الجولات التي كان يصحب بها «طالباً» في الأقاليم، المدى الذي يدير به الأخير الأعمال بكلمة الشرف، ولأنه يعتقد ببراعة عقلانية طالب وقوة شخصيته، فقد بدأ يدربه على الأفكار الصحيحة. ووضح أن على «طالب» أن يصبر ويتعلم ألاعيب الإدارة الجديدة، وآنذاك سيرث كرسي النقيب عندما يترك الرجل العجوز منصبه، ولن يستغرق ذلك طويلاً.

لكن «فيلبي» تعجل في رأيه، ففي لندن، عند بداية السنة الجديدة ١٣٣٨ (١٩٢٠/١٩٢١م)، أنشئت إدارة الشرق الأوسط، وهي الوحيدة التي ساعد لورانس على شن حملة لإنشائها، ولكن ليس بالشكل الدبلوماسي الذي تصوروه، وبذريعة التصويت التي قلما تحدث، وضع مجلس الوزراء هذه الإدارة تحت إشراف وزارة المستعمرات[1]، وعين «تشرشل» مسؤولاً عنها، وقد استدعي «لورانس» لمساعدته، وقام هذا على الفور بعمل الترتيبات من أجل مكافأة أبناء الملك حسين على خدماتهم في أثناء الحرب، لتعويض «فيصل» على وجه الخصوص، عن فقدان عرشه في

---

(١) «ستيفن روسكل»، «Handey: Man of Secrets»، لندن، ١٣٩٢(١٩٧٢م)، مج٢، ص٢٠٢.



دمشق. وفي مارس، سافر «تشرشل» إلى القاهرة والقدس، وعقد المؤتمرات التي أصر فيها على أن «فيصلاً» يصلح لحكم العراق، و«عبد الله» لحكم شرق الأردن، وغادر راضياً بأنه أقام عرشين قوميين خلال أيام.

حضر «كوكس» و«جيرترود بيل» واثنان من مؤيدي الهاشميين في العراق، مؤتمر القاهرة في رجب ١٣٣٩ (مارس ١٩٢١م)، وعند عودتهم، أمسك المندوبون البريطانيون ألسنتهم عن الخطة المستقبلية لفيصل، واستمروا في وضع قانون انتخابي بموجبه تختار البلاد بحرية شكل حكومة المستقبل.

ذهل «فيلبي» حين علم من الكلام المتناثر على ألسنة المندوبين العرب أن «فيصلاً» سيُقدَّم إلى العراقيين مرشحاً لقيادة بلادهم، وكان «طالب» ساخطاً مثل «فيلبي»، من يريد واحداً من الأسرة الهاشمية مهما كانت كفاءته؟ وأصبح التعامل مع «طالب» صعباً، فهو تارة يتزلف إلى المتطرفين بإصدار عفو عام عن أتباعهم، وتارة يفرض الرقابة على الصحف المؤيدة لفيصل، وحينا يسأل عن المنصب الذي يتولاه إذا انتخب للسلطة، وحيناً آخر يتآمر مع القبائل، أو مع العائدين من سورية، أما «فيلبي» فقد عدَّ رأي «جيرترود بيل» والنقيب وآخرين غير مهم بخصوص أن «طالباً» بصري - نسبة إلى البصرة - وغير محبوب في الأوساط التي يعتد بها في بغداد، وظل على اعتقاده بأنه يستطيع تغيير «طالب»، قائلاً له: «لا تخذلني الآن وقد حانت فرصتك»، إلى أن خيّم شبح فيصل على الطريق الذي رسمه.

لم يكن الوقت في صالح «فيلبي» أو بريطانيا، وكان النقيب متحمساً للتقاعد. وكتبت «جيرترود بيل» إلى أبيها: أن بريطانيا إذا ترددت فقد يتحول المد بطريقة مربكة لمصلحة الأتراك. ولدهشة «فيلبي»، الذي كان يعدها «ضد الغرباء»، اختارت تأييد تقديم «فيصل» إلى العراقيين، وبعد ذلك، يقوم هو بشق طريقه للحصول على الاعتبار العام. وبقي «كوكس» صامتاً، قائلاً لفيلبي: إنه لايعرف أي شيء، حين سأله الأخير عن الشائعات القائلة: إن «فيصلاً» قد أبحر من «جدة» إلى «البصرة». عند سماع هذه الأخبار (التي أُبرق بها من جدة وعرفها السياسيون في بغداد على الفور)، أظهر «طالب» أنيابه، إذ كان يعرف أن «فيصلاً» لا يتمتع بتأييد الجميع، وخصوصاً من الغالبية الشيعية في الجنوب، ورأى في نفسه معارضاً كبيراً، ولكنه بمعارضته المفرطة أتاح الفرصة «لكوكس» كي ينال منه.

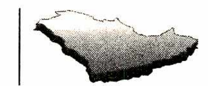
استدعى أتباعه إلى وليمة مميتة، ودعا «فيلبي» الذي كان لديه الحدس كي يرفض، لكن عدداً من الأجانب قبلوا الدعوة، ومن بينهم القنصل الفرنسي والإيراني، وصحفي لندني، ورجل أعمال إنجليزي، هو «آرثر تود» الذي يعرف العربية، وعلى العشاء، انطلق «طالب» بحديث ملتهب، وقال: إذا لم تمنح بريطانيا العراق حرية اختيار حاكمها، فسيثير القبائل التي تشاركه رغبته في رؤية العدل يتحقق. وقصد أن تصل كلماته إلى «كوكس»، وقد حدث ذلك عن طريق «تود». ولم يخف «كوكس» كما أراده «طالب»، وأرسل إلى لندن قائلاً: إن موقفه سيكون صعباً لو تغاضى عن مثل هذه التهديدات، وصمم على إبعاد «طالب». واستشار «هالدين» القائد العام للقوات البريطانية في العراق، متى وكيف يمكنه أن يفعل ذلك[1]؟ وقررا أنه لا يوجد وقت لإضاعته، وأن الضربة لابد أن تحدث في اليوم التالي.

وشُوهت قصة اعتقال «طالب» على أيدي النقاد العرب والأجانب بمن فيهم فيلبي، لكننا نرويها هنا بالكامل من واقع السجلات البريطانية العامة، برواية الكولونيل «بوڤيل» الذي نفذ العملية[2]. أصر «كوكس» على أن تتم العملية على يد الجيش البريطاني، وليس الشرطة المدنية، ويجب ألا يُترك شيء للمصادفة، سيتغيب لقضاء فترة ما بعد الظهر في سباق الخيل، وفي ذلك الصباح، عقد «هالدين» اجتماعاً عسكرياً لتحديد أفضل طريقة لتنفيذ العملية، وأناب «بوڤيل» للقيام بذلك. احتج «بوڤيل» بأنه صديق لـ «طالب»، وأنه يفضل أن يُختار غيره، لكن طلبه رُفض. وكما شاء سوء الحظ، فإن السيدة «كوكس» كانت قد عاتبت «طالباً» قبل أيام، لتردده في الاتصال بها، فدعا نفسه لشرب الشاي في اليوم نفسه الذي تقرر فيه اعتقاله. وقامت السيدة «كوكس» بكل براءة بدعوة «جيرترود بيل» إلى الانضمام إليهما بعد أن شرحت لها الأمر. وعرف هالدين ومن معه في الاجتماع العسكري بذلك، ورأى

---

(١) بي. آر. أو. سي. أو./ ٧٣٠. مج١، من «كوكس» إلى مكتب المستعمرات، ١٣٣٩/٨/٧(١٦/٤/ ١٩٢١م)، رواية «طالب» الشخصية، مسودة كتب سنة ١٣٤٢(١٩٢٤م) كجزء من قضيته للعودة من المنفى، موجودة في وثائق «فيلبي» في كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد. أنا أدين بالفضل بهذا الاكتشاف لحفيدته» هيفاء الناكب».

(٢) «فيليب ايفس»، «Life of Sir Percy cox»، لندن، ١٣٦٠(١٩٤٠م). ص٢٩٠ ـ ٢٩١.



أنه لو أُجلت الزيارة فسيثير شكوك طالب، كما أنه يجب أن يعتقل بعيداً عن مقر إقامة المعتمد البريطاني قدر الإمكان. واحتج «بوڤيل» بأن اليوم غير ملائم، لكن للمرة الثانية رُفض رأيه. وأُعتقل «طالب» وهو في طريقه إلى بيته «حسب الخطة» في نقطة يمر بها الطريق عبر بساتين النخيل قرب النهر، وعند حلول الليل كانوا يرحلونه خفية إلى «سيلان».

لم يُحسن اختيار الوقت لاعتقاله، وانتشرت الشائعات بانتهاز فرصة حقيرة لاعتقاله، وأنه في أثناء ذهابه إلى المقر البريطاني، بل قال بعضهم: إن ذلك قد تم في غرفة جلوس السيدة «كوكس». ولم يكن العراقيون وحدهم الذين يبالغون في الحكاية، فقد صدق«فيلبي» ذلك، وكان يصف الحدث دوماً بأنه ظلم، (ففي سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) تقدم برجاء إلى جيه. هـ. تومسون وزير المستعمرات، لتصحيح الخطأ والسماح لطالب بالعودة إلى العراق). وفي لندن تلقف لوردات الصحافة القصة، وشنوا الحملات لتتخلص بريطانيا من كابوس الانتداب، وبالنسبة إلى «كوكس» فإن أفضل طريقة لاجتياز العاصفة أن يبقى صامتاً، لكن كان عليه أن يشرح موقفه لهيئة أركانه، وخصوصاً أن «فيلبي» مستشار «طالب» ونصيره الرئيس.

لم يكن «فيلبي» يعلم بأمر الاعتقال، والقوات العسكرية عازمة ألا تترك شيئاً للظروف، فقطعت خط هاتفه، وعلم بالأخبار في حفلة راقصة في أحد البارات في الليلة ذاتها، فطلب مقابلة «كوكس» عازماً على الاستقالة.

رأته دورا لدى خروجه من البيت يستنزل اللعنات وفي عجلة شديدة، وما لبث أن عاد بعد ساعة تقريباً، هادئاً ولطيفاً، وأخبرها أنه سيقوم بمنصب وزير الداخلية، فقد كان كوكس هادئاً وماكراً كعادته، وقد شرح له أنه منذ فترة طويلة يعتزم فصل الوزراء العرب مؤقتاً حتى يختار العرب حاكماً، وأن يتولى المستشارون الإنجليز وزاراتهم.

وصفت «جيرترودبيل» خطوة كوكس التالية لتمهيد الطريق لفيصل، بأنها «ضربة معلم»، لكنها انقلبت إلى إخفاق ذريع، وأرسل «كوكس» «فيلبي» إلى البصرة لمقابلة «فيصل» على أمل أن سحر الأخير واتزانه يكسبه إلى جانبه. وقد كتبت «جيرترود

بيل»: «لا أملك إلا الدعاء أن ينتصر فيصل، وأن يعود «فيلبي» شريفياً متحمساً»[١].

لكنها كانت تخدع نفسها، فكلاهما، كوكس وهي، أساءا الحكم على إيمان «فيلبي» العميق بأن الجمهورية هي النظام الصائب للعراق، وأن كل إنسان له الحق في أن يختار حاكمه، وأخفقا في معرفة وجهة نظره التي تقول كيف يمكن للحكومة البريطانية أن تزرع دمية هاشمية لمصالحها الاستعمارية الخاصة، وتتخلص من وعودها في حرية الاختيار التي جاءت في الإعلان الفرنسي البريطاني؟

سأل ضباط المناطق «فيلبي» عن الإجراءات التي يمكن عملها عند مرور «فيصل» شمالاً، فأجاب بأنه لا ضرورة لأي إجراءات خاصة، فهو مجرد مرشح للانتخابات. لم يدهش فيصل الذي وصل إلى البصرة على ظهر طراد إنجليزي، من فتور الترحيب به، فالشيعة في الجنوب كانوا معارضين لمرشح سني من شرفاء الحجاز، كما أن المسؤولين البريطانيين لم يجدوا سبباً للتباهي بقضيته.

شرح «فيلبي» في طريقه إلى الشمال وجهة نظره بصراحة، وبعد ثلاثين سنة تقريباً، لخص ذلك في كتابه المسمى «Mesopotage» الذي كتبه اعتماداً على يومياته، ولم يجد ناشراً له بسبب كبر حجمه الذي لا يتناسب مع أي سوق. وحين عبر «فيصل» عن خيبة أمله في الاستقبال الذي لقيه في البصرة، أجابه «فيلبي» بأن تأييد كل المسؤولين البريطانيين ليس أمراً حتمياً. رداً على سؤال عن رأيه في فرص نجاح فيصل، أجاب: «ذلك يعتمد على موقفك الخاص، مادام لدى الناس خطة عامة، فهي تتلخص في كلمة واحدة: الاستقلال، وقامت الثورة وحاربت من أجل تلك القضية وحدها، وتوقفت استجابةً لقبول بريطانيا تغيير سياستها على أساس الاستقلال. والآن، إذا عزمت أن تبدأ حملتك على أنك المرشح المقبول للحكومة البريطانية، أعتقد أن فرص نجاحك نادرة جداً، لكن إذا أعلنت، من ناحية أخرى، أنك تسعى لأن يكون للناس حق الانتخاب كبطل لاستقلالهم التام، أعتقد أنه سيكون لك فرصة للنجاح أكثر من أي مرشح آخر».

---

(١) «بورجون»، ص٢٢١.



ربما غلف كلماته برأي كان يراه الأجدر بأن ينفذ؛ لأن الانطباع الذي خرج به بعض الحضور، أنه تكلم في صالح قيام جمهورية، على كل حال، في «الحلة» وفي أثناء سفرهم بالقطار، أصيب فيلبي بالملاريا، ووصل الموكب إلى بغداد من دونه، وهكذا لم يشهد الاستقبال الذي نظمه «كوكس» لفيصل والمسؤول البريطاني الذي يرافقه من جدة «كيناهان كورن واليس». وعلى الفور أخبر هذا الأخير «كوكس» عن دهشته للاستقبال الفاتر الذي لقيه فيصل في الجنوب، ومشاركة «فيلبي» فيه، وكان فيصل صريحاً جداً، فلم يبد اهتماماً بـ «فيلبي» أو بمبادئه.

إعلان «كوكس» عن تأييد بريطانيا المطلق لفيصل، في تناقص أعداد المعارضين يومياً، فقط زمرة «طالب» وبعض الشيعة ظلوا غاضبين. وفي ٥ ذي القعدة ١٣٣٩ (١١ يوليو١٩٢١م)، قرر مجلس الوزراء وضع حد لعدم اليقين، فبعد بحث نصيحة «كوكس»، استغنى عن الانتخابات وأعلن «فيصل» ملكاً.

كان «فيلبي» يشعر بالوهن من الملاريا، ومن عدم موافقته على المسار الذي جرت فيه الأحداث عندما أرسل إليه «كوكس» المرسوم المحتوم، وبما أن فيصلاً سيبقى، فلابد من مغادرته.

ردَّ «فيلبي»، بسخط، إنه جاهز لتسليم مهامه، فبقاؤه كان ممكناً لو أقيمت انتخابات حرة، كما وعدت بريطانيا، وأن اختيار مرشح جاهز أمر لا يتفق مع مبادئه، وأنه سعيد بأنه سيغادر، عاد إلى البيت وأخبر «دورا» بالأخبار. ومع أنه قد قوض آمالها في البيت الآمن، إلا أنها أصبحت على معرفة كافية بالسياسة العراقية كي تشاركه سخطه. وحين اندفعت «جيرترود بيل» من منزلها القريب إليها صائحة: «آوه ياجاك.. أنا آسفة جداً».. التفتت إليها دورا وردت: «لا.. أنت لست كذلك» ووبختها لمشاركتها في التحضير لانتصار فيصل، وودعت «فيلبي» الذي ذهب في إجازة إلى فارس، مع تأكيدها أن بقاءها في بغداد أفضل؛ لأنها تتوقع أن تضع مولودها، حتى لو واجهت إعراضاً من المتزلفين إلى فيصل، فإن الهدوء مفيد لها، وتكفي صحبة «آني» مربية طفلتها «ديانا».

كان السفر من العراق إلى فارس في الصيف، مثل الدخول إلى عالم آخر؛ عبور السهول العراقية المنبسطة والرتيبة، حائط الجبال على الحدود الذي يختفي تحت

سديم من الحرارة، زوابع الغبار الهائلة التي تثور من وقت إلى آخر، وكل قافلة عابرة تثير سحابة تشبه عموداً من الدخان في النهار. وما إن يبدأ صعود ممر «بايتاك Paitak»، حتى تحضر كل انعطافة ترويحة عذبة هواءً أكثر طراوة، ومشهداً أكثر اتساعاً، وإنعاشاً وإحساساً بالصحة. وكتب «فيلبي» إلى «دورا» من «كولكاند Kolkand» أول محطة وقوف عبر الحدود: «عموماً، استمتعت بأول يوم في منفاي، لكني أحياناً أشعر ببعض الحزن وأتمنى أن يأخذ الشيطان فيصلاً».

لكن ليس هناك ما يخفف من القلق والحزن مثل تغيير المشاهد، وكتب ذات مرة إلى «دورا» المسكينة المثقلة بالأعباء، أنه إذا كانت حرارة بغداد فوق ما تحتمل، وإذا كانت لا تتحمل اهتزاز العربات على الطرق الفظيعة، فعليها أن تلحق به، لكن في معظم رحلته الفارسية، كتب عن القلق بسرعة، وانغمس بالاستمتاع في المحيط الجديد. ولأنه متحدث لبق دائماً، فقد نال استقبالاً حسناً وضيافة في كل مكان ذهب إليه، وجدّد بسعادة لغته الفارسية التي لم يتحدث بها إلا نادراً منذ ترك كلكتا، واصطاد في جبال «البورز Elburz»، وتسلق ببطء حتى قمة «ديماڤاند» على ارتفاع ١٦ ألف قدم، وذهب جنوباً حتى مدينة «قم»، واستمتع بالطعام الجيد في دار المفوضية الإنجليزية والأمريكية في «طهران»، وأقام مع «آرثر مور» مراسل «التايمز» هناك، وأخبر بقصص لاذعة عن سيئات بريطانيا في العراق. وبدا أنه يحس بارتفاع في الروح المعنوية من موقفه الأمين مع إنجاز الوعود البريطانية.

كان مستقبله المتوقع كفيلاً بإثارة قلق رب أسرة متنامية، وكتب إلى دورا: «يجب أن نتصرف بحذر حتى نرى كيف تنتهي الأمور بنجاح»، لم تكن تشاركه تفاؤله. فقد رأى العراقيون في كل بغداد أن خروجه كان أمراً طبيعياً، ومن وجهة نظرهم فإن رأس طالب قد سقط، ويجب أن يسقط كل الموالين له أيضاً، وبالنسبة إلى دورا، فإن ما تحمله المرحلة الانتقالية أمر كئيب، لقد تحملت الشدائد الخارجية بصبر شديد، وهذا ما أثار إعجاب جميع أصدقائها. كان عليها أن تتحمل درجة حرارة ١٢٠ ف مدة ثلاثة أسابيع في يوليو.

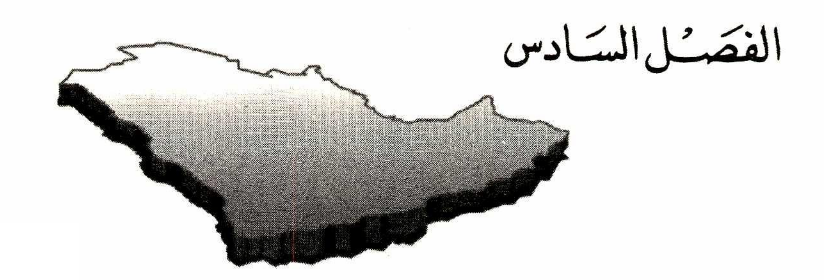
أفضت إلى «ماي» بكل ما مرّ بها، ولكن بعد أن انتهت محنتها: «لم يدرك أحد ما مرّ بي خلال أشهر الصيف الحارة، وأنا لا أعرف ما هي خططنا المستقبلية».

كان «كوكس»، الذي اعترف بثباتها ووقارها، قلقاً من المأزق الذي وضع عائلتها فيه بتصرفه. وخشي أن يكون البذخ الذي عاش فيه «فيلبي»، لم يسمح له بأي ادّخارات، فكتب الرسالة تلو الرسالة إلى الهند، وفارس، والخليج بحثاً عن وظيفة بديلة لفيلبي، وقد وصفه بأنه «ذكي جداً وكفؤ». وأوضح أنه حين أعلنت السياسة البريطانية الخاصة بآل الشريف، فإن انحياز «فيلبي» الخاص ضد الهاشميين اضطره إلى الافتراق عن رجل جيد. وأخبر «دورا» أنه تمنى لو لم يكن «الأداة التي صنعت هذا التحول السيّئ». وحين ولدت أخيراً ابنتها الثانية «باتريشيا»، وتركت بغداد، كان يتحدث إلى كل الجالية البريطانية حين قال لها: «لقد تصرفت بشكل رائع، وكنت أعرف أنك ستفعلين ذلك، فليباركك الله».

عاد «فيلبي» إلى بغداد في أوائل أكتوبر ليجدها حزينة، غير واثقة، تنتظر موعد الولادة، وبعد يومين، حدثت معجزة، إذ تلقى «كوكس» برقية من إدارة الشرق الأوسط في وزارة المستعمرات، تتساءل إذا كان «فيلبي» حراً، ويوافق على تولي وظيفة في شرق الأردن، وإذا وافق، فعليه الذهاب إلى هناك على الفور لكي يراه - من دون الناس جميعاً - شقيق فيصل الأمير عبد الله الذي عينه «تشرشل» - من المفروض تحت الاختبار - حاكماً لتلك الأرض. أما كيف حدثت عملية هذا العرض غير المتوقع بالخدمة مع الهاشميين فسنصفها في الفصل التالي.

واختال «فيلبي» زهواً، لحصوله على فرصة ثانية يساعد من خلالها على الاستقلال العربي، وكتب في يومياته: «علينا أن نقوم بجولة ثانية من أجل كسب النقود». وركب طائرة القوة الجوية الملكية إلى عمان مقتنعاً بمقدرته على الحصول على القبول، تاركاً دورا وحدها كي تلد، وتحزم حقائبها ثم تتبعه.

الفصل السادس



فرصة ثانية في شرق الأردن

اضطربت أحوال شرق الأردن، التي نُقل إليها «فيلبي» فجأة في سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠م)، لأكثر من سنة. كانت تبعيتها غير ثابتة ولم يحددها صنّاع السلام، نصفها صحراء والنصف الآخر أرض قابلة للزراعة. تجاورها في الجنوب مملكة الحجاز للشريف حسين، وفي الغرب فلسطين، ويعدها البريطانيون جزءاً من الأرض العربية المستقلة التي وعدوا العرب بها، ولكونها جزءاً من سورية العثمانية، فهي تخص الإرث الذي سيديره فيصل بن الحسين من دمشق. وبالنسبة إلى الكثير من اليهود، فهي تخص قبائل «ريوبين» و«فاد»، وهي جزء متمم للأرض المقدسة. وطوال حكم فيصل في دمشق كان يديرها تحت الوصاية البريطانية، ولكن بعد أن اضطره الفرنسيون إلى الخروج في شوال ١٣٣٨ (يوليو ١٩٢٠م)، انهار هذا الترتيب وحل الارتباك محلياً وفي «وايت هول».

أراد «هربرت صمويل» بعقليته المنظمة، أن يحتلها عسكرياً لأسباب تتعلق بالأمن في فلسطين، لكن وزارة الحربية، وهي مثقلة بنفقاتها في قمع الثورة في العراق، رفضت ذلك، فقلَّص «صمويل» مطالبه بالتخلي عن صحراء شرق الأردن إلى القبائل لتديرها، وأن يُعين ستة من الضباط الشباب لإدارة مدنها القليلة المستقرة، وتراوح أعمارهم بين ١٩ و٣٥ سنة، وتعطى لهم التعليمات بتشجيع الحكم الذاتي المحلي، وأن يقدموا نصائحهم حين يطلب منهم ذلك فقط، وألا يظهروا عياناً لكيلا يقعوا في «أيدي الأعداء». وكلٌ أدار جزيرته الصغيرة المستقلة بطريقة وصفها أحدهم «إليك كيركبرايد» في مقال بعنوان «الحكومة الوطنية في موآب»[(١)].

---

(١) «A Crackle of Thorns»، لندن، ١٣٧٥ (١٩٥٦م)، ص١٨ ـ ٢٥.

تجسدت «أيادي الأعداء» على الفور، إنهم ينتمون إلى «عبد الله» الابن الثاني للملك حسين - ملك الحجاز - والشقيق الأكبر لفيصل، الذي كان يتوقع عرشاً بدوره - العراق اختياراً - والذي كان قد دُحر وهُزم على يد «عبدالعزيز آل سعود» في «الخرمة» في سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠م)، وقد عزم «عبد الله» على مضايقة الفرنسيين لإساءتهم إلى فيصل، فشق طريقه شمالاً مستخدماً خط السكة الحديدية الذي كان ينقل الحجاج، والذي كان مكان الأحداث التي شهدها ت. إي. لورانس، وحطامها الذي يدل على بطولته، جاعلاً من أعمدة التلغراف وقوداً، وبهذه الطريقة وصل إلى «معان» - الآن تابعة للأردن، أما في ذلك الحين فكانت لا تزال تابعة للحجاز - وبحلول جمادى الآخرة سنة ١٣٣٩ (مارس ١٩٢١م) كان قد وصل إلى عمان التي كانت في وسط المناطق التي تقع تحت الإدارة البريطانية، وطوال طريقه، كان يجمع المنشقين السوريين والقبائل المستاءة حول وجهة نظر الهاشميين.

وضع تقدم عبد الله البريطانيين في مشكلة محيرة حول التوفيق بين سياستهم نحو آل الشريف وسياسة الانتداب، وانتهى ترددهم بوصول «تشرشل» إلى وزارة المستعمرات، وحل المشكلة برباطة جأش مميزة.

تصادف وصول «عبد الله» إلى عمان، مع انعقاد مؤتمر في القاهرة، وصله «تشرشل» مصمماً على تنصيب فيصل ملكاً على العراق، وذهب بعد ذلك مباشرة إلى القدس، واستدعى «عبد الله» لمقابلته هناك. وحين وجده متحضراً ومناسباً، قدّم إليه مهمة مؤقتة فرضتها الضرورة، كما أنها تلائم إمكانيات بريطانيا، وهي تجربة لمدة ستة أشهر، بمكافأة قدرها ٥٠٠٠ آلاف جنيه شهرياً، للإشراف على شرق الأردن كأرض تابعة لآل الشريف ضمن أراضي الانتداب الفلسطينية، وقال تشرشل: «إن بريطانيا يمكن أن تستخدم الضغط على منطقة نفوذ عربية واحدة كي تحقق أهدافهم الخاصة بعضهم عند بعض»، ولم تتحقق الخطة دوماً بشكل مناسب.

كان دور عبد الله صعباً، فإرثه الجديد يمتلئ باللاجئين السوريين الذين يرغبون في الانتقام، وبالقبائل التي خرجت من أجل المال، ولا أحد منهم يدرك أو حتى يعي الحدود الجديدة المفترضة، وفي الشمال يوجد الفرنسيون المعادون، وفي الجنوب والده الملك حسين الذي يزعم أن شرق الأردن هي الإقليم الشمالي للحجاز. في

نهاية الأشهر الستة، كان قد بدد المبلغ الذي مُنح له، وحاول استدعاء تعزيزات بريطانية عند مواجهة المشكلات، وكان متضايقاً من القفار التي لا تقارن بدمشق اللامعة. وناقش الإنجليز في فلسطين ولندن إمكانية إزاحته، وضم شرق الأردن إلى فلسطين، لكن هذه الخطة كانت تنطوي على عقبات غير منتظرة؛ منها، وهو أمر ممكن، مد الوعد بإنشاء مستوطنات يهودية في أرض وعدت بريطانيا العرب باستقلالها، والأمر الآخر أن بريطانيا لن تعادي ابن حليفها الشريف حسين.

كانت وزارة المستعمرات في زحمة من العمل، فقد تحملت، حديثاً، مسؤولية إيرلندا، بالإضافة إلى فلسطين والعراق. وبحلول ذي الحجة ١٣٣٩ (سبتمبر ١٩٢١م) وجد «تشرشل» الوقت ليفكر بشرق الأردن، وكلف ت. إي. لورانس بالذهاب إلى هناك وترتيب التخبط الواضح من برقيات «هربرت صمويل».

وجد «لورانس» عبد الله يتخبط، فمرة يهدد بالتخلي عن مهمته، ومرة أخرى يغازل الفرنسيين، وأحياناً يفكر بالاندماج مع الحجاز كي يؤسس مملكة مثل مملكة فيصل في العراق، إلا أن لورانس الذي اتجه إلى شرق الأردن وفي ذهنه أن عبد الله لا يصلح لمنصبه، غيّر خططه بعد أن وصل إلى عمان، وكذلك تردد عبد الله واعتزم أن يبقى فترة أطول، ووافقه الجميع على ذلك.

«رجل إنجليزي جيد» يؤيد الاستقلال العربي، ولا يطيق وقاحة من حوله، شخص ما يريه كيف يقيم الإدارة، ويوقف بذخ المتعة، كان «فيلبي» يزعم دائماً أن «لورانس» هو الذي فكر فيه، ولكن الملفات في وزارة المستعمرات تبين أنه «هيوبرت يونج» (الرجل الذي منع تعيينه في فلسطيين سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠م) هو الذي أبرق إلى القدس في أكتوبر «المطلوب - حقيقةً - شخص بعقلية فيلبي ونوعيته».

عندما أُرسل هذا الاقتراح إلى بلاد الرافدين، حلَّ مشكلةً لبيرسي كوكس الذي اكتشف أن لا أحد يريد استخدام مؤيد شديد لعبدالعزيز آل سعود. وفي التخبط الذي يحدث في شرق الأردن، لا تستطيع وزارة المستعمرات أن تتحمل التصرف بعناية شديدة، وقد تكون الريبة في بعض الأحيان غير مسوغة؛ لأن عبد الله نفسه، كتب بعد ذلك عن «فيلبي»: «إنه مخلص جداً في خدمة البلد الذي يعيش فيه». والاحتياط

الوحيد الذي اتخذ في ذلك الوقت للاحتراز من عناد «فيلبي» المعروف عنه، أن يذهب أولاً إلى عمان، فإذا نجح عند مقابلته عبد الله ولورانس، يذهب إلى فلسطين لكي يختبره «صمويل»، وإذا سارت الأمور بشكل حسن، يسافر إلى لندن لكي يتفحصه «تشرشل».

وعلى العكس، كان «فيلبي» دوماً متحدثاً لبقاً، فقد طرح آراءه بوضوح، وكسب النقاد المتابعين كلهم، وأبهجه العمل الذي أوضح له «تشرشل» خطوطه العامة، والذي لا يرجئ ذهابه إلى الهند فقط، بل يقدم له فرصة دعم الاستقلال العربي الذي يعد المؤسس له في العراق، ومن دون إشراف من أحد تقريباً. وسعد لأنه نسي أن يسأل عن بنود هذا المنصب، ولقد قيل له ببساطة: إن بقاء عبد الله، أو تشجيعه على التخلي، يعتمد على آرائه التي يكوِّنها في المكان ذاته، وفي الرابع من نوفمبر كان في طريقه عائداً إلى عمان.

استهلَّ «فيلبي» واجباته ممثلاً رئيساً لبريطانيا هناك، فور وصوله، لكن بصورة اسمية، فالواقع أنه لم يبدأ ممارسة واجباته حتى غادر لورانس عمان بعد عشرة أيام. وقد قضى الاثنان هذه الأيام العشرة في انسجام وسعادة، وقد وجده «فيلبي» عملياً بدرجة كبيرة، وترك له الحرية في حل المشكلات بطريقته الخاصة، وبالتجول في الأماكن المحيطة متخذاً قرارات فورية، تاركاً العمل المكتبي الروتيني للموظفين، ووجد الاثنان أنهما يتفقان حول بعض الموضوعات العاجلة.

وبما أن عبد الله بدا راضياً أن يكون رئيساً صورياً، فيستحق أن يعطى تجربة إضافية مع تخفيض المعونة المالية الشخصية، ومنح البلاد مساعدة تعتمد على تنظيم «فيلبي» لعملية جمع الضرائب، توجه نحو ترسيخ استقلال البلد، بما فيه الاستقلال عن فلسطين إلى درجة تسمح بعدم دخول المستوطنات اليهودية إليها، ولابد أن تمتد حدودها إلى الداخل حتى تجاور العراق، وتشتمل على «وادي السرحان» طريق القوافل القديم بين وسط الجزيرة العربية وسورية.

كان «تشرشل» قد كلف «لورانس» قبل مغادرته لندن بالحصول على توقيع الملك حسين يلزمه بالقبول بوجود الانتداب، وقد أخفق في ذلك، ولكن قبل مغادرته شرق



الأردن حصل على توقيع عبد الله بديلاً لذلك، وعاد إلى لندن قانعاً، وبتنصيب فيصل ملكاً على العراق، رأى أن هاتين الخطوتين اللتين قام بهما «تشرشل»، هما تنفيذ للوعود التي قطعتها بريطانيا للعرب في أثناء الحرب، وكما كتب بعد سنة من ذلك: «لا أرغب في نشر وثائق سرية أو أقوم بشروحات طويلة، لكن أسجل قناعاتي بأن إنجلترا خرجت من الشؤون العربية نظيفة الأيدي»[١].

ولم يتقابل مع «فيلبي» ثانية قط، ولم يلحظ العنف الذي سيبديه «فيلبي» في عدم موافقته على نصيحته بخصوص السياسة البريطانية.

بدأ «فيلبي» العمل بجد في اتجاهين: أحدهما إعادة إقامة حياته المنزلية، والثاني تنظيم أمور عبد الله المالية وحدود أرضه وعلاقته مع الفرنسيين.

كانت عمان سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) قرية تقع على ثلاثة صدوع من هضبة «مآب» العالية، كانت «فيلادلفيا» الرومان، وفيها مسرح روماني مدرج خرب، وبعض الآثار البيزنطية، لكن خلاف ذلك كانت بدائية وغير جميلة، يربطها بالشمال والجنوب سكة حديد الحجاز، ومع الشرق عدة طرق قوافل جيدة، ومع الغرب خط فرعي لميناء حيفا وطريق غير معبد عن طريق أريحا وغور الأردن إلى القدس.

تتكون الجالية البريطانية الموجودة هناك من «بيك» وهو عسكري يقود قوة احتياط ويحاول إقرار الأمن في المناطق المأهولة، ومن مساعدين في مكتب المفوض البريطاني، ومجموعة صغيرة من سلاح الجو الملكي، وظيفتها الأساسية الحفاظ على صلاحية الطائرات التي تنقل البريد بين القاهرة واللد في فلسطين، وبغداد. هذه الطليعة من سلاح الجو الملكي تمتلك عربتين مدرعتين، يحق «لبيك وفيلبي» أن يستدعياهما إذا لزم الأمر.

تقع «عمان» على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، باردة وممطرة في الشتاء، وليس فيها أيّ نوع من مرافق الحياة المريحة، الحياة في مثل هذا النوع من الأماكن

---

(١) مقدمة غير منشورة لـ «The Seven Pillars»، بتاريخ ١٣٤١/٣/٢٨(١٩٢٢/١١/١٨م)، طُبعت بعد وفاته في «رسائل تي. آي. لورانس»، حررها «دايفد غارنيت»، لندن، ١٣٥٧(١٩٣٨م)، ص٣٤٥.

المنعزلة يعده موظفو الإمبراطورية وزوجاتهم أحد المخاطر التي تقع على عاتقهم في سبيل إدارة بريطانيا للعالم.

أرسل «فيلبي» إلى بغداد يستدعي دورا والطفلين، وحسب تتالي الأهمية: كان عليها أن ترسل مسدسه وخراطيش الرصاص ومعدات التخييم ورسم الخرائط، بموافقة سلاح الجو الملكي، بعد ذلك تغادر إلى السويس، عبر الخليج العربي، وإذا أمكن على ظهر سفينة تذهب مباشرة إلى هناك دون المرور على «بومباي». ورأت أن «أرنولد ويلسون»، الذي أصبح المدير العام لشركة النفط البريطانية في جنوب فارس، قد يساعدها. والآن، وقد استعادت حيويتها بعد أن حصل «فيلبي» على عمل، ووضعت طفلها، كتبت بسعادة أن هناك: «زواراً كثيرين لوداعها» و«حليباً يكفي لأربعة». وكان «ويلسون» هو العطف ذاته، استضافهم مدة أسبوع، وهيأ لهم أسرَّة على حاملة نفط متجهة إلى أوروبا عبر قناة السويس.

وجدت نفسها في «عمان» في مكان أقل بهجة بكثير من بغداد، المواصلات قافلة وحيدة تصل أسبوعياً من القدس، والمرأة الإنجليزية الأخرى التي تتحدث معها هي مربية «آني»، والتنزه الوحيد الممكن هو ركوب الخيل، والذي لم تهتم به قط، والطقس الشتائي من الصعب احتماله داخل بيت من أربعة جدران، دون مدفأة، ومرافق صحية، وأرضية خشبية رقيقة، تُسمع من خلالها كل حركة يقوم بها الخدم في الطابق السفلي. وينضح البيت بروائح معينة، وفيه «بدروم» قال عنه «هربرت صمويل» في تقريره، حين طُلب منه تفقد المنزل: «غير صحي ويعج بالهوام والحشرات»، وظهرت البثور على جسد طفلتها «بات» المولودة حديثاً، واستسلمت لثلاثة أشهر من عدم الراحة قبل أن تعود إلى الوطن، لكنها كانت وحيدة، فـ «فيلبي» كان يجول في الريف مشغولاً طوال اليوم، بعيداً عنها، مع أنه حين يعود إلى البيت يحب اللعب مع الطفلتين، إلا أنه أحياناً لا يميل إلى الحديث، ويزعم أن راحته تكمن في «الصمت والكتابة».

خفف من وحدة «دورا» مجموعات قليلة من الراغبين في الاستمتاع بالمناظر الجميلة القادمين من فلسطين، يتزايد عددهم حين أدركوا أن عائلة «فيلبي» على استعداد لأن تقدم لهم مكاناً للمبيت حيث لا يوجد مكان هناك يقيمون فيه. وفي جمادى الأولى

١٣٤٠ (بداية ١٩٢٢م) بدأ قلق «دورا» يتزايد بسبب تكاليف ضيافتهم، وكان «فيلبي» على جدول رواتب العاملين في وزارة المستعمرات، وعادتها أن تدفع المستعمرات أجرة من يعملون بها، وعزمت على أن تدير المناطق التي تقع تحت الانتداب على أسس الاكتفاء الذاتي، والتقتير كان القاعدة في فلسطين. قبل يومين من عيد الميلاد، علم «فيلبي» بدهشة، بعد تحويل الروبيات إلى جنيهات إنجليزية، أن مرتبه ومخصصاته تقل عدة مئات من الجنيهات في السنة عما كان يكسبه في بغداد، عندما احتجت «دورا» بأنهم لا يستطيعون تحمل هذا العدد من الضيوف، رفض احتجاجها قائلاً: «نحن نتقدم ولابد أن نؤدي الأمور بشكل جيد».

كان منغمساً كلياً بتعقيدات عمله، وأكثرها تطلباً للعناية الفائقة كبح تبذير «عبد الله» والحفاظ على مبدأ الاستقلال العربي الذي لابد ألا يكون، في رأيه، واجهة أو مظهراً كاذباً فقط. كما أن الأرض يجب أن تكون قادرة على دفع جميع الديون، لكن ما يتوافر من منحة المساعدة التي تقدر بـ ١٥٠ ألف جنيه سنوياً، هل من المؤكد أن ينفقه بمبالغ متساوية تقريباً على هدايا للاجئين من سورية ولقبائل الصحراء؟ فهناك من الاهتمامات المشتركة بينه وبين الشيوخ في داخل البلاد أكثر مما لديه مع الأردنيين الذين يؤدون أعمالهم وهم جلوس في أماكنهم أو ما يشبه ذلك، والذين سمعوا عن السياسات الحزبية والمؤسسات النيابية، كيف يمكن «لفيلبي» أن يحافظ على الاستقلال العربي وفي الوقت نفسه يوقف عبد الله عن التمييز ضد العرب المسيحيين، أو تمويه كرمه لقبيلة الصحراء التي يفضلها - بني صخر - بالقول: إنها مصاريف خاصة بأهل داره. بعد أربعة أشهر من السير على حبال البهلوان هذه، كتب «فيلبي» إلى «جيرترود بيل» في جمادى الآخرة ١٣٤٠ (فبراير ١٩٢٢م):

«الوقت يمضي بسرعة مدهشة.. بصراحة، يعجبني عبد الله، فهو شخص مزهو بنفسه، لكنه واسع الإطلاع ولديه أفكار ممتازة، مع أنه يفتقد المبادرة أو قوة العمل. بالطبع لا أحد هنا أو في سورية يريده، أو أي واحد من عائلة الشريف، لكن ماذا يهم؟ إنه هنا، ورئيس جيد كما يمكن أن يكون أي شخص آخر.. لكن ديونه التي تبلغ ٢٥ ألف جنيه إسترليني حتى اليوم، تعد مشكلة لن تحل بسهولة».

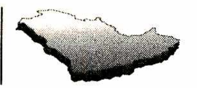
وواصل قائلاً: إن عبد الله يحصل على هبة من الحجاز من (الوالدين) وضغط على

«فيصل» لكي يحصل على منحة تقدر بألف جنيه إسترليني، ومع ذلك اضطر «فيلبي» لأن يمنحه ١٧,٥٠٠ جنيه: «ليحافظ على وجوده في شرق الأردن».

كانت علاقة عبد الله بالفرنسيين مشكلة أخرى، فهم يعدونه بمعاييرهم أحد الأشراف التابعين إلى بريطانيا، وأحد خصمين أقيما على جانبي سورية. وكان لاسمه وقع سيّئ لديهم بسبب اللجوء الذي منحه للسوريين الهاربين من العدالة الفرنسية - وخصوصاً قتلة المفوض الفرنسي الجنرال «غورو» - حسب ما تقتضيه العادات العربية. ورفض عبد الله تسليم اثنين منهم، قائلاً: إن ميزته الأساسية هي احترام الأخلاق العربية التي ترى في اللجوء حقاً تقليدياً ومقدساً. ولقد شق طريقه بنجاح، بسبب مراوغته التي يعد أستاذاً فيها، وبسبب العمل التمهيدي الشاق الذي قام به «فيلبي» في أثناء زيارته سورية.

انتهز «فيلبي» مغادرة «دورا» إلى إنجلترا بحراً من بيروت ففي شعبان سنة ١٣٤٠ (أبريل ١٩٢٢م)، ليقوم بزيارة قصيرة للمسؤولين الفرنسيين، لكي يهدئ الأمور حسب رأيه. رحب به الفرنسيون وأحسنوا ضيافته، فرجل يتحدث الفرنسية بطلاقة «فيلبي» كان نادراً في منطقة تعج بالموظفين المدنيين من الهند والسودان ومستعمرات أخرى، وأعطي تصريحاً للذهاب إلى أي مكان يشاء، واستضافهما المفوض المؤقت، وقابلا على العشاء عالم الآثار «ألكسندر كينيدي» الذي دعاه «فيلبي» للبقاء ومشاهدة «البتراء». وعاد «فيلبي» إلى عمان سعيداً بنجاحه السياسي، مع أنه في الحقيقة لم يفعل شيئاً لإيقاف مغازلة عبد الله للقبائل السورية.

أصبحت قوات «بيك» مسلحة جيداً في الأجزاء المستقرة من شرق الأردن، وهي على استعداد للانتقال السريع وإخماد الفتن، وقد فعلت ذلك في أوائل سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) في الجنوب حول «الكرك»، وفي أواخر العام في التلال الشمالية قرب «إربد». ومن وجهة النظر الخاصة بإقامة دولة، كان هناك موقف أكثر إزعاجاً بسبب عدم تحديد الحدود الصحراوية في داخل أرض عبد الله، وكانت القرارات هناك تخضع لميل «فيلبي» الذي استحضر معرفته بالقبائل الصحرواية في كل من العراق والجزيرة العربية.



كانت السيطرة على «وادي السرحان» الوادي الطويل المروي جيداً بالمقارنة مع غيره هي الفائدة الأساسية من النزاع، والذي يجري من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويحمل كمية كبيرة من تجارة الصحراء، ويقع في نهايته الشمالية على مسافة خمسين ميلاً من عمان تقريباً. وقد اتفق «فيلبي» مع «لورانس» على أن يكون الوادي من طرفيه تابعاً لعبد الله، بمعنى أن تمتد أرضه إلى الجنوب حتى واحة «الجوف» في وسط الجزيرة العربية، وكانت فكرتهما تتطابق مع مفهوم كثيراً ما رحبت به بغداد، ولم يعارض المتحمسون لحكومة الهند الفكرة قط التي أثيرت في أثناء الحرب بمد خط سكة حديدية عبر الأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.

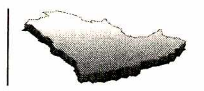
كانت فكرة الخط الحديدي خيالية بحلول سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)؛ لأن «الجوف» منطقة نزاع. وفي سنة ١٣٤٠ (١٩٢١م) كان «الملك عبدالعزيز آل سعود» قد تمكن أخيراً من السيطرة على وسط الجزيرة العربية بضم «حائل»، ولوقوعها على طريق التجارة الشمالي، فإن «الإخوان» التابعين له ضربوا شمالاً في أثناء حماسهم واتجهوا إلى «الجوف»، ولكي تتعقد الأمور، فإن قبيلة «الرولة» المقيمة هناك كانت رئاستها في سورية وتدعمها فرنسا. «عبدالعزيز آل سعود» والفرنسيون لهما اهتمام واحد مشترك فكلاهما يكره فكرة إقامة خط حديدي يخترق الصحراء، وقد ثار غضبهما عندما أرسل «كوكس» في سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) فرقة مسح من بغداد برئاسة مهندس سكة حديدية يدعى «إليك مزهولت» لتحديد أفضل الطرق لمد الخط الحديدي. وقد عبر الصحراء دون منغصات، واستضافه «فيلبي» عند وصوله عمان، ورحب به، ولأن «هولت» اعتزم العودة عبر الصحراء، آملاً أن يبدأ مجدداً استطلاع مكان إنشاء الخط الحديدي، فإذا صحبه باسم «عبد الله» فقد يضع ذلك أسساً جيدة لرحلة صحراوية جديدة. وفي مارس، ترك «دورا» وابتدأ الرجلان رحلتهما إلى «الجوف».

قد يقوم «هولت» بمسح الأرض، لكن «فيلبي» الذي يملك تفويضاً من «صمويل» للتفاوض نيابة عن عبد الله، مع قبائل الصحراء التي يقابلها دون أن يشعر بالخطر من امتداد التزامات بريطانيا الاستعمارية، عازماً كما كتب: «أن يضيف شريحة هائلة أخرى إلى سلطة الأمير القضائية». ولم تؤد حملتهما إلى شيء؛ لأنهما لم يستطيعا الحصول على الجمال قرب نهاية وادي «السرحان».

ولكن ما إن غادرت «دورا» إلى الوطن، حتى كان «فيلبي» متشوقاً إلى أن يعيد الكرّة، وفي الثاني من مايو بدأ هولت وممثل للأمير رحلتهما مرة ثانية. كانت الواحات في وادي السرحان تموج بفرق من المغيرين الساخطين. وفي إحداها، حين وقعت أعينهم على فرقة مسلحة (ثبت بعد ذلك أنها من جماعة الإخوان الشمالية) اندفعت فرقة المسح لاتخاذ طريق جانبي بلا ماء.

وصلوا إلى «الجوف» في العشرين من مايو دون منغصات، وذهبوا إلى الواحة القريبة منها «سكاكا» ووجدوا هناك، أن سكانها من قبيلة «الرولة» المشاكسين؛ لأنهم يعيشون في رعب من «الإخوان»، وهددوا باحتجاز الفريق البريطاني إذا لم تستطع تزويدهم بالسلاح. واستدعى «فيلبي» كل خبرته في التعامل مع العرب، واستطاع أن يجعل ممثل قبيلة «الرولة» ومبعوث الملك عبد الله يوقعان على اتفاقية بموجبها تتبع «الجوف» شرق الأردن، وإذا حدث أن مُد الخط الحديدي في منطقة أخرى، يُدفع إلى «الرولة» مبلغ تعويض. هذه الوثيقة أتاحت للفرقة أن تغادر، وقد استخف «فيلبي» بهذه الاتفاقية، لأنه أدرك، من الوضع الذي رآه بنفسه، أن «الإخوان» يستطيعون الاستيلاء على «الجوف» لمصلحة «عبدالعزيز آل سعود» متى أرادوا، ولا شيء يمكن أن يوقفهم إلا حملة بريطانية عسكرية مكلفة. كان هدفه أن تكون «الجوف» لعبدالله، لكنه يعرف أن حملة لتحقيق هذه الغاية مستحيلة، فلماذا القلق إذاً؟ لكن من وجهة نظر «صمويل» فإن سبب القلق كبير، ولكن «فيلبي» قد تجاوز حدوده بتوقيع تحالف دفاعي هجومي ضد «عبدالعزيز آل سعود» والوهابيين، وهو مالم يوافق عليه أحد، وقد يدخل بريطانيا في صراع السياسات العربية، وهو أمر يجب استنكاره على الفور.

كان «فيلبي» و«هولت» أحراراً في مغادرة «سكاكا» لكن في أي اتجاه؟ فهم محاطون بالعرب المعادين، وكلاهما تواق إلى المال. وهناك فِرق من «الإخوان» في شمالهم وجنوبهم. وحين ووجه بتوضيح سبب اتجاهه شرقاً دون استئذان، كتب: «يمكنني أن أجيب فقط بأنه حين أتيحت الفرصة لإكمال المسح، لم يكن هناك وقت لأخذ الإذن أو الموافقة من أي شخص، وكنا مدة عشرة أيام في جو عدائي متزايد في مدينة أقل ما يقال عنها إنها ليست تحت سيطرة فعالة، بينما منزلنا مفتوح دائماً أمام نيران العدو. كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة علينا هي الخروج منها بأسرع ما يمكن، وكان



الخيار إما العودة إلى عمان وإما التقدم تجاه العراق، واخترت الرأي الأخير لاعتقادي المخلص أني بذلك أخدم أفضل أهداف حكومة صاحبة الجلالة».

ربما كان من الأفضل أن يقول ببساطة: إنهم فعلوا ذلك لإنقاذ حياتهم.

كان القرار خاطئاً من وجهة نظره الشخصية، وقد أغضب كوكس وصمويل ولندن، وقد أبرق إلى «كوكس» طالباً الإذن بالتقدم، لكنهم واصلوا هروبهم في الصحراء الواسعة دون انتظار الرد. وبينما هم يشقون طريقهم بالرشوة عبر قفار لا تقدم الطعام ولا الماء إلا فيما ندر، ولمدة عشرة أيام، لم ينتبهوا إلى البرقيات الغاضبة الرائحة والغادية فوق رؤوسهم.

كان «كوكس» في الوقت نفسه عصبياً ومتوتراً، فقد كان يحاول طوال الشتاء التفاوض على معاهدة مع العراقيين تحل محل الانتداب المكروه، كانت تتم تجمعات كبيرة معها وضدها في المساجد والأسواق، ومجلس الوزراء منقسم حول المصادقة عليها، والملك فيصل يغازل المعارضين لها. كان «كوكس» متضايقاً من «فيلبي» شخصياً بسبب المقالات التي تستخف بالعراق، كتبها «آرثر مور» مراسل «التايمز» في طهران، والتي ظهرت في أواخر ديسمبر، وتتحدث عن حكايات ضد تصرفات الإنجليز حكاها له «فيلبي» في أثناء رحلته القصيرة إلى فارس. لذا حين وصل فريق الاستطلاع أخيراً إلى «كربلاء» في ١٠ يونيو، وأرسل «فيلبي» برقية ثانية يطلب السماح بالتقدم إلى بغداد، كان رد «كوكس» لاذعاً، وكان موجهاً إلى «هولت» فقط، وهو كالآتي: «إذا كنت مهتماً بالقدوم إلى بغداد وحدك فأهلاً بك. أما رفيقك فيجب ألا يأتي إلى هنا، نرتب طائرة لنقله من «الرمادي إلى عمّان»[١].

غضب «فيلبي» من هذه العودة، وهو الذي كانت ضيافته للزوار القادمين من العراق بلا حدود، وأرجع هذه الإهانة إلى مقالات «مور». لقد نسي، أو لم يفكر قط، بالأثر الذي يتركه وصول شخص مثير للشغب، بغيض عند فيصل، على مشكلات «كوكس» في بغداد. ولم يعرف شيئاً عن تعقد أكثر للأمور؛ بأن «كوكس» كان في «معمعة»

---

(١) اقتبسها «فيلبي» في سيرته الذاتية، «Arabian Day»، لندن، ١٣٦٧(١٩٤٨م)، ص٢٢١.

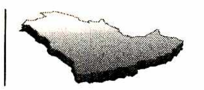
مراسلات حادة مع «عبدالعزيز آل سعود» حول ترحيل القبائل بعد الاستيلاء الأخير على «حائل»، وأن الترحيب بالفرقة الخاصة بمد الخط الحديدي قد يفاقم من هذا الجدل. لم ينس «فيلبي» قط إهمال «كوكس» له بعد كل ما عمله لتخليص فرقة الاستطلاع من مأزق حرج، واعتمل الأمر في صدر «هولت» أيضاً، فاختار أن يعود مع «فيلبي» إلى عمان.

كان الصيف في عنفوانه، وكتب إلى «دورا» في ٢ يوليو: «لدي الإحساس بالراحة لأني أستطيع الآن أن أستريح قليلاً، وأنهيت جميع المشكلات الكبيرة التي تراكمت عليّ خلال الأشهر الأولى هنا».

تحسن الأمن العام بشكل كبير على يدي «بيك»، وبدا الطريق سالكاً لزيارات ممتعة للقبائل، وفي طريق العودة من إحدى هذه الزيارات، لاحظ شيئاً قد يفوت العين غير المدربة، وهي علامة وسم جديدة لقبيلة «عنزة» من وسط الجزيرة العربية مرسومة على بقايا أثر روماني. لا أحد في عمان فكر في مغزى هذه العلامة، لكن بالنسبة إليه فهي توحي على الأقل بزيارة المغيرين من الإخوان غير المرحب بهم. وفي صباح أحد الأيام في منتصف أغسطس، قطع فطورهما، هو وبيك، مراسل يقول: إن الإخوان قد هاجموا قريتين على بعد عشرة أميال من عمان. كلاهما كان يعرف أن غارات الإخوان ليست من نوع غارات الصحراء التي يضرب بها المغير ثم يهرب، بل هجمات عنيفة. وعندما وصلا إلى القرية الأولى وجدا أسوأ مما كانا يتوقعاه: جثث من قبيلة «بني صخر» مبعثرة في المكان، وقد ذهب المغيرون، بالمصادفة وحدها، فقد طارت فوقهم طائرة تموين كانت في رحلة قصيرة، ولم ترصدهم، لكنهم ظنوها قاذفة قنابل، فتراجعوا بسرعة.

خلاف ذلك، كان صيف سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) هادئاً، وأيد «صمويل» إطلاق العنان قليلاً لفيلبي، أو كما عبَّر الأخير: «دون التعدي على حقوق الآخرين».

كان تشرشل مشغولاً بتحقيق التوازن بين العرب واليهود في فلسطين، وإخراج شرق الأردن رسمياً من نطاق المستوطنات اليهودية، وكان أيضاً يحاول التوصل إلى قرار يتعايش مع إيرلندا، ويقلقه صعود مصطفى كمال، وليس لديه وقت للاعتناء



بمشروعاته الأخرى في الشرق الأوسط. وكان لدى «فيلبي» الفراغ ليصحب الموظفين في فلسطين والجنود والمنصرين والصحفيين الذين تحدوا حرارة صيف وادي الأردن ليصعدوا التلال وراءه.

زارته صحفية أمريكية تدعى «إليزابيث تتزيل» ولم ينسها قط، كانت تبحث عن قصص للمجلة التي تعمل بها «آسيا». كانت جميلة، وصلت إلى مكتبه ذات صباح تطلب مساعدته على الحصول على مادة لبعض قصصها، وفاقت معاملته لها كل توقعاتها. قدم لها البراندي علاجاً للدوسنتاريا التي أصيبت بها، وأخذها في زيارات لعلية القوم، وقدمها إلى الأمير، بل ساعدها لمرافقة فرق الاستطلاع الصحراوية التي خرجت للتأكد من أن الإخوان قد ذهبوا إلى الجنوب، وودعها وهي ذاهبة إلى دمشق محملة بالمواد الخام، ورآها ثانية، لكنهما ظلا يتراسلان مدة أربعين عاماً[(١)].

كانت السحابة الوحيدة في أفق «فيلبي» قلق «دورا» حول المستقبل، وكعادته معها طوال حياتهما، يستفيد من وجودها في إنجلترا ليجعلها تعمل لمصلحته في الوطن، فمثلاً ساعدته في الحصول على مساعد متخصص في اللغة العربية عمل لمصلحته في العراق هو «برترام توماس». وحينما فعل ذلك أعطته إنذاراً نهائياً، عليه أن يتوقف عن إسرافه على ضيوف لا يستطيع تحمل نفقاتهم، وعليه أن يحصل على بيت أفضل، وأن يعطي اهتماماً أكبر لراحتها، وإلا فلن تعود هي أو آني، فوضع الخطط لبيت جديد، وطلب تركيب حمام يضع حداً للروائح.

«لا أريد العودة إلى العمل الرتيب الممل في الهند، بعد الحياة الممتعة التي عشتها في الجزيرة العربية، سأترك القرار كلياً في يديك، لكني لا أستطيع أن أستمر من دونك والأطفال، وخصوصاً الطفلة الأخيرة، وإذا أصررت على البقاء في الوطن، فمن المحتمل أن أترك عملي وأحصل على معاش يبلغ ٦٠٠ جنيه، وإذا كان هذا العرض يناسبك، فأنا على وشك الحصول على وظيفة كبيرة قريباً.. لذا كوني طيبة يا عزيزتي واصبري قليلاً».

---

(١) معلومات مستقاة من السيدة «إليزابيث ريستول» (مولودة في «تتزيل") ١٣٩٢(١٩٧٢م).

لانت، وكذلك آني، وعادت في أوائل الخريف لتقوم بدور أسمته «السيدة الأولى في عمان»، ولكنها خلال أسابيع، كانت، وبلا توقع، في طريقها ثانية إلى الوطن.

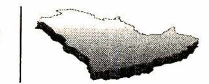
كانت دعوة عبد الله لزيارة لندن سبب هذا التغير في الخطة. لقد تنبأ منتقدو «فيلبي» بأن حماسته لعبدالعزيز آل سعود ونقده لفيصل سيكونان السبب في إنهاء عمله في شرق الأردن، ولكن بعد أكثر من سنة تبين أن هذه النبوءات كانت خاطئة، وكوّن علاقة جيدة مع عبد الله الذي كان يقضي وقتاً طويلاً، باختياره، في المخيم ومع الخيل التي كان بها خبيراً. ولو تركنا موضوع التبذير جانباً، فإن معظم مشكلات «فيلبي» لم تكن معه، بل مع رجال حاشيته من السوريين والوزراء المحيطين به، ومعظمهم كانوا أساتذة في التآمر، ومعارضين لأي إشارة إلى حكومة نيابية ستحد بالتأكد من قوتهم. وفي صفر ١٣٤١ (أكتوبر ١٩٢٢م) اختار صمويل «فيلبي» مرافقاً لعبد الله في زيارته إلى لندن.

وقد أمل الرجلان (مع الاختلافات التي تميز حسابات أمير عربي عن تلك التي لموظف بريطاني) أن زيارة لندن ستنهي المشكلات المالية. كانت طموحات عبد الله كبيرة، أراد استمرار المنحة المالية مع مبلغ إضافي للادّخار، والحصول على قرض بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه للأشغال العامة ولإصلاح الخط الحديدي الخاص بالحج، كما أراد الاعتراف بسلطته والسماح لشرق الأردن بدخول عصبة الأمم، وبدا أنه يأمل بنفاد صبر بريطانيا مع والده الذي أصبح في نظر الجميع رجلاً عجوزاً مستاءً دائماً ومن الصعب التعامل معه، وهذا ما يؤدي إلى ربط شرق الأردن بالحجاز، وفي النهاية تكوين مملكة كبيرة له. كان «فيلبي» يشجع الاتحاد مع الحجاز، وأراد أن يُؤنب الأمير حول النقود، وكان يحاول بوضوح أن يجعله يدرك أن الناس يحتاجون إلى نظام نيابي[١]، ولم يحصلا كلاهما على كل ما أراداه، لكنهما رجعا راضيين.

أمضى «فيلبي» ـ بعدما وضع العائلة في «كامبيرلي» ـ سنة ١٣٤١ (نوفمبر وديسمبر ١٩٢٢م) مرافقاً لعبد الله في زيارات قصيرة لعلية القوم ومشاهدة معالم لندن، وكانت ترتيبات الضيافة الحكومية قد تحسنت منذ إخفاقها في سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م)، لكن

---

(١) وثائق «كلايتون»، مكتبة جامعة «درم»، الصندوق ٤٧١/٣.



السياسيين مازالوا مشغولين بنتائح الانتخابات العامة التي جرت في ٢٣ أكتوبر، وسقط فيها لويد جورج وفقد تشرشل مقعده. وأصبح دوق ديفونشير وزيراً للمستعمرات، وكانت كل المفاوضات تتم معه، ومتّع «فيلبي» نفسه، وأخذ عبد الله لتناول الشاي مع تشرشل، وحين بدا أن الأهداف المالية ستتحقق، أخذه إلى زيارة زعماء الصهيونية بمن فيهم الدكتور وايزمن وزوجته، وقد كتب «فيلبي» في يومياته أنها «كانت أكثر قومية منه». ورافق عبد الله إلى النصب التذكاري للجندي المجهول في ١١ نوفمبر، وقام بالترجمة في غداء رسمي: وجبة لن ينساها الحضور بسبب قراءة لورد كارنارڤون برقية، في أثنائها، تعلن عن اكتشاف هوارد كارتر مقبرة ملكية فرعونية لم تمس من قبل في وادي الملوك بالأقصر، وهي مقبرة توت عنخ آمون.

أدار المفاوضات «جلبرت كلايتون» بكياسته المعهودة، الذي عين بعد ذلك مسؤولاً في فلسطين، وحصل عبد الله على اتفاقية أسعدته، مع أنها أزعجت رئيس الوزراء السوري المحنك الذي اصطحبه معه، والذي اشتم منها تقليص نفوذ السوريين في الديوان. لقد وعد بالاستقلال حسب مبدأ الانتداب، بمجرد أن توقع معاهدة السلام وشيكاً مع تركيا، هذا أولاً، ولم يحصل عبد الله على قرض للمشروعات العامة، بل على تعهد باستمرار المنحة السنوية بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه، وحصل أيضاً على مبلغ إضافي يقدر بـ ٣٦ ألف جنيه لمصاريفه المدنية، وتعهد بدمج قواته الاحتياطية مع الشرطة، واستخدم عدداً أكبر من الضباط الإنجليز، بعد ذلك، تغير اسم هذه القوة إلى الاسم الذي اشتهرت به وهو: الفيلق العربي.

وسعد «فيلبي» أيضاً بالترتيبات الجديدة لأكثر من سبب، أولها: أنها ميزت بين دور «صمويل» ممثلاً لسلطة الانتداب، ودوره رئيساً للإدارة في فلسطين، وهو خط رفيع تعودت بريطانيا على وضعه ولا يدركه الأجانب، ويعد «فيلبي» خاضعاً له تبعاً للدور الأول وليس الثاني، وثانياً: أنها أفصحت بوضوح ألا تكون هناك عمليات عسكرية في شرق الأردن دون موافقة المسؤول البريطاني فيها، وأخيراً: اعتقد «فيلبي» أن الوعد بالاستقلال سيبدد الانطباع الذي رآه حوله، بأن عبد الله أداة في يد بريطانيا وأن النظام التركي كان أفضل منه.

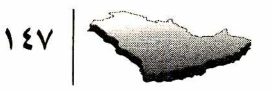
أنجز بعض الأعمال الخاصة به في أثناء إجراء المفاوضات، فعالج موضوع مرتبه

المؤلم، وأخذ تعهداً شفوياً رسمياً من وزارة الحرب أنه سيرتفع بأكثر من ٢٠٠ جنيه سنوياً، وحاول الحصول على منحة حرب عن خدماته في بلاد الرافدين، لكنه لم ينجح، وتحدث إلى جمهور خاص في لندن عن «السياسة البريطانية في الجزيرة العربية»، وانتقد بشدة عدم ثقة بريطانيا وفرنسا ببلاد الرافدين وسورية في فشلهما بإنجاز ما جاء في إعلانهما سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، واختار «عبدالعزيز آل سعود» العربي الوحيد الذي يمكن أن يكون قوياً للوقوف في وجه الأتراك إذا حاولوا العودة ثانية: «العرب ديموقراطيون، والدليل على ذلك أكبر وأعظم حاكم عربي الآن، فعبدالعزيز آل سعود هو الأول بين أقرانه، وتكمن قوته في أنه ترجم بدقة آمال شعبه وإرادته مدة عشرين سنة».

أمضت عائلة «فيلبي» في «كامبيرلي» عيد الميلاد أول مرة معاً منذ سنة ١٣٢٩ (١٩١١م) في الهند، وكان ذلك آخر مرة حتى منتصف الحرب العالمية الثانية. وكانت الاحتفالات رائعة حتى إن الخطط قد وضعت لجمع شمل العائلة ثانية في عطلات الصيف، حين تتمكن «ماي» من إحضار «كيم» إلى عمان. وفي انتظار إجازة عائلية ثانية، شعرت دورا بألم أقل من المعتاد لتركها «كيم» وراءها في المدرسة وسافرت بقية العائلة إلى عمان، وكان «فيلبي» عاكفاً طوال الطريق على كتابة مقال عن رحلته إلى «الجوف».

اتخذ «فيلبي» هواية جديدة عند العودة إلى عمان، إضافة إلى عمله، وتتمثل في تطوير «البتراء» منطقة للجذب السياحي وكسب الدولارات، وكانت البتراء آنذاك تابعة للحجاز، لكن بمقاييس الملك حسين الذي يعد عبد الله ولي عهده فلم يعترض على ترتيبات تطويرها، وكان رجال «بيك» قد أفادوا أنهم أمّنوا الجنوب، لذا فقد نظّم «فيلبي» رحلة تجريبية.

كانت رحالة الصحراء «روزيتا فوربس» مقيمة مع عائلة «فيلبي»، ووصل «برترام توماس» من العراق لينضم إلى الرحلة، ولم تكن «دورا» قد رأت الجنوب، وهكذا سار الأربعة إلى «معان» التي أُصلح الخط الحديدي إليها أخيراً، ومن هناك شدوا الركائب عبر الممر الضيق الذي يعبره المسافرون إلى منطقة «البتراء» المنعزلة. وبينما هم يهبطون ببطء خلال الصخور الوردية التي نحتتها الرياح والتي تقود إلى داخل الممر



الضيق، سد عليهم بدو غاضبون الطريق، وصاح متحدث منهم «ليس لدينا شيء لكم، لا شيء سوى الرصاصة». وبالخبرة، والعربية الجيدة وبعض النقود وأساليب «فيلبي» في كسب العرب الغاضبين، شقوا طريقهم، واستكشفوا الوادي الداخلي على راحتهم. وخلال شهر بدأت الرحلات السياحية، مع أن أحداً لم يكسب منها دولاراً واحداً. فالضيوف رفيعو المقام، أولهم الأمير نفسه وعائلة «صمويل»، لا يمكن طلب النقود منهم. فقد قُدمت لهم تصاريح المرور في السكة الحديدية ثم الخيول والخيام والخدم والطعام على نفقة الأمير، والنتيجة الأساسية لهذه الرحلات هي إتاحة الفرصة للبحث المتمهل لعدد من علماء الآثار الجادين.

قام «إلكسندر كيندي» الذي على الرغم من بلوغه السابعة والسبعين في ذلك الوقت، بعمليات التسلق لأسابيع، يرسم الخرائط ويصور المقابر والمعابد وأماكن تقديم القرابين. كثير من الهواة زاروا «البتراء» منذ إعادة اكتشافها على يد الرحالة السويسري «بوركهارت» سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢م)، لكن معظمهم ركز في الآثار الرومانية والكلاسيكية، لكن «ألكسندر» مستفيداً من ضيافة الأمير، ومعلومات «فيلبي» الطبوغرافية، سبر غور التاريخ القديم وقوافل التجارة لقبائل الأنباط التي اختفت، وبمساعدة «فيلبي» ومصوري سلاح الجو الملكي، أصدر كتاباً غنياً بالمعلومات، وأطلق قافلة من الدراسات حول حضارة ما قبل الإسلام في «أدوم» و«مدين»[١]. وقرر «فيلبي» منتشياً بالنجاح، أن تمتد السياحة شمالاً أيضاً. ففي سنة ١٣٤١ (مايو ١٩٢٣م)، أخذ زميله في كمبردج «أرنولد جوم» الذي وصل مع زوجته الفنانة، وكانا يجيدان ركوب الخيل، في رحلة إلى هناك.

كان تغيب «فيلبي» فترات طويلة في عمان، أمراً غير مقبول عند «بيك» أو سلاح الجو الملكي، في بلد غير مؤمَّن، ويخشيان من عمليات استدعاءٍ للإنقاذ، لكن «فيلبي» استخف بمخاوفهم. وقبل أن يبدأ رحلته مع آل «جوم» تراشق بالكلمات مع مسؤول سلاح الجو في عمان بسبب اعتقاد الأخير أنه ليس من الحكمة ترك فتاتين صغيرتين وحدهما مع مربية في المدينة. وكان رد «فيلبي» الغاضب وهو على ظهر جواده: «إما أن تكون الطفلتان في أمان أو أتحداك بأن تلغي السياحة». وكالعادة،

---

(١) «آي. بي. كينيدي، Petra»، لندن ١٣٤٣(١٩٢٥م)، كتب فيه فيلبي الفصل الطبوغرافي.

واصل سيره نافضاً عن كاهله الشعور المؤلم الذي كان ثمناً للحصول على الأفضل من هذه المناقشة.

زُينت عمان بالأعلام في ١٤ رمضان ١٢٣٨ (٢٥ مايو ١٩٢٣م)، احتفالاً بترتيبات الاستقلال التي أنجزها الأمير وهو في لندن، وجاء المندوب السامي وزوجته من القدس، وعمدت قوة «بيك» باسم الفيلق العربي، وعزفت الفرق الأناشيد، وتبودلت الكلمات. وكان الأمير لطيفاً مع الجميع، بمن فيهم مستشاروه البريطانيون، لكن في رأي «فيلبي» أن اليوم أفسد بسبب كلمة هربرت صمويل التي لم يشر فيها إليه أو إلى عمله. واعتمل ذلك في صدر «فيلبي» لأسابيع، وفكر بالتأكيد، أن على «صمويل» أن يدرك طبيعة العمل النقدي الذي يستلزم التحكم بالإسراف دون وجود قوة تصححه. وكانت الحقيقة أن الكياسة الكاملة هي التي يمكن أن تكبح عادات الأمير المستعصية بتبذيره، والحرية التي يسمح بها لأتباعه بالتدخل في سورية، وعدم ميله أو مقدرته على أن يجعل قبائل البدو المفضلة لديه تدفع الضرائب، بينما يعتصر كل ما يستطيعه من السكان المستقرين في المدن. لكن الكياسة لم تكن في طبع «فيلبي»، كان قليل الصبر، ويتحدث مع منتقدي عبدالله المحليين عن كبحه عن طريق «مجلس النواب».

قد تكون لا مبالاة «صمويل» غير متعمدة، والأكثر احتمالاً أنها إشارة تعبر عن سخطه من عدم نجاح «فيلبي» في السيطرة على تصرفات الأمير، وشكواه الدائمة للقدس عن الهيئة التي تعمل معه ـ والأكثر تسويغاً ـ حول مرتبه وأماكن السكن غير المحببة المخصصة للممثل البريطاني.

نشأت مواقف محددة لعدم رضا «صمويل» في سنة ١٢٣٨ (يونيو ١٩٢٣م)، ولم يكن هناك مسجد مناسب في عمان، ويصلي المسلمون في قاعة بيزنطية مستطيلة ذات أعمدة، يستخدمون حائطها الجنوبي قبلة نحو مكة، وأراد عبد الله مبنى أفضل. ورتب الخطط ودياً مع «فيلبي» الذي استخدم أدواته لتحديد مكان القبلة الصحيح. وقد احتفى شاعر محلي[١] باستخدام هذه الخبرة بقوله:

---

(١) اسم الشاعر هو طراف حيمود، ويلقب بأبي ناصر، وهذا المسجد هو المعروف بالعمري، انظر الزركلي، خير الدين، عامان في عمان، ط١، مصر، المطبعة العربية، ١٣٤٣ (١٩٢٥م)، ص١٩٠.

أمـــيـــرنـــا زي الـــقـــمـــر   مـــنـــور شـــرقـــي مـــع غـــربـــي
تـــرك لـــقـــبـــلـــة عـــمـــر   واســـتـــنـــســـب قـــبـــلـــة فـــيـــلـــبـــي

«في اليوم التالي، بدأ عمال الهدم العمل، وهدموا برج الجرس البيزنطي الذي يعود إلى القرن السادس الميلادي وجزءاً حديثاً من حائط القاعة الرومانية .

غضب «فيلبي» مما عدَّه تخريباً وفقد أعصابه مع الأمير، وغضب عبد الله بدوره بسبب هذه الضجة الكبيرة حول ما يراه حائطاً قديماً منهاراً، قائلاً: إنه هو المرجع الوحيد في الشؤون الإسلامية، «ومن الذي سيعاقبني؟»».

أدخل «فيلبي» السياسة في المناقشة مستخدماً الحادثة ذريعة لتأنيب الأمير بإخفاقه في تكوين حكومة دستورية. وأرسل تقريراً إلى القدس عن تخريب القاعة الرومانية، وصف عبد الله فيه: «لا يصلح لممارسة السلطة المطلقة التي يتمتع بها النظام الحالي، ومن الضروري تذكيره بأن إقامة مجلس نيابي شرط أساسي لاعترافنا بالاستقلال تحت حكمه». وفي الوقت نفسه، امتنع عن دفع قسط المنحة المالية، وأرسل صمويل نائبه الأول، «كلايتون» ليصب الزيت على النار، وقام بصورة معقولة بتضييق مجال النزاع إلى وجهة نظر مفهومة عند رئيس دولة غاضب: وشرح أن الآثار القديمة هي مناطق جذب سياحي ومالي، وأن الأمير هو الخاسر بتدميرها. ووافق عبد الله، لكنه لم يغفر قط لفيلبي انفجاره في وجهه وتهديداته، ولا «صمويل» أيضاً الذي بدأ بعد ذلك بالسماح للمراسلات أن تُبعث في ظروف مختومة باسم الأمير، وبقبول رسائل منه عن طريق رسول مباشر، وهذه السلسلة من الإهمال ولّدت حالة عند «فيلبي»، حتى بدأ يرى أن القبائل فقط هي التي تقدره.

وصل «ماي» و«كيم»، متشوقين إلى رؤية المناظر الجميلة، للعب مع الطفلتين، لمقابلة الأصدقاء العرب والإنجليز، وليقوما برحلات في الطائرات، وقبل مغادرتهما أعطوهما زجاجات معبأة بمياه الأردن لأخذها إلى الوطن، ليس لأسباب التعميد العادية، ولكن كي يحللها المتحف البريطاني. ولسوء الحظ نشبت مشكلة جديدة في أثناء وجودهما.

كانت قبيلة «عدوان» شبه المستقرة وأكثرها قوة من القبائل التي غضبت من تمييز عبد الله بسبب فرض الضرائب عليها، وكانت أراضيها تقع على الطريق بين عمان والقدس، واحتج شيخها عند عبد الله على محاباته التي يبديها لأعدائهم التقليديين «بني صخر»، وطالب بإنهاء الحكم المطلق، وهو ما يراه «فيلبي» صحياً ومسوّغاً، وواضعاً الأمور على شفير الهاوية، صرّح بأن على القوات البريطانية عدم التدخل، وستنظم القبيلة مظاهرة ضد سياسة عبد الله، وقام شيوخ القبيلة بإغلاق الطريق بين عمان والقدس، وكانت تلك المظاهرة أخطر مما كان يتصور «فيلبي»، فأمر مساعده «آلان كيركبرايد» أن يخرج إليهم بعربتين مسلحتين ويخبرهم بالكف عما يفعلونه، وحدثت سلسلة من سوء الفهم والأحداث التي كان لها نتائج وخيمة، على كل من قبيلة عدوان وسمعة «فيلبي» بينهم.

كان «فيلبي» قد أخذ كيم في جولة بالطائرة، وطلب أن تُلقى رسالة إلى العربتين المسلحتين. حين خرج «كيركبرايد» ليتلقطها، ظن ثلاثة رجال من القبيلة، كانوا يختبئون في مسيلة مقببة تحت الطريق، إنهم قد رُصدوا، وجروا هاربين. وأطلقت إحدى العربات طلقة إنذار، وافترضت العربة الأخرى أن زميلهم أخطأ الهدف، ففتحوا النيران بشكل جدي، فتسببت في إصابة سبعين شخصاً وقتل أحد شيوخ القبيلة.

انتهى التمرد وفر المحرضون إلى سورية، وعادت العربتان المسلحتان، لكن «فيلبي» كسب عدم ثقة أصدقائه من قبيلة «عدوان»، وأصبح مكروهاً منهم، كما هو مكروه من حاشية عبد الله والقدس. وتراكمت مظالمه ضد صمويل، وأدت مع تضخمها إلى تصرفات من جانبه، غالباً ما كانت وقحة، وأحياناً غير حكيمة.

كانت كل حادثة جديدة ينتج عنها أسباب جديدة للشك في أن الاستقلال العربي في خطر، وأن هدف القدس هو السيطرة الكاملة.

لاحظ أولاً أن «بيك» يأخذ تعليماته حول ترتيبات تأمين الحدود مباشرة من إدارة الأمن العام الفلسطينية، واحتج على ذلك، وثانياً ثار جدل حول ترتيبات الحجر الصحي للحجاج، فقد أرادت السلطات الصحية الفلسطينية أن تقيم مركزاً للحجر الصحي عند نقطة الخروج من الحجاز، وجادل «فيلبي»، بلا مسوّغ، أن الممارسين الخصوصيين



في عمان يمكنهم عمل كل ما هو ضروري. ومرة ثانية، كان «فيلبي» متمسكاً بأن سكة الحجاز التي بناها الأتراك بمساهمات من المسلمين، يجب أن تدار من هيئة إسلامية يكون مركزها «المدينة». وكان لسلطات الانتداب وجهة نظر أخرى، ووضعتها تحت إدارة هيئة تتكون من ممثلين بريطانيين وفرنسيين وحجازيين، وغضب «فيلبي» لأن القطاع الأردني منها كانت تديره هيئة السكة الحديدية الفلسطينية. وفي أوائل سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) وبشكل اعتباطي وبتصريح من جانب واحد عهد بالإشراف على هذا القطاع إلى «علي» أكبر أبناء الملك حسين في أثناء زيارة له إلى «عمان». وبمعايير «صمويل» المنظمة، فإن كل مشاجرة جديدة تضع مسماراً آخر في نعش «فيلبي». والموضوع الذي حسم الأمور كان تقريراً من إدارة المالية الفلسطينية.

كان أجره القليل هو الحبل الرفيع الذي كان على الممثل البريطاني في الأردن أن يسير عليه، كان يتلقى مرتباً ودرجة مفوض منطقة في فلسطين، وهو عمل يقل تفرده وتطلباته لشخص يتعامل مع عبد الله، ولقد عين خلفه في الأردن بمرتب يفوق مرتبه بدرجتين. وفي لندن سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) كان قد عرض مظلمته شفوياً ووُعد بأن مرتبه سيرتفع، لكن، ودون أن يعلم، هذه الإضافة للمرتب لم يُصرح بها قط. ففي سنة ١٣٤١ (أبريل ١٩٢٣م) حين كانت الحكومة صاحبة التخفيضات الشديدة في الميزانية مازالت في السلطة، وأصبحت كلمة «تخفيض» من الكلمات الشائعة في مفردات الحكومة البريطانية، انخفضت المرتبات في فلسطين، ومرتبه من ضمنها. واكتشفت الإدارة المالية في فلسطين، أنه ببراءة ولكن في سخط، كان يدفع لنفسه نسبة غير مصرح بها، يسحبها كمكافأة مالية للممثل البريطاني من نقود المنحة المالية. وظل الجدل حتى سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م)، رد فيه «فيلبي» بسلسلة من عشرين صفحة من الرسائل. وفي النهاية، كان «وايت هول» قد أرهق، فوافق على دعاويه المضادة، وأنهى الموضوع بأنه مدين بمبلغ ٥٧٦ جنيه فقط. لكن، بينما هو مازال في عمان اعترضت وزارة المستعمرات على ذلك، ووبخته على مخالفاته الخطيرة و«سوء استخدام مبالغ المنحة الأردنية التي أؤتمن عليها»، ووافقت على طلب «صمويل» بفصله.

تصرف فيلبي بشكل سريع، ففي الوقت الذي وصل فيه الإذن بذلك إلى القدس، كان قد سلم استقالته، لقد شعر بأنه أبعد عن المسؤولية وحرية التصرف منذ اللحظة

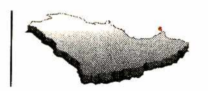
التي بدأت فيها حكومة فلسطين في التعامل مباشرة مع عبد الله و«بيك»، وحين أعطت الأوامر لسلاح الجو الملكي بألا يُستخدم في شرق الأردن إلا بأمر من الضابط المسؤول في فلسطين، وفي جمادى الآخرة ١٣٤٢ (يناير ١٩٢٤م) كتب إلى صمويل: «لم أعد أستطيع تأدية واجباتي ممثلاً رئيساً لبريطانيا في شرق الأردن بحماسة وكفاءة»، وقدم لأصدقائه الحميمين أسباباً أكثر وضوحاً، مثلاً كتب إلى صديقه «هارولد ديكسون» الذي عاد من العراق للعمل في الهند، ويتوق إلى العودة إلى العالم العربي، يقول: «لقد استقلت من هذا العمل لأسباب كثيرة جداً، أهمها أنني لم أعد أستطيع الاستمرار مع المندوب السامي، اليهودي الصهيوني، الذي لا يستطيع أن يعدل حتى بين الصهيونية والمطالب العربية، بالإضافة إلى ذلك فإن عبد الله خذلني بإسرافه الشخصي الذي يعني بمعدله الحالي دعوة للتدخل من جانب حكومة صاحب الجلالة، أي العناصر الصهيونية، لذا تركت العمل».

وفي أحد مداخل يومياته في الأشهر ذاتها أضاف: «نفقات الوظيفة تعد أيضاً سبباً آخر، فلديك مثلاً جماعة المندوب السامي ٢٤ شخصاً على الفطور والغداء، و١٧ شخصاً على العشاء، ثم تسلية الملوك والأمراء».

إن تظلمه بالنسبة إلى الأسس المالية معقول، وبالنسبة إلى المسؤوليات التي من المفروض أنها تخصه وتولتها الإدارة الفلسطينية، فالفضل في ذلك يعود إليه، إلا أن سورة غضبه بعد حادثة القاعة البيزنطية، جعلت حكمه على الأمور غير صحيح، وبالنسبة إلى اتهامه بأن صهيونية «صمويل» هي السبب فيما ألم به من عثرات، فليس لديه أي دليل على ذلك، لقد اختلق النظرية ليحسّن من وضعه. فقد كان صمويل، الواعي تماماً، يدرك أن انتماءه إلى اليهود، قد يجعله موضع اتهام بالتحيز، فأجبر نفسه على أن يكون عادلاً مع العرب، وفي أثناء وظيفته مندوباً سامياً عُدّل نص الانتداب ليستبعد شرق الأردن من منطقة المستوطنات اليهودية[1]. ويعتقد معظم موظفيه الرسميين أن سجله نظيف، وبمعايير بعضهم كان يسترضي الجميع أكثر مما كان يحكم، وهكذا كان يتأرجح بين استرضاء جماعة ما، وتقديم شيء مماثل للجماعة الأخرى.

---

(١) مكتب قرطاسية جلالة الملك، ١٣٤٠(١٩٢٢م).



ومع أن علاقات «فيلبي» مع «صمويل» كانت سيئة، وبينما كان يعد نفسه لترك العمل، إذ كلفه بمهمة أخرى، إذ أعلن الملك حسين في سنة ١٣٤٢ (١٩٢٣م) عن عزمه القيام بزيارة رسمية إلى ابنه في عمان عن طريق الإبحار إلى العقبة، وتطوع «فيلبي» لمقابلته هناك، ووافق «صمويل».

وانطلق «فيلبي» إلى الجنوب بقافلة جِمال ضارباً عرض الحائط بقضاء عيد الميلاد مع أسرته، وتعكس يومياته عن هذه الرحلة المدى الذي يصل إليه عدم صبره حين يحس بأن هناك شيئاً ناقصاً.

لقد متّع نفسه، فقد كان طريقه عبر وادي عربة: الغور الذي يقع بين البحر الميت والعقبة، وفي قفار هذا الوادي أعاد تجربة سحر الاستكشاف، وشعر براحة مبهجة لتخلصه من الإحباط والجدل. وكان هناك الكثير ليعمله في أثناء السير، وكتب في يومياته عشية عيد الميلاد: «لا أعرف شيئاً أكثر بهجة من السفر على ظهر جمل في أرض جديدة مع جماعة من العرب».

تغير مزاجه عند وصوله إلى العقبة، فقد تطلب الأمر انتظار عشرة أيام حتى وصل الملك حسين، وأصبح رفاق الرحلة الطيبون طفيليين. كانت العقبة ـ التي تعد الآن منتجعاً ساحلياً ـ تتكون من عدد قليل من البيوت الطينية، ورصيف ميناء مهجور، ومخلفات الحرب، ولا يوجد ما تقدمه للمرء غير الاستحمام والبحث في الخنادق المهجورة. وبدأ رفاقه، في الحال يضغطون على أعصابه، ويقول في يومياته بتاريخ ٨ يناير: «أيام الفراغ في صحبة هؤلاء العرب تعطي المرء بصيرة أفضل حول طبيعتهم أكثر من أي شيء آخر... إذا كانوا بلا عمل فهم بغيضون، يتمددون ساكنين، والملمح الطبيعي لنقاشهم العادي هو المبالغة، والتنهد والأنين شائعان بينهم، والصمت معتاد عندهم...».

وأخيراً وضع الملك حداً لهذه التجربة بوصوله، لقد هرم منذ قابله «فيلبي» سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، ويتحدث الآن بصوت ضعيف، ويبذل جهداً لجعل الأفكار والكلمات متتابعة. ومع ذلك كان متغطرساً كعادته، وأصر على أن يسافر منتصباً على رحل الجمل حتى الوصول إلى خط سكة الحجاز في «معان».

وما إن وصل إلى عمان حتى أكدت المواهب الملكية ذاتها، ووفقاً للعادة العربية أنزل عبد الله إلى دور ثانوي، وأخذ الأسبقية حين استعرض الجنود وعلق الأوسمة لفيلبي وبيك، وسارت الزيارة بشكل جيد مع أنها بدت طويلة جداً لعبد الله. وكان دور «فيلبي» الرئيس فيها، أن يقيم عشاءً رسمياً في بدايتها، وبعد ذلك لم يشغل نفسه إلا قليلاً في مجرياتها وتنظيمها، وفي ٣ مارس أخذ «دورا» إلى سورية «لخمسة أيام سعيدة» ليقول وداعاً.

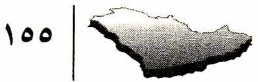
حاول إزالة غضب فرنسا من زيارة الحسين، وعرض رأيه بأنه لو أراد «عبدالعزيز آل سعود»، يمكنه أن يوسع حدوده شمالاً إلى أبعد من «الجوف» في وادي «السرحان»، وغرباً في الحجاز، لأنه لا أحد يملك القوة والإرادة ليوقفه.

وحين كان في سورية حدثت مفاجأة مذهلة، ففي سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م)، ألغى مصطفى كمال الذي ثبت نفسه الآن رئيساً لتركيا، الخلافة.

في وقت مبكر من الحرب العالمية الأولى داعبت فكرة استعادة الخلافة عقول العرب وبخاصة قبيلة النبي ﷺ قريش - أعضاء أسرة الشريف الذين ينتمون إليها - وفي سنة ١٣٤٢ (بداية ١٩٢٤م)، كان الحسين الذي غدا عجوزاً وأقل طموحاً من الماضي، واعياً بأنه إذا ادّعى الخلافة قد يفاقم مركزه المتزعزع في مواجهة «عبدالعزيز آل سعود»، وقد يكون غير مرحب به من المسلمين غير العرب الذين يأتون إلى مكة.

كان عبد الله أقل بصيرة، فحين وصلت أنباء الإعلان التركي إلى مخيم الملك العجوز الشتوي في وادي الأردن، شجع السلطات الدينية في الأردن والحجاز على الضغط على والده المتردد لقبوله الخلافة، لم يكن معظم المسلمين سعداء بذلك. وبعد مشاورات سريعة مع لندن، قرر «صمويل» إظهار فتور بريطانيا تجاه الموضوع، فقام بزيارة قصيرة للملك والأمير في عمان، مصطحباً معه شخصية إسلامية رافضة - مفتي القدس - وأحجموا عن ذكر الموضوع صراحة. وهؤلاء الحضور يذكرون أن الحسين حافظ على سلوكه الملكي، ولكن عبد الله كان واضح الاضطراب[1]. حين

(١) معلومات مستقاة من «آليك كير كبرايد»، لندن، ١٣٩١(١٩٧١م).



عاد «فيلبي» من سورية إلى المشهد الإسلامي الحائر، كتب في يومياته أن سلطة الحسين في الجزيرة العربية مقصورة على ساحل الحجاز، وأن إشارته إلى الخلافة لا معنى لها إذا ووجهت بالضوء الساطع لنجم «عبدالعزيز آل سعود» في سماء الصحراء العربية.

كان يوم ١٣ رمضان١٣٢٤ (١٨ أبريل ١٩٢٤م) هو يوم «إطلاق السراح أخيراً»، وتحدث «فيلبي» على مأدبة عشاء أقامها سلاح الجو الملكي، عن «السفينة الغارقة لاستقلال شرق الأردن»، وعند عبوره القدس كان فظاً في رفض حفلة عشاء وداعية أخرى أقامها «صمويل» له ولإرنست ريشموند، وهو موظف كبير في حكومة فلسطين استقال في الوقت ذاته، ولكن لسبب مختلف؛ لشكوكه في أمانة السياسة البريطانية داخل فلسطين، وقد ذهب «ريشموند» إلى حفلة العشاء وتحدث عن طيب خاطر.

ربما تكون «دورا» قد شعرت بالراحة لتركها الشجار مع المسؤولين في فلسطين، وقد كانت هذه الإشارة الأخيرة غير المهذبة رمزاً لذلك، لكنها كانت تتوقع طفلها الرابع، قلقة حول المستقبل بلا بيت في إنجلترا ولا عمل لزوجها، وتمنت العودة إلى الهند التي مازالت في اليد، للإحساس بالأمان ولأسباب اجتماعية أيضاً، لكن «فيلبي» كان فرحاً بالمستقبل غير المحدد، وبالحكم عليه من يومياته، فقد كان يؤمن بصدق أن «دورا» ستكون سعيدة مثله إذا استقال من الخدمة الحكومية، لسبب واحد، وهو أن عملاً في إنجلترا يضع حداً للابتعاد عن «كيم»، وكان متأكداً من أن شيئاً ما سيحدث خلال الأشهر الثلاثة عشرة التي استحقها كإجازة.

وفي جرده لممتلكاته، وهل يتقاعد بالمعاش المحدود الذي يستحقه عن خدمته مع حكومة الهند، أنهى الموضوع في يومياته: «علينا أن نعيش بـ ٥٠٠ جنيه في الأشهر السبعة عشر القادمة، وثلاثين حقيبة معظمها مملوءة بالكتب.. عليّ الآن حقيقة أن أبحث عن عمل لكي نعيش».

وأخيراً، أرسل دورا والطفلتين عن طريق البحر، وسافر براً إلى بيروت، ثم أنقرة فأوروبا، ينام في فنادق رخيصة «مع الصراصير، أما خلاف ذلك فالأمر ممتاز».

ولحقته رسالتان تواسيانه: إحداهما من «هارولد ديكسون» يقترح عليه التحرر من وظيفة الهند وتجريب حظهما بالانضمام إلى «فرانك هولمز» وهو مهندس تعدين كبير علَّم نفسه بنفسه، أقنع «عبدالعزيز آل سعود» الذي يعجب به سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م) أن يمنحه حق البحث عن النفط في الساحل الشرقي للسعودية. والرسالة الأخرى من «جيرترود بيل»: «آه ياعزيزي.. يؤسفني أن أفقد زمالتك»، لكنه كان قد أدار ظهره لدول الانتداب، ولم يرها قط ثانية.

انضم إلى عائلته في كامبيرلي في سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) وبدأ على الفور يتعامل مع مشكلة كسب عيشه.

الفصل السابع



السنوات العجاف

١٣٤٢ - ١٣٤٧ (١٩٢٤ - ١٩٢٩م)

لا يمكن لأحد أن يحتمل الحياة في السنوات الست التالية من حياة «فيلبي»، إلا رجل محصن بالثقة الزائدة بالنفس، واحترام الذات والتفاؤل. بالنسبة إلى دورا، التي كانت حاملاً ثانية وتتوق إلى الأمان، فقد بدأت الحياة معه بعد عودتها بشكل سيّئ، حين أخبرها عند وصوله «كامبيرلي» أنه بمجرد انتهاء إجازته في ٢٥ مايو، يعتزم أن يحرر نفسه من «الرباط الرسمي»، ويستقيل من الخدمة في الجهاز الحكومي الهندي، وعليه أن يسعى إلى الحرية: «لخدمة بلدي بطريقتي الخاصة».

لقد خانت بريطانيا عهدها للعرب، وعليه أن يناضل لتصحيح الخطأ الذي لا يمكن أن يصحح إلا بالتضحية. وقد غضبت الإدارات التي مازالت تدفع له راتب إجازته، حين بدأ يكتب مقالات موجهة ضد السياسة البريطانية. كانت موضوعاتها تلك التي سبق أن شرحها مطولاً لزملائه في العراق وفلسطين، فالسياسة البريطانية تجاه العرب مبنية على سوء النية، وباركت عصبة الأمم تقسيم الغنائم، ولا شيء يمكن أن يحفظ هذا الاقتسام سوى قوة السلاح؛ لأن بريطانيا وفرنسا أخفقتا كلياً في إدراك طبيعة القومية العربية. ولقد أثبتت حكومة العمال - التي تولت السلطة في سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤م) - أنها ليست أفضل من سابقتها، فهي تدعم الحصان غير المناسب - الفرنسيين، والهاشميين والصهاينة، ونتيجة لذلك فإن معظم العرب قد يفضلون عودة الحكم التركي: «يجب أن نواصل إقامة توازن صلب لزيادة الكراهية لتركيا بتأمين الميول الحقيقية للعرب، ولتحقيق ذلك يجب العمل مع اهتماماتهم الحقيقية، ونقلع عن

استخدامهم بيادق في لعبتنا مع أسرة عربية وحيدة أو مع الفرنسيين أو مع الصهيونية»[١].

ووصف «فيلبي» جهوده الخائبة في تحقيق التعهدات البريطانية، في مطبوعات: ناينتينث سنتشري، ذا نينشن والديلي هيرالد ووستمنستر جازيت، وأيضاً في خطبه التي ألقاها في الجمعية المركزية الآسيوية، وجمعية الشرق الأوسط والأدنى، وفي مجموعة من أعضاء البرلمان عن حزب الأحرار الذين دعوه على العشاء في مجلس العموم، وفي جمعية: «لا حرب بعد اليوم»، وفي المدرسة الصيفية للجمعية الفابية التي انتخبته عضواً فيها، وقد علقت المانشستر جارديان على «خطبه اللافتة للنظر»[٢].

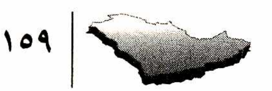
كان الناس على استعداد للإصغاء إليه لأن الكثيرين كانوا قلقين حول تصرفات بريطانيا في الشرق الأوسط. ومنذ سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) فإن الانتداب الذي حلَّ محل الحكم التركي، انتقد على نطاق واسع لكونه عبئاً ثقيلاً، أساساً بسبب نفقات إخماد التمرد في العراق، فالعراق وفلسطين كلفتا دافع الضرائب البريطاني نحو سبعين مليون جنيه إسترليني في سنتي ١٣٣٨و ١٣٣٩ (١٩٢٠ و١٩٢١م)، ولذا فإن القبول بالانتداب قد، أدانته عدة قطاعات من الشعب البريطاني. وجاء الهجوم الأول في جريدتي «الديلي إكسبريس» و«الديلي ميل» من لوردات الصحافة الذين كانوا قلقين من التخلص من «لويد جورج»، ثم عند اتضاح المعارضة العربية للانتداب، دخلت العراك جريدة «الديلي كرونكل» التابعة لحزب الأحرار، وجريدة «ديلي هيرالد» العمالية. وحتى تشرشل الذي خرج من البرلمان مهزوماً في «دندي» على يد «إي. د. مور» من الاتحاد الديموقراطي، قال في سنة ١٣٤١ (١٩٢٣م): «من الأفضل أن ننفق على ما نملكه بدلاً من أن ننفق على مجرد أراضٍ مستأجرة»[٣].

---

(١) قام «فيلبي» بتجميع كل مقالاته وبعض خطاباته في سنتي ١٣٤٢-١٣٤٣(١٩٢٤-١٩٢٥م) ضمن كتاب لم ينشر «Arabian Mandates»، وهذا الكتاب هو مصدر لهذا الاقتباس وما يليه من اقتباسات في الفقرات التالية مباشرة. نسخة طباعية تجريبية موجودة في وثائق «فيلبي»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

(٢) «Manchester Guardian»، بتاريخ ١٣٤٢/١/٣(١٩٢٤/٦/٦م).

(٣) «Empire Review»، ذو الحجة ١٣٤٢(تموز ١٩٢٣م).



وكان «فيلبي» بخبرته المباشرة بتصرفات بريطانيا يعدّ مبعوثاً مميزاً لأصحاب هذه الحملات.

إن انتقاداته التي قدمها متفرقة حملت الإقناع إلى أصحاب الحملات على الانتداب، وحاز الإعجاب بسهولة لتأكيداته بأن القومية العربية كانت ستنجح في النظام الجمهوري لو منحته إياها بريطانيا: «بالعناية الودية المماثلة لتلك التي منحتها إلى أسرة الشريف التي لا تستحق وإلى أحلام صهيون». وكان سينال الإعجاب حتى على أفكاره العاطفية الغامضة حول وضع حد: «للتنافس السياسي الذي ميَّز العالم قبل الحرب الأخيرة».

ومن ناحية أخرى فقد رأى بشكل صحيح منذ أوائل سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م) أن اهتمام بريطانيا بالعراقيين والاحتفاظ بإقليم الموصل تابعاً للعراق، ليس مجرد إنجاز اضطرت إليه، أو لمتطلبات الدفاع عن الإمبراطورية، بل: «إن النقطة الأساسية هي النفط» فقط، وحين جمعت مقالاته في مجلد واحد، أو حين طُلب منه مسؤول استعماري ساخط «جيه. هـ. توماس» أن يكتب عروضه البناءة»، وظهرت التناقضات والمغالطات في آرائه بادية للعيان، وظهرت عيوب استدلاله المنطقي عندما تحدث عن الخطط بخصوص فلسطين، فمرة يسم بالعار إعلان بلفور على أنه «عمل من أعمال الخيانة الموازي له الشيكل والقبلة وكل ذلك وعلينا العودة إلى الحديقة الجثمانية على جبل الزيتون في القدس حيث ارتكبت الخيانة ضد المسيح»، ومرة يعلن أن على كل حكومة بريطانية أن تعيد التأكيد على وعد بلفور؛ لأن لليهود الحق الكامل بالإقامة في فلسطين: «على أسس من المساواة مع السكان الموجودين».

كانت نصيحته للحكومة هناك التي تتعلق بحكم مجلس جمهوري مُنتخب على أسس تعددية، سيتخرج العرب واليهود من الوظائف الإدارية العليا التي ستنحصر فترة في: «المسؤولين البريطانيين الذين يتعهدون بتنفيذ السياسة البريطانية دون تحيز شخصي لطرف دون الآخر». ولو نفذ هذا النظام سيكون شرق الأردن «سعيداً جداً» كي يقبل الهجرة والاستثمار اليهوديين، واتحاد قسمين لبلد واحد كان يجب ألا يفصلا أبداً». وكانت خطته لانسحاب بريطانيا من العراق أبعد مدى. فلكي يمنع خطط «مصطفى كمال» بخصوص إقليم «الموصل»، فهو يؤيد تجنيد العراق لقوة من المرتزقة تستأجرها من شعوب دول ليست استعمارية.

استخفاف زملائه السابقين باستدلالاته مفهوم تماماً، وسرعان ما أشاروا إلى أن خطته للحكم الجمهوري العربي القائمة على الرجل السياسي لا تتطابق مع ثنائه الكبير على «عبدالعزيز آل سعود». ومع مرور الوقت، كان عليه أن يغير مواقفه تجاه بعض هذه الأفكار المبكرة، لكنه ظل ثابتاً حول نقطتين: إحداهما اقتناعه بأن اليهود بإمكانهم إفادة العالم العربي لو تخلوا عن الرغبة الصهيونية في السيطرة، والثانية إيمانه بمقدرة «عبدالعزيز آل سعود»، لكونه رجلاً عظيماً ورائعاً، في رئاسة دولة عربية موحدة، لكنه لم يستطع إقناع حتى «هوجارث» «الذي يعلم جيداً» عدالة حكمه. وبالنسبة إلى العلماء المسلمين في الهند ومصر وتركيا والحجاز فإن اتّباع مذهب إخوان «عبدالعزيز آل سعود» يعد خطراً، وأن الوهابية لا تناسب معظم العالم الإسلامي، وهي وجهة نظر سادت بعض الوقت بعد دخول «الملك عبدالعزيز آل سعود» لمكة المكرمة في ربيع الأول ١٣٤٣ (أكتوبر ١٩٢٤م)[١].

لم تكن الجنيهات التي كان يكسبها من هنا وهناك عن مقالاته المهنية، حتى لو أضيفت إلى معاشه من حكومة الهند، لتوفر له الدخل الكافي لبيته، وطعام عائلته وملابسها ولتعليم أربعة أطفال، فقد تقرر أن يذهب «كيم» إلى ويستمنستر، ودين وزارة المستعمرات لم يسوّ بعد، وساعد «كيم» على حل المشكلة المالية بحصوله على الحق في منحة تعطى أصلاً إلى مرشح يفضل الذهاب إلى ونشستر.

كتب في ستي سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤م): «ويستمنستر رائعة، أذكر لحظات الفخر في حياتي حين سمعت أنه اختير في النهاية، ثم حين أخذته إلى المدرسة في اليوم التالي».

وعلى الرغم من اشتراكية «فيلبي»، إلا أنه بقي من بعض النواحي خلاصة للعادات التقليدية المتبعة، ويهتم كثيراً بالفن والجاه، ويتكبر على طبقته الاجتماعية، مثل شخصية «ليدي براكنر» لأوسكار وايلد حول المهن التي لا تناسب طبقته. وحين توقع وظيفة جديدة، رتب الاحتمالات على الشكل الآتي: أولاً مقعد في البرلمان، وقد سجل اسمه في قائمة المستعدين للحديث في اجتماعات حزب العمال. ولم يع للحظة

---

(١) تقرير قدمه مراقب غير بريطاني، انظر أيضاً «ألويس موزيل»: الدين والسياسة في الجزيرة العربية، «Foreign Affairs» نيويورك، محرم ١٣٤٧(تموز ١٩٢٨م).



أنه كفؤ للحديث فقط في مدى محدود من الشؤون الخارجية التي لا تهم كثيراً من الناخبين الإنجليز. اختياره الثاني كان وظيفة أكاديمية، وقد كتب إلى كليته في «كامبردج» في ذلك، ولم يجد صعوبة في أن يجد من يشهد بمقدرته، وقد تكرم هوجارث، وكوكس، ومايكل أودوير حتى هربرت صمويل بفعل ذلك، والسبيل الثالث والأخير، كان أن يجني النقود من العمل الحر.

كانت الفكرة محتملة إذا أدت إلى العودة إلى الجزيرة العربية، وكانت الفرصة فيها أول مشروع يتخذ شكلاً ثابتاً، ففي صيف سنة ١٣٤٣ (١٩٢٤م)، وهو في طريقه إلى ميدان سانت جيمس تقابل مصادفة مع أحد معارفه «ريمي فيشر»، وهو رجل غني يهتم بحي المال والأعمال في المدينة، وهو متحدث تنقصه الجدية، وقد بنى شهرته على تجارب زراعية لمحاصيل المناخات الحارة، وقد بدأ صغيراً (قال أعداؤه: إنه ابن لكيميائي يهودي في الإسكندرية)، وأصبح خبيراً في علوم البستنة، ويمتلك جزيرة خصبة في النيل حيث يقوم بتجاربه، ولديه حاسة متميزة لجمع المال، ودوماً يضاعف أمواله في حالة نجاحه، ويقلل خسائره حين يخفق أحد مشروعاته، وحين مات سنة ١٣٥٠ (١٩٣١م) في أثناء فترة الانهيار الاقتصادي العالمي، قدرت ثروته بستة أرقام.

قبل «فيلبي» الذي لم يكن لديه عمل في المدى المنظور، بتشوق اقتراح «فيشر» بمناقشة أوسع لتصاريح التنقيب عن النفط في الحجاز إذا استطاع أن يأتي ليقيم في منزله قرب «سانت جان دي لوز»، وتحدث عن نجاح ابنه «كيم» في دخول «وستمنستر»، فتلقى دعوتين في وقت واحد؛ إجازة مجانية ومكافأة لـ«كيم»، وانطلقا إلى فرنسا، وقد بقي على موعد ولادة دورا شهر بالتقريب.

وفي أثناء العشاء تلقى «فيلبي» برقية، لم يجرؤ على فتحها حتى أصبح وحده، فقد جاءه إحساس بتوقع الشر، وقد ترك امرأته وحيدة تواجه ولادة أخرى، وشعر بالراحة حين قرأ أنه «رزق» بابنة أخرى وأنها وأمها بخير، وكتب في الحال إنه بعد هذه البنت ـ هيلينا ـ لن ينجبا أي أطفال، وفرغ ذهنه فرحاً شاكراً، لإسعاد «كيم» و«فيشر الساحر».

لاحظ أخباراً عن الجزيرة العربية في الصحف الفرنسية في ٢٤ سبتمبر، فأسرع

إلى جريدة التايمز بمجرد وصوله لندن، وقرأ أن «عبدالعزيز آل سعود» ضرب الهاشميين مرة أخرى، وهاجمهم في ثلاثة مواقع عازماً على إثبات أن ادعاء الملك حسين الخلافة أمر باطل، فبعد قيامه بغارات مضللة على العراق وشرق الأردن قابلتها القوات البريطانية بخشونة، وجه ضربته الرئيسة إلى الحجاز.

استولى «الإخوان» على الطائف، وسمح لهم قائدهم «خالد بن لؤي» بتسديد دين سابق، وكان من بين الضحايا حجاج أجانب، وعاشت مكة في رعب لعزم «خالد» على دخولها. وفي الثالث من أكتوبر، بعد أن أخفق الملك حسين في حشد الإمدادات، تنازل لابنه الأكبر «علي»، وقد عرفه «فيلبي» في أثناء وجوده في شرق الأردن وأعجب به.

إن أي واسطة ستكون أفضل منه بين علي وعبدالعزيز آل سعود، مرة أخرى، متجاهلاً أنه موظف لدى الحكومة البريطانية، اقترح على مفوض الحجاز في لندن أن معرفته بالطرفين يمكن أن تفيد «علي»، ولم يكن اقتراحه لوجه الله، فمنذ عودته إلى لندن في مايو، تراوده فكرة المشروع الذي انشغل به عقله مدة طويلة؛ عبور صحراء الربع الخالي.

كان يفضل أن يقوم بالأمر وحده، لكنه بدأ يرجح العمل مع مجموعة كي يجمع النقود، وعندما اقترحت «روزيتا فوربس» القيام بجهد مشترك، قرر أن أفضل فرصة له لنيل الجائزة، وهو في إجازة وحر في حركته، أن يستفيد من مقدرتها الرائعة في استخلاص النقود من الصحافة الشعبية.

كانت مشهورة برحلة قامت بها حديثاً مع المستشكف الطيار المصري أحمد حسين بك إلى واحة «الكفرة» في الصحراء الغربية، وقد أقنعا «لورد برنهام» من جريدة «الديلي تلجراف» لرصد مبلغ أربعة آلاف جنيه إسترليني للمحاولة. وكان على «روزيتا» كتابة المقالات الصحفية، ويكتب «فيلبي» كتاباً جاداً عن كشوفهما.

ترددت «روزيتا» حين سمعت الأنباء القادمة من الجزيرة العربية، فقد يكون «عبدالعزيز آل سعود» مشغولاً عن مقابلتهما، لكن «فيلبي» ضغط عليها للاستمرار في ذلك.



اتفقا على السفر سراً، وكل على انفراد على أن يتقابلا في الخليج العربي، وتسافر هي عن طريق سورية والعراق، بينما يسافر هو عبر مارسيليا والبحر الأحمر.

أبحر من مارسيليا في ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (١٥ أكتوبر ١٩٢٤م)، وعلى ظهر السفينة كتب إلى «دورا» الرسالة التي سنقتطف منها مقطعاً من توقه إلى الشهرة، فقد كتب بنوع من الشعور بالذنب، نادراً ما عبر عنه، عن المستقبل المجهول وقلة النقود التي تركها تعاني منهما: «لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بأن هناك مصيراً (مهما عنت هذه الكلمة) لابد أن أحققه، كان الأفضل أن تكوني معي لكني حقيقة آسف لذلك.. فقد تركت طريق النجاح العادي، وأشعر أني بذلك قد صنعت شهرتي في الفلك الصغير الذي أتحرك فيه، بالحرية وبهذه الرحلة أنا على ثقة من التقدم بشكل أكبر، أريدك حقاً أن تفهمي يا حبيبتي أني أكتب لك لأبين أني أدرك التضحية التي قمت بها...».

علم عند وصوله بورسعيد، أن «خالداً» قد استولى على مكة دون دماء، وأثارت الأنباء طموحه، وأدرك أن «الملك عبدالعزيز آل سعود» سيستولي على الحجاز، ودون أن يفكر بأنه موظف بريطاني رسمي، وأن الحكومة البريطانية يمثلها قنصل في «جدة»، وأبرق إلى «علي» مقدماً خدماته. وحين علمت وزارة الخارجية بذلك، أعلمت كلاً من «علي» وعبدالعزيز آل سعود أن «فيلبي» ليس له صفة رسمية أو مفوض بالتعامل مع أي منهما.

كان «علي»، وهو رجل طيب ولكنه ضعيف، في موقف يجعله يتعلق بأي قشة، ودعا «فيلبي» إلى جدة. أقنع «فيلبي» قبطان سفينته أن يبحر قرب جدة قدر الإمكان ليرى إذا كان هناك «لنش» سيخرج إليه.

خرج «لنش» تابع للجمارك في ٢٤ أكتوبر، وحمله إلى رصيف الميناء، حيث كان ينتظره وفد أخذه مباشرة إلى الملك علي، حتى الآن، الأمور جيدة، لكن بعد ذلك لاحقته الحكومة البريطانية وأنهت مهمته غير الرسمية بفشل ذريع.

أبلغه القنصل البريطاني «ريدر بولارد» أن الحكومة البريطانية لن تسمح له بالدخول إلى البلاد، وأبرق إلى وزارة الخارجية بألا تتمسك بالكلام الفارغ: «بالنسبة إلى حادثة

«فيلبي»، إذا أظهر أي ترتيب لعصيان أوامر حكومة صاحب الجلالة، عليكم إعلامه بأن رئيس وزراء حكومة الهند طرف في هذه الأوامر، وأن يضع في ذهنه أن أي عصيان للأوامر سينظر إليه بشكل خطير، وعليه أن يذكر أن توابع العصيان العادية للأوامر المباشرة هي الطرد من الخدمة»[١].

كان معاشه باختصار في خطر، ثم اكتشف أنه ليس المنقذ الوحيد الذي لجأ إليه «علي». كان هناك اثنان آخران مرشحان ليكونا مفاوضين: أحدهما صديق «عبدالعزيز آل سعود» «أمين الريحاني»، لتضميد صراع وخيم العاقبة، والآخر «سيد طالب» الذي مازال منفياً من العراق، ويأمل في عمل، وكتب الثلاثة رسالة إلى «عبدالعزيز آل سعود» يطلبون مقابلته. وكان جوابه صداً بكلمات مهذبة وموجهاً إلى «فيلبي» وحده: «إذا كان هناك شيء شخصي فأهلاً بك لمناقشته معي شخصياً، أما إذا كان غير شخصي ويتعلق بالحجاز وترغب في أن تقوم بدور الوسيط، فأقترح أن تبتعد عن هذا الموضوع، كما ترى، إنها مشكلة إسلامية خالصة ووساطتك لا داعي لها»[٢].

لم يبق شيء ليفعله سوى مشاهدة «علي» يتأرجح بين الشرسين الذين يريدونه أن يهاجم الوهابيين، والمسالمين الذين لا يريدون ذلك؛ ولأن «سيد طالب» مسلم فقد تلقى دعوة لزيارة مكة المكرمة، ولكنه انتظر طويلاً لتأكيدها حتى إنه سافر إلى مصر ممتعضاً، وقرر أمين الريحاني أن يواصل المحاولة، وضغط «علي» على «فيلبي» أن يفعل مثله، وكانت خشية «بولارد» أن يتمكن «فيلبي» من زيارة «عبدالعزيز آل سعود» عن طريق آخر، ويفشي أسرار دفاعات جدة الواهية.

حسم الموضوع في النهاية، على أثر تعرض «فيلبي» لهجوم شديد من الدوسنتاريا، حتى إنه استلقى عاجزاً أياماً في سكن عربي مؤقت، غير قادر على ابتلاع طعام

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./٦٨٦/١١٨، الملف الثلاثون، البرقية رقم ٤٥، بتايخ ٦/٤/١٣٤٣(١١/٤/١٩٢٤م).

(٢) «سيد عبد الأحمد الخطيب»، «Harbinger of Justice: a biography of H. M. King Ibn Saud»، مطابع «الأتاب»، كراتشي، ١٣٧٠(١٩٥١م)، ص١٠٦ وما بعدها.



المرضى من مطبخ «بولارد» إلا بصعوبة، وعالجه أطباء القصر، وحقنه أحدهم بالأميتين بحقنة قذرة، مما تسبب في حدوث خراج في ذراعه.

وكان ممتناً لوضعه على أول سفينة متجهة إلى «عدن» وخدمات مستشفاها، وقد أبحرت في جمادى الآخرة ١٣٤٣ (الثالث من يناير ١٩٢٥م)، وكان «بولارد» سعيداً بعودته، وعبر عن إيمانه بقوله: «مريضاً أو معافى» فهي ثنائية بسيطة لقوى الظلام، أحضرتها حكومة جلالته»[١].

أبرق «فيلبي» إلى «روزيتا» لمقابلته في «عدن» حيث لحقت به، سعياً للحصول على إذن من السلطات البريطانية للبدء في رحلة داخل البلاد، لكنها قوبلت بالرفض.

أخذ «فيلبي» الذي كان مريضاً جداً وخرّاجه مازال يسيل، الرفض بوجهة نظر فلسفية، وأما «روزيتا» التي كانت منزعجة، فعزّت نفسها بزيارة إثيوبيا (الحبشة).

سافر «فيلبي» بطريق البحر الطويل مقدماً ترضية لجريدة الديلي تلجراف بكتابة مقالات حول حصار جدة ودخول «عبدالعزيز آل سعود» إلى مكة[٢]، وقد أمل بذلك أن يقنع الجريدة بتخصيص مبالغ أخرى لمحاولة ثانية لعبور الربع الخالي.

لم يذكر شيئاً عن إخفاقه، وعندما عاد إلى لندن كان معروفاً فقط في وزارات الخارجية والمستعمرات والهند حيث بدأ اسمه يصبح بغيضاً بسبب تجاهله القواعد المعروفة. لكن في الأماكن الأخرى فإن هالة نجاحه المبكر لكونه مستكشفاً مازالت مشعة، وقد منحته الجمعية الآسيوية الملكية ميدالية «بيرتون»، وهي الهيئة التي تدعم الدراسات الشرقية التي انتمى إليها منذ سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩م)، ورشحته الجمعية الملكية الجغرافية لمرافقة رحلة تعتزم اكتشاف الصحراء بحثاً عن آثار ما قبل التاريخ وهو مشروع لم يتحقق بسبب نقص الاعتمادات المالية. وأعادت الجمعية الآسيوية المركزية إصدار محاضرته عن ذكرى «بيرتون»[٣]. ولكن أياً من هذه

---

(١) بي. آر. اف. أو./٣٧١/١٠٠٠٦. أي ٦٢٣/١٠/٩١، تقرير جدة في الفترة من ٤-١٢/٦/١٣٤٣(٣١/١٢/١٩٢٤-٨/١/١٩٢٥م).

(٢) «Daily Telegraph»، ١٩-٢٤/٧/١٣٤٣(١٣-١٨/٢/١٩٢٥م).

(٣) «Central Asian Society Journal»، مج١٢، الجزء الرابع، ١٣٤٣(١٩٢٥م)، ص٣٣٢ وما بعدها.

التكريمات لم تخفف من إحساسه بالإحباط وقدراته المهدرة، أو توفر له النقود اللازمة لتعليم أولاده أفضل تعليم كان يتمناه.

على الرغم من همومه فقد جدد حملته ضد الحكومة البريطانية التي زودته بذخيرة جديدة بضمها الإقليم الشمالي من الحجاز إلى شرق الأردن ـ منطقة العقبة، معان ـ بينما ظل قدر «علي» تحت رحمة «عبدالعزيز آل سعود». في اليوم التالي لإعلان هذه الخطوة في البرلمان، كتب في جريدة «التايمز» عن: «عمل عدواني لا يغتفر ضد دولة ضعيفة»[١] باحثاً عن وسيلة لكسب النقود ومواصلاً انتقامه، فجمع مقالاته وأحاديثه في سنتي ١٣٤٢ و١٣٤٣ (١٩٢٤ و١٩٢٥م) في مجلد واحد أرسله إلى ناشره، وأسماه «الانتداب في الدول العربية». ووقع الناشر معه عقداً، لكنه طلب منه أن يخفف من اللهجة الحادة في بعض المقالات، التي لم يتمكن من عملها حتى سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م).

أصبح الانتداب في ذلك الوقت في وضع هادئ وخفت المعارضة الشعبية ضده، وأصبح الكتاب غير مناسب، وألغى الناشر العقد.

لم يقتصر تأثير القلق الذي استبد به بشأن الحصول على المال على اعتداده بنفسه، بل تعداه إلى الانسجام في بيته. فمن وجهة نظر «دورا» فإن رحلته العربية قد أهدرت مرتب خمسة أشهر من الإجازة بلا طائل، وما فائدة أن يكتب لها رسائل جميلة قائلاً: «إن ملح الحياة هو الصراع مع المصاعب». وأنه كان في الجزيرة العربية: «سعيداً وفي سلام مع كل العالم عدا إدارة الشرق الأوسط!»، ألم ير أنه قد تركها مع خمسة أفواه تحتاج إلى طعام، بمرتب إجازة انخفض إلى النصف، وبلا منزل ولا آمال مستقبلية عدا معاش ثلاث عشرة سنة من حكومة الهند، ويوفر فقط سبعمئة جنيه في السنة؟ واعترف بصراحة بأنه: «يجب أن نكون حريصين لفترة حتى أستطيع أن أرى ما حولي»، لكنه ذكرها بحقيقة ينساها في الوقت المناسب: بأنه لا يسمح له بعمل حتى ينتهي من كشوف دفع المرتبات الحكومية في شوال

---

(١) «The Times»، ١٣٤٣/١٢/٧(١٩٢٥/٦/٢٩م): انظر أيضاً المقالات المنشورة في «Observer»، ١٣٤٥/٢/٥(١٩٢٦/٨/١٥م)، وأيضاً «The Morning Post»، ١٣٤٥/٢/٢٥(١٩٢٦/٩/٤م).

سنة ١٣٤٣ (مايو ١٩٢٥م) وحين حدث ذلك، استبدل نصف معاشه، واشتروا بيت لندن في «أكول رود» قرب «سويس كوتيج» الذي سيصبح مقراً للعائلة مدة عشرين سنة، ولكن هذه الإجراءات خفضت المعاش إلى ٣٥٠ جنيهاً.

لم يجد خياراً من الرجوع إلى التجارة مصدراً للرزق ونتيجة الضغوط المالية الواقعة عليه، وفي أثناء وجوده في عمان، صادف شركة تسمى «مدين ليمتد»، كانت تتفاوض من أجل استئناف ترخيص كانت منحته لها أصلاً الحكومة العثمانية، وحين تضاءل الأمل في التوظيف في شركة «مدين» بسبب تعقيدات خلافة الممتلكات التركية، رجع ثانية إلى «ريمي فيشر»، كان «فيشر» كالعادة متشوقاً إلى مغامرات جديدة. لقد باع جزيرته التي في النيل، وروج لشركة جديدة برأسمال ٦٦,٠٠٠ جنيه لاستئناف تجاربه الزراعية على نهر «جاد الجويفر» في جنوب إسبانيا، وفي أثناء مداولتهما، قدم «فيشر»، الذي كان قد قابل «دورا» وأعجب بها، دعوة لإجازة أخرى في «سانت جان دي لوز»، وقبلها «فيلبي» لتقوم بها «دورا» و«كيم» الذي كان يعاني من مشكلات في الجيوب الأنفية. وأوضح «فيلبي» لدورا أن سحرها وشفاء كيم سيخدمان أهدافهما. لكنها كرهت التجربة، واحتقرت السيدة «فيشر» الكثيرة الشكوى، ورفضت بجفاء محاولات «فيشر» جذب انتباهها إليه. وكتبت إلى «فيلبي» أنها ليست مخلب قط، إنها تحب صحبة الرجال، وتفتقدها إذا لم تحصل عليها، لكنها تفقد الاهتمام بمجرد رغبتهم في النوم معها.

وقبل «فيشر» سلوكها البارد، واستمر إعجابه بها لرغبتها في الحفاظ على زواجها. وخلال سنوات الفقر القليلة التالية، عمل الكثير للتخفيف عنها، ولأنها كانت دوماً في ضائقة، فقد قبلت عدة إجازات عائلية على نفقته، وقبلت أجراً ذات مرة، لتأثيث منزل له. ولم يذبل إعجابه بها قط، وقد سمى جزيرة في نهر «جاد الجويفر» باسمها، ويبدو أنه يحسدها على الثبات والإخلاص اللذين ينقصان حياته المتأرجحة بين الإخفاق والنجاح.

وقد كتب إلى «فيلبي» حين استخدمه سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م): «إن جو منزلك، وحلقة الأطفال الصحية والمرحة، وكياسة زوجتك وبساطتها في أدائها واجباتها المنزلية، أعتقد أن كل ذلك جعلني أكثر قرباً منكم. أنت تملك شيئاً ثميناً هناك،

وأنا، الذي سعادته ليست من الطبيعة نفسها، أود أن أرى أصدقائي أصحاب أسر غير محطمة».

إن إشارته الخفية إلى التحطم ستشرح لاحقاً، وفي شوال ١٣٤٤ (أكتوبر ١٩٢٥م) جمع عدداً قليلاً من أصدقائه من رجال المال والأعمال ليضعوا مقدماً مبلغ ٧٥٠ جنيه لتمويل رحلة ثانية لفيلبي لاكتشاف أرض الحجاز بطريقة سرية.

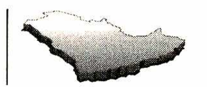
بدأ «فيلبي» رحلته على الفور، واعتداده بنفسه ينطلق كصاروخ، وكتب إلى دورا من على ظهر المركب: «لو استطعت الاتصال بالملك عبدالعزيز آل سعود، فكل شيء سيسير بشكل جيد». حتى نسمة هواء الشرق التي تعرض لها في الإسكندرية رفعت من روحه المعنوية، وتخلى عن الحرص وانتابه «إحساس غريب كأنه في بيته وعلى راحته... وشعور بدني حقيقي من الراحة بعد ضغط الحياة المنتظمة للمدن الأوروبية الكبرى». وبقيت «جدة» على العكس «مركزاً لليأس»، وخليفة «بولارد» لم يُسَرّ قطّ لرؤيته، وكانت لديه أوامر جديدة بمنعه من العبور إلى داخل البلاد، ولأنه لم يعد موظفاً، فقد كان في وضع أفضل من سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م) ليهزأ بهذه الأوامر، ولقد فعل ذلك أمام عدة صعوبات، ولأن الحكومة البريطانية قد اتخذت أخيراً القرار غير المريح أن «علياً» قد تمت مساعدته، فعليها أن تتعامل مع «عبدالعزيز آل سعود» من أجل ترتيب الحدود ليس مع العراق فقط بل مع الأردن أيضاً.

وصل «فيلبي» تقريباً في الوقت الذي وصلت فيه بعثة بريطانية برئاسة «جلبرت كلايتون» تصحبه شخصية عربية مسيحية تعمل في حكومة فلسطين هو «جورج أنطونيوس»، للتفاوض حول المعاهدات الوثيقة الصلة بالموضوع، وكانت هناك تعليمات لدى «كلايتون» بأن يخبر «عبدالعزيز آل سعود» أن فيلبي ليس لديه أي صفة رسمية، ووجوده في جدة «على عكس رغبات حكومة صاحب الجلالة»[1].

«فيلبي» الذي أرسل بمجرد وصوله رسالة إلى عبدالعزيز آل سعود، لم يتلق جواباً،

---

(١) «مذكرات «كلايتون»؛ سجل يوم ٧/٤/١٣٤٤(٢٩/١٠/١٩٢٥م) في «آر. أو. كولينز»، «An Arbian Diary»، كاليفورنيا ١٣٨٩(١٩٦٩)، ص١٢١.



وشعر أول مرة بالثبات الذي يتمتع به «عبدالعزيز آل سعود» بتجاهله في أثناء معاملته مع الحكومة البريطانية. ولم يجبه عبدالعزيز آل سعود حتى وضعت الخطوط العريضة للاتفاقية الأولى، وغادر كلايتون المنطقة، وأرسل إلى «فيلبي» لمقابلته في «الشميسي» قرب مكة، فأجاب «فيلبي» على الفور، وتسلل شمالاً في مركب شراعي عربي في الليل إلى «رابغ» وبعد رحلة صعبة، مصغياً إلى أذان الفجر كأنه يستمع إلى موسيقا، وصل عبدالعزيز آل سعود وقابله وجهاً لوجه في جمادى الأولى ١٣٤٤ (٢٨ نوفمبر ١٩٢٥م) أول مرة منذ ١٣٣٦ (١٩١٨م) (وإن كان قد قابله مع كوكس، وليس وحده في سبتمبر ١٣٣٩ (١٩٢٠م) في أثناء زيارة قصيرة لـ «العقير» لدى عودته إلى العراق).

وضع «فيلبي» في يومياته كل ما تذكره من محادثاتهما في ذلك اليوم، وقال: إن تقاعده من الخدمة في الحكومة البريطانية يرجع سببه لعبدالعزيز آل سعود: «كنت أؤيده دائماً ضد جماعة الشريف»، وقد أُرسل اليوم من طرف «جمعية قوية» ليطلب حق الامتياز. وسأله عبدالعزيز آل سعود: «أي نوع من الامتياز؟» وأجابه: «بنك رسمي، مد خط حديدي بين مكة والمدينة تكملة لسكة حديد الحجاز، تنمية معدنية». فأجابه عبدالعزيز آل سعود: «نعم، في نيتي أن أفعل كل ذلك، وأن أعمل لتحقيق ذلك الهدف عن طريقك، ولكن ليس الآن، وفي هذه اللحظة لدي هذه الحرب وتأكيد صحتها في العالم الإسلامي، ولا أستطيع القيام بأي خطوات قد تسبب دعاية ضدي».

لابد أن المحادثة قد أوضحت لفيلبي السبب الذي جعل عبدالعزيز آل سعود يصمت مدة سنة بعد استيلائه على مكة، والذي يجعله يصمت الآن. وبخبرته بالوهابيين، وبنفور الإخوان من الأجانب استطاع أن يدرك حيرة الملك عبدالعزيز آل سعود، فهنا حاكم يريد أن يحدّث بلده، لكنه يفهم جيداً عقلية الذين يرون أن أي ميل إلى التعاون مع المسلمين المتهاونين أو استيراد اختراعات حديثة بدعة. وعندما دخل «عبدالعزيز آل سعود» المدينة المنورة بعد أسبوع، وبدا دخول جدة وشيكاً، رأى «فيلبي» أنه من الكياسة أن يختفي، فعاد إلى جدة عن طريق بورسودان، وانتظر حتى جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٩ ديسمبر ١٩٢٥م) حين غادر «علي» بهدوء، ودخل «عبدالعزيز آل سعود» جدة بلا مقاومة؛ ومع ذلك، بقي «عبدالعزيز آل سعود» على أحر من الجمر

من ردود أفعال المسلمين تجاه الفتوحات التي حققها «الإخوان». حتى بعد أن أُعلن ملكاً على الحجاز في جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٠ يناير ١٩٢٦م)، لم يذكر شيئاً عن منح الامتيازات، وفي إشارة غير مناسبة للصداقة دعا «فيلبي» لحضور المأدبة التدشينية لتوليه الملك، وهو امتياز لم يخف على الأعين الحادة للصفوة في جدة، ثم غادر «عبدالعزيز آل سعود» إلى مكة التي دعا إليها مجموعة من المندوبين المسلمين ثم دعا إلى مؤتمر إسلامي شامل، ليثبت لهم أن الأراضي المقدسة في أيدٍ أمينة.

ظلَّ «فيلبي» في جدة مدة شهرين آخرين على أمل بعض العروض الأكثر ثباتاً، وبعد عدة مذكرات جريئة، وصله إذن الملك بأن يفتح فرعاً لشركة تجارية بريطانية في جدة، ويسميه «الشركة الشرقية المحدودة».

عاد إلى لندن في مارس سعيداً بوضع قدمه عند عتبة الباب، ومديناً لفيشر ومجموعته بمبلغ ٧٥٠ جنيهاً. لم يكن أحد في لندن يعرف عن المشهد في الجزيرة العربية مثلما يعرف، ومرة ثانية طُلب منه التحدث في الموضوع، وأن يكتب عنه لدائرة المعارف البريطانية، وأن يراجع لأرنولد توينبي رواية عبدالعزيز آل سعود عن طرده للهاشميين كي تنشر في الدليل السنوي للأحداث العالمية الذي يصدر عن دار نشرChatham، وعن طريق «ألكسندر كينيدي» اُنتخب عضواً في جمعية Athenaeum لترقية العلوم الأدبية والعلمية التي تقبل المرشحين المتميزين فقط، وقد أخبر «كينيدي» دورا أنه: «أخذ من التوقيعات على ورقته أكثر من أي مرشح آخر اقتُرع عليه».

انتعشت آماله في دخول البرلمان، وقد سبق أن سجل اسمه مرشحاً يمثل مدينة برمنجهام، وحدثت مقابلة بينه وبين الناخبين، لكن سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م) كانت سنة «الإضراب العام» وحين استطلعوا آراءه في الاضطراب الصناعي في الوطن، لم ينجح في إقناعهم وسجل أن اهتمامهم بالشؤون الخارجية ميؤوس منه.

كان مديناً لمجموعة «فيشر»، وأصبحت حاجته ملحة لنقود جاهزة، فقدمه «فيشر» إلى مديري شركة «مدين المحدودة» على أمل زيادة رأسمال الشركة الشرقية إلى المدى الذي يتراءى لـه. وافقت شركة «مدين» على المشاركة بحصة تقدر بعشرين



ألف شلن على أساس تمثيلها في مجلس الإدارة، وأن يُستخدم «فيلبي» للحصول على الامتيازات المأمولة. وفي أكتوبر رفع «فيشر» المبلغ إلى عشرة آلاف جنيه إسترليني، وأطلق شركته «المستكشفون والتجار في الشرق الأوسط والأدنى»، واشتمل مجلس إدارتها على مديرين من شركة «مدين» ورجل أعمال في القاهرة هو «سانت جون كوك» الذي سيكون وكيل مشترياتها هناك، ويكون «فيلبي» ممثلها في جدة بمرتب ١٢٠٠ جنيه في السنة بالإضافة إلى خمسة آلاف سهم، ورتب أموره بأن يكتب بانتظام لمجلة ثقافية أسبوعية في لندن هي، «الهند والشرق الأدنى»، وفي ربيع الآخر ١٣٤٥ (أكتوبر ١٩٢٦م) سافر إلى جدة بروح معنوية جيدة. وكتب في الطريق إلى دورا: «حصلت على عمل مضمون مدة ثلاث سنوات، وذلك وقت كاف لاختبار الاحتمالات»، ولو كان يعلم تجارب هذه السنوات لكان أقل تفاؤلاً.

أحاطت صعوبات بعبدالعزيز آل سعود من سنة ١٣٤٤ حتى سنة ١٣٤٧ (١٩٢٦م حتى ١٩٢٩م) جعلته يلزم مكة والمدينة مدة سنتين، يطيب خاطر نقاده من المسلمين، وسنة أخرى في نجد لكبح جماح الإخوان، فهو يدين بانتصاراته لهم، ولكن بتقويته مملكته قوّى من نفوذهم أيضاً، كما أنه لا يستطيع تجاهلهم، لأن المتحدث باسمهم «فيصل الدويش» من قبيلة «مطير» كان من قادته الذين لا يستهان بهم، واشتملت مطالبهم على رفض الأجانب والمخترعات الأجنبية، وخصوصاً ما شاع منها في الحجاز مثل الهاتف والتلغراف والسيارات ومكاتب البريد والضرائب المفروضة على الواردات، ثم أرادوا السماح لهم بالدعوة إلى طريقتهم بشن حرب في الخارج، ولكي يقف «عبدالعزيز آل سعود» في مواجهة اتهاماتهم له بأنه قد أغرته المكاسب الدنيوية فأهمل واجباته تجاه الله، كان مضطراً دائماً إلى أن يؤجل اتخاذ قرار في الموضوع. وفي النهاية سمح للأنشطة الحديثة أن توجد في الحجاز تحت ولاية عهد مستقلة عهد بها إلى أكثر أولاده قدرة وسفراً الأمير فيصل، وفي نجد تفادى مطالب الإخوان بالسماح ببعض الأمور الصغيرة بدلاً من أن يصروا على أمور أخرى حيوية لسلطته. ومع ذلك تحداه الإخوان بالإغارة على العراق والكويت. ولم يستطع التخلص منهم أخيراً إلا في شتاء ١٣٤٦-١٣٤٧ (١٩٢٨ - ١٩٢٩م) حين أفرط فيصل الدويش في تقدير قوته، مما مكن «عبدالعزيز آل سعود» من مقاومة التمرد، وفي معركة «السبلة» في شوال ١٣٤٧ (٢٩ مارس ١٩٢٩م) حقق نصراً تاماً عليهم. وقد

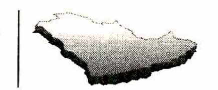
جرح فيصل الدويش جرحاً خطيراً، فسمح له «عبدالعزيز آل سعود» بالعودة إلى منزله في «الأرطاوية»، وبعد تسعة أشهر استسلم للبريطانيين الذي سلموه لعبدالعزيز آل سعود في شعبان ١٣٤٨ (٢٨ يناير ١٩٣٠م) ومات بعد ذلك في السجن[١].

خلال السنوات التي قضاها «فيلبي» في جدة، كان عبدالعزيز آل سعود مشغولاً ببعض المشكلات المقلقة داخل البلاد، ويزور جدة حين يتطلب الأمر ذلك. ولم يكن في موقف يسمح له بأن يمنح «فيلبي» أياً من مطلبيه: الامتيازات أو السماح له بمحاولة عبور الربع الخالي، وكل ذلك كان بغيضاً إلى الإخوان.

عندما كان «عبدالعزيز آل سعود» يفاوض البريطانيين، شكّت وزارة الخارجية البريطانية بأن «فيلبي» يشير عليه بأن يكون «صلباً» مع مفاوضها «جلبرت كلايتون»، في زيارات «كلايتون» الأولى في ذي القعدة ١٣٤٥ (مايو ١٩٢٧م) لم يكن هذا الشك موجوداً؛ لأن «كلايتون» الذي جاء للتفاوض على عقد معاهدة جديدة تعترف باستقلال «عبدالعزيز آل سعود» والحدود الجديدة، حقق ذلك خلال أيام، حتى إنه حصل على موافقة الملك المشروطة باحتفاظ شرق الأردن بالعقبة ومعان على عكس الفكرة التي نادى بها «فيلبي». وحين وصل كلايتون ثانية سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م)، ليحصل على موافقة «عبدالعزيز آل سعود» في حق العراق في بناء حصون للأغراض الدفاعية داخل أراضيها، أنكر «عبدالعزيز آل سعود» ذلك الحق وأخفقت مهمة كلايتون. وقد زعم «فيلبي» أن اتفاقية «عبدالعزيز آل سعود» مع العراق حول الحدود تمنع بناء الحصون، وربما حديثه ومقالاته حول عدالة اعتراضات عبدالعزيز آل سعود، قد عززت وجهة نظر الملك. لكنه حين شرح لمسؤول الشؤون الخارجية - فؤاد حمزة - أن الأمر هو كذلك، كانت إجابته باتجاه آخر: «هل تعلم ماذا يقول عنك الناس هنا؟ يقولون: إنهم لا يستطيعون فهمك إلا بافتراض أنك في جهاز مخابرات الحكومة البريطانية». ومع أن هذه الصفة قد أضفت بعض البلسم على كبريائه، إلا أنها لم تكن تعويضاً حقيقياً عن الإهانات التي تعرض

---

(١) «جون باجوت غلب»، «War in the desert»، لندن ١٣٧٩(١٩٦٠م)، ص٢٨٨-٢٨٩، وص٣٢٤-٣٢٦.



لها في حياة محصورة في جدة يبيع بنادق بالعمولة، منافساً تجاراً مدربين ومشكوكاً فيهم.

دخل «فيلبي» في الأربعينيات من عمره. وحين يكون الرجل ذا مقدرة كبيرة، وعاملاً مدمناً على العمل، وليس لديه القوة ليؤثر في الأحداث، ويرى أزهى سنوات عمره تضيع في أعمال أقل من منزلته، فمن الأرجح أن ينهال بالهجوم على أطراف أخرى.

ونفّس «فيلبي» عن مشاعره في المقالات التي كان يرسلها إلى مجلة «الهند والشرق الأدنى»، وكانت موضوعاته الرئيسة ظلم بريطانيا في إنكارها ضم إقليم العقبة - معان إلى الحجاز، وعدم حكمتها في إنكار حق المسلمين في إدارة سكة حديد الحجاز كلها، وبناء الحصون على طول الحدود العراقية مع نجد، وكان يزعم دائماً أن «عبدالعزيز آل سعود» له السيطرة الكاملة على «الإخوان»، وأنه يصلح لحكم شبه الجزيرة كلها، فلا غرابة أن تستنتج وزارة الخارجية أنه يشجع عبدالعزيز آل سعود على مقاومة السياسة البريطانية(١).

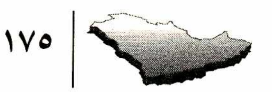
كانت لندن تنظر إلى هذه المقالات بأنها مخربة، وقد سببت سيلاً غاضباً من التقارير بين الإدارات الحكومية حول وقاحة رجل يعض اليد التي تطعمه بإعطائه معاشاً. وأخيراً، قررت وزارة الخارجية أنه إذا كان «فيلبي» يقدم نصائح ضد بريطانيا، فيجب ألا يؤخذ بها، وقبول قرار قنصلها في جدة «ستونوير - بيرد»، الذي يقول: «إنه رجل مزعج وليس قوة شريرة، وأنا مقتنع أن الملك، على الرغم من أنه يحبه ويُعجب به، إلا أنه من النادر أن يأخذ آراءه بصفة جدية».

بحث «فيلبي» عن ميادين أخرى يستعرض فيها قواه، فقد قام بكثير من مغامرات الحب الناجحة مع نساء إنجليزيات، وبصراحته المعهودة كان يُطلع دورا عليها. ألا ترى أنه من الممكن للرجل أن يحب أكثر من امرأة في الوقت ذاته؟ ألا تدرك بعد ١٢

---

(١) انظر مثلاً بي. آر. أو. أف. او./١١٤٣١/٣٧١. أي ٩١/٥/٧٠٣٢، بتاريخ ١٣٤٥/٦/١٥(٢١/١٢/١٩٢٦م)، أيضاً انظر المراسلات بين «Amery و Aden» و الملحقة في إف. او. ٣٧١/ ١٣٠١٠. اي٢٢٠٦/٤٩١/٩١ بتاريخ ١٣٤٦/١١/١٣(١٩٢٨/٥/٣م).

سنة من «الجهد الطويل والشاق» أن رغبتها الجنسية قد سكنت بعد إنجابها ثلاثة أطفال في أربع سنوات، وأن رغبته مازالت قوية ولابد أن تشبع إذا أراد أن يقوم بعمل جيد؟ «أريد امرأة تخرج أفضل ما عندي»، أو لم تصبح عشيقاته صديقات لها أيضاً ـ ڤيرا، بيتي، فيليس، جوان؟ ولماذا لا تنافسه وتلتفت إلى فيشر المعجب بها؟ هذه الطرائق التي يدعم فيها اعتداده بنفسه، أزعجت «ماي» بشدة، وتوسلت إليه ألا يتصرف وكأنه في الخامسة والعشرين، والأدهى، ألا يصبح مثل والده: «كنت تحمل ازدراءً كبيراً لوالدك، فهل تتبع بنفسك خطواته، لا أستطيع أن أجلس ساكنة وأراكما أنتما الاثنين تدمران حياتكما وحياة الأطفال دون أن أحاول إصلاح الأمور». بعض علاقاته كانت عابرة، وأخرى استمرت سنوات، وأحد مقاييس افتخاره بنجاح هذه العلاقات، إعلانه عنها في إهداءاته لكتبه التي نشرها بين سنتي ١٣٤٢ و١٣٤٨ (١٩٢٤ و١٩٣٠م)، اثنان أهداهما إلى م. م. سي ـ موريل ستيرلنج فنانة شابة حديثة من «ليفت بانك» في باريس، وكتاب آخر إلى حب في القاهرة؛ أرملة تسمى «ڤيوليت بيرين». وكان يهجر أي واحدة تفترض أنه ينوي الزواج بها. لكن ملاحقاته الصريحة لهن أزعجت «دورا» بشدة على الرغم من تأكيداته سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م) بأنه: «بيتي هو مركزي، والمشكلة الوحيدة أننا لا نستطيع الحياة في توافق. (ومع ذلك) لم يخطر ببالي قط احتمال أن أغيّر شريكة حياتي وحظي..». والأطفال، خاصة «ديانا» لها «معزة خاصة في حياتي»، ولن ينسى مهما كان الأمر أنهم أطفال «دورا» أيضاً، ذلك واضح لكل ذي عينين. «بات» أذكاهن وأكثرهن تحملاً للعمل الشاق، ورثت ذلك عن «فيلبي» وعائلة بردجر، لكن ابتسامة كيم الحاضرة، وأنوثة ديانا، ونظرات هيلين وحميميتها، كلها موروثة من «دورا». وقد توقع زوجة تعتني بالأطفال، وفواتير المدارس، والوجبات، وأمراض الأسنان والحصبة، وهو آخر من يقول أين يتعلم الأطفال. وقد أمطرته دورا بسيل من الطلبات المدرسية للبنات، وطالعها بإمعان في جدة، فالأفضل أن يعمل. ووجد أن طابوراً من النساء لن يقدمن له ما يعادل هذا الاهتمام الدائم، ولذا عاشت معه دورا أكثر من أي واحدة منهن، وفوق ذلك فقد فهمت الشيطان الذي يحركه. وقد كتب إليها سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م): «منغمس بشدة في مطاردة طموحاتي، وهدفي الرئيس هو تحقيق إنجاز كبير يضمن لي الخلود.. وكل شيء يبدو أنه يشير إلى أن القمة ليست بعيدة».



قدم طلباً آخر لعبدالعزيز آل سعود بالسماح له بمحاولة عبور الربع الخالي، ولم يرفض طلبه بعد، و«دورا» تقرأ أفكاره حتى أفضل مما تفعل أمه، وأحياناً تحاول تخفيف غمه وتعاسته في جدة: «لقد فعلت دائماً ما أردته على الرغم من كل حكومات العالم، ولكم تمنيت أن تنصف نفسك، وأنا أعرف جموعاً غفيرة تجلس منتظرة إعلان عدم نجاحك، وأريد أن آخذ موقعي بجانبك ثانية، وأنا الآن معلقة بين السماء والأرض، سآتي إلى جدة إذا كان ذلك سيساعدك».

قامت بهذه المحاولة بعد ستة أشهر في شتاء ١٣٤٥-١٣٤٦ (١٩٢٧-١٩٢٨م)، لكن أعماله كانت في وضعها الكئيب، وكانت رحلة غير ناجحة.

واصل «فيلبي» ترويج نجاحه مع نساء أخريات حتى حقق أوائل سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م) انتصارات أخرى زادت عن الحد؛ لأنه آنذاك قد اكتسب شهرة ثابتة على صعيد الاستكشاف، وجمع أموالاً كثيرة. وبدا أنه توقف عن مطاردة الإنجليزيات لسببين: أحدهما أنه أصابه الرعب، ففي ذروة شهرته لاختراقه الربع الخالي، دعي للمثول أمام القضاء في إجراءات طلاق، وهي وصمة اجتماعية خطيرة آنذاك، ولم يكن هناك حاجة لدى محاميه ليخبره كم هو محظوظ أن الصحافة فاتتها هذه القصة، والسبب الآخر أنه أصبح مسلماً وبإمكانه الوصول إلى بلاط عبدالعزيز آل سعود بسهولة، كما أصبح بإمكانه الزواج بأكثر من امرأة، إذ إن الدين الإسلامي يبيح له ذلك.

كانت «جدة» في العشرينيات تفتقر إلى البهجة، ولم يشعر «عبدالعزيز آل سعود» بالراحة فيها. ترى وراءها جبالاً عالية عند شروق الشمس، لكنها تختفي بعد ذلك في غمام الحرارة المترقرقة التي تحدد بداية الجو الحار الجاف للجزيرة العربية، لكن هذا المشهد كان فوق الاحتمال عند غير المسلمين المقيمين في المدينة وضواحيها. وقد كتب لورانس مرة عن «شوارعها التي تحتفظ بهوائها من نهاية عام إلى نهاية العام التالي»، ويجتمع الذباب على أكوام القمامة فيها، الجمال والحمير تثير سحباً من الغبار وهي تسير ببطء، فضيلتها الوحيدة هي الهدوء الذي يقطعه الأذان فقط، وجمال مشربياتها.

عندما أصبح «فيلبي» مقيماً هناك سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م)، كان المجتمع الأجنبي في جدة قليلاً، حفنة من القناصل مع قلة من الموظفين، وشركتان تجاريتان قديمتان؛ شركة هولندية، وشركة «جيلاتلي هانكي» البريطانية. وتفوق الهولنديون بسبب حجم الحجاج القادمين من «جافا Java» والثروة التي تجنى من ذلك، وحولت العزلة الأشخاص المقيمين مدة طويلة، إلى أناس غريبي الأطوار. كان القنصل الفرنسي متصوفاً مسيحياً، وتحول إلى الإسلام، وتاجر هولندي، «ڤان دي بول»، اعتنق الإسلام أيضاً ويتسلل على حياء بين حين وآخر إلى مكة لينجز بعض الأعمال.

كان وصول «فيلبي» حدثاً، ولكن لم يكن له في واقع الأمر رفقة مع رجال من مستواه الفكري، فمع رحيل «بولارد»، أصبح الرجل الوحيد الذي يشاركه اهتمامه باللغة والاستشكاف والعادات الإسلامية هو القنصل الهولندي الجديد «ڤان در ميولين» وهو مستعرب جيد تدرب على يد المستشرق الهولندي الكبير «سنوك هروغرونيه Snouck Hurgroije»، لكنه وجد «فيلبي» مشاكساً، وبادله هذا الأخير الكراهية.

اتجه «فيلبي» إلى المجتمع العربي بدافع من العلاقات السيئة مع القنصلية البريطانية وبسبب إصراره على كتابة مقالات ضد بريطانيا، فداوم على زيارة التجار العرب، والمبعوثين الذين يرسلهم عبدالعزيز آل سعود من حين إلى آخر إلى جدة لإنجاز الأعمال، والمتعلمين العرب من لبنان والعراق المقيمين هناك لمعالجة الشؤون الخارجية، كذلك استمتع بزيارة عالم أو عالمين عربيين يمتلكان مكتبات جيدة.

تفضل معظم الشعوب، من البلقان إلى الصين، التعامل مع الإنجليز الذين يتصرفون كما يتوقعون من الإنجليزي أن يتصرف، ولا يثقون بالأجانب الذين يحاولون التصرف عكس قواعد الأصول، وحار مجتمع التجار في «جدة» بأمر «فيلبي»، فقد استاؤوا من منافسة إنجليزي كان من المفترض أن يكون غنياً لأنه يأخذ معاشاً بريطانياً ويتصرف بذكاء، وحاروا أيضاً بعلاقته بالبيت الملكي، وكذلك تأثروا بأسماء الرجال العظام الذين يذكرهم في أحاديثه التي لا تنتهي معهم على قهوة الصباح، وسمعوا أن مقر المعتمد البريطاني في القاهرة يستضيفه حين يكون هناك. وقرؤوا

في صحف القاهرة عن الأحاديث التي طُلب منه أن يُدلي بها[١]، كيف إذن يصدقوا مشاعره المضادة لبريطانيا؟ بعضهم ازدرى ذلك وعدّه ردة، وآخرون رأوا فيه كلاماً يحمل معنيين، وكان «فيلبي» يستمتع بدور الرجل الغامض ويسعد بالمقالات المنمقة التي يكتبها عنه صحفيون أوروبيون بين حين وآخر[٢]. والسخرية من الاعتقاد الأجنبي بأنه عميل بريطاني يدركها فقط أولئك الذين يعرفون التقارير الغاضبة التي تُرسل من «جدة» إلى لندن حول «التاجر المزعج في الشركة الشرقية».

يحتفظ «فيلبي» بواجهة من النجاح في جميع الأعمال التجارية التي تخفي وراءها حقيقة مرة، فقد زوده مجلس إدارة الشركة الشرقية بتعليمات توجهه إلى المتاجرة بالعمولة إلى أن يحصل على الامتيازات. وأول عمل تجاري كان عقداً لبيع صابون «صن لايت» لحساب «ليفر بروذرز» بعمولة ٥٪، وتابعه «كوك» من القاهرة بإرسال الكتالوجات، ففتح مكتباً واستورد بعض العينات، وعلم الطريق الصعب الذي يتبعه منافسوه كي يكسبوا تنازلات جمركية، بوضع بيانات على وارداتهم بأنها «إمدادات حكومية». وكانت العقبات التي أمامه هي الشك في المنافس الأجنبي، والعادة المحلية بالاتجار بشروط التسليف، وكانت الأموال تنقص الشركة الشرقية لتمويل هذه العملية.

تصاعد اكتئابه، ولكي يشعر بالاسترخاء، لعب البريدج، وقضى عطلة عيد الميلاد في بورسودان، وكتب شيئاً في كتابيه: جزيرة العرب الوهابية، وكتاب عن حياة ليتشمان. ولعدم وجود الفنادق في جدة فقد كان يستضيف في بيته صديقاً عابراً، وأحد هؤلاء كان «أوين تويدي» مراسل لجريدة الديلي تلجراف الذي كانت صحبته جيدة وخفف كثيراً من كآبته، ولكن بعد أن استمع «تويدي» إلى مواعظه وجده «رجلاً بلا أسرار».

سافر «فيلبي» في ذي الحجة ١٣٤٥ (مايو ١٩٢٧م) إلى القاهرة ليدعم الشركة الشرقية ويوفر المبالغ النقدية للتجارة بشروط التسليف، وعند وصوله زار المندوب السامي «لورد لويد» وسكرتيره للشؤون الشرقية «والتر سمارت»، وكالعادة طلبت منه الصحف المصرية إجراء مقابلات معه، وارتفعت روحه المعنوية.

---

(١) انظر «Oriente Moderano» ١٣٤٥(١٩٢٧م)، ص٢٣٣-٢٣٤.

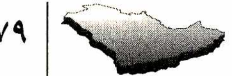
(٢) وخصوصاً «البرت لوندري» في «Le Petit Parisien»، ١/٦/١٣٤٩(٢٤/١٠/١٩٣٠م).

تحدث «كوك» عن حجم الاستثمارات التي يمكن أن يقوم بها أصحاب الملايين من المصريين من آل سموحة وآل لطف الله، وفي النهاية كل ما استطاع أن يحققه اعتماداً دواراً بألف جنيه يتجدد تلقائياً مع بنك الشركة، وكذلك وقع عقداً مع شركة ستاندارد أويل لتسويق الكيروسين والبنزين، وهي صفقة أقل قيمة مما تبدو بسبب الحجم الصغير لسوق الحجاز، ولم ينجح في إنجاز صفقة لإنارة جدة، واستخدم قيمة الاعتماد المالي بشراء سيارات فورد بما يعادل ألف جنيه إسترليني، وعربة إطفاء حريق، ولنشين، وفي مقابلة مع صحيفة مصرية قال: إنه حصل على توكيل شركة فورد في الجزيرة العربية، وحتى الآن يعتقد السعوديون أنه فعل ذلك، وأنه أصبح غنياً على الفور بسبب ذلك. في الواقع، لقد وقَّع اتفاقية لبيع بعض سيارات فورد بالعمولة، ولم يحصل على التوكيل حتى سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤م)، لكن لحظة الابتهاج مرت بسرعة، وكتب إلى «دورا» عند عودته إلى جدة: «كل الناس ذهبوا إلى مكة وأتساءل بأني قد أكون هناك في العام القادم».

قرر أن يسافر إلى إنجلترا في إجازة كي يضغط على مجلس إدارة الشركة الشرقية لزيادة رأس المال، وليباشر العمل المنفر برفع رأس المال عن طريق أصدقائه، لكن لم يشتر أي منهم سهماً. ووجد إنجلترا محبطة تقريباً مثل جدة، وأصيب بالبثور والمغص المعوي، ووضع مقالات أساسية للطبعة الجديدة من دائرة المعارف البريطانية. وتشاجر مع «فيشر»، واتهمه بأنه يركز في أعماله في إسبانيا ويهمل الشركة الشرقية، فتذمر «فيشر» من ذلك وقدم استقالته من مجلس المديرين.

كان نجاحه الوحيد في إقناع الشركة الشرقية أن تقدم له من يساعده في الأعمال الكتابية في مكتب جدة، وفي سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م) أعدت لندن أول مجموعة من المساعدين لتحافظ على نظام الحسابات، كان القليل منهم يعرف العربية ولم يحتملوا العمل مع «فيلبي» بضعة أشهر، ووجد أخيراً موظفاً هندياً لم يعترض على أدائه.

رحبت الجالية الأجنبية في جدة سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧م)، بـ «دورا» بذراعين مفتوحتين، وبدورها صنعت من بيتها بيت استضافة وراحة، لكنها لم تكن سعيدة؛ لأن «فيلبي» بدأ يعزي نفسه بسبب نقص العمل بتناول الشراب بإفراط حين يكون ذلك متوافراً، كما أزعج القنصل البريطاني «ستونيوير بيرد» بشكل كبير بسبب



استقباله لامرأة إنجليزية غريبة الأطوار «السيدة ڤيوليت كريس ماركس» التي أرادت أن تسافر داخل البلاد، وتحايل القنصل بإبعادها على متن سفينة مغادرة، فأنزلها «فيلبي» واستضافها.

كتب عنها «تويدي» الذي عاد يرسل تقارير عن معارك عبدالعزيز آل سعود مع فيصل الدويش قائلاً: إنها «امرأة رشيقة مثيرة للقرف»، وأضاف أن «فيلبي» الذي عوده على مونولوجات في جور البريطانيين والهاشميين: «صدمني بأنه يائس أو شبه مخبول». ورأى «تويدي» الإيرلندي الفطن الحنون «دورا» «متعبة، وحائرة وعلى وشك البكاء»[(١)]. كان على حق، وقد غادرت شاكرة على سفينة حجاج هولندية، وفرها لها «ڤان در ميولين». وفي حفلة الوداع على سطحها، سكر «فيلبي» وأصابه الهياج، ولم تستطع دورا شكر «ميولين»، على السطح، فدعته إلى قمرتها، وهناك، لدهشته، انهارت أمامه، وقالت: إنها أتت من أجل أبنائها ولتمنع زوجها من أن يصبح مسلماً، وهي متأكدة من عدم نجاحها في مسعاها.

قصرت دورا نفسها لأطفالها، بعد أن عادت إلى الوطن، أما «فيلبي» الذي كان متوتراً من قلة العمل، فقد صب جام غضبه بشجار عنيف مع كوك في القاهرة، وسحب نقوداً أكثر من الاعتماد الدوار، وقام بعمل اتفاقيات اعتماد من وراء ظهر «كوك»، وأخبر لندن بأن كوك لا يعرف الظروف في جدة وأحبط مسعى كوك في إرسال محاسب إلى جدة لينظم حسابات الشركة الشرقية، فاستقال «كوك» مخبراً الأصدقاء في لندن أن مجلس إدارة الشركة الشرقية: «مجموعة ضعيفة من أتباع «فيلبي» الذي يجعل الذيل يحرك الكلب»[(٢)].

أصمّت الشركة الشرقية أذنيها لأنها رأت بوادر أمل، فقد ضمن «فيلبي» في سنة ١٣٤٥ (أواخر عام ١٩٢٧م) أول عقد حكومي ـ أمر بسك ٢ مليون قطعة من العملة

---

(١) «توماس كرو»، «Gathering Moss: A Memoir of Owen Tweedy» لندن، ١٣٨٧(١٩٦٧م)، ص ص١٦٥-١٧٣.

(٢) بي. آر. أو. إف. أو./ ٣٧١/ ١٣٠١٠. أي٣٠٧/ ٤٩١/ ٩١. من «كوك» إلى «إل. أس. أميري»، ٨/ ١٢/ ١٣٤٦(٢٨/ ٥/ ١٩٢٨م).

المعدنية في لندن، وهذا ما يحقق للشركة أرباحاً تقدر بألفي جنيه إسترليني. وبدأ تجار القاهرة يتجاوبون مع الحجاز بمخاطرة محسوبة، نجح «فيلبي» في توفير اعتماد كافٍ لتمويل استيراد بضائع تقدر بعدة آلاف من العربات والروافع والكابلات والمواسير وما شابه لتباع بعمولة ٣٪ دون أن يعطي أي اهتمام لـ«كوك»، فقامت الشركة الشرقية، وهي على أمل في نيل عقود حكومية أخرى، بتعيين «جوردن وودروف» من شركة لندن مندوباً للمشتريات، وجاء «جوردون وودروف»، وهو أحد المديرين للشركة، إلى جدة ليرى الأمور بنفسه، وخاطبه «فيلبي» بالعقل: هناك مستقبل كبير لوسائل النقل، فالحجاج مازالوا ينقلون إلى مكة على ظهور الجِمال والحمير، وبالتأكيد ستحل العربات والباصات محلها ووصف نقطة ضعف محلية دائمة: «إنهم يريدون كل شيء بسرعة، وحين يعرفون أنهم لن يحصلوا عليه خلال ثلاثة أشهر، يؤجلون الأمر عدة أشهر، ثم يطلبونه بعد ذلك بسرعة.. وهكذا تسير الأمور»، وأوضح: «الحكومة هي الملك، ومعظم السنتين الأخيرتين كان مشغولاً بإخماد الفتن الداخلية».

وعندما عاد «وودروف» إلى لندن، جاء في تقريره: أن استمرار استخدام «فيلبي» سيوفر للشركة الشرقية أفضل فرصة لكسب رعاية الملك، وفي الوقت نفسه لام «فيلبي» على سرعة تغييره للموظفين، وكتب أن النجاح في رأيه يتعلق بالإشراف وأولى خطوات ذلك الاستقرار، واعتقد «فيلبي» أن النقد غير مبرر، والإجازة الوحيدة التي أخذها فيلبي سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م) كانت زيارة قصيرة للمتعة في سورية وبحثاً عن منجم ذهب خرافي (قد يكون الأغنى في العالم)، سلمته السلطات العثمانية إلى شخص سوري يسمى «بسام». كان البحث، الذي أصبح نزهة صحراوية، قد قام به بمساعدة من القنصل البريطاني في دمشق: «أي. سي. هول» الذي وبخته بعد ذلك وزارة الخارجية لتعاونه الكريم مع «مجاهر دائم بالمعارضة للسياسة البريطانية»، ورد «هول» بسرعة «عدا ولعه بالوهابيين، أعترف أنه يعجبني».

واصل «فيلبي» «لعنة الظروف التي تبقيه هنا لكسب العيش، بينما يمكن أن يكون مفيداً في وطنه». لكن متعة الرحلة السورية، وبيع بعض الدراجات هنا وبعض عربات الأطفال، ورسالة تصله بين حين وآخر من الملك، حولت جَزْرَ يأسه إلى مد، وعلى الرغم من غيابه، فإن لندن لم تنسه، فقد طلب منه الناشر «بن» كتاباً عن الجزيرة



العربية لسلسلة «العالم الحديث»، كما أنه لم يشطب اسمه من قائمة المرشحين المحتملين لحزب العمل، وقبل انتخابات سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م) تلقى عدداً كبيراً من الدوريات السيارة التي يصدرها جمهور الناخبين تسأله هل بإمكانه ترشيح نفسه.؟!.

أصبحت الحياة في جدة محتملة من خلال انضمام «سيريل عثمان» إلى مجتمعها، وقد كان يعمل ميكانيكياً لدى عبدالعزيز آل سعود في الرياض، وقد استقدم من الخارج عروساً جميلة جداً، كانت «دوروثي عثمان» مرحة، تستطيع استخدام الآلة الكاتبة، ووافقت على العمل في الشركة الشرقية، إلى جانب الموظف الهندي المخلص الذي عانى طويلاً «محبوب كازي» فجعلا المكتب يسير بيسر أكبر، ووضعت «السيدة عثمان» «فيلبي» في مكانه، وكما كتب في تقرير إلى الوطن بعد ذلك: «لم تنظر إلي إلا كرجل عجوز طيب جداً». على كل حال، كان مزاجه ميالاً للتغاضي عن مثل هذه الأمور الصغيرة. وحين افتتح القنصل البريطاني «بوند» الذي يحب لعب الجولف، نادياً اجتماعياً ليبعث الحياة في ساعات الفراغ، عارضه «فيلبي» بشدة، واتهمه بالتحيز العنصري وانتهاك القانون الإسلامي، ومنع موظفيه من الالتحاق بالنادي. وللإشارة إلى إمكانية استغنائه عن المجتمع الإنساني، فقد استعرض القرود التي يحتفظ بها كصحبه نموذجاً للحياة التي رسمها لها.

خفّفت المشروعات المشرقة للشركة الشرقية من توتره، ففي سنة ١٣٤٨ (١٩٢٩م) طلبت منه الحكومة أن يبحث لها عن مهندس تعدين، فلجأ إلى «دورا» التي كانت قد استدانت لضيقها، وفي حيرة من أمرها مع فواتير المدارس، قائلاً: «إن الأمور صعبة قليلاً» ووعد بأن العمل سيتحسن لأن الملك ينظر باهتمام إلى فكرته الخاصة التي تحولت إلى مساهمة مهمة لتعزيز اندماج المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة من المحطات اللاسلكية التي يمكن بواسطتها السيطرة على القبائل. هذه المرة كان لتفاؤل «فيلبي» مسوغاته، فقد وقع عقد مع شركة ماركوني بمقدار ١٧ ألف جنيه سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م). وكان هناك أسس أخرى للأمل، ففي سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م) فرغ الملك من «فيصل الدويش»، وأرسل إلى «فيلبي» ٥٠٠ جنيه ليقضي الصيف في إنجلترا ويعالج موضوع شركة ماركوني. وكانت أفضل الأخبار، في رأي «فيلبي»، فوز حزب العمال البريطاني في الانتخابات العامة سنة١٣٤٧ (١٩٢٩م) وعودته إلى الحكم. أخيراً، هناك فرصة لتحسين وجه الاستعمار البريطاني.

أحلام «فيلبي» في السلطة والمجد، كما علمها «والتر متي» بجدارة من هذه الأحداث المتتابعة، جميعها حول نجاحات في بريطانيا، وثروات سبق افتراض حدوثها، وتصور ما للعودة إلى خدمة الحكومة البريطانية بسلطة غير مقيدة، فنصائحه تستحق أن يؤخذ بها في كل مشكلة تواجه حكومة حزب العمل. هل كان يخدع نفسه، أو مجرد تعويض عن القسوة والإحباط اللذين كان يعاني منهما حين كتب:

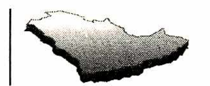
١ ـ (بعد أن طلب من «دورا» أن تسأل «هيو دالتون» إذا كان بإمكانه أن يكون أول وزير يزور جدة): «إذا حزت على العمل سأدير العرض بالطبع وأتوقع أن تتركني وزارة الخارجية أفعل ذلك دون تقييد تصرفاتي؛ لأنهم أدركوا بالتأكيد أنني في حكمي على الوضع العربي لم أرتكب أي خطأ». رمضان ١٣٤٨ (١٤ فبراير ١٩٣٠).

٢ ـ (إلى «جالتون» أمين سر الجمعية الفابية بعد وضع اسمه في قائمة مرشحي حزب العمل في الدائرة الانتخابية): «لسوء الحظ لست في موقف يسمح لي بأي مشاركة مالية لتنظيم العمل البرلماني في هذه الدائرة، ولكني بالطبع على استعداد لأن أتحمل كل تكاليف حملتي و... أنا على استعداد لجعل كل المكافأة البرلمانية لخدمة الحزب». رمضان ١٣٤٨ (٢٠ فبراير ١٩٣٠).

٣ ـ (إلى دورا بعد تعيين لجنة شو للبحث عن أسباب الصدامات بين العرب واليهود عند حائط البراق في القدس سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩): «أعتقد أن لجنة مكونة من إسرائيل كوهين ومني يمكنها أن تحل مشكلة فلسطين. رمضان ١٣٤٨ (١١ فبراير ١٩٣٠م)، وإسرائيل كوهين صهيوني ومؤرخ يهودي».

٤ ـ (إلى دورا بعد انهيار مفاوضات المعاهدة المصرية ـ الإنجليزية): «أعتقد أنه كان بإمكاني إنقاذ المفاوضات المصرية وأن أضعهم على الخط نفسه الذي سارت عليه الهند، لكن يجب أن أعترف أن المعارضة قوية لدرجة كبيرة، وأني أسبق عصري». ذو الحجة ١٣٤٨ (٢٢ مايو ١٩٣٠م).

المقتطف الأخير جاء بشكل مختلف عند آخرين بسبب تعليقه حول الهند، وأيضاً الجملة الأخيرة. وكما سنرى فإن أفكار «فيلبي» لحل مشكلات المجتمع في الهند لم تختلف كثيراً عن تلك التي تبناها «المؤتمر» فيما بعد.



في أثناء غياب «فيلبي» الطويل عن إنجلترا، أفضت «دورا» - التي غرقت بالدين وحارت في أمر الحصول على نقود - بمشكلاتها إلى أناس آخرين غير «ماي»، وحافظت على المظاهر الخارجية، أحياناً تستقبل ضيفاً يدفع نقود الإقامة، وفكرت ذات مرة أن تبيع «أكاليل ورد» وأن تفتح نزلاً، ووافقها «فيلبي» دون شروط: «كل ما أطلبه غرفة مكتب ومكاناً أنزل فيه حين أكون في الوطن». أعجب بها أصدقاء قدامى من الشرق الأوسط، وكانوا يزورونها دائماً، وكان يطلب منها الخروج للنزهة مع عدد كبير منهم في لندن ـ آل كوكس، آل مينير تزاغن Meinertzhagens من فلسطين، أوين تودي، مارتن لي جيولوجي النفط، وآخرون ممن قابلتهم في لقاءات الجمعية الآسيوية المركزية، وأصبح «فيشر» متعباً جداً بسبب مرضه الذي مات فيه سنة ١٣٥٠ (١٩٣١م)، لكنه تحدث عن عمل لها ضمن خطته الطائشة، وقد ساعدها محاميهم سبيني «هورن» وطبيبهم وزوجته من آل سيلكوك، وأقامت صداقات أيضاً مع ناشري «فيلبي» ووكلائه الأدبيين المتتابعين: هيلين جوم وهيلدا أندروس. وصل «فيلبي»، الذي كان على علم بالأحداث الجارية، إلى لندن، والفضل يعود إلى الحياة الاجتماعية لدورا وإلى ثروة المرموقين في جمعية الـ Athenaeum .

كانت إجازته إلى الوطن سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م) رحلةً سارة، حافظت على الآمال التي ذكرها «متي»، وإحساسه بالأهمية تضخم عندما زار وزراء حزب العمل وموظفيهم الرسميين. وقد أثر في وكيل وزارة الخارجية «هيو دالتون»، بأهمية «عبدالعزيز آل سعود»، وألقى خطبة حادة على «توم جونز» من مكتب رئيس الوزراء، حول قضية العرب في فلسطين، وأجبر «ودجوودبن» وزير الدولة للهند ليرتب له مقابلة مع وزير المستعمرات لورد باسفيلد، وأعد ثلاث صيغ من اتفاقية ماركوني، ودعا شركات أخرى لتقديم عطائها، وحقق طلباً لعبدالعزيز آل سعود بشراء خيام من الفائض عن حاجة الجيش في مصر، وكتب عن «جمع النقود بسرعة مرضية تماماً الآن».

وافق «لورد مانسفيلد» على رؤيته في آخر أيام إجازته في ٩ أكتوبر، لكنه لم يكن صريحاً معه (كان على وشك استقبال وفد عربي من فلسطين). وعاد «فيلبي» إلى جدة عن طريق دمشق والقدس شاعراً بأهميته. وقد زارته في دمشق مجموعة من عرب فلسطين، وطلب منهم أن يأخذوا موقف بريطانيا في الحسبان، وألا يبالغوا في

مطالبهم، وقيل له: إن المتوقع أن يبالغ الزعماء العرب في مطالبهم وأن مؤتمراً إسلامياً على وشك الانعقاد في القدس. وزار مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني في القدس ليسمع منه عن ذلك، وأخبر صحفياً أمريكياً يقيم في الفندق نفسه الذي يقيم فيه - جوزيف ليڤي من النيويورك تايمز - بالنصائح التي أبداها، وبدوره نقلها ليڤي إلى الدكتور «جوداه ماجنس» الصهيوني المعتدل الذي كان رئيساً للجامعة العبرية. كان «ماجنس» يرأس حزباً يهودياً صغيراً نشيطاً يسمى «إخوة السلام» يروج للتعاون بين العرب واليهود، وطلب مقابلة «فيلبي». وظل «فيلبي» يوماً كاملاً بعد المقابلة، كالمكوك ذهاباً وإياباً بين مكتب «ماجنس» والمفتي في المجلس الإسلامي الأعلى يقلب الرأي في دستور لجمهورية ديموقراطية في فلسطين تديرها جمعية يكون التمثيل فيها متناسباً (بين العرب واليهود) مع استمرار الانتداب البريطاني[1].

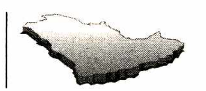
أرسل «فيلبي» إلى «مانسفيلد»، وعرضها «ماجنس» على عدد من الصهاينة المتحمسين من بينهم وايزمن وبن جوريون وإلى المندوب السامي البريطاني «جون شانسيلور»، وسببت الخطة الاضطراب لكليهما، فالتمثيل على أساس العدد، واليهود أقلية، بعيد عن تفكير الصهاينة، ورفضتها المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية على الفور. وحين سأل المندوب السامي عن وضع «فيلبي» جاءه الرد برقياً من «مانسفيلد» موضحاً الحقائق: «أود أن أوضح حالاً أني لم أفوض «فيلبي» بأي سلطة ليتدخل في المفاوضات مع أي شخص أو يتصرف باسمي في أي أمر مهما كان، ولا أحلم باستخدام وسيط مستقل في مثل هذه القضية دون استشارتك.. ولا أعتزم الرد على خطابات فيلبي..»[2].

واصل «فيلبي» مراسلة «ماجنس» بعض الوقت، إذ إنه لم يكن يدرك صغر حجم أتباعه في فلسطين، وكذلك حار عرب فلسطين أيضاً، لكنهم اعتقدوا أن «فيلبي» لابد أن يكون شخصية مهمة، وفي رمضان ١٣٤٨ (فبراير ١٩٣٠م) طلبوا منه اصطحاب مندوبيهم إلى لندن، ولكن مديري الشركة الشرقية رفضوا إعطاءه إجازة ليسافر.

---

(١) بي. أر. أو. سي. أو./٧٣٣١/١٧٥/٦٧٤١١. الجزء الثالث، ٢٧/٥/١٣٤٨(٣١/١٠/١٩٢٩م).

(٢) سبق ذكره، ٢٢/٦/١٣٤٨(٢٥/١١/١٩٢٩م).



تبدو الحياة في جدة باهتة بالمقارنة بهذه الأحداث المثيرة، عدا أن القنصلية البريطانية أصبحت دار مفوضية، وأن رئيس الوزراء «أندرو رايان» أفضل من «بوند» في رأي «فيلبي»؛ لأنه «لا يفعل الأشياء التي يفعلونها في النوادي»، وكان يقضي على الملل بمتابعة مشروع اللاسلكي، ومراجعة بروفات الكتاب التاريخي للناشر «بن»، وترتيب النزهات لتسلية «دوروثي عثمان». وبدأ يوجه اهتمامه للهند، وأرسل إلى «دورا» من أجل تقرير لجنة «سيمون»، وحين استلمه، اندفع يكتب مقالاً مسهباً حول نقاط قوته وضعفه، وشرح عروضه حول خطة انتخابية تؤدي إلى الحكم الذاتي في الهند الموحدة، واقترح أن يُنتخب المرشحون عن طريق مجتمعاتهم، ثم يتم التصويت من قبل هؤلاء، وهو رأي أيده نهرو سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م) وقبله حزب المؤتمر بعد سنتين من اقتراح «فيلبي» له.

لا يعد الكاتب أفضل حكم على أعماله، وحكم «فيلبي» على كتاباته كان دوماً ضعيفاً. فقد وضع في بداية مقاله سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م) خطبة عن ضرورة إعطاء وظائف أكثر للهنود في الجهاز الحكومي كان قد كتبها سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م)، وحشا مقاله بالمديح لنائب الملك «لورد أرون» كان قد كتبها سنة١٣٤٧ (١٩٢٩م) حول خطبته الشهيرة في تحبيذ السيادة للهند، وأضاف تورية مروعة إلى العنوان: «سيمون بيت» بالمعنيين المتضادين اللذين تحملهما كلمة (Out) هذا المقال الخليط لم يكن هناك أمل في نشره، فهو أكبر من مقال، وأقصر من كتاب ومفكك بالنسبة إلى أي قارئ[١].

وأخيراً، في ذي الحجة ١٣٤٨ (مايو ١٩٣٠م)، حصل الحدث الذي كان يحلم به منذ سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م)، فقد قام «الملك عبدالعزيز آل سعود» بزيارة رسمية بضعة أيام إلى جدة دون أن يكون لديه أي مشاغل. كانت الربكة المحلية كبيرة، والقناصل في أزيائهم الرسمية، وأطفأ المسلمون المهملون سجائرهم، وأقفلوا أجهزة الفونوغراف، وأحيطت مقبرة حواء بجدار حتى لا يظنها مرافقو الملك بقية آثار من عبادة الوثنية، وكان الملك اللباقة بعينها.

تناول «فيلبي» كل وجباته معه، وكان بيته هو الوحيد الذي زاره الملك، وتحدثا طويلاً

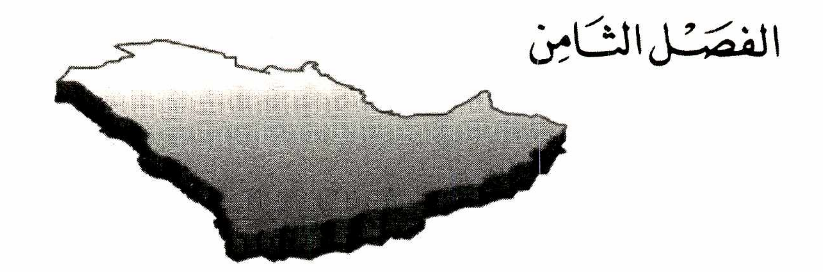
---

(١) نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة وموجودة في وثائق فيلبي، كلية القديس أنطونيو، أكسفورد.

حول مشروع اللاسلكي، واشترى الملك ١٤ سيارة فورد، وغادر في الثالث من مايو: «وهو يودعني قال: ألست قادماً إلى الحج؟» وأجبته: «كما تريد»، لكني أعتقد أن يكون ذلك العام القادم، كذلك قال لي في محادثة علنية كم هو لطيف أن أصبح مسلماً: «وأتمكن من الزواج بأربع».

كتب «فيلبي» هذه المحادثات في يومياته فقط، فالتجارب السابقة علمته أن يصبر طويلاً، لكن كلمة كهذه في العلن لا يمكن أن تكون بلا معنى. وتحولت الرؤى بالفوز بالامتيازات، وبأن يكون أول من يعبر الربع الخالي، من سراب إلى واقع والسنوات العجاف في جدة أزفت على الانتهاء.

الفصل الثامن



الطريق إلى الإسلام

أشار «فيلبي» في رسائله إلى «دورا» في أثناء السنوات العجاف، إلى الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها من الناحية التجارية لو أصبح مسلماً: «لو كنت فقط أو لو أصبحت مسلماً أعتقد أني سأحصل على هذه الامتيازات بمجرد طلبها»، ومن حين إلى آخر تحدث عن هذا الاحتمال إلى الآخرين، وقد اعتقد أحد هؤلاء «ڤان در ميولين» أنه كان متردداً في اتخاذ الخطوة وحده.

كان «ميولين» النصراني الأجنبي الوحيد في جدة الذي لديه معرفة حقيقية وفهم لتعاليم الإسلام، واقترح عليه «فيلبي» يوماً أن يكونا معاً مسلمين، لكن «ميولين» المسيحي المتشدد رفض ذلك، وأوضح أن المبادئ المسيحية تمنع اتخاذ هذه الخطوة، وكان هذا لا يعني شيئاً لـ«فيلبي» إذ إنه أنكر الأديان في كمبردج.

وفي سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨م) حين كان حظ الشركة الشرقية في جزر، كتب إلى عبدالعزيز آل سعود يطلب التصريح بأن يغيّر دينه، وجاءه الرد بأن «عبدالعزيز آل سعود» في الشرق ولا يستطيع الآن أن يرعى مسألة كهذه، وفي هذا الوقت كان عبدالعزيز آل سعود مازال منهمكاً في استرضاء المعارضين ويحكم قبضته على «الإخوان»، ولا يمكنه أن يخاطر باستقدام رجل يدخل الإسلام إلى مكة أو الرياض وهو ليس أجنبياً فقط بل نصراني متحمس للتحديث.

واصل «فيلبي»، الذي لم يكن واعياً لأسباب الرفض، رغبته في تغيير دينه لسببين: أولهما عملي، لأنه يحتاج إلى مدخل سهل إلى الملك كي يقوم بأعماله، كما تاق أيضاً

إلى السفر في الصحراء، وبدا له أنه إذا أصبح مسلماً فذلك هو الطريق الوحيد لتحقيق أعظم أحلامه ـ عبور الربع الخالي ـ وهو السبب الأقل مادية.

الإسلام ليس مجرد دين فقط، في بلد يحكمها حاكم تقي، فكل الأعمال تسير وفق تعاليم الإسلام، ولا يأمل أحد بأي معنى أن ينتمي حقاً إلى الجزيرة العربية إلا إذا شارك في الصلوات والتلاوات والصيام والاحتفالات والقوانين والعادات الشخصية التي تشكل بالنسبة إلى العرب طريقة حياة. كذلك ترتبط اللغة العربية التي يتكلمها سكان الجزيرة بالإسلام ارتباطاً وثيقاً؛ لأن اللغة العربية هي التي نزل بها القرآن على النبي ﷺ، فتراث الإسلام الروحي، وتقاليده ورموزه وتعاليمه تنتشر في كل نواحي العمل اليومي، والإصلاح الذي قام به عبدالعزيز آل سعود منذ تأسيس سلطته الدنيوية والسياسية والتوفيق بين الفرق المختلفة كان مشكلة تغلب عليها دوماً بمساعدة العلماء الموجودين في بلاطه. الحاجة إلى هذا التوفيق قد أعيت المفكرين عدّة قرون، ومازال إلى اليوم يصبغ حياة المسلمين، حتى أولئك الذين يشكل عندهم العنصر الروحي قبولاً قليلاً.

إن تغيير الدين قد يجعل «فيلبي» مشغوفاً بالجزيرة العربية، ويوفر له نوعاً من الحياة يستطيع فيها أن يسبر أغوار هذه المشكلات، والتوضيحات التي كتبها بعد ذلك لأصدقائه، تبين أنه أعجب بالأخلاق الإسلامية، وأنه شعر بالراحة حين اعتنق الإسلام.

مر بتجربة صحية غير سارة في سنة ١٣٤٩ (صيف ١٩٣٠م)، بينما كان وحيداً في جدة ينتظر ويأمل الاستدعاء إلى مكة الذي جعله الملك يتوقعه، إذ مرَّ بنوبة إغماء وصفها بعد ذلك كأنها سكتة دماغية، والطبيب المتاح آنذاك ـ وهو عضو في المفوضية السوفييتية ـ أخبره أن قلبه غير منتظم الضربات وأن نسبة كريات الدم غير متوازنة، فأرسل عينة بسرعة إلى دورا للفحص وقضى بضعة أيام يفكر في ضعف الإنسان، لقد انقسمت حياته السابقة إلى قسمين: النصف الأول سيطر على إخلاصه للمسيحية، والثاني بدأ منذ لحظة الحقيقة في جامعة كمبردج، وميّزته اللاأدرية والإلحاد ومعاداة الاستعمار والاشتراكية ورفض متزايد للقوانين الفلسفية والسياسة: «التي نشأت عليها»، وبدأ الآن يوميات جديدة، وكتب أن الوقت قد حان



«لفتح فصل ثالث وأخير»، وأرسل خطاباً ثانياً إلى عبدالعزيز آل سعود طالباً السماح لـه بدخول الدين الإسلامي، هل اعتقد عبدالعزيز آل سعود أنه مخلص؟ لن نعرف أبداً، وقليل من العرب اعتقدوا ذلك، فقد نظروا إليه مسلماً «على الطريقة الغربية»، وهم الذين يمارسون تعاليم الإسلام حين يكونون وسط العرب، لكنهم يسقطونها عندما يكونون بين مواطنيهم. حتى الرجل الغربي العادي لا يمكن النظر إليه على أنه إنسان مخلص تماماً وهو يعتقد فكرياً بعدم وجود الله منذ سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م)، ويأتي ليعتنق الآن ديناً قائماً على وحدانية الله، وكأننا يمكن أن نفعل ذلك كما نشغل أو نطفئ مفتاح النور.

احتاج «فيلبي» إلى الإسلام ليس كعقيدة ولكن كوسيلة من وسائل الراحة. وفي الواقع فقد قال ذلك مرة لامرأة إنجليزية يحترمها، وقد كتبت تلك المرأة ـ هوب جيل في المفوضية الإنجليزية في سنة ١٣٤٩ (صيف ١٩٣٠م): «التقينا مرة وحدنا، لم يتظاهر بأنه غيّر دينه لأسباب روحية، كان يفكر ملياً بالأمر منذ أربع سنوات. منذ لحظات غضبه الشديد من سياسة حكومة صاحب الجلالة تجاه العرب، والآن وقد خف غضبه، ولم يترك ذلك أي حقد لديه، لكن انفصاله عن المثاليات الإنجليزية ظل قائماً في نفسه، وتزايد شعوره بانقطاعه عما هو إنجليزي، واقترابه من كل ما هو عربي»[(١)].

من عادة عرب الجزيرة العربية أن يوجهوا دعواتهم بوحي اللحظة، ففي ربيع الأول ١٣٤٩ (٧ أغسطس ١٩٣٠م)، كان «فيلبي» يقرأ في مكتبته حين رن جرس التليفون، كانت المكالمة من الملك بالطائف تطلب منه الحضور، لكن عليه أولاً أن يذهب إلى مكة «لإجراء المراسم»، وأرسل لمرافقته وزير المالية عبد الله بن سليمان، وفؤاد حمزة نائب وزير الخارجية: «هل ستكون جاهزاً هذا المساء؟» توقف «فيلبي» فقط ليقول لموظفه كازي، ومستخدميه الذين دعاهم إلى رحلة صيد: إنه سيغادر ليناقش عقد شركة ماركوني، وكتب بسرعة ملاحظة إلى دورا «لدي ربع ساعة من الوقت... فكرت كثيراً في هذه الخطوة حتى أشعر بأقل انفعال حين

---

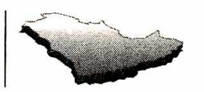
(١) بي. آر. أو. إف. أو./٣٧١/١٤٤٨٣/٩١، بتاريخ ٥/٤/١٣٤٩(٣١/٨/١٩٣٠م).

تأتي، لكني أجرؤ على القول: إنها أثارت النوع الصحيح من الشعور وأنا أقترب من أسوار مكة».

حزم بعض الكتب، والأوراق والأجهزة، وقفز في عربته وانطلق، وفي «الهدا» على طريق مكة قابله الوزيران اللذان ذكر الملك اسميهما، وكان معهما رئيس تحرير جريدة أم القرى التي تصدر في مكة، كان تحوله إلى الإسلام خبراً. قدم له الثلاثة وجبة طعام، وزودوه ببعض التعليمات حول الشعائر التي تنتظره، ثم لبس ملابس الإحرام وتركوه ليقوم وحده بأول وضوء لـه. كل هذه التفاصيل وصفها في يومياته الجديدة، ثم ساروا إلى مكة، وحدث تأخير كبير بسبب بحث مرافقيه عن «مطوف» ليقوم بشعائر الطواف. وشعر بالرضا ودخل مكة ـ حسب التقويم الإسلامي ـ في يوم المولد النبوي.

سُئل في أثناء فترة التأخير، إذا كان يجب أن ينتظر حتى اليوم التالي، لكنه قال إذا كان بالإمكان فإنه يفضل الانتهاء من المراسم هذا المساء، كان الجو بارداً والقمر ساطعاً ولم يكن هناك زحام.

لقد وجد «بيرتون» الأروقة مملوءة بالتجار، وقد أمل أن يجدها خالية. هناك بعض الأماكن في العالم ـ صدع أوراكل الكبير في صخرة دلفي أحدها، قبة الصخرة في القدس مكان آخر ـ حيث تتوافد جموع المصلين وتشرق القلوب حتى إن المرتاب ينتابه إحساس من الرهبة والتقديس. الحرم في مكة كان مثلاً آخر لذلك، وقد تأثر «فيلبي» بالمراسم البسيطة التي مر بها كما لم يتأثر في حياته سوى في لحظات التقديس في دير وستنمستر عندما كان تلميذاً في المدرسة، وتسجل يومياته أنه: «ربما للقراءات الكثيرة والمطولة لطريقة الحج، ورؤية صورٍ للحرم، فقد بدا كل شيء مألوفاً، كما لو أني أفعل ما قمت بعمله من قبل. والظلام الذي ينيره ضوء القمر جعل كل شيء يبدو وكأنه مغلف بقناع، بينما كان انتباهي كله مركزاً فيما ينطقه المطوف الذي يجب أن أسمع كل كلمة يقولها وأفهمها وأرددها (مع مقاطعته أحياناً لأسأله حين لا أسمع الكلمة جيداً، ونجحت في ذلك) كنت كمن انقطع تماماً عن تفاصيل المشهد، ولم أحاول أن أستوعب هذه التفاصيل، وحين أعلمني محمد الأنصاري أننا بدأنا الدورة السابعة والأخيرة من الطواف، دهشت تماماً». الطواف هو



الدوران حول الكعبة سبع مرات، وقبَّل المطوف الحجر الأسود بطوقه الفضي في جدار الكعبة، وتبعه «فيلبي»، ثم قاما بالصلاة في مقام إبراهيم، وشربا من ماء بئر زمزم، وأدى السعي بين الصفا والمروة، وبعد الانتهاء من السعي، عاد إلى بيت عبد الله بن سليمان حيث قصت خصلة من شعره من مقدمة رأسه، وكان الحلق آخر شعائر العمرة. واستلقى بملابس الإحرام ولم يستطع النوم تلك الليلة. لقد حدث الكثير منذ ذلك الصباح الهادئ في مكتبته في جدة حتى إن التحول من أجنبي إلى مواطن من المملكة يبدو أمراً لا يصدق.

وصف «فيلبي» لمكة والمدينة وللحج لا يضاهى بما كتبه الكتاب الأوروبيون سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين متنكرين. الآخرون أصابهم إحساس من التقديس الروحي، أما هو فلم يحدث له ذلك. في أثناء قيامه بالحج أول مرة في ذي الحجة ١٣٤٩ (أبريل ١٩٣١م) شرد ذهنه وهو يراقب الحشود الهائلة، ولاحظ السلوك المختلف للحجاج المختلفين: جنود وهابيون، نيجيريون، مصريون، ولكنه نظر إلى الجميع كتجربة اجتماعية وليس تجربة روحية. إن وصف بيرتون للمشهد أكثر تأثيراً من وصفه: «إن الوسط السرابي للعاطفة الدينية تعطي الكعبة وكسوتها السوداء سحراً خاصاً. لا توجد هنا بقايا أثرية عملاقة كما في مصر، أو آثار ذات جمال متناسق جذاب كما في اليونان وإيطاليا، ومع ذلك فالمشهد غريب وفريد، وقلة من الناس تنظر إلى المبنى المحتفى به نظرتها إلى أثر. وأقول بصدق: إن الحجاج القادمين من بلاد الشمال البعيد هم الأعمق شعوراً من أي من الحجاج المتعلقين بأستار الكعبة، والضاغطين بقلوبهم النابضة على حجرها الأسود، وبدا أن الحكايات الشعرية العربية القديمة هي الحقيقة، وأن أجنحة الملائكة المرفرفة هي التي تثير وتحرك كسوة الكعبة السوداء، وليس نسيم الصباح. ولأعترف بالحقيقة أن لديهم أسمى المشاعر الدينية المتحمسة، وبالنسبة إلي فقد شعرت بنشوة زهو مشبعة»[١].

في الصباح التالي، النشوة ذاتها غلبت «فيلبي»: «بالتأكيد أنا أول مسلم يقوم بالطواف قبل أن يؤدي أي صلاة». رد فعله في تجارب أخرى كان مبهجاً بالمثل،

---

(١) «ريتشارد برتون»، «personal Narrative of a Pilgrimage to el Medinah and Meccah»، نسخة تذكارية، لندن، ١٣٢٥(١٩٠٧م)، مج٢، ص١٦١.

وبعد ثلاث سنوات دعاه الملك لينضم إلى العائلة المالكة في غسل داخل الكعبة الذي يتم سنوياً، ويقوم المنتخب بذلك العمل قبل أن تعلق الكسوة الشريفة على الكعبة من الخارج في موسم الحج: «دخول الكعبة هو ما يطمح إليه كل مسلم يستطيع فعل ذلك.. وجاءتني الفرصة بطريقة فريدة تماماً»[(١)].

في اليوم التالي لتحوله إلى الإسلام، غادر إلى الطائف حيث الديوان الملكي. كان لدى الملك بعض الهواجس حول تصديق حاشيته لإخلاص «فيلبي». وحين منحه الملك اسم عبد الله ألقى كلمة في الحضور أوضح فيها أن «فيلبي» ضحّى كثيراً في سبيل الجزيرة العربية، واختلف مع حكومته واستقال من وظيفته في عمَّان لأن البريطانيين رفضوا مساندة عبدالعزيز آل سعود، وأضاف الملك أن «فيلبي» لم يأخذ أجراً لقاء خدماته للعرب[(٢)]. وطلب من «فيلبي» أن يكتب مقالاً في «أم القرى» يوضح فيه الأسباب التي جعلته يعتنق الإسلام، وقد ظهر مقاله ذاك في عدد ٢٠ربيع الأول ١٣٤٩ (١٥ أغسطس ١٩٣٠م) في الصحيفة، وفيه يقول: «إن الله قد شرح قلبي لفهم الإسلام، وهداني لأدخل هذا الدين بإيمان متأصل واقتناع كامل من ضميري»[(٣)]. وأوضح المقال أن الملك أمره أن يشتمل مقاله على أنه لن يعين في وظيفة حكومية. وأضاف المحرر أن أحد رجال الدين سيقوم بإكمال تعريفه بالتعاليم الدينية. ومع ذلك أحاطه النقد من كل جانب، فالمستشارون العرب المحنكون حول الملك ـ وكلهم من بلاد تقع شرق المتوسط ـ كرهوا أن يضاف أوروبي إلى محيط كانوا هم أصحابه؛ رجال مثل يوسف ياسين السكرتير الشخصي للملك الذي ولد في اللاذقية، وفؤاد حمزة درزي من لبنان، وخالد القرقني من طرابلس «ليبيا»، وعبد الله ابن سليمان الوحيد من بينهم الذي ولد في نجد، وقد استاؤوا من وجود رجل ذكي ثرثار يمكنه الوصول إلى الملك. كذلك تجار جدة استاؤوا لفقدهم الميزة الوحيدة على التاجر الأجنبي، منهم من قال: كان يجب أن يسمى عبد القرش لا عبد الله. والأتقياء

---

(١) مقطع من عمل «فيلبي الذي لم ينشر» «More Arabian Days»: نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومستعارة من «هومر مولر».

(٢) «خير الدين الزركلي»، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، مج٤، بيروت ١٣٩٠(١٩٧٠م)، مج٣-٤، ص١٣٥٨-١٣٥٩.

(٣) ترجمة لـ«Moderno Oriente» ١٣٤٩(أيلول ١٩٣٠م)، ص٤٣٥.

رأوا في قراءته القرآن ضعفاً وأخطاءً كثيرة، ومع ذلك احتفظ بأصدقاء عرب طيبين، من أمثال الشيخ حافظ وهبة المصري المولد الذي كان مبعوث الملك في لندن عدة سنوات، ولقد أعجب به ولو أنه يعتقد أن أحكام «فيلبي» السياسية ضعيفة، وهناك رشدي ملحس الذي يعد التقويم السنوي السعودي، ودائماً يطلب مساعدته في تحديد مواعيد الصلاة حسب غروب الشمس المحلي في مكة والمدينة ونجد، وأيضاً ما يقابلها من تواريخ في التقويم الأوروبي، وأشهر البروج، وكان «فيلبي» يستمتع بهذا النوع من العمل أكثر من تلك المناقشات الطويلة في الديوان حول الأنواع الأربعة لولادة العذراء، أو الفرق بين المؤمنين الحقيقيين والمنافقين. وأصبح شهيراً، وتحوله إلى الإسلام كان خبراً في الخارج أيضاً، ونشر على الفور في الصحافة الإنجليزية والمصرية، ولحسن الحظ فإن دورا التي كانت مع البنات في البحر قرب كاليه، تلقت رسالته قبل أن تقرأ الخبر المعلن، وكتبت على الفور إلى «ماي» التي كانت منزعجة أيضاً: «لقد تلقيت أكثر الخطابات إزعاجاً من جاك، لقد أخذ الخطوة أخيراً، لا أعرف بالضبط ماذا أقول، على العموم أنا أشعر بالأسف لما حدث».

كان قلقها الأساسي يتمثل في المخاطر التي قد تتعرض لها هي والأطفال في حالة زواجه من أخريات وإنجاب أطفال آخرين، لكنها أدركت ألا تكتب إليه بخصوص هذا إلى مكة: «كنت أعرف دوماً أنك ستغير دينك، ولذا لم تكن الصدمة شديدة... حسناً ياعزيزي آمل أن تكون سعيداً بما عملته، وإني أرى تماماً الفرق الذي ستحققه لك هذه الخطوة بسبب استطاعتك التجول في البلد». وكان أصدقاء آخرون من الإنجليز أقل تعاطفاً، فقد كتب «كوكس» إليه قائلاً: إنه اتخذ خطوة سيئة، وانتقده أرنولد ويلسون في صحيفة بغداد نيوز، وتحملت دورا ضربات هذين الناقدين، وقررت أن الإخلاص هو أعظم عاطفة جليلة تظهرها في لندن، وتحدثت عن تحول زوجها بطريقة جعلت الأصدقاء يشعرون بالراحة عند مقابلتها، وقد قالت لأحدهم ملوحة بيدها، وقد كان يخشى أن تكون المقابلة الأولى بعد التحول محرجة: «افترض أنك تعلم الآن أني السيدة عبد الله».

لم يدرس «فيلبي» ردود أفعال الآخرين إلا بما يتناسب معه، وقد أساء تفسير هدوء دورا وكتب في يومياته أن: «أمي ودورا موافقتان تماماً على دخولي الإسلام»، وبدا أكثر عصبية من ردود الأفعال الأوروبية في «جدة»، واستخدم كلمة «محنة قاسية»

لوصف أول حفلة حضرها هناك، لكن المجتمع الأجنبي في جدة لم يكن مندهشاً من خطوته بشكل عام، وافترض أن «تحوله» لم يؤثر في علاقاته بالوطن، فلديه الآن مقران للإقامة، واعتزم أن يحتفظ بجواز سفره الإنجليزي، وكتب إلى دورا في شعبان ١٣٥٠ (نهاية عام ١٩٣١م): «إنه مازال يطمح أن ينهي حياته عضواً في البرلمان». والمقالات التوضيحية التي أرسلها إلى «الديلي هيرالد» و«الإيجبشيان جازيت» استندت إلى الأسباب الأخلاقية لتحوله، وليس إلى أسباب روحية، فبعد استشهاده بالمذهب البيوريتاني المتشدد لكرومويل كمصدر قوة لإنجلترا، واصل قوله: «أعتقد بالمثل أن بواكير الحركة العربية التطهيرية الحاضرة هي بداية عهد سياسي عظيم يقوم على أسس أخلاقية وروحية، كذلك فإني أرى أن النظام الأخلاقي الإسلامي، نظام إخوة ديموقراطية حقيقية، وسلوك عام للحياة بما فيه الزواج والطلاق وانتفاء الوصمة الظالمة لمن يولد بطريقة لا شرعية، مما يجعل من النموذج الأخلاقي العربي العام، أرقى بالتحديد من النظام الأخلاقي الأوروبي القائم على المسيحية.. وإني أرى أن إعلاني الواضح بتعاطفي مع الدين الإسلامي ومثالياته السياسية هو أفضل طريقة للمساعدة في تطوير عظمة العرب». وربما كان أكثر تصريحاته صدقاً في بيان الأسباب التي دفعته لاتخاذ قراره، هو ما كتبه إلى صديقه «دونالد روبرتسون» في كامبردج، الذي كان صريحاً معه طوال حياته: «لقد ارتبط مستقبلي بشكل قاطع بعبدالعزيز آل سعود والجزيرة العربية، وربما تأخرت بشكل لا ضرورة له في الاعتراف بتلك الحقيقة (لأني عرفتها وعلمت عواقبها منذ فترة طويلة). لو فعلت ذلك منذ عدة سنوات لربما قيل: إن دافعه هو الغضب، أما الآن فلا يمكن أن أتهم بأني اتصرف بتهور، وقد تحملت مدة خمس سنوات أو ست الانتحار الأخلاقي التدريجي... كنت كمن يقف بين بابين كلاهما مغلق في وجهه، أهل بلدي (الحكومة وغيرها) الذين عدّوني ضالاً بسبب آرائي غير المريحة لهم حول العرب والشؤون الشرقية، والعرب الذين هم على استعداد للترحيب بي (وبأصالة) إذا تخلصت من ثيابي القديمة (التي هي المسيحية بالنسبة إليهم) واعتنقت دينهم، على كل حال لقد تم الأمر أخيراً ولا رجعة فيه وسأموت وأنا على قناعة تامة بالدين الإسلامي الذي أعجب به بشدة وخصوصاً في جانبه الأخلاقي».

كتب إلى دورا في ١٣٤٩ (أواخر عام ١٩٣٠م): «الوقت يمضي بسرعة في الظروف الجديدة»، أولاً في الطائف ثم في مكة، وكل تجربة جديدة تشكل نبعاً للاهتمام والبهجة، أفضلها صحبة الملك، والذي كان يتناول كل وجباته معه حتى حين تكون هذه الوجبات في جو عائلي مع أطفاله الصغار وداخل المضارب الخاصة، وقد سمح له بدخول القصر في أي وقت، ويحضر يومياً ثلاث جلسات في الديوان، والملك يستقبل الضيوف، أو يقيم العدالة، أو يصدر العقوبات، أو يقرأ القرآن أو يتحدث، وقد كان الملك متحدثاً عظيماً في موضوعات تراوح بين الفقه وعلم الأنساب في الصحراء الذي كان يعرفه معرفة جيدة. في أثناء التلاوات المطولة من القرآن، أو المناقشة والتمعن في آيات الله، نادراً ما كان «فيلبي» يشارك بالحديث بعد عدم نجاحه بالتنبؤ بموعد ظهور قمر شهر رمضان، وتوبيخ الملك له بتدخله في أمور لا علم له بها. لكن في كل الموضوعات الأخرى كان يتدخل بحماسة، مدوناً ملاحظات وافرة. وقال الملك ذات مساء: «على الرغم من كل شيء، فإن اجتماعاتنا هذه تشبه برلمانكم غير أني أقوم بالحديث كله هنا وأنتم تصغون ماعدا «فيلبي» الذي يشكل المعارضة».

يناقشون أحياناً موضوع المرأة والدور الذي يجب أن تؤديه في حياة الرجل، وأبدى الملك ذات مساء ملاحظة بأنه اعتزم أن يقتصر على زوجتين جديدتين كل سنة في المستقبل. (يجب المحافظة على معدلات الطلاق لإبقاء عدد الزوجات أربع حسب الشرع، وهو بذلك يحافظ على ولاء القبائل له) وعلق «فيلبي»: «وأظل أنا مع زوجة واحدة طوال حياتي»، فقال الملك: «الآن وقد دخلت الإسلام، يمكنك الاستفادة من الحرية التي منحها لك في هذا المجال». لم يستفد «فيلبي» من هذه الميزة في حرية الزواج لعدة سنوات، ومع ذلك كتب في يومياته في جمادى الآخرة ١٣٤٩ (أكتوبر ١٩٣٠م) بعد تفاصيل طرائق المراوغة في تناول هذا الموضوع: «تظل الجارية على وضعها حتى تنجب طفلاً، فتصبح أم ولد، لها أحكامها الفقية في الإرث وغيره. وكان الملك قد أهدى فيلبي في شعبان ١٣٤٩مستهل عام (١٩٣١م) جارية وبيتاً في مكة المكرمة، وكان اسم الجارية مريم بنت عبد الله الحسن كما كتب إلى دورا: «ليست جميلة، ولكنها صغيرة وحسنة الهيئة بشكل كبير»، واستسلمت دورا لذلك منذ البداية، ضجرة من الرسائل التي تتحدث بالتفصيل عن نسب الفتاة وحسبها. كانت مريم تعتني ببيت «فيلبي» في مكة المكرمة لعدة

سنوات، حتى بعد أن توقفت عن العيش هناك، استمر «فيلبي» في رؤيتها والإعجاب بها.

كان ينطلق بين جلسات الديوان، إلى زيارة الأصدقاء الذين ـ في رأيه ـ كانوا دوماً مرحبين بتحوله إلى الإسلام، يشربون عدداً لا يحصى من فناجين القهوة الصغيرة، ويتناقشون في السياسة والتجارة وقضية فلسطين والبستنة: «لا يعرفون شيئاً عن تشذيب الشجر وتقليمه»، وربّى «فيلبي» لحيته ليتكيف مع العادات المتبعة. وكان يجمع الفراشات من الطائف وما حولها، وعاش حياة كانت النزهة في بستان خارج المدينة تعد حدثاً.

انتقل الديوان إلى الرياض في رجب ١٣٤٩ (نهاية عام ١٩٣٠م) في قافلة من ٨٥ سيارة و٨٠٠ جمل، وحين رأى المدينة التي لم يرها منذ سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) وجدها لم تتغير كثيراً، وأمل أن تكون الآن كما كانت آنذاك نقطة انطلاقه في رحلته التي انتظرها طويلاً، إلى الجنوب، لكنَّ حلمه لم يتحقق، وكان عليه أن يرضى برحلات الصيد التي يقوم بها الملك، جالساً في وضع غير مريح في المقعد الأوسط الخلفي لسيارة فورد تطارد غزالاً بغض النظر عن سطح الأرض غير الممهد. وانتهز الفرصة لرسم خرائط لأماكن جديدة، كاتباً إلى «دورا»: «لديّ كميات كبيرة من الورق مرسومة بالخرائط».

كتب «فيلبي» إلى الشركة الشرقية خلال الأشهر الأولى السعيدة للخبرات الجديدة: «وصولي إلى مكة غيّر كلياً من مركزنا»، وتبدو جدة أكثر كآبة كلما أعود إليها من حياتي المفعمة بالحرية الكاملة». وأعتقد أن السيدة عثمان وكازي قادران تماماً على إدارة المكتب هناك، بينما يقوم بالإشراف من خلال القيام بزيارات للمكتب بين حين وآخر فقط.

كانت أولى خطوات نجاحه في هذا الاتجاه تسهيل تنفيذ عقود شركة ماركوني بإحدى عشرة محطة لاسلكية وأربع محطات نقالة سهلت مهمة اتصال الملك بالقبائل. وفي أثناء انشغاله بهذه الصفقة عانى «فيلبي» تجربته الوحيدة المرعبة مع عطش الصحراء. تعطلت سيارته ليلاً بين ركبة ومكة المكرمة، ظاناً أنه يعرف موقعه،



وتطوع بالسير بحثاً عن مساعدة، لكنه ضل الطريق، ووجد بعض النباتات ليمضغها، وبعد ٣٦ ساعة ـ كان تقريباً قد يئس من نجاته ـ صادف طريقاً مطروقاً وعربة مارّة. جمع أيضاً خلال جلساته في الديوان طلبات شراء أكثر من ذي قبل، عربات، ومضخات مياه لري البساتين، وخياماً، وبدأ حظ الشركة الشرقية يتحسن حتى قبل تحوله إلى الدين الإسلامي، فبعد أن كانت أرباحها ٣٠٠ جنيه فقط سنة ١٣٤٧ (١٩٢٩م)، ارتفعت أكثر من ألف جنيه سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠م)، لكن هذه المعاملات التجارية بديون مقيدة بالدفاتر.

لم تكن مشكلته في تأمين الطلبات ولكن في القدرة على تحصيل أثمانها؛ لأن الدائنين في أوروبا ومصر كانوا يستعجلون الشركة الشرقية في السداد ولا توجد أموال لتغطية التأخير. ومادام يواظب على الحضور في الديوان، فسيواجه مشكلة ستلازمه طوال حياته التجارية في الجزيرة العربية وهي كيف يوفق بين حياته الحميمة في القصر، وحياته في موقع يحتاج فيه إلى استيفاء الدين الملكي ودين الدولة لشركته. جعلته هذه المشكلة بعد فترة، يتفحص عن قرب أكثر الترتيبات الإدارية التي تدار بها الدولة، ولم تسره النتيجة، فالملك رجل رائع في حل المشكلات الإنسانية، ويكون أفضل ما يكون حين يُدعى لإلقاء خطاب مرتجل في الحجاج المجتمعين من كل أركان العالم، ويقوم بتوزيع الهدايا، ومع ذلك فهو على استعداد لأن يأمر بالسعر الذي تحول فيه عملته المعدنية الجديدة إلى ريال، وجلس المتزلفون صامتين بينما يحدد سعراً لا رجعة فيه.

أمسك «فيلبي» لسانه حتى غادر الملك، فأخبر المتزلفين رأيه فيهم، وعرف الملك بما قاله، وفي اليوم التالي مازحه بقسوة. وقد علق «فيلبي» بعد ذلك: «إنه ببساطة لا يفهم في أبسط الأمور النقدية»، وكذلك انزعج «فيلبي» حين وصل مهندسو ماركوني بناء على رغبة الشركة الشرقية لإقامة المحطات اللاسلكية، ولعدة شهور لم يتلق الأوامر ببدء التنفيذ، وكانت أجورهم الشهرية تضاف إلى الديون المتأخرة، كان بإمكانه أن يعيد المهندسين، لكنه خشي أن تُفسد الأيدي غير الخبيرة العمل: «لم أشعر بمثل هذا الإحباط نحو مستقبل الجزيرة مثلما شعرت في هذه الأشهر التي أعقبت الحج».

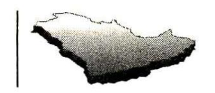
بدأ بحلول الصيف يشكو عدم فعاليته إلى المفوضية البريطانية، وقد كتب «هوب جيل» في صفر ١٣٥٠ (يوليو ١٩٣١م): «كلما زاد النقد الذي يشعر به «فيلبي» نحو عبدالعزيز آل سعود أصبح أكثر صراحة معنا»[١].

لسوء الحظ، بحلول سنة ١٣٤٩ (١٩٣١م) - السنة الأولى التي أخذ فيها مكانه المميز، تصادف حلول الأزمة الاقتصادية العالمية، وما تبعها من تناقص عدد الحجاج القادمين من الخارج، فقد هبط العدد عن معدله منذ تولي الملك عبدالعزيز آل سعود الحكم، من ١٠٠ ألف حاج إلى ٤٠ ألف حاج سنة ١٣٤٩ (١٩٣١م)، وإلى ٣٠ ألف سنة ١٣٥٠ (١٩٣٢م)، ثم إلى ٢٠ ألف حاج في ذروة الانهيار سنة ١٣٥١ (١٩٣٣م). وكان الحج والرسوم على الواردات الخاصة به هو المصدر الرئيس لإيرادات الدولة، وفي سنة ١٣٥٠ (نهاية عام ١٩٣١م) اضطرت الدولة إلى إعلان تأجيل دفع ديونها المستحقة، حتى إنها دفعت مرتبات موظفيها بحوالات على إيصالات الجمارك التي بيعت لتجار جدة بتخفيض كبير للحصول على نقود سائلة. وبسبب الحاجة إلى النقود قام وزير المالية عبد الله بن سليمان بالانقضاض على مخزون النفط بشركتي «جيلاتلي هانكي» والشركة الشرقية ومصادرة بضائعها بتعويض قدره ١٢ ألف جنيه و٤ آلاف جنيه على التوالي.

حاول «فيلبي» أن يجعل الملك يطرد عبد الله، لكنه لم ينجح، وفي النهاية قبل التعويض، ومع توقّف همته وفتورها توقف مدة سنتين كان يرسل فيهما المقالات إلى الصحافة البريطانية. كان للشركة الشرقية ديون على الحكومة وزبائن آخرين تقدر بـ ٢٥ ألف جنيه، فوقعت نتيجة المصادرة في ضائقة مالية محبطة. وتحمل «فيلبي» تخفيض مرتبه بنسبة ٢٠٪ واستفسر منه المديرون في لندن إذا كان يقبل مبلغ ٥٪ مقابل سندات الأذون التي يحملها المقرضون الأجانب الذين تجرى معهم مفاوضات لبيع الشركة: «علينا فقط أن نفعل أفضل ما نستطيع، نحن نبيع من أجل السيولة النقدية».

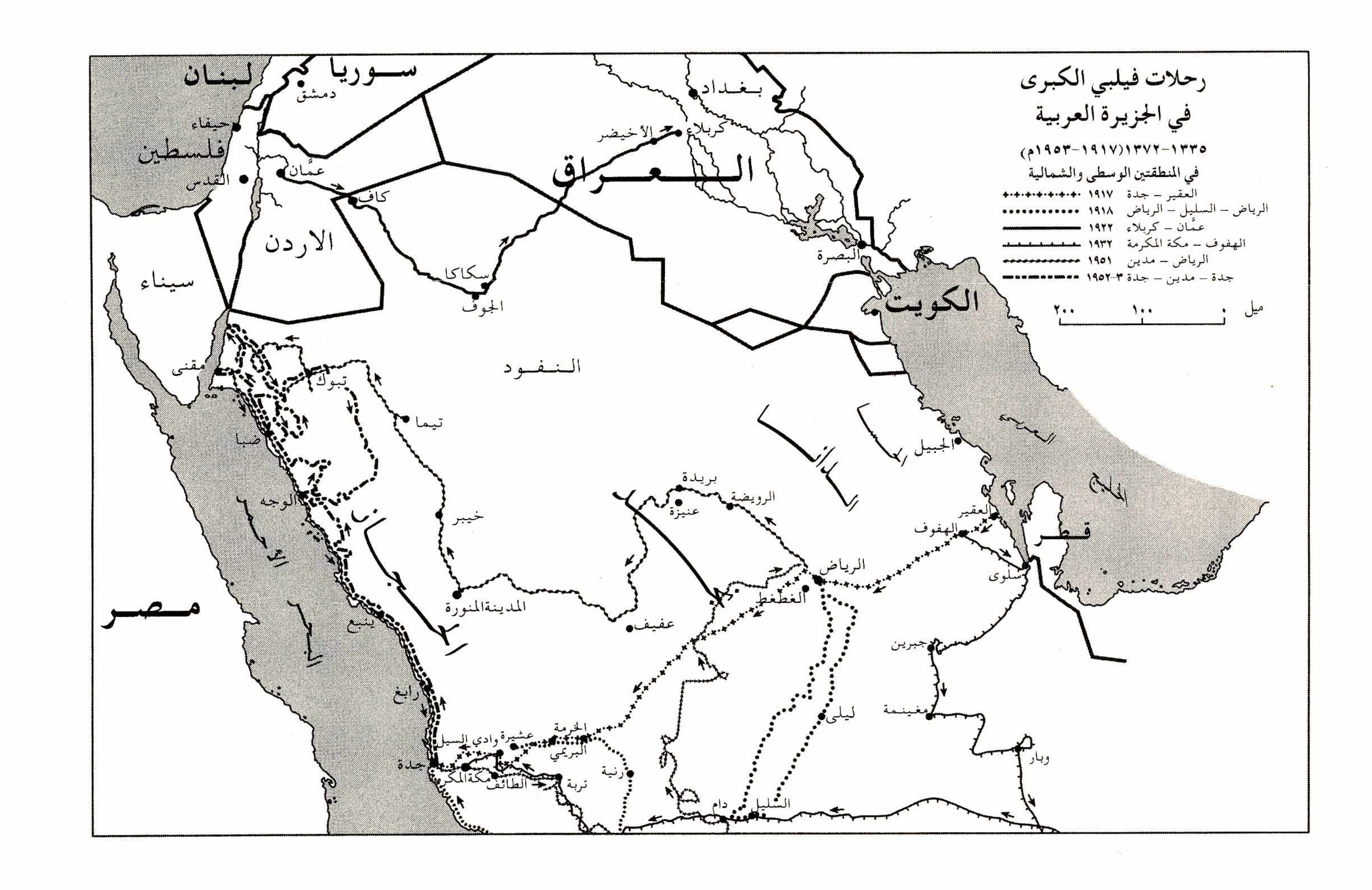
---

(١) بي. آر. أو. إف. أو/٣٧١/١٥٢٩٩. أي/٤٢٦٦/٢٠٦٤/٢٤/ بتاريخ ١٣٥٠/٣/١٤ (٧/٣٠/١٩٣١م).

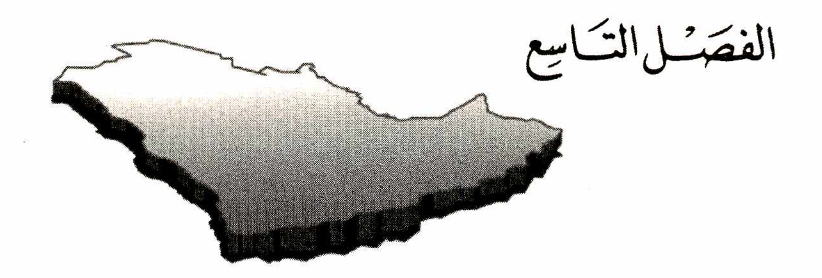


أكثر من عانى هذه المأساة هي «دورا»، وكتب إليها: «يجب أن تقترضي من هورن (المحامي الخاص لهما) حتى تسير الأمور، فلا يوجد نقود هنا». لم تعرف إلى أين تتوجه لتطلب النقود لمطالب البيت العادية، فضلاً عن فواتير المدارس والإهانات التي تعرضت لها من ناظرات المدارس حول النفقات المدرسية المتأخرة .

كان «فيلبي» يعيش على القليل في سنوات الكساد، ومع ذلك كان قلقاً، لأن ثقته قد اهتزت منذ فضيحة النفط، ولم ينجح مثل غيره في الحصول على نقود، ومع ذلك ظل، كما كتب «أندرو رايان» إلى لندن: «متقد الحماس إن لم يكن معجباً بالحزن». وكان يرى أن انهيار فرص التجارة له فائدة أبعد من أن تكون تافهة، فلا شيء يقف أمامه لغلق مكتب جدة وتحقيق طموح السنين ـ عبور الربع الخالي ـ لو استطاع أن يقنع الملك بالسماح له بذلك.


رحلات فيلبي الكبرى
في الجزيرة العربية
١٣٣٥-١٣٧٢(١٩١٧-١٩٥٣م)
في المنطقتين الوسطى والشمالية
العقير – جدة ١٩١٧
الرياض – السليل – الرياض ١٩١٨
عمّان – كربلاء ١٩٢٢
الهفوف – مكة المكرمة ١٩٣٢
الرياض – مدين ١٩٥١
جدة – مدين – جدة ١٩٥٢-٣
ميل ١٠٠ ٢٠٠
لبنان
سوريا
دمشق
حيفاء
فلسطين
القدس
عمّان
الاردن
سيناء
مصر
بغداد
كربلاء
الأخيضر
العراق
البصرة
الكويت
كاف
سكاكا
الجوف
النفود
مقنى
تبوك
تيما
ضبا
الوجه
خيبر
المدينة المنورة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
عشيرة وادي السيل
الخرمة
البريمي
تربة
رنية
عفيف
بريدة
عنيزة
الرويضة
الرياض
الغطغط
ليلى
السليل
دام
الجبيل
العقير
الهفوف
سلوى
قطر
الخليج
جبرين
مغينمة
وبار

الفصل التاسع



١- الربع الخالي ١٣٥١ (١٩٣٢م)

على الرغم من آمال «فيلبي»، فإن اعتناقه الإسلام وحضوره في الديوان، لم يجعلاه يفوز في الحال بالإذن الذي طال انتظاره لعبور الربع الخالي. وكل أسبوع يمر من دون الحصول على هذا الإذن، يزيد من قلقه؛ لأن الشائعات ترددت بأن «برترام توماس» يخطط للقيام بالمحاولة، وهو وزير لدى سلطان مسقط، وكان يجوب المنطقة الجنوبية في الجزيرة في إقليم ظفار منذ أشهر، وسبب آخر للقلق أن «روزيتا فوربس» حذرته من أن يعيّن المستشكف المصري أحمد حسنين[١] على الربع الخالي. لقد أسقط من حسابه أن تكون روزيتا رفيقته، أو في الواقع مساهمة جادة في علم استكشاف الصحراء. على كل حال، إذا دعمه الملك فلن تكون هنالك مشكلة بالنسبة إلى النقود، أو فهو في مركز يمكنه من القيام بالرحلة على مسؤوليته. لكن خلال سنة ١٣٤٩-١٣٥٠ (شتاء ١٩٣٠-١٩٣١م)، أعاقته اضطرابات القبائل في منطقة جديدة، لقد فتح الملك عبدالعزيز آل سعود إقليم عسير.

---

(١) أحمد محمد بن أحمد حسنين البولاقي رحالة وعالم مصري، ولد بالقاهرة سنة ١٣٠٧ (١٨٨٩م)، وتعلم بأكسفورد وتقلد عدة مناصب. ومات سنة ١٣٦٥(١٩٤٦م)، انظر الأعلام للزركلي، ج١، ص ٢٥٢.

جعل من حاكم عسير مجرد حاكم صوري، وفي سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠م)، وتبع ذلك صدامات مع اليمن، من بينها معركة من أجل الواحة الداخلية «نجران» - مفتاح الطريق إلى الجزيرة لتجارة البن اليمني - في جولة أخرى لاحقة استولى اليمنيون على نجران، لكن سرعان ما استردها الإخوان ثانية ونهائياً في سنة ١٣٥٠ (أوائل ١٩٣٢م)، لذا كانت سنة ١٣٤٩ (١٩٣١م) غير مناسبة لطلب الإذن للقيام برحلة إلى الجنوب، وفي ١١ يناير وجه الملك ضربة ساحقة لفيلبي حين قال له: «بلطف ورقة شديدتين زف لي الأخبار بأن رحلة الربع الخالي قد ألغيت». وكتب في يومياته: «لم يكن هناك شيء لأفعله سوى تجرع حثالة خيبة الأمل بقلب كسير. سأرى المدينة المنورة بدل الرحلة، لكن بالنسبة إلي لا شيء يعادل الربع الخالي، ولن أجد راحة البال حتى أنجز ذلك». وضايق إلحاحه الملك، وفي إحدى المناسبات صرخ فيه «اسكت» وغادر الغرفة. وبعد ذلك أهدى إليه على سبيل الاسترضاء الجارية مريم التي سبق ذكرها، لكن لا شيء كان يمكن أن يشفي خيبة أمله. كان في جدة يفكر فيها وفي إخفاقه في استيفاء الديون الكثيرة الخاصة بالشركة الشرقية عندما تلقى ضربة الضربات، هناك من سبقه، ففي سنة ١٣٣٩ (١٩٣١م)، قام برترام توماس بعبور الربع الخالي، ودون إذن من الملك عبدالعزيز آل سعود، من صلالة في ظفار على الساحل الجنوبي، إلى الدوحة على الخليج العربي.

كانت الضربة قاسية حتى إن «فيلبي» حبس نفسه في المنزل مدة أسبوع، وكتب إلى دورا: «فليلعن الله توماس وليدمره.. لقد أقسمت قسماً عظيماً ألا أعود إلى الوطن إلا إذا عبرت الربع الخالي مرتين بحيث لا أترك شيئاً لرحالين آخرين».

خرج من عزلته ليزور المستكشف الهولندي «ڤان در ميولين»، القنصل الهولندي في جدة آنذاك، ليقدم له التهاني على رحلته المثيرة إلى وادي حضرموت في جنوب الجزيرة العربية، كان الرجل مسروراً بالتقدير الذي ناله وغير مستعد للحديث الذي تلا ذلك.

بدأ «فيلبي» بقوله: إن إنجليزياً كان تابعاً له يخطف منه مجداً وعده به عبدالعزيز آل سعود منذ وقت طويل، لكن ما قيمة رحلة تتم في خط مستقيم وبسرعة وكأنها سباق مع الموت؟ وإنه سيكتشف الربع الخالي ويخبر العالم عن كنه ذلك الجزء من

الجزيرة العربية: «أنا ذاهب الآن ولن تراني لمدة سنة، وربما سنتين، أو لن تراني أبداً، إذا عدت فسأكون قد استكتشفت الربع الخالي».

لاحظ «فيلبي» أن الملك لم يشر بشيء إلى رحلة توماس التي تمت دون إذن منه، لقد تمت في صمت، وقضى سنة ١٣٤٩ (صيف وخريف ١٩٣١م) في توتر وقلق بسبب انهيار التجارة وفي تفكيره بالربع الخالي الذي وصفه لدورا بقوله: «هذا الاستحواذ البغيض الذي صرفني عن أفضل سنوات حياتي». ومر، خلال اكتئابه، بإحدى فترات خيبة أمله مع عبدالعزيز آل سعود الذي جعل البطالة تحدق به، في سنة ١٣٥٠ (نهاية عام ١٩٣١م)، ولا شيء يفعله سوى استيفاء ديون مزعجة، كتب إلى الوطن يقول: «كانت الأشهر الستة الأخيرة كابوساً بالنسبة إلي، وبالنسبة إلى أي معجب أصيل بالعرب، لكن مازال هناك وقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه»

عاد «فيلبي» إلى الرياض في سنة ١٣٥٠ (١٩٣١م)، حيث انتظر رضاء الملك، وخفف من عصبيته بالتدرب على ظروف الحياة في الصحراء، وقضى فترات طويلة دون ماء. وفي منتصف ديسمبر، ودون إنذار، بدأ الأمر مجرد نزوة، تلفظ الملك بالكلمات التي انتظرها طويلاً، يمكنه أن يبدأ رحلته. كان في «الهفوف» كما حدث في رحلته إلى وادي الدواسر سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، وكان على «ابن جلوي» أن يزوده بالجمال والمرشدين والمؤن، وقضى أسبوعين هناك على أحر من الجمر لكي يبدأ. كتب إلى دورا في الأول من يناير: «بعد هذه الرحلة لا أريد شيئاً آخر من العرب»، فجأة قيل له إن كل شيء قد أصبح جاهزاً. لقد زوده «ابن جلوي» بما يكفي حتى وصولهم إلى آبار «مقينمة» التي تقع في الجنوب الأقصى لـ «الصُمان» أو السهوب التي تبدأ من جنوب الهفوف حتى أعماق الصحراء الكبرى، وقال، أما ما وراء ذلك فلا أعرفه، ومع ذلك، فإن المرافقين الذين اختارهم سيأخذون صديق الملك إلى أي مكان يشاء، وسيفدون حياته بحياتهم، ويعودون بعد أن يصل إلى أبعد مكان يختاره، ومن هناك سيشقون طريقهم غرباً عبر الربع الخالي إلى «السليل»، وهي النقطة التي يخترق فيها وادي الدواسر السلسلة الجبلية الطويلة لجبال طويق.

توقف قليلاً ليكتب برقية إلى دورا: «لقد بدأت الرحلة، حبي للجميع»، وليزور محطة الإذاعة الجديدة لكي يفحص الساعتين (الكرونوميتر) الحيويتين لرسم الخرائط.

وغادر «فيلبي» الهفوف في ضباب كثيف في شعبان ١٣٥٠ (السابع من يناير ١٩٣٢م). وعلى بعد عشرة أميال جنوب المدينة، انضم إليه مرافقوه الأربعة عشر، و٣٢ جملاً، ومؤن تكفي ثلاثة أشهر، وهي التي تشكل قافلته. وفي اليوم الثالث للرحلة، تعكرت حيويته بنوبة إغماء ذكرته بالنوبة المرعبة التي أصابته منذ ١٨ شهراً في جدة. لحسن الحظ استمرت هذه النوبة ليلة واحدة. خلال أيام، والجميع ينتظرون بداية شهر رمضان كتب: «أعي روعة صحتي الجسدية الجيدة، وقناعتي الروحية، وأنا أسير عبر الصحراء في مناخ يكاد يكون ممتازاً».

نادراً ما تكون التجارب كبيرة بمعايير «فيلبي» إلا إذا كانت من نوعية فائقة، فالخط الذي اختار أن يتبعه، والذي يقع إلى الغرب قليلاً من الطريق الذي اتبعه برترام توماس، كان متعرجاً لدرجة مكنته من تحديد الآبار التي فشل توماس في تحديدها، وإقناع نفسه أنه يعبر سلسلة من ألسنة كبيرة في جرف ناتئ كانت تشكل صخوراً من بحر عتيق. وأكدت نظريته كميات من الأصداف البحرية الصغيرة. وقام بجمع هذه الأحافير، والحشرات، وعينات الصخور، وأعاد فحص الملاحظات لعمل خريطة جديدة، وهذا ما جعله راضياً حتى وصلت القافلة إلى واحة «يبرين» بعد ذلك، لم يعد هناك أي اتصال مع العالم، وحين دخلوا الربع الخالي بالفعل، ارتفعت روحه المعنوية بسرعة، بينما انخفضت عند رفاقه. فالماء الذي يشربونه، من الآن فصاعداً، يأتي من آبار في الجنوب، بعضها غير معروف، وبعضها سمعوا عنها بغموض، بمعنى أنها من الأرجح أن تكون ملوثة بروث الجمال أو تحتوي على أملاح المغنيزيوم أو كليهما.

كان الهدف الأول لفيلبي أن يحل لغز القصة التي سمعها سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) من دليله آنذاك «جابر بن فرج» حول مجموعة من الخرائب في الرمال، من المفترض أنها بقايا حصون، وضع فيها الملك الأسطوري «عاد بن كنعان» خيوله، وجعل نساءه وطواشيته يعيشون في جنة من اللهو، في مكان ما من المنطقة ذاتها توجد كتلة من الحديد «بحجم الجمل» وكانت مدينة الملك عاد الأسطورية، قد ورد ذكرها في بعض المصادر العربية من العصر الوسيط تحت اسم «سوبر»، وقيل: إنها دمرت بريح صرصر عاتية عقاباً لخطايا ارتكبها الملك، وهو مصير جاء ذكره في القرآن الكريم. فهل يمكن تحديدها في الموقع المحروق الذي سمع عنه «فيلبي» سنة ١٣٣٦



(١٩١٨م)، وقد زعم البدو أنهم التقطوا لآلئ نساء الملك المسوّدة؟ وأكد المرافقون لـه القصتين، وكذلك فعل رجال «برترام توماس»، وكان أحد أعضاء الفريق المرافق لفيلبي يحفظ قصيدة عن الملك القديم.

اتجه «فيلبي» شرقاً، مغادراً آبار «مقينمة»، بحثاً عن الخرائب، كانت الاتجاهات التي حددها «جابر» سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) دقيقة بشكل رائع لدرجة أن «فيلبي» حدد مكان الموقع بالضبط تقريباً حيث أشار «جابر». ولكن بمجرد أن وقعت عيناه عليه، حتى تحطمت الأسطورة: «لم أنظر إلى خرائب مدينة قديمة، بل إلى فوهة بركان، كانت فجوتاه نصف ممتلئتين بالرمال المنسابة في طبقات تحيطها نفايات المعادن التي انطلقت من أحشاء الأرض». والتقط رجاله كرات صغيرة مستديرة، ووجدوا قطعة حديد ثقيلة في حجم الأرنب وليس الجمل، لكنهم أحبطوا عندما عبّر عن رأيه. وبالمصادفة، كانت نسخة المجلة «جورنال» التي تصدرها الجمعية الملكية الجغرافية، التي يحملها معه؛ لأنها تحتوي على الخريطة التي رسمها «برترام توماس»، تشتمل على مقال عن الفجوات التي يفترض أن الشهب قد سببتها في غرب إفريقية، ولأن معرفته ضئيلة بندرة مثل هذه الفجوات، فقد دون في يومياته ملاحظة تقول: إن الفجوات في «وبير» ربما تكون منخفضات سببتها الشهب المتساقطة.

تأكد هذا التخمين حين أهدى «عبدالعزيز آل سعود» الشظية التي بحجم الأرنب إلى إدارة المعادن في المتحف البريطاني في فترة لاحقة، وتبين أن «وبير» هي نتيجة زخة من كتل كبيرة من الحديد الشهابي، التي كونت فجوات عند سقوطها، وتسببت الطاقة الحركية في توليد حرارة شديدة أدت إلى انفجارات عنيفة، رمت شظاياها حول المكان، واللآلئ حبات من السيلكا غُلفت بالسواد في أثناء العملية، معظم هذه الكتل الحديدية مازالت في مكانها منذ سقطت، وتزين اليوم قطعة جميلة منها ذات وزن هائل الساحة الأمامية في جامعة الرياض[١].

لم يتغير تكوين الجماعة المرافقة إلا قليلاً، ففي واحة «يبرين» اصطحب الرجال كلبة سلوقية، ظنوا أنها قد تكون مفيدة في صيد الأرانب البرية، واضطروا في «وبير» إلى

---

(١) جامعة الملك سعود الآن.

التخلي عن ناقة عرجاء (وقد علموا بعد ذلك أنها شقت طريقها وحدها وبمعجزة إلى «الهفوف»).

ساروا باتجاه الجنوب نحو مئة ميل إلى بئر «نايفة» في أرض شديدة الملوحة. يقع البئر وسط كثبان عالية على شكل حدوة الحصان، وهنا قابلوا ظاهرة طبيعية أخرى سببت الرعب لرفاقه، بدأ مدرج الرمال فجأة يدوي ويئز بصوت لا يشبه الصفارة أو أزيز الطائرة، بل بصوت ذي إيقاع موسيقي هادئ، وعميق يبعث على الدهشة».

كان «فيلبي» قد سمع صوت الرمال المغنية مرة واحدة، قرب المدينة المنورة، وعن بعد، لكنها الآن قريبة وفي متناول اليد، وقد عزاها رفاقه، بالطبع، إلى الجن. وأدرك «فيلبي» على الفور أن سبب الصوت هو انسياب الرمال الذي تسبب فيه أحد الرجال الذي تسلق المنحدر. وأكد هذا الاستنتاج بالعزف على الرمال كالأوركسترا، وهو يفعل ذلك، هبط التل وركع قرب الرمال التي تصدر الأصوات، ولاحظ أن صوتاً عميقاً جاذباً، يصدر كلما سحب يده أو ركبته من رمال المنحدر، وشعر «بإحساس غريب لا يخطئه المرء ينبض أسفل السطح كما الزلزال المتوسط».

واصلوا سيرهم، في اتجاه الجنوب دوماً، وبعد «نايفة» بدأ التوتر ينتشر بين رفاقه، بعضهم كان مستاءً لأنهم صيادون منذ الصغر وقد أملوا في الظباء، لكنهم لم يجدوا إلا آثارها، وآخرون اغتاظوا من الطرق غير المباشرة التي يسير فيها لرسم الخرائط. كان عازماً على السير جنوباً حتى غدير «شنة» على الأقل، الذي وصل إليه توماس من الشرق، وهو يعرف خط العرض الذي يقع عليه، وسجل في ١٦ فبراير: «أتحمل لعدة أيام الآن الخلاف الدائم الذي لا محالة منه، والذي يسببه الصراع بين رغبتي الشديدة الثابتة على الهدف الحتمي الذي أسعى إليه، وبين ثقل الهم الملقى على كاهلي من مجموعة الرفاق المتحدين ضدي». لقد مضى عليهم ٤٧ يوماً في رحلتهم، وكانت الأصوات ١٤ ضد واحد، وفي «شنة» غيّر هذا الاحتمال الكفة.

علم بعد سنوات، أن مرافقيه خططوا لقتله هناك، ولكن بعد مناقشات قرروا ألا يخاطروا بغضب الملك، لكنهم لن يسيروا قدماً إلا إذا ساروا على آثار «توماس» شرقاً في «ظفار»، وكان قد عزم على العكس، أن يعبر الصحراء الخالية من المياه غرباً،



واعترضوا على ذلك، فهم يعرفون رجالاً كانوا يصطادون غرباً من «شنة» وشرقاً من وادي الدواسر، وكانوا دوماً في نطاق آبارهم التي يعرفونها، لكن ليس لديهم فكرة عن اتساع المسافة بين موقعي الصيد هذين. وأخيراً، وافقوا أن يسيروا حسب خطته، على أن يدفع لهم مكافآتهم كاملة، على عكس عادته في الدفع بعد انتهاء الرحلة. وهكذا أعطاهم النقود ليوزعوها عليهم. وبدؤوا رحلتهم غرباً في شوال ١٣٥٠ (٢٢ فبراير ١٩٣٢م)، راكبين الجمال تتبعهم الركائب تحمل الأمتعة. لقد حسب الاتجاهات في «شنة» التي بينت أن المسافة المباشرة إلى «السليل» تقدر بـ ٣٦٠ ميلاً أو مدة خمسة عشر يوماً للجمال المحملة. لكن موافقة رفاقه كانت عن غير طيب خاطر، وبدأت المتاعب ثانية على الفور تقريباً. أراد أن يسير بسرعة وبأقصر طريق، وأرادوا التوقف لصيد الظباء التي حددوا كثيراً من آثارها الحديثة، كما أرادوا السير ليلاً، وهو يريد السير في النهار ليرى معالم الأرض حتى لو عنى ذلك تحمل مشقة الحرارة، وشكوا من عدم مراعاته لشعورهم، وشكا من وجلهم. وفي نهاية اليوم الخامس وبعد خروجهم من «شنة» أصبح عجزهم عن فهم دوافعه تاماً، وأطبق عليهم سوء الفهم. وقد كتب بعد ذلك: «أن يكون المرء أي شيء، إلا أن يكون ناقداً لحارسه ورفاقه الذين هم على استعداد للتضحية بالهدف كله الذي بذلنا هذا الجهد في سبيله، من أجل راحتهم التعسة. لا يظهر العربي في مثل هذه الظروف أي أفضلية، يتشبث بقوة بالحياة مهما كانت شقية، وحين تصبح في خطر يفقد عقله وقلبه.. لن أستسلم ولا أستطيع».

لقد سرنا ١٤٠ ميلاً منذ (شنة)، ثلث الرحلة وراءنا، وبجهد راسخ يمكننا أن ننجز ما نريد لو تصرفوا كرجال فقط، لقد أضعفهم الجوع وأوهى عزائمهم، فليس لدينا ما نأكله سوى التمر، أشعر بالجوع وأتعاطف مع ظروفهم، وأتذكر «موسى» عليه السلام في البرية حين صاحت فيه الجموع بصخب. لكن الرمال في جنوب الجزيرة العربية أكثر قسوة من رمال سيناء، ولا توجد صخرة لنضربها. وبدأت الجمال المحمّلة تنهار، واقترح «فيلبي» خطة بأن يسير راكبو الجمال في المقدمة وتلحقهم الركائب المحملة بالأمتعة على راحتها، لكن المجموعة رفضت، يجب أن يسير الجميع معاً، حتى التهديد بأن «عبدالعزيز آل سعود» سيغضب لم يؤثر في ممثلهم. وأخيراً، وبعد نقاش طويل وافق على أن يعودوا أدراجهم ليس إلى «شنة» بل أبعد شمالاً إلى «نايفة» والرمال التي تصفر: «أجبرنا الربع الخالي على مغادرته.. وأخيراً أخفى النوم

كابوس النهار، وأسوأ ما في الرحلة كلها وربما أشنع تجارب حياتي»، حتى حين عيل صبره بسبب الجوع والعطش أو السخط، كان لا يمل من أخذ الملاحظات واستخدام أدواته لتحديد أماكن وجودهم، ومذكراته الخاصة المحفوظة في الجمعية الملكية الجغرافية في لندن، تسجل كل تغير في طبيعة الأرض، أو تحول في الاتجاه، وملاحظة كل نبات، أو أي ثعبان أو حشرة، وكل أثر لطير أو حيوان، وساعده البدو الذين معه، بمقدرتهم الفطرية على تفسير الإشارات، فهم يستطيعون معرفة آخر مرة أمطرت فيها السماء، وروت هذا النبات أو ذاك، ومن آثار الجمال، متى مرت آخر مرة من هناك، وكم انقضى منذ شربت وأين، وهل كان راكبها يصطاد أو مع فرقة من المغيرين، وكانت الأنباء عند الآبار بعد ذلك تؤكد ما قالوه.

كانت هناك وقفات للتأمل في أثناء عودتهم إلى «نايفة»، وكان «فيلبي» مثبط الهمة، ورجاله في توق شديد إلى الماء والقهوة، ولا يريدون سوى التقدم نحو هدفهم، والحادثة الوحيدة التي أسعدتهم، ولادة إحدى النياق حواراً على يد رجال جائعين قاموا بدور القابلة، وخشي «فيلبي» أن يولد ميتاً وآنذاك لا يحل أكله. ولحسن الحظ عاش، وذُبح وقطّع وأكل بعد شواء سريع على النار: «أعتقد أني في الظروف العادية لا يمكنني المشاركة في وجبة كهذه، لكن ظروفنا الراهنة أبعد ما تكون عن العادية، وكان بإمكاني أن آكل أي شيء مطبوخاً أو نيئاً»، واستنفدوا هنا آخر ما معهم من ماء، وبحلول الليل، وقد قطعوا نحو ثلاثين ميلاً، كان الرجال والجمال منهكين لدرجة أن «فيلبي» أراد التوقف وقطع المسافة القصيرة المتبقية في النهار، لكن توق رجاله للقهوة جعله يواصل السير، وكان يخشى أن يضلوا الطريق، لكن أكدوا له أنهم يعرفونه، وكانوا على حق، فقد وصلوا قمة آخر هضبة تطل على البئر، وقد فوجئ رئيس المرشدين نفسه: «فلديه إحساس بالصحراء لا يشاركه فيه إلا أفضل الرجال، وشكر «فيلبي» ربه أنه مازال حياً، لقد مر على الجمال تسعة أيام منذ شربت جيداً آخر مرة في «شنة» ولم تكن لتستطيع السير يوماً آخر دون ماء، لقد شرب ثلاث طاسات من ماء «نايفة» المالح الكريه وكأنه رحيق. وقد كتب أنها: «أول مياه أتذوقها منذ ٥٥ يوماً، إذا كان الأمر كذلك، فتدريبه يستحق التقدير». هلل الجميع عندما وصلوا «نايفة»، كانت السحب تتلبد في السماء وقد تمطر.

استراحوا أربعة أيام، خلالها فكر «فيلبي» في أن تتجه الجمال التي تحمل الأمتعة



شمالاً، وأن يختار مجموعة من الرجال وبعض الجمال وينطلقوا غرباً إلى «السليل»، ولكي ينال رضا الجميع، أقنعهم بذبح جمل وتجفيف لحمه، فلم يبق لديهم تمر الآن، ولا يمكن للجماعة أن تعتمد على الأرز، لعدم وجود ماء فائض لطهوه. أمطرت في اليوم الثالث، ويبدو أن الرطوبة أوقفت صفير الرمال، وحانت اللحظة المناسبة لتقسيم المجموعة، ولدهشته، عدة رجال ممن وصفهم بالوجل أرادوا الذهاب معه. وفي النهاية أرسل سبعة رجال إلى «الهفوف» مع الأمتعة وكل خرائطه ودفاتر ملاحظته: «حتى لا تضيع على الأقل في حالة عدم النجاح في عبور الصحراء». وأخيراً، في الخامس من مارس انطلقوا في الصحراء، أقوياء بالراحة والماء واللحم والسفر دون أمتعة على ظهور أفضل الجمال. عليهم قطع ٣٥٠ ميلاً دون ماء. وفي رحلة طويلة كهذه وسط الكثبان والرمال، هناك فرصة للعثور على نباتات.

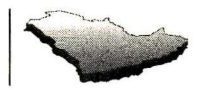
كانت بقايا النباتات ملحية لا تصلح للرعي، لكنها تستخدم وقوداً لتحضير القهوة، أو الشاي لفيلبي، وفي الأيام الأربعة الأولى كانت النباتات المتفرقة قليلة، وفي مساء اليوم الرابع كان العطش قد بلغ مداه عند «فيلبي»، فطلب الشاي وبالمثل الحليب من الناقة التي خصص «ابن جلوي» لبنها له وحده. نتيجة هذا الطلب اتضح المدى الذي وصلت إليه المنافسة بينهم، فبدل أن يحضر له الرجال الحليب، قسموه بينه وبينهم، في تحدٍّ عام له أن يشرب طاسة كاملة، فاستن قاعدة اتبعها بعد ذلك بألا يشرب الحليب أبداً تعبيراً عن غضبه ورفضه لهذا الأسلوب، فشعروا بالخجل، فقال: «لن أشرب الحليب حتى نصل إلى «السليل». شعورهم بالدهشة كان كبيراً وحاولوا إثناءه عن رأيه، وقالوا: إنهم لن يشربوا نصيبه، فقال: إذا لم تشربوه أعطوه للكلبة، وهكذا استفادت الكلبة من خصام الرجال العطاش.

جاءت المحنة الأسوأ منذ ذلك قرب نهاية الرحلة، عندما عبروا آخر هضبة منخفضة وآخر النباتات الجافة، نظروا إلى السهل المنبسط المملوء بالحصباء الذي يسمى «أبو بحر»، والذي يشكل ظاهرة طبيعية تبعث على الكآبة ويمتد جنوباً مسافة ١٥٠ ميلاً من منحدر «الصمان» في «مقينمة»، أحد المرشدين كان قد قطع مرة هذه القفار الرهيبة، ولكن عن طريق الشمال البعيد حيث السهوب الضيقة. لا أحد يعرف الآن كم يبلغ اتساعه، وبدؤوا في عبور هذه السهوب مع ثقتهم بأنهم لن يجدوا الماء ولا الوقود ولا القهوة حتى يصلوا إلى الجانب الرملي الآخر.

بدأ الركب حركته عند منتصف الليل في ٥ مارس، وواصل سيره مع وقفات قصيرة للصلاة حتى الحادية عشرة صباحاً، وتوقفوا للشرب وتناول بعض التمر، ولكي يواصلوا سيرهم فإن الجمال تحتاج إلى أن يصب بعض الماء في فتحات أنوفها فيما يُعرف بالاستنشاق، ثم واصلوا سيرهم في حرارة النهار، وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حين ترجلوا من أجل الشرب من قربهم، كان «فيلبي» ظمآن ومتعباً لدرجة أن ارتشف أول قطرات ماء منذ كان في «نايفة» على بعد ٢٥٠ ميلاً وراءهم، وواصلوا السير دون راحة. وانتاب «فيلبي» نعاس لا يقاوم، ولأنه لم يتعود ركوب الجِمال منذ الصغر كمرافقيه، فهو لا يستطيع أن يغفو على ظهر الجمل، البدو دائماً يرددون وهم على ظهور الجمال نوعاً من الأهازيج الصغيرة تبدو للآذان الغربية رتيبة، والآن بدأت أصواتهم تخفت حتى تلاشت. وحين حان وقت التوقف لصلاة العصر، كان عليه أن يشرب ثانية ـ حاجته إلى النوم كانت طاغية ـ لكن المرشدين الذين يسعون للعثور على وقود من أجل صنع القهوة، ركبوا ثانية وواصلوا السير: «السير الآن في الشمس الغاربة كمن يدخل محنة لا يتخيلها المرء، ومع ذلك فلا توجد إشارة من الرفاق تدل على بحثهم المعتاد عن بقعة نخيم فيها... توقفنا من أجل صلاة المغرب وكنت منهكاً تماماً، وتنهدت بارتياح لأننا أنهينا أخيراً عمل اليوم، لكني كنت مخطئاً، فما إن انتهينا من الصلاة وشربنا دورة ثانية من الماء، حتى أعطى زايد ـ قائد المرشدين ـ أوامره بالركوب ومواصلة السير، كنت متعباً جداً لدرجة أني لم أعترض أو أناقش وتبعتهم متذرعاً بالحلم».

واصل زايد السير، دافعاً الرجال بين حين وآخر إلى الهرولة؛ لأنه رأى آثار «جمال ترعى، وهي علامة مؤكدة على أنهم ليسوا بعيدين عن النباتات وبعض الوقود، لكنهم لم يستطيعوا رؤية أي شيء في الظلام الدامس، وفي الساعة ٩,١٥ مساءً بعد ١٨ ساعة من ٢١ ساعة على الرحل، وقطع سبعين ميلاً دون راحة، أصر «فيلبي» على التوقف ومن دون قهوة، ووافق «زايد» على مضض.

لقد قضوا حتى الآن ستة أيام في الطريق، سافروا في ثلاثة منها عبر فرن ملتهب؛ لم يكن لديهم طعام مدة ٤٨ ساعة، ولم يتبق لديهم سوى ثلاث قرب من الماء. لكن الأسوأ قد انتهى، حين استأنفوا السير ثانية في غسق الفجر بدأت التموجات في الحصباء، وظهرت أول سلسلة من الكثبان، وأوقفت النباتات الصالحة للأكل الإبل كي



ترعى «كان جوعها مريعاً». وظهرت السحالي والجراد، والرجال الذين كانوا يصطادون من «السليل» تركوا علامات وراءهم تعرفت إليها القافلة.

رأوا عن بعد ومن إحدى الهضاب العالية سلسلة جبال «طويق»، فيها الفجوة التي تقع فيها «السليل» وساروا ليلة أخيرة ملبدة بالسحب باستخدام بوصلة «فيلبي» بدلاً من المشتري، وليوم آخر من العواصف المطرية المتقطعة، أتاحت له الاستمتاع بشقشقة الطيور في الأجمات، وأرسلوا رسولين للإعلان عن حضورهم، مروا أولاً بروث أغنام ثم عبر مجموعة من أشجار الطرفاء، ثم مروا بنساء يردن الماء، ووصلوا أخيراً واحة السليل وهرج الطعام والخبز واللحم.

كان التاريخ ١٤ مارس، وقد قطعوا ٣٧٥ ميلاً في تسعة أيام، وقد كانت السليل آنذاك معزولة عن العالم، وهي الآن محطة للخطوط الجوية الداخلية، ولم تر أي أجنبي منذ زيارة «فيلبي» لها قبل أربع عشرة سنة، ثم جاء في أعقاب فيضان ضخم لاقى الترحيب، ومرة ثانية، أحضر معه سحباً ممطرة وطقساً ملائماً لينتهي عقداً من سنوات القحط التي عانى فيها السكان كثيراً.

كان هناك فقر مدقع، ليس فقط بسبب القحط، بل أيضاً لأن الرحلة الفصلية الطويلة لصيد اللؤلؤ في الخليج العربي لم تعد مجدية، فلم يعد هناك طلب على اللؤلؤ الحقيقي في العالم، ومع ذلك كانوا كرماء، قدموا لهم وجبات وافرة حتى أصيبوا بالتخمة، واستراح الجميع مدة يومين، وواصلوا السير؛ لأنهم إذا أرادوا الوصول إلى مكة في موعد الحج فعليهم السير على الفور.

كان موعد الحج في ١٥ أبريل ولديهم ٤٠٠ ميل ليقطعوها، أكثر من نصفها في أراضٍ ليس لها خرائط وغير معروفة لأي أوروبي، وعلى ظهور جمال متعبة. ومع ذلك فإن قلقهم قد انتهى، ورحلة «فيلبي» الاستكشافية لم تنته.

لحسن الحظ كان هناك من يعرف الطريق، فانتقى مجموعة من المرشدين المحليين وتزوَّد بالمؤن، وكانت مراعي الجمال كثيرة في هذا الربيع الممطر.

استأنف «فيلبي» كل ممارساته المعتادة، فراح يتسلق المرتفعات على جانبي الطريق

ليأخذ فكرة عن معالم الأرض، ويقيس الزوايا لرسم خرائطه، ويأخذ ملاحظات عن حركة الشمس والنجوم، ويدعو المرشدين إلى تسمية كل ملمح يرونه، ويدلف إلى التعرجات بشبكته التي يصيد بها الفراشات وزجاجته القاتلة، والتقط عينات من الصخور للمتحف البريطاني، وبينما يتسلقون جبال عسير، وجد الوقت ليتفقدها ويعجب بألوانها، هنا الأحمر الغامق للحجر الحديدي، وهناك الوردي والقرمزي للحجر الرملي، أو الأسود الغامق للبازلت.

تعرّف «فيلبي»، وهم في طريقهم أول مرة، إلى ثلاثة أودية كبيرة تنساب من عسير؛ وادي تثليث الذي يصعد من الجنوب، ووادي بيشة ووادي رنية اللذين يأتيان مباشرة من الغرب، ومن وادي بيشة اتجهوا شمالاً، وهنا لاحظ «فيلبي» انتعاش تجارة السلع وخاصة البن اليمني، والصمغ العربي من غابات عسير، والعبيد من الجنوب، كما لاحظ الأمن النسبي الذي ترعى فيه قطعان القرويين.

لم يسمع صيحات الإنذار التي سبق أن سجلها «داوتي» في الأيام السيئة القديمة لنزاعات القبائل، ومن بيشة وفي اتجاه الشمال كانوا على طريق معبد في الاتجاهين، مر منه الغزاة في فترات ما قبل الإسلام، وبدأت تنضم إليهم قوافل أخرى متجهة إلى مكة، وقضى «فيلبي» عيد ميلاده السابع والأربعين ـ ١٣ أبريل ـ محاطاً بعاصفة من الرمال، وضحك حين قال له رجاله، عندما عرفوا عمره: إنهم كانوا يظنونه في الستين.

سافروا شمالاً بسرعة حتى إنهم في النهاية وجدوا لديهم فائضاً من الوقت، واستطاع «فيلبي» أن ينعطف ليجد نقشاً ورسماً على الصخر كان «داوتي» قد رآه ونسخه سنة ١٢٩٦ (١٨٧٩م)[١]. بعد ذلك انحدر إلى «السيل» وهي نقطة تجمع الحجاج القادمين من نجد، ومن هناك، عُرض عليه توصيله إلى مكة بعربة نقل فقبلها.

كان التاريخ ٥ أبريل، منذ شهر تقريباً عاد وسط الجنس البشري، ولقد رأي في «بيشة» نسخة من صحيفة أم القرى، لكنه كان معزولاً عن العالم، وآخر اتصال بينه

(١) معلومات مستقاة من «فان در ميولين»، غرسيل، هولندا، ١٣٩١(١٩٧١م).

وبين دورا كان البرقية التي أرسلها من «الهفوف»، تبعها وبطريقة أكثر بطئاً رسائل يخبرها بأن تقترض من محاميها «هورن» لتواصل حياتها، لقد مر بها ربيع قلق ومحبط بتحايلها على العيش مع نفاد النقود، ولقد كتبت في حيرتها: «الله أعلم بالمكان الذي توجد فيه والهدف الذي تسعى إليه... وأنا لا أجد بالفعل أحداً ألجأ إليه».

في الوقت الذي وصل فيه «فيلبي «بيشة» نهاية مارس وصلت إلى الصحافة أخبار مضمونها أن هناك من شاهده، ومنذ ذلك الحين أزعجتها الاستفسارات التي لا تستطيع الإجابة عنها، حتى ٦ أبريل عندما وردت برقية من مكة المكرمة أهاجت البيت فرحاً، وظل الهاتف يرن طوال اليوم، وقد كتبت إلى مكة المكرمة: «الراحة التي شعرنا بها حين سمعنا أخبارك أذهلتنا تماماً، وزاد على ذلك أني طلبت زجاجة «شيري» وشربنا كلنا حتى «هيلينا» في صحتك، غمر الفرح «كيم»، ولقد ساعدتني ثقته بنجاحك خلال الأسبوعين الأخيرين. كنت على حافة الانهيار قبل وصوله من كامبردج، لكني الآن أستطيع تحدي أي شيء».

أول خطاب لفيلبي الذي أرسله في الوقت الذي أرسلت له خطابها، وضح فيه أنه متعب تماماً، فلقد كتب في ١٤ أبريل: «أعتقد أني قمت باستكشاف الصحراء بما فيه الكفاية، إنه عمل صعب، مع القليل من التمر ولحم الجمال المجفف النيئ. لقد احترقت بشرة يديّ، حتى العظم». والأسوأ من ذلك: «إني معسر جداً»، ومدين للشركة الشرقية بـ ٥٠٠ جنيه ولا «يوجد فلس في الخزانة». وطلب من دورا أن تتفاوض مع ناشره «كونستابل» على كتاب يدفع لها مقدم أتعابه، ومع جريدة التايمز حول مقالات يكتبها لها؛ ولأن الصورة لم تكن قاتمة تماماً، فهو يشعر براحة البال في النهاية، «منتشياً ببدايات البطولة».

عاد إلى الوطن بعد انتهاء الحج، واستقبل كالأبطال، وقضى الصيف في الكتابة والاستمتاع بالنجاح.

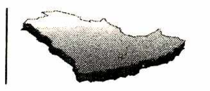
فكرة «فيلبي» أنه تعامل مع صحراء غير مستكشفة سرعان ما ماتت ميتة طبيعية. تحدث فترة أنه «سيتقاعد راضياً»، لكن بمجرد عودته إلى الجزيرة العربية وحياة

الديوان وصداقات التجارة، بدأ يقوم برحلات قصيرة. وبحلول سنة ١٣٥٣ (١٩٣٥م)، كان يستأنف نشاطه الاستكشافي بنشاط، مخترقاً الصحراء والطرق الجبلية، باستخدام العربات عموماً، وسيارات فورد على وجه الخصوص.

أوجد الاعتماد على السيارات بدلاً من الجمال للمسافرين مشكلات جديدة، فإذا كان الجمل يمكنه أن يلتقط غذاءه من الأرض، فالسيارة تحتاج إلى وقود، وقطع غيار، وإلى شخص يفهم محركها، وهذا الأمر الأخير، لا يمكن لفيلبي التعامل معه، وقد اعتادت بناته أن يسخرن منه؛ لأنه يستعين بهن إذا حاول أن يشعل «وابور كاز».

كان أحياناً يغامر بقيادة سيارة وحده في طريق مطروق، أما في صحراء غير مطروقة فقد كان يسافر في قافلة، وذلك يتطلب أن يكون السائق مزوداً بجهاز إرسال وينطلق من مكان يكون متأكداً أنه سيسمعه بشكل جيد.

في أوائل سنة ١٣٥٣ (١٩٣٥م)، استغل سيارته المحسنة والمزودة بالخرائط في رحلة باتجاه الشرق من المدينة المنورة إلى مدن القصيم، عنيزة وبريدة. وفي أواخر العام سجل رقماً قياسياً آخر، ومع خبرته إلا أنه لم يبتعد عن الطرق المألوفة. وقام بإجازة هو ودورا، سافرا بالسيارة، وقاما بالقيادة دون أن يرافقهما «ميكانيكي»، ولم تصادفهما أي صعوبة عدا نوبة حمى أصابته وهو عند هارولد ديكسون في الكويت. وغدت «دورا» أول أوروبية تعبر الجزيرة العربية من البحر إلى البحر. وقد اتخذا طريقين مختلفين في العودة إلى الوطن، وسافرا إلى الرياض، وأهدى «عبدالعزيز آل سعود» ملابس عربية إلى «دورا»، ثم سافرا إلى الكويت فالبصرة فبغداد فدمشق ثم إلى أوروبا عن طريق تركيا، ثم عادا في أواخر الخريف عن طريق جبل طارق، والشمال الإفريقي، مروراً بليبيا على الرغم من الحرب الأثيوبية، وقد سببا كثيراً من الإثارة في القاهرة حين وصفا لكل امرئ من المندوب السامي فما دونه، كيف عاملهما الإيطاليون بلطف طوال الطريق. واستمر سباق الماراثون الذي يقومان به، عبْر سيناء، وعبرا ممر متلا الذي لم يسمع به معظم الناس حتى أسقطت إسرائيل كتيبة مظلات هناك لتهديد قناة السويس سنة ١٣٧٥ (١٩٥٦م)، ثم واصلا طريقهما إلى القدس، فعمان ثم إلى الجزيرة العربية عن طريق وادي السرحان.



بينما عاد «فيلبي» في الجوف وحائل، إلى ارتداء الزي العربي وأداء الصلاة والاستمتاع بحياته، إذ كانت «دورا» ساخطة متبرمة وهي جالسة مع الحريم تراقبها النساء اللواتي لا تستطيع الحديث معهن والعبيد، وحمدت الله حين عادت إلى جدة.

كتب «فيلبي» في سيرته الذاتية: «ربما يمضي وقت طويل قبل أن ينجز أحد مثل هذه الرحلة المزدوجة التي منحتنا إجازة مبهجة، وإن كانت مجهدة أحياناً، بتكلفة متواضعة تقدر بمئة جنيه شهرياً، واستغرقت خمسة أشهر ونصف الشهر.

٢ ـ استكشاف الجنوب ١٣٥٥ ـ ١٣٥٦ (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧م)

استعاد «فيلبي» ميله إلى الاستكشاف، في طريق عودته مع دورا عبر الرياض، وعلم بسعادة أن الملك يريد منه خدمة ستعيده ثانية إلى المجهول.

في سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤م)، حقق «عبدالعزيز آل سعود» نصراً سريعاً على إمام اليمن في الجنوب، ولابد من تعزيز الحدود المتنازع عليها. وأوضح أن علامات الحدود قد وضعت، لكنه يحتاج إلى رسمها في خرائط. وابتهج «فيلبي» بقبول العمل، فلم يسبق لـه أن رأى إقليم عسير أو وادي نجران، ولابد من عبورهما لإتمام العمل، وسيساعده على ذلك أن السفر على نفقة الملك وبمباركته.

قبل أن يبدأ، فكر في خطة تسببت في أن يدفع تكاليف انتقاله، ويستخدم عربته الخاصة. فقد قرأ في مجلة «جورنال» مجلة الجمعية الملكية الجغرافية رواية «فرايا ستارك» عن رحلتها إلى حضرموت سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥م)، وحاولت أن تتبع طريق البخور غرباً، ولكنها بسبب المرض لم تنجح في الوصول إلى «شبوة» أول نقطة عبور خارج الوادي.

كانت «شبوة» بالنسبة إلى فيلبي «أرض مملكة سبأ الرومانسية»، ولقد أشار «بيرسي كوكس» وهو يتحدث في محاضرة عن «فرايا ستارك» أن امتداد طريق البخور من حضرموت حتى نجران: «هو الجزء الوحيد من الجزيرة العربية تقريباً الذي لم يستكشف قط»، وكان ذلك كافياً لفيلبي، فإذا كانت الظواهر ملائمة في نجران فإنه سيندفع إلى «شبوة» مستكملاً الحلقة المفقودة».

لم يخبر أحداً بذلك، وانطلق في صفر ١٣٥٥ (مايو ١٩٣٦م)، في أطول رحلاته في الجزيرة العربية، سواء في المسافة التي قطعها أو في آلاف الأقدام التي تسلقها، ولكي يرسم خريطة للأرض الجديدة من البداية إلى النهاية، اصطحب معه سائقاً، وسار إلى «عسير» في الطريق ذاته الذي عاد منه من الربع الخالي.

بدأ عبور الأراضي الكئيبة المغطاة باللابة جنوبي «تربة»، وصعد إلى «بيشة» من خلال أودية لم تطأها عربة من قبل، وكان السير فيها عسيراً، لكن النتيجة كانت ثروة من العينات الجيولوجية الجديدة، وطيوراً في أجمات أعاقت سير العربة، مملوءة بطيور الدقنوش والقبرات والزقزاق وأبي فصادة وآكل الذباب والهداهد والغربان، ووجد نوعاً جديداً من البوم (Outs Scops Pamelae) وعزم على إرساله بسرعة إلى المتحف البريطاني، وجدد معرفته بطيور نقار الخشب، ورأى طائر أبي تمرة أول مرة (معظم طيوره، مثل معظم كتبه، أُهديت إلى نساء أعجب بهن).

كانت «بيشة» آخر نقطة أمامية في نجد، بعد ذلك يبدأ إقليم عسير، وهو عالم آخر إذا قورن ببقية الجزيرة العربية فهو عالم ميمون بدلاً من عالم الصحراء .

في «خميس مشيط» هناك حقول الحبوب، ولا يوجد نخيل، والنساء تسير دون حجاب، وأبراج مربعة بقمم بيضاء طليعة العمارة اليمنية. وبسبب مناعة الإقليم الصحراوية، فمعظمه لم يدخله الوهابيون، لذا فقد انغمس الناس في اللهو والطيش داخل بيوتهم، والناس مرحون. وسعد «فيلبي» أن يرى الأطفال يلعبون لعبة تشبه الكريكيت دون احتساب للنقاط التي تحرز مستخدمين هدفاً من صخور الأردواز وكرة حجرية. وعبر عاصمة الإقليم «أبها» التي كانت سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) مجموعة من القرى فقط، وأصبحت الآن إحدى نقاط الارتكاز الأساسية لعبدالعزيز آل سعود، ويديرها أمير من نجد، وفيها حامية سعودية، وفيها طبيب واحد هندي بين نجران والبحر الأحمر.

سكانها الأصليون رجال جبليون، جاهزون للتسلق مع «فيلبي» أو إرشاده إلى الحقول التي تُروى بالمطر، أو غابات شجر العرعر التي ينمو تحتها الزعتر والنعناع واللاوند. اصطحبه الطبيب لرؤية بعض الرسومات والنقوش على الصخر، وأخبره أن

هناك الكثير منها على الصخور الوردية الأكثر ليناً في شمال نجران، وعدَّ «فيلبي» إقامته في هذا المجتمع المبهج: «أول تذوق حقيقي لطابع حياة قدماء جزيرة العرب السعيدة».

كان الشهر يونيو، والزمن لا أهمية له، ورأى أن لا داعي لاتباع الطريق العادي إلى نجران، فاختار دليلاً يعرف المنطقة كلها لأنه ساعد على شق طريق، وبدأ رحلته منعطفاً نحو الشمال، لقد أراد أن يرسم خريطة لمتاهة الرمال وسلسلة الجبال المرتفعة في نهاية وادي «تثليث»، ولكي يجد تلك الصخور التي تحمل النقوش، واتخذ طريقه إلى نجران خلال انحناءة كبيرة تمر عبر عدة نتوءات من الحجر الرملي التي وصفها الطبيب الهندي. وتأكد أن هناك كميات من النقوش و«معارض رسم حقيقية للإنسان القديم». واتضح له أنها ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام، لكنه لم يستطع قراءة الكتابة، لم يدرك أنه عثر على اكتشاف ذي أهمية كبيرة للمؤرخين المهتمين بالجزيرة العربية. ودفعه حماسه أن ينسخ كل ما يستطيعه بقلمه الرصاص القصير، ولكن لقلة خبرته ارتكب عدة أخطاء فخلط بين الشقوق التي في الصخر والحروف، ثم إنه نسخ من الشمال إلى اليمين النقوش التي كتبت أصلاً من اليمين إلى الشمال، وهذا ما جعله يخطئ في تتابع المعاني، وحين عرض نسخه على الخبيرين ـ م. ف. ل بيستون من جامعة أكسفورد، وبعد ذلك على «مونسينور كونزاك ركيمان» من لوڤان ـ رأيا على الفور أنه قد وجد نقشاً في جنوب الجزيرة العربية، أُعتقد حتى ذلك الوقت أنه لا يوجد مثله إلا في الشمال، لكن نسخه غير المتقنة كانت كالألغاز.

إن العثور على صخور عليها نقوش أو حتى على أحد جانبيها في مثل هذه القفار المملوءة بالنتوءات الصخرية، أمر يخضع للحظ بدرجة كبيرة.

كانت حقيبة «فيلبي» في بحثه الأول كبيرة؛ لأن الدليل الذي اختاره في «أبها» كان متحمساً، ويعرف الأرض جيداً لقيامه بالاشتراك في العمليات الاستطلاعية لشق الطرق، وأما بقية الفريق المرافق له فلم يرضه بالدرجة ذاتها، وتسبب في ثورات غضبه التي اشتهر بها حتى هذا اليوم. والقصور الذي يعتري الفريق مهما كان تافهاً، جعله يضرب رجلاً، ويطرد آخر، ويسبب آلاماً نفسية لثالث جعله يتركه ويعود

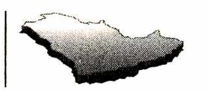
إلى موطنه سيراً على الأقدام. كثير من رحّالي الصحراء يفقدون أعصابهم من مرافقيهم، وتجعل لديه الرغبة في صفعهم، لكن القليلين تبنوا طرق «فيلبي» الانتقامية بالامتناع عن الطعام أياماً لإظهار غضبهم وهذا ما يسبب شعوراً بالامتعاض. لكن المرشدين يغضبون أيضاً، ومازال الرجال يتحدثون كيف امتنعوا عن إعطاء معلومات عن مواقع يبحث عنها «فيلبي»، وبذلك يشعرون بالتعويض عن الإهانات التي تحملوها منه. وهم يذكرون أيضاً الكرم المفاجئ الذي كافأ به أحد المرشدين الذي وجد ما يفيده في رسم خرائطه بالشكل الأمثل.

بدا وادي نجران كالجنة بعد القفار القاحلة في الطريق جنوباً من النهاية العليا لوادي «تثليث»، خضرة وسكاناً وازدهاراً، وكانت عودته متوقعة، وسار في طريق معبد يسير عليه الشرطة والجند.

كان أمير نجران إبراهيم النشمي لحسن الحظ، رجلاً متعلماً وتاجراً سابقاً من القصيم، وأظهر تميزاً في الحرب مع عبدالعزيز آل سعود، وكان مهتماً بكل شيء في الوادي: زراعاته ودفاعاته، والمدهش أنه مهتم بآثاره القديمة أيضاً، فاصطحب «فيلبي» في جولات إلى مواقعه السكنية، وشجعه على زيارة بقايا آثار من القرن السادس، وذهب معه لتفحص بقايا آثار مدينة الأخدود، وفي أثناء جولاتهما طرح «فيلبي» متردداً مشروع «شبوة»، فالموقع الحربي في نجران على اتصال يومي باللاسلكي مع الملك، وخشي أن يمنع الملك المشروع. ربما لم يقل الأمير شيئاً، فهو على كل حال، عزز هدف «فيلبي»، وأعاره جمالاً لحمل الأمتعة، ووعد برفقة صغيرة من الجنود السعوديين، والعقبة الوحيدة التي منعته من البدء على الفور نفاد البنزين من نجران.

وفي أثناء انعطافة «فيلبي» إلى وادي تثليث فإن عرباته الثلاث: عربته، وعربة بيك آب، ولوري، كانت تقطع فيما بينها سبعة أميال ونصف بالجالون الواحد في طريقها عبر البلاد. واعتزم أن يأخذ عربته والبيك آب إلى شبوة حيث الطريق قد يكون أصعب، وكان عليه أن ينتظر شهراً حتى تصل عربات البنزين من مكة.

كان الفريق الذي ودعه الأمير من نجران في نهاية يوليو، يتكون من سائق «فيلبي»



والخدم، وعدد من راكبي الجمال من نجران، وثمانية جنود من نجد، وكان «فيلبي» قلقاً؛ لأنه لا يملك دليلاً من الجنوب الأقصى، لكن الأمير قال لـه: لقد رتب أن تقابله مجموعة من الرجال عند كل بئر، وقد وجد جميع المرشدين الذين وُعد بهم، وأيضاً كان الطريق واضحاً، ولم يكن كما توقع، يسير عبر الركن الجنوبي من الربع الخالي، بل اتخذ اتجاهه شرقاً وسار بمحاذاة سفوح جبال اليمن. كان طريقاً قطعته أجيال وأجيال، وبجانب كل بئر هناك رمز محفور في الصخر، علامة مثل الدلو عليها نقط تحدد عمق المياه.

حين أداروا ظهورهم للجبال واتجهوا شرقاً في مسار طويل عبر الصحراء، ظهرت تلال من الحجارة تحدد طريق الحج في فترة ما، وبهذا الدليل، وصلوا إلى التلال والآبار التي بدت وافرة المياه في «العبر» حيث كانت الآلاف من الأغنام تُسقى، وقدم لهم الرعاة وجبة لحوم رائعة. وبينما كان رجاله ينامون بعد هذه الوليمة، تسلق «فيلبي» التلة التي تطل على البئر، ورأى مشهداً من هناك أنعش طموحه، تتابع من الصخور والامتدادات الأرضية تمتد جنوباً وشرقاً من المكان الذي يقف فيه، ورأى أنها تكون الضفة الشمالية لوادي حضرموت، لكن «شبوة» كانت هدفه الأول، والمشهد جنوباً يبدو أكثر رهبة. ويقع في أسفله الحزام الرملي الكبير المسمى «رملة السبئيين»، ومشهده ليس منفراً فقط، ولكن أرضاً لا صاحب لها، يعدها اليمنيون يمنية، والبريطانيون في عدن يرونها امتداداً للمحمية التي يحاولون إحلال السلام فيها، كما أن وصوله مع بعض الجنود السعوديين أعطى الانطباع بأن «الملك عبدالعزيز آل سعود» يدعي أنها له.

حكايات الرحلات التي انتهت بسلام تُقرأ بيسر حتى يصعب تقدير أخطارها، وحتى «فيلبي» انتابته الهواجس عند الدخول في المجهول: «إن الجهد البدني للسفر في الصحراء لا يذكر، إذا ما قورن بالإجهاد العصبي وخصوصاً عند الحدود الصحراوية حيث لا يمكن اعتبار ولاء القبائل أمراً مسلماً به. في الواقع، لم نقابل إلا بعدم الود ضريبة ملحوظة لخوف الصحراء من ملك الصحراء، لكن نجاح كل يوم ندفعه من قلق الليلة السابقة». وفي أثناء عبور «رملة السبئيين» ، قضت الفرقة في قفارها الرملية ليلة من أقسى الليالي التي يتذكرها؛ الرياح تعوي، ودوامات الرمال ترقص حولهم، والرمل المتطاير جعل تناول الطعام مستحيلاً، وعند الصباح كانت العربات

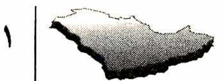
نصف مطمورة في الرمال. أخرجوها بقوة، ووصلت سيارته التي تتقدم القافلة إلى «شبوة» عند الظهر، وبدا المكان كئيباً ولا يستحق المشقة.

وقف صف من القرويين الصامتين الذين يحملون البنادق وسط جدران متهاوية، وآثار منهارة من معابد ومحاجر، لم يكن هناك سوى سبعة رجال في عربة «فيلبي»: «اعترف أني شعرت باضطراب عصبي واضح». ظل صف الرجال واقفاً بلا حركة، حتى تقدم «فيلبي» الأعزل لتحيتهم، فتقدم قائدهم، ودون أن يتفوه بكلمة دفع «فيلبي» إلى الوراء تجاه رفاقه. وبصمت استدار الرجال ومروا من أمامهم، وحيوهم بالسلام يداً بيد، وبقبل في الهواء، تعبيراً عن رضاهم. وأخبروه أن سكان «شبوة» يعيشون في حالة نزاع مع كل جيرانهم، ولم يزرهم أحد ولم يطلب أحد ولاءهم. وبعيونهم على الجنود السعوديين، بدؤوا يسألون أسئلة متوقعة: كيف وضع السلام في الشمال الأقصى؟ وهل يظن «فيلبي» أن «الملك عبدالعزيز آل سعود» سيأتي ويبسط حمايته عليهم؟ (بعد جولة من الاحتلال اليمني، قالوا الشيء نفسه حول الحماية البريطانية إلى ضابط بريطاني هو ر. م. ب. هاملتون حين جاء مع قوة من القبائل لطرد اليمنيين سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨م))[١]. وأكد «فيلبي» أن الملك رجل عظيم ولم يعد بشيء، قائلاً: إنه رحالة خاص، وقد أثار حيرتهم بالطريقة التي يقضي بها وقته. تفحص خرائبهم مدة ثلاثة أيام، واشترى قطعاً من حجارتهم، وزار ممتلكاتهم الوحيدة: بعض مناجم الأملاح الكيميائية، وقد ذكر المؤرخون العرب أنها كانت مستعملة في العصور الوسطى، ثم ترك رجاله من راكبي الجمال؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتقدموا أكثر من ذلك، وجنديين سعوديين لحراسة ما يخصه، وانطلق منعطفاً على طول الجانب الجنوبي لرملة السبئيين عازماً على رؤية وادي حضرموت المجاورة. كانت رحلاته القصيرة هناك نوعاً من الإجازة، وأما الذين سبقوه، ومن بينهم فان در ميولين، ورفيقه فون ويسمان، وبعد ذلك فرايا ستارك، كانوا قد صوروا ورسموا خرائط للوادي، ووصفوه في كتب للقارئ العادي، فكل ما كان يحتاج إليه أن يشاهد.

في سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) وعلى الرغم من زعم بريطانيا أن هذه محمية لها، لم يكن

---

(١) اللورد «بيلهافين»، (هاميلتون) «the uneven Roud»، لندن ١٣٧٤(١٩٥٥م)، ص٢٠٧.



المسؤول الذي وصل بعد مغامرة «فيلبي» هذه قد رتب الأمور، كان مجتمع الوادي خليطاً عجيباً من القدماء والمحدثين، بعض الأجزاء غطتها دماء النزاعات، وترددت أصوات إطلاق النار من بيت إلى آخر، وفي مكان آخر انتعشت المدن، بيوتها ناطحات سحاب مصغرة، أروعها بناه تجار محليون جمعوا ثروات في «جاوة»، وأولاد عمومتهم يعيشون في أزقة جانبية لكن لا يرتدون «الحَقْو» كما كانت الغالبية في الماضي. وما إن لبى «فيلبي» بعض الدعوات الرسمية، حتى بدأ يتنقل من عائلة إلى عائلة ويستمتع بالرفاهية مثل المكتبات، والأسرة بالمراتب، والماء المثلج ومنتجات جاوة اللذيذة، كان يُرحَّب به في كل مكان لطلاوة حديثه. واعتقد أن الميزة الرئيسة التي قدمها هي الدليل على أن الحج آمن عن طريق السفر بالسيارات. وعندما كان يسأل، كان ينكر دوماً أنه مبعوث «عبدالعزيز آل سعود»، لكن مديحه لما يجري في السعودية، ومرافقة ستة جنود سعوديين له يؤكدان ذلك.

تبين قصة زيارته التي رواها مضيفوه بعد ذلك إلى المسؤولين البريطانيين أنهم عدّوه جاسوساً، ولقد أثار حيرتهم بتصرفات كثيرة وتساءلوا: «من هو هذا المسيحي الذي يصلي كما يصلي المسلمون؟». لقد استمتع بصحبتهم تماماً لولا اكتشافان مخيبان للآمال: أولهما أن هناك من سبقه في الوصول إلى «شبوة»، فقد أراه أحد المضيفين كتاباً لمصور ألماني ـ هانز هيلفرتز ـ الذي وصله قبله بسنة[(١)]، وعزّى نفسه بفكرة أن هلفرتز قد لوحق وطرد بعد نصف يوم، والاكتشاف الثاني أنه كان له منافس، فقد قابل في «شبام» مستكشفاً زميلاً يسمى «نورمان بيرن» اتجه إلى «شبوة» وخرائب أخرى على طريق البخور القديم، مدججاً بكل أنواع التصاريح والتسهيلات من عدن، ولأسابيع ظل «فيلبي» قلقاً خوفاً من أن يكون «بيرن» قد سبقه إلى الصحافة البريطانية.

لم يصل «بيرن» في الواقع، قط إلى «شبوة»، فهو لا يتكلم العربية، وقد تخلى عنه المرشدون في وسط الصحراء، وقد أشرف على الموت عطشاً، بينما كان في طريقه عائداً إلى وادي حضرموت[(٢)]. وقد أراد «فيلبي» أن يعود عن طريق أقصى مدينة

---

(١) «هانز هيلفرتز»، «Geheimnis un Schobwa»، برلين ١٣٥٤(١٩٣٥م).

(٢) «نورمان بيرن» و «في. بارلو»، «Quest for Sheba»، لندن، ١٣٥٦(١٩٣٧م)، ص١٦٧-١٧٥.

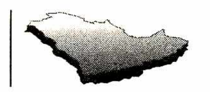
مهمة في شرق المنطقة «تريم»، ثم يعود إلى شبوة قبل نهاية أغسطس، ثم يتجه مباشرة إلى نجران ليقوم برسم خرائط الحدود للملك. وتعهد لرجاله أن يعود إلى مكة في موعد الحج، لذا عليه أن ينهي كل شيء، قبل شهر فبراير. ولسوء الحظ فإن خططه الفورية لم تنجح، فعندما استدارت العربتان واتجهتا غرباً، فإن سيارة البيك آب، المثقلة بالرجال وبالسلع من حضرموت، سقط صندوقها الخلفي ثم كسر محور العجلات. وعاد «فيلبي» ليجوب الوادي بحثاً عن بديل، لكنه لم ينجح. فماذا يفعل؟ فسيارة واحدة لن تستطيع العودة بالطريق الصحراوي؛ إما أن يذهب إلى نجران ممتطياً جملاً، وإما أن يذهب إلى أقرب مكتب تلغراف وهو في «المكلا» على الساحل، ويبرق إلى عدن طالباً محوراً جديداً. وفكر بسرعة، وخطرت بذهنه فكرة تعوضه، فإذا سار بسيارته إلى الساحل، فسيكون أول أوروبي يعبر الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب في سيارة.

العقبة الرئيسة في هذا الحل هي تركه البدو السعوديين على مسؤوليتهم في مدينة غريبة، مما سيجعلهم قلقين، وعلى الأرجح مصدراً للإزعاج.

طرد هذا القلق من ذهنه، واصطحب سائقه وأحد الخدم، وأدار عربته باتجاه البحر. من مدينة «تريم»، وماوراءها، مجموعة من المباني المتشابهة مشيدة على الجانب المنحدر للوادي، وقد قامت العائلات المحلية التي بنتها برشوة القبائل للسماح للطريق بالمرور.

كان الطريق غير كامل لسوء حظ «فيلبي»، فترتب عليه أن يسير عشرة أميال عبر ممر ضيق صخري تحيط به الأشجار الاستوائية، وأن يختار عربة مستأجرة لاجتياز الأميال القليلة الباقية.

وصل «المكلا» في الأيام الأخيرة من أغسطس مزهواً بنفسه، وأبرق إلى عدن لجلب قطع الغيار، فضايقه الردّ، وأبرق إليه المقيم المؤقت الكولونيل م. سي. ليك بأن قطع الغيار سترسل في أول مركب متاح، ولكنه ماذا يفعل في أرض بريطانية دون إذن، ومع فريق تابع لحكومة أجنبية؟ بعد أسبوع، أبرق «ليك» بحسم أكبر، ومن الواضح أنه استشار رؤساءه في الهند وأخبر لندن: «طلبت مني حكومة صاحب الجلالة أن



أطلب منك الانسحاب ومجموعتك العسكرية السعودية من محمية عدن»[(١)]، وقد عرفت «المكلا» كلها بمحتويات هذه البرقية التي أرسلت بشكل علني في أسرع وقت.

تزايد غضب «فيلبي»، فالترحيب به منذ البداية كان فاتراً بسبب غياب السلطان وخشية أتباعه تحمل المسؤولية تجاه شخص غريب أولاً، وثانياً لأن أصحاب المراكب رأوا في دعايته للحج بالسيارات تهديداً لمصالحهم، وما إن علمت المدينة بأن البريطانيين مستاؤون حتى رفض التجار أن يقبلوا حوالاته المالية، وبما أنه رهن الاعتقال إلى أن تصل قطع الغيار، فقد أجاب على برقية «ليك» بأدب وعرفان وأشار إلى أنه يأمل العودة عبر أراضي جنوب «شبوة»، لكنه انتظر في غضب متزايد. كان دائماً ضيق الخلق حين يمل، وبما أنه لا يوجد ما يفعله، فقد بدأ يكتب المقالات ويرسلها إلى دورا كي تنشرها «قبل أن يفسد (بيرن) سوقنا».

وصلت قطع الغيار أخيراً، ومعها تحذير بالمغادرة حالاً ودون مغامرات أكثر في أراضٍ خاضعة للحماية البريطانية، فبدأ رحيله شمالاً على الفور، ولكن حين شكر «ليك» على مساعدته لم يتمالك نفسه من التعبير عن غضبه المكبوت بإضافة قوله: «أغادر اليوم كي أتيح للقيادة العامة المتقدمة لتشرف على الجلاء من الأراضي المحتلة». ومن الطبيعي أن يغتاظ «ليك»، ليس فقط لأنه سخر من سلطته، ولكن لأن الذي سخر منه كان موظفاً بالجهاز الحكومي الهندي ويعرف القواعد المتبعة، كما أن السخرية جاءت من شخص مؤيد لعبدالعزيز آل سعود، ويهاجم الإمبراطورية البريطانية.

طارت البرقيات بين عدن والهند ولندن والمملكة العربية السعودية. كان السعوديون قادرين على القول: إن «فيلبي» يسافر على حسابه وينكرون المسؤولية، ومع ذلك فإن الحادثة أزعجت «عبدالعزيز آل سعود» كان منزعجاً من الحادثة التي قد أحرجته في مجرى مفاوضاته الأخرى مع بريطانيا.

أصلح «فيلبي»، البعيد عن الاتصال والذاهل عن الضجة القائمة العربة، وترك وادي

---

(١) برقية عدن رقم/أي/٦٣٤٧/ وتاريخ ١٩٥٥/٦/٢٠(١٣٣٦/٩/٧م).

حضرموت على الفور. ومع أنه الآن في عجلة، لكنه كان متضايقاً من «ليك»، وعندما عاد إلى «شبوة» ووجد أن الكلام قد انتشر حول زيارته، وأن شيوخاً من أقصى الجنوب قد دعوه إلى الزيارة، فعزم على أن يبين «لليك» أن بإمكانه السفر دون اهتمام بالعاقبة عبر أراضٍ تزعم بريطانيا أنها تحت حمايتها، لكنها لا تسيطر عليها، وهكذا انطلق داخل أراضٍ يحظر عليه دخولها، وقد تحدث بحرية أكبر عن فضائل «عبدالعزيز آل سعود»، وأخذ على عاتقه وعد مضيفيه بإعفائهم من الرسوم في حج العام التالي. هذا التعدي المتعمد في اتجاه الجنوب كان أسوأ ما فعله، لكنه كان دائماً يأخذ النصر في الحسبان، لأنه خلال هذه الرحلة قام بأحد الكشوف الكبرى في حياته لنقوش مهمة، فعلى بعد عشرة أميال من «شبوة»، أطلعوه على صخور «عقلة» المغطاة بنقوش رسمية احتفاءً بمراسم ملكية في شبوة القديمة، ولم تكن معروفة آنذاك، كان سعيداً حين انضم إلى فريقه وانطلقوا إلى نجران.

لم تكن رحلة العودة بعلامات الطريق المألوفة مثيرةً قط مثل رحلة مجهولة، ولكي ينوع في الرحلة ويضيف إلى خرائطه بعرض المعلومات اتخذ خطاً يقع معظمه إلى الجنوب والغرب من خط الرحلة الأصلي، وبذلك سار بالقرب من جبال اليمن، وعندما استدار شمالاً على طول سفوحها، مر عبر سلاسل متوجة بالخرائب، معاقل صغيرة، وأفنية مقابر، وحجارة رصف استخدمت علامات فسَّرها بأنها تحدد طرقاً مقدسة، وخمن أنها تخص حضارة السبئيين العظيمة التي كانت عاصمتها مأرب في اليمن.

لو استطاع فقط أن يتفحص آثار مأرب لامتلأت جعبته، ولكن الظروف كانت غير مواتية لذلك؛ فإمام اليمن يمنع جميع الزوار، وعلى كل حال فإن عربة البيك آب أصبحت الآن في وضع غير صالح، وعربته والجمال في حالة يرثى لها، ومع ذلك فإن شيطاناً دفعه لمحاولة رؤيتها.

طلب من رجاله أن يستريحوا بينما ذهب هو ليصطاد غزالاً، تركهم عند بئر تسمى «مسعودة» وأخذ معه رجلين فقط اعتقد أنهما يمكن أن يحفظا السر، ودخل اليمن في عربته المهزوزة، وكان من حظهم أنهم لم يقابلوا أحداً وأن العربة قد صمدت، ووصلوا إلى حافة من فوقها استطاعوا النظر إلى آثار مأرب وإلى سهلها الذي كان ذات يوم خصيباً. جلس هناك مدة ساعتين، متمنياً لو جرؤ على تفحصها عن قرب،



لكن التعقل حل عليه الأمر الذي أراح رجاله، ورضي باختلاس النظر، وعاد سريعاً إلى «مسعودة»، ومن ثم إلى نجران.

لا تكتم الأسرار في الصحراء، إذ تحدث شخص ما، وعرف إمام اليمن، ومرة أخرى تطايرت البرقيات من وزارة خارجية إلى وزارة خارجية، وهذه المرة من اليمن. وكان على «فيلبي» أن يجيب عن كثير من أسئلة «عبدالعزيز آل سعود» عند عودته، ورأى في عيني الملك تجاوزاً عن جنحته بسبب خرائط الحدود الممتازة التي رسمها، ولم يكن هناك تعويض لدى بريطانيا وإمام اليمن، فوضعا اسمه في القائمة السوداء.

كانت الرحلات على طول الحدود السعودية الجنوبية التي قام بها «فيلبي» باسم الملك بين رجب ١٣٥٥ وذي الحجة ١٣٥٥ (أكتوبر ١٩٣٦ وفبراير ١٩٣٧م) شاقةً مثل أي رحلات قام بها، ورسائله التي تصف تجاربه في هذه الرحلات تماثل المخاطر التي سجلها القديس بولس لأهل كورنثة، وأما سيارته فعديمة الفائدة في مثل هذا البلد، وعليه أن يستخدم البغال أو يسير على قدميه في الوقت الذي دخل فصل الشتاء، والتسلق على ارتفاع يراوح بين خمسة آلاف وثمانية آلاف قدم ثم الهبوط، أصابه بكدمات من الصخور، وتورمت أصابعه من البرد، وأصابته البثور ونوبات الحمى التي تحولت إلى ملاريا بعد ذلك، وأصيب بالعرج حين اخترق قدمه قضيب مدفون في قاع نهر، وغطاه الملح، وذلك عندما اضطر للخوض من علامة إلى علامة أخرى في المستنقعات الساحلية المالحة، ومع ذلك ظل مثابراً، ولم يستطع أن يستريح، وإلا سيخلف وعده حول الحج.

كان في الخمسين من عمره، وأن يسير بهذا المعدل فذلك يدل على قوة بنيته الجسدية. لقد احتال لزيارة كل موقع حدودي عدا شعبتين في أعالي الجبال: إحداهما من الصعب التعامل مع حوافها الحادة، والأخرى أخذ رجال القبائل رجاله إلى مسؤولين حكوميين لدفع الغرامات، واختفوا، وتركوه في بلد معاد بلا أمل في العثور على دليل، لكنه حدد هاتين الشعبتين بضمير حي قدر استطاعته بمعاودته السفر على طول الحدود حتى استطاع أن يحدد موقعهما بالنسبة إلى آخر نقطة تفتيش مر بها، وكان يعرف أن عليه تعليل موقفه إلى الملك.

كان الطريق في بعض أجزائه ساحراً أو على الأقل جديداً، وفي أثناء هبوطه في السهل الساحلي لجازان، الذي اتخذه مركزاً لتعدياته الثلاثة الأخيرة لسفوح التلال الحدودية، شاهد مناظر ونماذج بشرية لم يقابلها في بقية تجربته في الجزيرة العربية، وكتب إلى دورا من وادي «بيشة»: «لابد أن جنة عدن تشبه هذا الوادي، والناس الذين يقابلهم المرء بين حين وآخر كأنهم خرجوا الآن من سفر التكوين في التوراة، عراة عدا قطعة قماش تغطي وسطهم وأحياناً بندقية، وبشعر أشعث مجعد، ويفضلون المشي على الركوب، ولا أحد يهتم برمضان إذا شعر بالعطش، فإنه يشرب من أقرب جدول، وحين يرعون الماعز يجلسون على سفوح التلال كالقرود، لا يلاحظهم المرء إلا إذا تحركوا أو تكلموا». واستمع إلى أنغام المزامير الرقيقة التي يعزفها الرعاة وهذا ما ذكره باليونان، وبعض الطيور التي رآها كانت جديدة عليه حتى إنه نشط للإمساك بها. وقابل في أعماق السهل رجالاً يشبهون الأفارقة أكثر منهم عرباً، يعيشون في أكواخ تشبه خلية النحل، ويضعون على رؤوسهم قبعات مدببة من القش، ويضعون عصياً على أكتافهم، ومعاصمهم معلقة بأحد طرفيها ـ كما يفعل «الدناقل» عبر البحر الأحمر ـ لإبعاد الذراعين عن الجسد طلباً للبرودة.

حاول أن يمضغ القات الذي يستخدمه الأثيوبيون أيضاً للشعور بالراحة، لكنه لم يشعر بالسعادة في استخدامه.

تقع جازان عند مستنقعات الملح في اتجاه البحر، وهي مكان رطب ومملوء بالبعوض، أسرع في اختراقها دخولاً وخروجاً بلا حماسة لأي شيء سوى إنهاء مهمته الشاقة. ومع أنه من النادر أن يسافر بمفرده، لكنه أمضى الأشهر الثمانية تقريباً دون صحبة متعلمة وكأنه وحده.

وحين لحقت به حقيبتان من البريد والجرائد من الوطن عند سفوح التلال الحدودية التي تتطلب عناية فائقة في رسمها، أشار: «بعد ظهر ذلك اليوم وليلته لم أكن في الجزيرة العربية. الفرح لمثل هذا الحدث لا يمكن أن يتخيله إنسان لم يجربه»، بالإضافة إلى شعوره بالعزلة، فقد نفدت بطاريات المذياع الخاص به، وقبل أن تنفد تماماً التقط خطبة تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش، وكان افتقاده للأنباء أقل أهمية بالنسبة إليه من افتقاده لإشارات الوقت الدقيقة التي كان يلتقطها من القدس أو

أوروبا، ومن دون تحديد هذا لم يكن يستطيع تدوين ملاحظاته عن النجوم أو تحديد مواقعه، ولذلك رأى أن عودته عن طريق أبها والأرض الجبلية عديمة الفائدة. ولابد من أن يعود عن طريق الساحل المنبسط الممل الرطب.

المسافة من جازان إلى جدة تربو على ٤٠٠ ميل.. ولا يوجد طريق في اتجاه الشمال من جازان. وقرر أن يركب حماراً، ويصحبه رجاله والأمتعة على الجمال، ولابد أن يقطعوا من ٣٠ ـ ٣٥ ميلاً يومياً إذا أرادوا أن يصلوا في الوقت المناسب، وكان «فيلبي» أكثرهم إعياء؛ لأن هذه النهاية الرتيبة كانت مخيبة للآمال. أحياناً تصيبه الحمى، وأحياناً يشعر أن عموده الفقري لا يستطيع حمله منتصباً على ظهر الحمار، وكانت الأيام مملة، إذ تبدأ قافلة الجمال السير أولاً، لكنه يركب بشكل سريع: «حيث إني لا أملك ضوءاً حتى تلحقني القافلة، كنت أستلقي وأحياناً أنام.. أغفو، وما إن وصلت في الموعد المحدد حتى كنت تعباً تماماً من شد ظهري الذي كاد ينكسر من الجلوس على ظهر حمار يسير خبباً» .

أوصل فريقه بقوة العزيمة، لكنه شخصياً لم يشعر بالعرفان قط مثلما شعر حين رأى سيارة الملك الرولزرويس تنتظر في غيضة لنقله إلى مكة المكرمة.

إحدى المفارقات في أطول رحلة لفيلبي في أرض مشاع، أن تكون غايتها النهائية إثبات أنها ينبغي أن تكون حرة ومستقلة. لقد ملأ الفراغ على خريطتها الطبيعية، لكنه اكتشف فراغها على الخريطة السياسية. ونتيجة لترحاله دون اهتمام بالعواقب، استيقظ الجيران، وسارعوا الخطو إليها. دعا إمام اليمن قبائلها للدخول تحت حكمه، وحين أجابه شيوخ «شبوة» أن لديه ما يكفي من الزوار، أرسل رجاله ليحتلوا المكان، وبالمثل فعلت بريطانيا سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م)، بعد أن حوّلت عدن إلى محمية للتاج، وبدأت تقيم النظام في الأراضي الداخلية، وأرسلت الإداريين وجامعي الضرائب والطائرات شمالاً وشرقاً ـ «انجرامز» إلى حضرموت، وهاملتون لإخراج اليمنيين من «شبوة»، وضباط طيران لرسم الخرائط من الجو، والانقضاض على رجال القبائل من حيث لا يحتسبون.

ورأى السعوديون العلاقة بين السبب والنتيجة، وأشار وكيل وزارة الخارجية فؤاد

حمزة إلى الوزير البريطاني في جدة إلى أن النقاد يقدمون أحياناً مساعدة مادية للحكومات التي ينتقدونها، والدليل على ذلك زيادة السيطرة البريطانية على محمية عدن بعد زيارة «فيلبي» لها. وأدرك البريطانيون ذلك أيضاً، فقد سجل أحد المسؤولين: «أعتقد أن «فيلبي» وأمثاله مفيدون لنا، لقد أرغمونا على تشكيل درع ليس فيه عيب»[١].

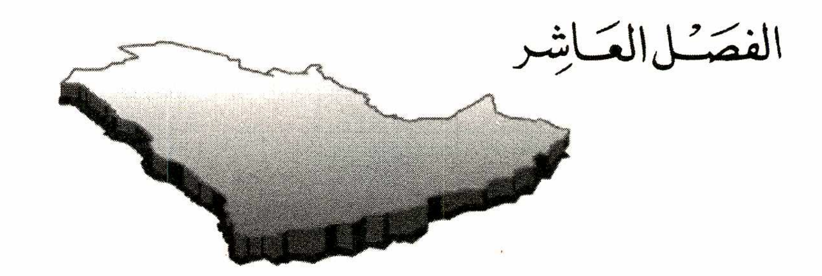
لكن «فيلبي» الذي لا يرى إلا ما يريد أن يراه، كان يجهز نفسه لإلقاء محاضرات على مواطنيه حول ظلم بريطانيا دون أن يتوقف لحظة ليفكر في الدور الذي يؤديه في الضغط على زناد سياستها المستقبلية. على كل حال، لم يكن لديه الوقت للتفكير في العودة إلى الوطن، بعد غياب مدة ثمانية أشهر، ولم يستطع التقاط أنفاسه فقد كان عليه: الحج الذي سيؤديه، والملك الذي سيسترضيه، وفض الشجار بين موظفي مكتبه، والتعامل مع برقيات دورا (إحداها تتحدث عن نفاد النقود)، وتنفيذ مأموريات لفائدة جريدة النيويورك تايمز، والرد على دعوات لإلقاء محاضرات في إنجلترا.

خلال أيام، كان قد استراح، واختال كالديك بكشوفاته للنقوش على الصخور، وبدأ يسن قلمه لهجوم جديد على الحكومة البريطانية لخداعها العرب سراً في نيل حقوقهم الطبيعية.

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو/٣٧١/٢٠٧٧٦/أي/١٢١٥٢/٢٠٦/٩١، مكتب الشؤون الخارجية بمكتب المستعمرات، ١٨/١/١٣٥٦(٣١/٣/١٩٣٧م).

الفصل العاشر



وسيط الملك

تمثل الشهرة ترياق قوة لمعظمنا، وكذلك لفيلبي، وخصوصاً أنها خلال شهور تُوجت بالنقود، فغيَّرت النعمتان وجهة نظره في الحياة، وتوقف عن الحاجة إلى ما يدعم اعتداده بنفسه، وترك الكتابة القاسية المهاجمة في الصحافة، واستمتع بوجوده مع عائلته، واستمتعت دورا بدورها بالدوامة الاجتماعية التي جرّها إليها في أعقاب ذلك.

لا يدرك جيل عصر الفضاء الانفعال الذي كانت تحدثه الأعمال الفذة للاستكشافات على الأرض، والجَلَد الذي كان يصحبها إلا نادراً، في العقود الأولى من القرن العشرين. إن نصر «فيلبي» في الربع الخالي، وإن لم يعادل نجاح «سكوت» في القطب الجنوبي، أو سحر الطيران عبر الأطلنطي منفرداً الذي قام به «لندنبرج»، إلا أنه يسير في الخط نفسه.

أصبح «فيلبي» بطلاً عند عودته إلى لندن سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م)، فدعته الجمعية الجغرافية الملكية على عشاء شرف وإلقاء محاضرة لإشباع فضول الجمهور الرفيع، وكذلك دعته الجمعية الآسيوية المركزية الملكية لإلقاء محاضرة أيضاً، وطلبت منه إذاعة لندن مقالات وأحاديث[١]، وأراد علماء الطيور في المتحف البريطاني تفاصيل عن الطيور التي رآها في المناطق الخالية من المياه، وكذلك المختصون في علم

---

(١) آر. جي. أس.»، «Journal»، مج٩٢، تاريخ رمضان ١٣٥١(كانون الثاني ١٩٣٣م)، ص١. «آر. سي. آي.»، "Journal"، مـــج١٩ (٤)، ١٣٥١(١٩٣٢م)، ص٥٦٩، «Listener»، ١٦/٣/١٣٥١(٢٠/٧/١٩٣٢م). و للحصول على معلومات فنية إضافية، انظر د. «إل. جيه. سبينسر، من المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) قسم المعادن، ١٦/٨/١٣٧٧(٨/٣/١٩٥٨م).

المعادن عن خصائص منطقة «وبير»، ووقف الأعضاء الغرباء في جمعية Athenaeum احتراماً له، ورُحب به وبزوجته على موائد مع أساتذة وهاويات استضافة المشاهير، وأصدقاء من الهند والعراق ورجال ادعوا أنهم كانوا معه في المدرسة الإعدادية.

انعكس رضاه الكامل وراحة باله في أول ثلاث مقالات كتبها عن الربع الخالي في جريدة التايمز: «لمدة أربعة عشر عاماً كنت أجري وراء سراب في صحارى الجزيرة العربية بإخلاص عنيف لا يهدأ، والآن أشعر بالراحة...»[١].

تغيرت حياة البيت، وأعاد اكتشاف بناته اللواتي لم يرهن مدة ثلاث سنوات: ديانا الجميلة أصبحت في الرابعة عشرة، وكبرت «بات» ليكون لها رأيها الخاص، وهيلينا لم تعد طفلة، وعلى استعداد للإعجاب بنظمه الركيك عن البنت الصغرى والربع الخالي، و«كيم» الذي حاول أن يقلد صورته في وستمنستر وترينتي، عاد الآن ليتجنب هذا النموذج بتسجيل درجة مقبولة في امتحانات كمبردج، ولكن «فيلبي» كان منتصراً في كل الأمور الأخرى، إن مكاسبه من مقالاته مكنته من أن يقدم هدية لكل فرد من العائلة، وأن يأخذ دورا والبنات في إجازة إلى ويلز، وبدأ يملي كتابه عن الربع الخالي، ودورا تطبعه على الآلة الكاتبة، واتفقا أن يطلبا من «ماي» أن تعتني بالبنات خلال أشهر الشتاء حتى تتمكن «دورا» من مرافقته إلى جدة؛ أول إقامة هناك من عدة إقامات مرضية في الشتاء.

كانت حفلات البريدج التي تقيمها «دورا» والوجبات بالكاري التي تعدها يوم الجمعة مشهورة، بينما هو يقضي أوقاته بين الحياة العائلية والحضور في الديوان. وقد كتبت دورا إلى «ماي» رمضان ١٣٥١ (يناير ١٩٣٣م): «عاد جاك من مكة المكرمة الجمعة الماضية، ويبدو بصحة جيدة ومعه نقود، وهذا سري جداً لكني اطلعت عليه، وجئت بالشراب خفية إلى البيت، وآه لو رأيت «جاك» وهو يتسلل إلى غرفتي قبل العشاء ويشرب معي، أعرف أن ذلك ينعشه أكثر من أي شيء آخر.. أقضي وقتاً ممتعاً أكثر من كل النساء هنا».

---

(١) «The Times»، ٢١-٢٢-٢٣/٢/١٣٥١(٢٦-٢٧-٢٨/٦/١٩٣٢م).

كان سبب رضا «فيلبي» يكمن في حسن السياسة التي يتبعها وقوتها، ففي الفترة القصيرة التي مرت بها المملكة العربية السعودية بضائقة مالية في أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية، كان الملك وعبد الله بن سليمان يستشيرانه بانتظام، وكان حكمه على الأمور صائباً كما ثبت بعد ذلك، وقد رأوا أنه بمعارفه الكثيرين في الخارج قد يساعدهما على جذب رأس المال إلى البلاد. وحين اضطرا سنة ١٣٥٠ (١٩٣١م) إلى أن يؤجلا دفع ديون الحكومة، اقتصرا في البحث عن الاستثمارات الإسلامية، لكن لم تثمر هذه الخطط شيئاً، وبحلول سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م) كان الملك ووزير المالية قلقين من قلة الرصيد النقدي، وعزما على أخذ دفعة أولى كبيرة من المال لقاء أي امتياز يمنحانه. وكما قال الملك ذات يوم بشكل عفوي: «لو قدم لي أي شخص مليون جنيه الآن فسأعطيه جميع الامتيازات التي يطلبها». ولعبقرية «فيلبي» أو لحسن حظه، كان من نصيبه أن يقدم إلى الملك المستثمرين الأمريكيين.

كان أول بشير في ذلك الصيف الطويل الرائع لإيرادات النفط في السعودية، مصلح أمريكي يسمى «تشارلز كرين»، وهو شخص مثالي أنفق ثروته الخاصة في محاولة بناء الجسور بين الشرق والغرب وخصوصاً بين الإسلام والمسيحية واليهودية. وقد أحب الشرق الأوسط، وسبق له أن زار الجزيرة العربية في أثناء حكم الملك حسين ليدرس ثقافتها، ومكث فترة في شتاء ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥ (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧م) مع أحد أشهر العلماء في جدة ـ محمد نصيف ـ لكنه أخفق آنذاك في رؤية «الملك عبدالعزيز آل سعود»، وكما رأينا فلم تكن تلك السنة مناسبة للأجانب، واتجه إلى الجنوب، وبدأ يدفع لتحقيق التنمية في اليمن، وفي سنة ١٣٥٠ (١٩٣١م) دُعي ليعود إلى السعودية[١].

جاء كرين سواء كان «فيلبي» هو الذي دفعه إلى ذلك كما يزعم في كتابه «مغامرات النفط العربي» أو أن الملك هو الذي أمر بذلك، واستدعى على الفور مهندس تعدين هو «كارل تويتشل» للقيام ببعض الخطط المائية، والكشف عن المعادن، وفي أثناء عمله، عثر على منجم ذهب قديم، وقد أخذ امتياز استغلاله بعد ذلك. كما أنه قام بتخمين مهم، فقد اكتشف في محرم ١٣٥١ (مايو ١٩٣٢م) كميات تجارية من النفط

---

(١) مذكرات «كرين» لتلك الزيارة، جمّعها «جورج أنطونيوس» وموجودة ضمن وثائق «كرين» الشخصية، مؤسسة «كرين– روجرز»، معهد الشؤون العالمية الراهنة، مدينة نيويورك.

في البحرين، واعتقد «تويتشل» أن هناك كميات من النفط تستحق أن يبحث عنها في الأراضي السعودية القريبة، وقضى الصيف محاولاً أن يثير اهتمام شركات النفط المختلفة: تكساس، الخليج، شركة البترول العراقية الأمريكية، وشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا، بالمخاطرة ببعض رأس المال هناك[1]. وكانت الشركة الأخيرة أكثر المتحمسين لذلك، وعرفت من «تويتشل» أن «فيلبي» هو أفضل وسيط لها عند الملك.

وصلت إلى «فيلبي» الذي كان يستمتع في لندن بوهج نجاحه في الربع الخالي، رسالة مفاجئة في أواخر محرم ١٣٥١ (مايو ١٩٣٢م) من القنصل العام الأمريكي في لندن تقول: إن وكيل وزارة أمريكي سابق يريد مقابلته، ومن الطبيعي أن يفترض أنه أحد المعجبين ببطولاته الصحراوية. ولم يعرف إلا حين قابل الرجل ـ فرانسيس ب. لوميس ـ في يوليو، أن الرجل أراد معرفته لاهتمامه بالنفط في السعودية. لم يلزم «لوميس» نفسه بشيء، وكانت فكرة «فيلبي» في هذا الوقت، أن يدعم خطة قد تجلب للملك النقود الفورية التي يحتاج إليها.

حين عاد «فيلبي» و«دورا» إلى جدة في ديسمبر، ارتفعت روحه المعنوية عندما وجد برقية من «لوميس» تعلمه أن يطلب من الملك أن يمنح امتيازاً لشركة كاليفورنيا. وخطر له آنذاك أن يجني رسماً معقولاً من هذه الصفقة التجارية، فاتجه إلى مكة المكرمة بسرعة، وقرر مع الملك وعبد الله بن سليمان أن يطلبوا دفعة أولى قيمتها مئة ألف جنيه وإلا فلا. وفي الوقت نفسه كتب إلى صديق جيولوجي في شركة النفط الإنجلو ـ فارسية هو «مارتن لينر» يعلمه فيها أن «شح الموارد المالية بدأ يفتح أبواب الجزيرة العربية للاستثمار الصناعي»، وسأله إذا كانت الشركة مهتمة بهذه الامتيازات مع دفع مقدم الاتفاق، وأضاف: أنه رجل مستقل، وعلى استعداد أن يعمل نيابة عن أي عارض للأسعار.

وصل في شوال ١٣٥١ (فبراير ١٩٣٣م) ممثلان من شركة لوميس ـ سوكال إلى جدة: أحدهما تويتشل، والآخر لويد هاملتون وهو محام طيب. وخلال أيام كان «فيلبي» قد وافق أن يعمل لحسابهما بشروط وعدوه بها أن يحلوا مشكلاته المالية

---

(١) «كارل تويتشل»، «العربية السعودية»، ط٣، برنستون، ١٣٧٧(١٩٥٨م)، ص١٣٩-١٥٠.

من ديون منزلية وفواتير مدارس، وسجل هاملتون ذلك كتابة: ألف دولار مرتب شهري تبدأ من يناير الماضي، ومبلغ عشرة آلاف دولار تدفعها شركة سوكال للحصول على امتياز، تتبعها استثمارات تجارية بمبلغ ٢٥ ألف دولار بالإضافة إلى ٥٠ سنتاً أمريكياً عن كل طن يُصدر حتى تصل دفعة ثانية بـ ٢٥ ألف دولار.

كانت «دورا» التي تقوم بطباعة الاتفاق على الآلة الكاتبة منفعلة مثل «فيلبي»، وكتبت إلى «ماي»: إن «جاك أصبح رجلاً مختلفاً، عصبياً جداً حول مشكلة النقود». كان الراتب الشهري مضموناً، لكن كان هناك عقبات أمام المبالغ الكبيرة؛ فالدفعة الأولى البالغة مئة ألف جنيه التي طلبتها السعودية، ثبت أنها عبء لن يرحب به الأمريكيون. وفي الوقت نفسه، فإن اكتشاف النفط في البحرين، والشائعات من الجزيرة العربية، حركت اهتمام الشركات الأخرى. وأبرق «مارتن ليز» إلى «فيلبي» متسائلاً إذا كان بإمكانه أن يتفاوض نيابة عن الشركة الإنجلو ـ فارسية للنفط، وإذا كانت إجابته بالنفي فإنهم سيرسلون رجلاً منهم. واتصل «ماجور هولمز»، المضارب المخادع الذي سبق أن فقد امتياز في الأحساء بسبب تخلفه عن دفع الإيجار السنوي، ليتحدث عن بعض المصالح التي أمل أن يحتفظ بها، وأدرك هولمز حالاً أنه خارج السباق، فرحل. لكن شركة النفط العراقية (التي تمتلك فيها الشركة الإنجلو ـ فارسية حصة تبلغ ٧٥,٢٣٪) أرسلت مفاوضها الخاص «ستيفن لونجرج» إلى جدة، وكان قد عرف «فيلبي» في العراق، لكنه لا يحتاج إلى وسيط فلغته العربية جيدة، وبدت الساحة وكأنها أعدت لمساومة صعبة.

لم يكن هناك في الواقع، سوى شركة واحدة في السباق؛ لأن الأمريكيين فقط هم الذين كانوا على استعداد للدفع بالذهب، وأخفى «فيلبي» عن كل شخص عدا «دورا» المتحفظة، أن الشركة الإنجلو ـ فارسية قد دفعت له مبلغاً من المال، وبدأ يكشف معلومات كلقمة سائغة لأصحاب المصالح المختلفين، وأخطأ في حث «أندرو ريان» أن يخبر لندن أن «فيلبي» «هو مصدر معلوماتي الأساسية»، وأن يكتب في تقاريره إلى آخر لحظة أنه: «متأكد تماماً أن فيلبي لا يدين بالولاء لأحد»[1]. وأخبر فيلبي

---

(١) بي. آر. أو. إف./٣٧١/ ١٦٨٠. إي. ٢٥/٤٨٧/١٤٩٨ بتاريخ ١٣٥١/١١/٣(١٩٣٣/٢/٢٨م)، وذكر سابقاً، ١٦٨٧١. إي ٢٥/٤٨٧/٢٩٩٥ بتاريخ ١٣٥٢/١/٢١(١٩٣٣/٥/١٦م).

«لونجرج» بما فيه الكفاية ليدفعه للحديث عن محاولاته، منها مثلاً تأخير الموافقات المطلوبة من كل من الشركاء الأربعة المختلفي الجنسيات في شركة .I.P.C وكذلك واصل «فيلبي» تزويد «هاملتون» بأسرار «لونجرج»، وكان عبدالعزيز آل سعود على علم بكل ذلك.

استمتع «فيلبي» بشكل كبير بشعوره بأهميته، وبالثقة التي وضعها الملك فيه، وفترت المفاوضات بسبب الفجوة التي ظلت بين المطلب السعودي بمئة ألف جنيه، وعرض هاملتون مئة ألف دولار، ولم يكن «لونجرج» في الصورة قط، فرجاله «يتكلمون بالروبيات فقط بينما المطلوب هو الذهب»[(١)].

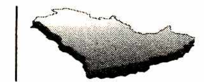
وجاء المسؤولون وغادروا، وتوقف السعوديون بسبب الحج، وخفضت الحكومة مطلبها إلى خمسين ألف جنيه بالإضافة إلى أجرة سنوية تقدر بخمسة آلاف جنيه ذهباً سنوياً لامتياز يشمل كل الإقليم الشرقي حتى حزام «الدهناء» الرملي، وإتاوة تقدر بأربعة سنتات عن إنتاج كل طن، ورضي «فيلبي» عن نفسه وهو ينصح الملك بالثبات على موقفه، وينصح الأمريكيين بأن يقبلوا.

تتابعت الأحداث المثيرة والعقبات إلى آخر لحظة، فقد منع الرئيس الأمريكي «روزفلت» تصدير الذهب في ١٩ أبريل خلال فترة الذعر من الانهيار المصرفي، وبدا، في لحظة مثيرة، أن السعودية بترددها قد تفقد سوقها هناك، وسارع الطرفان إلى الوصول إلى حل وسط، وفي الثامن من مايو وقع الملك اتفاقية «هاملتون» الأولية، ورأى «فيلبي» إن هذه النتيجة أكثر من مرضية بالنسبة إليه، فقد رآها مكافأة عادلة للأمريكيين لمعاداتهم الاستعمار، وللبريطانيين بسبب تصرفهم الحاد بالنسبة إلى العقبة، ومطالبتهم بالمشاركة في إدارة سكة حديد الحجاز، وقد أصابه هذا النجاح بالحماسة، فحاول «فيلبي» الحصول على نجاح آخر.

حضر المفاوضات في سنة ١٣٥١ (ربيع ١٩٣٣م)، بين الحكومة ومستوردي

---

(١) «ستيفن لونجرج»، «Oil in the Middle East»، ط٣، أكسفورد، ١٣٨٨(١٩٦٨م)، ص١٠٧؛ بالإضافة إلى معلومات من المؤلف، أكسفورد١٣٩٢(١٩٧٢م).



السيارات وقطع الغيار اللازمة لإدارة القتال المستمر مع اليمن عند حدودها مع «عسير»[١]، وكانت نتيجة المحادثات في مصلحة شركة «جنرال موتورز»، وحاول «فيلبي» المستاء أن يحصل على احتكار استيراد سيارات فورد، لكن محاولته لم تلق النجاح، فقد أصبحت شركة فورد حذرة في إعطاء اعتمادات ائتمان في الجزيرة العربية، بسبب شكها في قدرة الشركة الشرقية على تمويل المشتريات، وتوفير قطع الغيار وخدمة ما بعد البيع. أغضبه هذا الإخفاق، لكنه ما إن عاد إلى لندن، حتى استعاد روحه المعنوية، واستطاع تسديد الديون، والحياة في المستوى الذي يعجبه، إذ إنه أصبح أكثر ثراءً مما كان عليه في السابق.

استأجرته شركة «Socal» في يوليو بصفة دائمة بمرتب ألف جنيه سنوياً، ودعا أمه و«توم» لزيارة قبري أخويه في فرنسا، وقضى أياماً ممتعة في مشاهدة لعبة الكريكيت في «لورد»، وذهب إلى بولندا على نفقة «عبدالعزيز آل سعود» لتهدئة شركة تسليح بولندية حول عدم دفع الديون حتى ذلك الوقت، واستأجر مسكناً صغيراً في «ويلز» من صديقه الجديد الموسيقار «جرانفيل بانتوك»، وكلف النحات «دونالد جيلبرت» أن يصنع له تمثالاً نصفياً، وعاد ثانية إلى تيار الحياة الاجتماعية.

أمطر «ماي» بالهدايا، وامتلأ بيته في «إكول رود» بالضيوف، وشجع أطفاله على الاشتراك في نقاشات صاخبة على الوجبات، منتظراً بفارغ الصبر قراءة «كيم» المتلعثمة لمقالاته، الذي يتوقف فجأة ليكرر بنية الجملة الشرطية في المقال الذي تطبعه دورا، وكلل إجازته بحفلة عيد ميلاد «دورا» في سبتمبر، واشتملت على عشاء وذهاب إلى المسرح، وكعكة عيد ميلاد ضخمة، وقدم لها آلة كاتبة لا تحدث ضجيجاً من ماركة «رمنجتون» كتب عليها الحروف الأولى من اسمها. (وقد كتبت إلى «ماي»: لا تصنع ضجة؟ لقد أرسلوا النموذج الخطأ»).

كانت الحياة في جدة قد تغيرت، بحلول ١٣٥٢ (شتاء ١٩٣٣م)، فقد أحضر «أندرو» زوجته، وفتحت شركة «Socal» مكتباً لها، واستأجر هاملتون وزوجته منزلاً،

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./ ٣٧١/ ١٦٨٧٥.إي ٣٩٦٣/ ٩٠٢/ ٢٥. تقرير جدة عن شهر صفر ١٣٥٢(حزيران ١٩٣٣م).

وأعجبت «دورا» على وجه الخصوص بزوجة هاملتون، وانتقل آل «فيلبي» من مسكن الشركة الشرقية الضخم في بيت آل بغدادي الأنيق (الذي استأجرته شركة سوكال)، إلى مبنى حديث خارج الأسوار يسمى القصر الأخضر. وأفضل تغيير كان ترخيصاً للسفر داخل البلاد؛ لأن الشركة فتحت الصحراء للبحث عن المعادن.

كان أهم زائر في الموسم من وجهة نظر «فيلبي» عالم الطيور «جورج بيتز» من المتحف البريطاني، وقد ابتهج بهذا العالم الذي كان يستطيع بنظرة واحدة أن يخبرك إذا ماكانت القبرة أو الحجلة نوعاً جديداً في فصيلتها، وكان «بيتز» مسروراً أيضاً؛ لأنه حتى ذلك الوقت كانت خبرته الصحراوية مكتسبة بشكل نظري، وقام الاثنان بالاستكشاف، واصطادوا، وجففوا، وحشوا أكثر من خمسمئة عينة حملها «بيتز» إلى المتحف في جنوب كنسنجتون[١]. وقد زادت زيارته من حماس «فيلبي» لعلم الطيور، وفي كل رحلاته بين ١٣٥٣ و١٣٥٧ (١٩٣٤ و١٩٣٨م) بذل جهداً كبيراً في جمع العينات ورسم الخرائط، واكتشف أنواعاً جديدة، وأحضر أدلة عن أنواع وسلالات وجدت أول مرة في الجزيرة العربية.

كانت مجموعات «فيلبي» من الطيور مهمة جداً في الواقع، وساهمت في التعرّف إلى طيور الجزيرة العربية، وبحلول سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥م) ساعدت على جعل المجموعة العربية من أفضل الطيور المحنطة في المتحف البريطاني[٢]. وللسنة الثانية على التوالي، كتبت «دورا» بسعادة إلى «ماي»: إن الوقت يطير، ووصفت لها النزهات، وإقامة المخيمات، وحفلات البريدج، والأصدقاء في البنك الهولندي، والضيوف الذين يملؤون البيت. وأخبرت «ماي» أن تشتري ملابس جديدة للبنات: «لا يريد «فيلبي» أن يرى «بات» و«هيلينا» في ملابس مهلهلة».

---

(١) توفي «جي. إل. باتس» قبل أن يظهر كتابه، لكن كتابه «Birds of Arabia» (والذي ساعده عليه «فيلبي») موجود على شكل نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة في مكتبة متحف التاريخ الطبيعي، لندن. تم نسخه من نسخة «فيلبي» المطابقة للأصل، وقد تمت مراجعتها من قبل «آي .سي. تروت» في أثناء خدمته العسكرية في جدة.

(٢) معلومات مستقاة من د. «جي. أس. كولز، المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي)، قسم علم الطيور، ١٣٩٢(نيسان ١٩٧٢م).

تتزايد التجارة بسرعة، إذ كان الملك والحكومة يشترون السيارات بمعدلات زادت عن آماله في الحصول على احتكار سيارات فورد، وكان يتفاوض نيابة عنهم للحصول على السلاح لحربهم مع اليمن، والعائق الوحيد للحصول على طلبات أكثر كان العمل البغيض في تسديد أثمان هذه البضائع. وكان تسليم البضائع الجديدة متوقفاً على دفع الديون القديمة، وهو يعي ذلك بشكل جيد، فالديون التي تراكمت منذ الفترة التي سبقت تأجيل الدين بلغت أربعين ألف جنيه للشركة الشرقية، وهي أساساً ثمن السيارات، وكذلك ١٧ألف جنيه من خلال الشركة الشرقية لشركة ماركوني من أجل المحطات اللاسلكية (الإذاعة)، ومبلغ ٣٠ ألف جنيه لشركة Sepcwe البولندية ثمناً لبنادق وأسلحة، وكان عليه أن يحمل هذا العبء حتى سنة ١٣٥٧ (١٩٣٨م).

تعكر مزاج «فيلبي» ودورا في ذي الحجة ١٣٥٢ (فبراير ١٩٣٤م) بسبب أخبار من كيم، عدتها دورا مزعجة، وعدّها «فيلبي» «كارثية»، فقد أراد لكيم أن يسير على الخطا التي تصورها يوماً لنفسه: صنع السياسة للحكومة البريطانية، أو في البرلمان. الهند لن تحقق ذلك، فالإنجليز من المرتبة الثانية هم الذين يتقدمون للحصول على وظائف في جهازها الحكومي، كما أن وظائف أكثر بدأت تذهب الآن إلى الهنود. وعلى كيم أن يضع هدفه على وزارة الخارجية. وأجاب «كيم» إذا كان الأمر كذلك فعليه أن يجدد لغته الألمانية. وبإمكانيات بسيطة ذهب إلى فيينا ليفعل ذلك، ووجد غرفة رخيصة من خلال الجمعية النمساوية لمساعدة ضحايا الفاشية الألمانية، ووقع في حب صاحبة الغرفة السيدة «ليزي فريدمان»، وكلاهما كان مهتماً بالشيوعية: «هي من الجانب العملي وهو من الجانب النظري»، وكانت «ليزي» عاملة شيوعية نشيطة وهدفاً لمراقبة الشرطة؛ بمعنى أنه ليس لديها جواز سفر، ولا يمكنها أن تغير عنوانها دون إذن.

كانت هناك اضطرابات في فيينا في سنة ١٣٥٢ (فبراير ١٩٣٤م)، حين قام المستشار «دولفوس» بضرب الاشتراكيين النمساويين، وهاجم بيوت الطبقة العاملة خلال بحث لا طائل منه ليحفظ استقلال بلاده.

كان كيم وليزي في وسط المعمعة، وكتب إلى والديه أنه مع ليزي قد دهمتهما الأحداث، وأنه يحبها ولن يسمح بأن تعاني، أي باختصار: «لقد تزوجنا السبت

الماضي وحصلت ليزي على جواز سفر بريطاني وهو الهدف من هذه الخطوة»، وأضاف أن الزواج خطوة مؤقتة، ويمكن أن يفسخ متى انتهت الأزمة، وذعر «فيلبي» الذي كان في مكة، ودورا التي كانت في جدة. كان كيم في الثانية والعشرين فقط وليس لديه عمل أو نقود، رأيا أنه قد عرّض مستقبله للخطر. وتزايد القلق حين تلقى نموذج الامتحان للتقدم إلى الوظائف المدنية، وكان هذا يتطلب ثلاث توصيات، إحداها لابد أن تكون من المشرف على تعليمه في «كمبردج».

كان معظم الأصدقاء في جامعة كمبردج يعرفون أن كيم أحد أعمدة الجمعية الاشتراكية، وينتمي إلى جناحها اليساري المتطرف، إن لم يكن شيوعياً بالفعل. ويبدو أن المشرف على تعليمه في كلية ترينيتي لم يدرك قوة وجهات نظر «كيم»، ولم يحذر قط من أن مفوضي الدولة قد يعترضون عليها. وحين أرسل «كيم» نموذج الطلب إلى كلية ترينيتي فقط وعليه اسم اثنين من مدرسيه: أستاذه في الاقتصاد دينيس روبرتسون، وصديق أبيه القديم دونالد روبرتسون، وقد اتفق الاثنان معاً حول ما يجب أن يقولاه، إذ إن مدرسي الجامعة يحصلون على تقديرات على هذه الاستفسارات، وعليهم أن يكونوا صرحاء وإلا أضروا بوظائف أخرى. وكتب «دينيس روبرتسون» إلى «كيم» قائلاً: إنه يسعدهما أن يشهدا بذكائه وكدّه ومميزاته الشخصية، إلا أنهما يشعران بضرورة إضافة أن: «حسه بالظلم السياسي يجعله غير لائق للعمل الإداري».

ورأى «كيم» على الفور أن مثل هذه الإفادة قد لا تنجح مسعاه، وسارع إلى كمبردج لمناقشة المشكلة معهما، فوافقاه على أن من الأفضل أن ينسحب من الامتحان، وكتب «دونالد روبرتسون» على الفور إلى «فيلبي»، الذي يعرف إيمانه العميق بأن الفرد يحقق اختياره مهما قالت السلطات، شارحاً له الحقائق.

قال «فيلبي»: إن المدرسين في كمبردج يلقون المسؤولية على كاهلهم لعدم استطاعتهم التنبؤ بالمشكلة التي قد يثيرها طلب كيم. إن كيم هو «الصراحة ذاتها»، «وأنا معجب بشجاعته وصدقه بشكل كبير». وقال كيم: إنه كان واعياً بانقسام الولاءات، وأن هناك صراعاً سينشأ، ويشعر أن النفوذ غير الرسمي أقوى من النفوذ الرسمي، ونتيجة للتشاور قرر سحب اسمه.

ثارت ثائرة «فيلبي»، فقد كان «ضد الانسحاب تحديداً»، وإذا كان قد وقع تحت ضغط زملائه في كلية ترينيتي، فإن خصامه سيكون معهم، وإذا اتهم كيم «بميله نحو الشيوعية» فلا يجب أن يصبح المرء ضحية بسبب «الآراء التي يحملها بأمانة»، وكتب إلى دونالد: «السؤال الوحيد الخطير هو ما إذا اعتزم «كيم» أن يكون خائناً للحكومة وهو في الخدمة، فلو كانت تلك نيته لما أضاع وقته وهو يستعد للامتحان»، ثم واصل ليضرب المثل بنفسه: «قد يظن بعضهم.. أني كنت خائناً لحكومتي، لكن تلك لم تكن القضية قط، لقد كنت معارضاً لسياستها، وأوضحت ذلك تماماً، واستقلت لكي استطيع التعبير عن آرائي بعلنية وحرية». وكتب «فيلبي» أيضاً إلى «كيم»: إذا وقف مفوضو الدولة ضده، فإن أباه سيدعمه «وينقل الصراع إلى أرض العدو». ورد عليه «كيم» بعقلانية أكثر منه حاثاً إياه على الاعتدال، فالمفوضون «لن يختاروا بالتأكيد شخصاً لا يمكن أن يثقوا به في لحظة معينة حاسمة»، وأضاف: «التصرف النموذجي لمن يملكون آراءً متطرفة، هو التعتيم عليها حتى على عائلاتهم، لكن من الصعب أن تخفي آراءً في طور التكوين، وفي الواقع إذا لم تبدأ هذه الآراء بشكل متطرف فلا يوجد حافز لأن يجعلها كذلك».

بدأ يبحث عن عمل في سلك الوظائف الجامعية، ورضي والده أن يكتب إلى أصدقائه من الفابيين وفي الصحافة. ولم يشعر هو ودورا بالانتكاس حيال امتحان الوظيفة الحكومية بقدر ما شعرا من ضربة زواجه.

احتملت «دورا» «ليزي» لكن لم تعجب بها قط، واختار «فيلبي» أن يبقى في الجزيرة العربية الصيف كله؛ لأن حرب «عبدالعزيز آل سعود» مع اليمن، قدمت لـه فرصاً في التجارة والصحافة، وأرسلت له «دورا» تقارير تثني أي أحد عن القيام بأي محاولة لإنقاذ أي شيء. لقد كتبت له أن «ليزي» متعبة وقحة، لها سلطة التصرف، وقد وقع كيم في حبائلها: «انتظر حتى تراها.. آمل أن يحصل على عمل ينتزعه من هذه الشيوعية اللعينة، إنه ليس متطرفاً تماماً بعد، لكن قد يصبح كذلك إذا لم يحصل على شيء يشغل تفكيره».

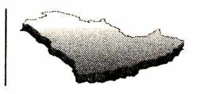
انتقل «فيلبي» إلى مشروعات أكثر نجاحاً في جدة، وكان يتفاوض على شراء أسلحة للملك، ويكتب عن حرب اليمن لجريدة «التايمز». وعلى الرغم من أنه يعدّ نفسه داعية

للسلام وضد الحرب، فإنه لم ير خطأ في بيع الأسلحة إلى بطل: «يستحق ذلك وهو يسعى لأن يجعل من الجزيرة العربية وحدة واحدة»[١]. وقد هزم عبدالعزيز آل سعود الذي أظهر مقدرة إستراتيجية كبيرة، إمامَ اليمن في ذي الحجة ١٣٥٢ (أبريل ١٩٣٤م)، وقامت فرقة من الجيش السعودي، قادها بحنكة الأمير فيصل بإحراز النصر على طول السهل الساحلي. ولكن «عبدالعزيز آل سعود» بدل أن يواصل مستفيداً، من هذا الوضع، أمر الجيش بالعودة، مظهراً الحذر الذي يبديه دائماً حين يتعامل مع قوي من خارج الجزيرة العربية، وأقام السلام بسبب أن بريطانيا وإيطاليا اللتين ترتبطان بمعاهدات صداقة مع اليمن أرسلتا طرادات إلى الحديدة، لكن السبب الرئيس لتوقيع السلام أن الحرب بين دولتين مسلمتين قد أثار القلق في العالم الإسلامي، وعلق أهمية على دوام الوفاق بينهما، وأما السبب الآخر الذي جعل «فيلبي» يقضي الصيف في الجزيرة العربية، كان لحسم موضوع احتكار سيارات فورد، وخصوصاً أنه قد سمح للحجاج من كل المستويات باستخدام السيارات في التنقل.

علمته التجارب السابقة أنه قد لا يحصل على ذلك في أثناء غيابه عن مكتبه، وخلال صيف ١٣٥٢ (١٩٣٤م) استطاع أن ينجز صفقة مزدوجة بلباقة: فقد أقنع شركة سيارات فورد بمنح الشركة الشرقية توكيلاً لها على أساس دفع ثمن العربات على دفعات، وأقنع الحكومة بأن يجمع الرصيد عند أول استحقاق للإيصالات من نقابة النقل التابعة للدولة، التي تقوم بنقل الحجاج والمسافرين والبضائع.

كانت «دورا» وحيدة في لندن، وتعزي نفسها من كراهيتها لـ«ليزي» بحضور الحفلات الصيفية الكثيرة للمهتمين بالشؤون الشرق أوسطية، وكان من أفضل الحفلات لديها حفل العشاء السنوي الذي تقيمه الجمعية الآسيوية الملكية المركزية؛ وهو ملتقى كبير للأصدقاء القدامى، وكان ضيف ذلك العام عبد الله ملك الأردن، الذي حياها بسرور عظيم، ودعاها «بيرسي كوكس» بعزيزتي دورا، وألحَّ عليها الآخرون: تويدي، وإدموندز، وتشيسمان، لتخبرهم عن أخبار جدة، وكانت المفاجأة ظهور إي.

(١) «فيلبي» في «The Times»: «War Cloud in Arabia»، ١٣٩٢/٣/٢(١٩٧٢/٤/١٦م).



لورانس في الحفل، الذي اتجه إلى دورا وطلب منها أن تنقل تحيته إلى جاك الذي يكن له «إعجاباً شديداً»، ولكن «متى سيتخلص من المطب الذي أوقع نفسه فيه؟»، وأوقفته دورا عند حده كما كتبت إلى «فيلبي»: «أخبرته ألا يرتكب أي خطأ، وأنك لست في مطب، بل تشفق عليه من الطريق الذي سار فيه، وسمعت شهقات حولي، شعرت في البداية أنه يحاول أن يتعالى قليلاً، لكني نجحت في مهمتي بإعجاب».

كانت متاعبها قد هدأت قبل عودتها إلى جدة في أكتوبر، فقد حصل «كيم» على عمل في الصحافة، وأثثت البيت الصغير في «ويلش»، الذي استأجروه من آل بانتوك، ووفرت للبنات إجازة جيدة هناك، وشجعها «فيلبي» على العودة المبكرة إلى جدة: «بغض النظر عن أن المكان قد أصبح أكثر راحة لمن يزورونني من حين إلى آخر، فإنه لجميل منك أن تكوني هنا لتفتحي الرسائل... فبعض شؤوننا كما تعرفين سرية جداً».

كان ينتظرها لدى وصولها على رصيف الميناء بهدية سيارة جديدة تملكها تماماً مع سائق خاص، شعرت بالسعادة وكتبت إلى «ماي»: «حين يجيء جاك من مكة المكرمة، لا أستطيع أن أقول: إن روحي ملكي، لكني أحب الأمور هنا حقيقة». ومع أنها أخبرت لورانس أن «فيلبي» لا يعيش ورطة الروتين، لكنها بدأت تشعر أنه كذلك.

كانت التجارة تزدهر بحلول شتاء ١٣٥٣-١٣٥٤ (١٩٣٤-١٩٣٥م)، ويعود الفضل إلى صفقة فورد، وتسلم الحكومة بعض عائدات النفط. وكانت الشركة الشرقية تبيع بضائع كالأدوية للملك (الذي لديه صيدلية حقيقية)، والكبريت التشيكي، والأدوات المكتبية الحكومية ودراجات هيركيوليز، ومضخات للآبار، وروافع لرصيف ميناء جدة، لكن «فيلبي» افتقد الإثارة المصاحبة للتفاوض على الصفقات الكبيرة باسم الملك. وكان السعوديون يتعلمون الإنجليزية، وأرادوا الاستغناء عن الوسطاء الأجانب، واستخدم «تويتشل» الذي يتكلم بعربية ضعيفة، رجلاً سعودياً يدعى «نجيب صالحة» عندما أخذ امتياز منجم الذهب سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤م)، (كان منجمه المسمى «مهد الذهب» في وسط المسافة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كسب أرباحاً تقدر بعشرين مليون دولار قبل أن يُستنفد بعد الحرب العالمية الثانية). وشعر «فيلبي» بالملل: «كسب النقود مسألة مملة جداً، وأكره مرأى السيارات وصوتها»، وتخلص من هذه المشاعر مع موظفي المكتب.

كان تغيير الموظفين البريطانيين سريعاً كالعادة، وكانت «دوروثي عثمان» مرحباً بها دائماً، ولم يعنفها قط، أما «كازي» المسكين فكان يتأرجح بين تلقي المديح، لأنه العمود الفقري للشركة الشرقية، مرة وبين تلقي الإهانات بسبب استغلال الشركة بعد غياب «فيلبي» الطويل في الديوان أو في إنجلترا مرة أخرى. ولأنه كان مخلصاً لدورا ووفياً لفيلبي، فقد ظل: «حجر العقد في قنطرتنا» حتى مات في أواخر الحرب العالمية الثانية تقريباً، لكنه تلقى معاملة سيئة في أثناء تأدية واجباته، أما الزميل الآخر في تجارة «فيلبي»، مصطفى ناظر فقد أنقذ المكتب من العواصف؛ لأنه ظل سنوات يقوم بدور رئيس محصل ديون جوالاً.

كان «فيلبي» مستاءً في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥م)، إذ إن كتبه كانت توزع بشكل سيئ عدا تلك التي عن الجزيرة العربية، وفي الديوان، كان مضطراً للقيام بعمل غير لائق للضغط من أجل دفع الديون. أجمل أيام إعجاب «فيلبي» بعبدالعزيز آل سعود كانت تلك الأيام ذات المسرات البسيطة؛ سباق الخيل عند الفجر، وممارسة المقالب المرحة، وفحص مخيمه بالمنظار المقرب، أما الآن فقد بدأ «فيلبي» يشكو، وفي المقالات التي كان يكتبها للجمهور الأجنبي، واصل رواياته المتوهجة عن الشؤون السعودية.

نادراً ما عرف «فيلبي» أنصاف الحلول، وما إن توجد غلطة يكتشفها حتى يهب الآخرون بسرعة لمهاجمته، وفي رمضان ١٣٥٣ (ديسمبر ١٩٣٤م) أسرَّ إلى «أندرو ريان» عن بعض همومه فأخبر لندن أن «نقد فيلبي للممارسات والأشخاص السعوديين يتزايد في المحادثات الخاصة»[١]. ولكي يتجنب فيلبي عوامل السخط هذه، ويجمع مادة لكتاب من الكتب التي تلقى رواجاً في السوق، بدأ يتغيب في رحلات صحراوية، يستكشف، ويرسم الخرائط ويصطاد الطيور مدفوعاً بخطابات «بيتز» الحماسية.

اخترق الصحراء التي ليس لها خرائط بين المدينة المنورة وبُريدة في ذي القعدة ١٣٥٣ (فبراير ١٩٣٥م)، وعاد بعد ذلك مباشرة إلى مكة كما ذكرنا سابقاً. وفي

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./ ٣٧١/ ١٩١٠٤. إي ٥٥٧/ ٥٥٧/ ٢٥. تقرير جدة عن شهر رمضان ١٣٥٣(كانون الأول ١٩٣٤م).



أبريل غادر إلى إنجلترا براً مع «دورا» في رحلتهما الطويلة ذهاباً وعودة، ليعودا في شوال ١٣٥٤ (يناير ١٩٣٦م)، وفي مايو بدأ رحلته التي استغرقت تسعة أشهر إلى «شبوة» وما وراءها، ورسم خرائط الحدود. باختصار كان بين سنتي ١٣٥٣و ١٣٥٥ (١٩٣٥ و١٩٣٧م) بعيداً عن الديوان وعن مكتبه في جدة، عدا أشهر قليلة في أوائل سنة ١٣٥٤ (١٩٣٦م)، وبعد أداء فريضة الحج سنة ١٣٥٥ (١٩٣٧م) ذهب في إجازة إلى إنجلترا استغرقت بقية العام؛ ولذا فليس له يد في المعاملات المختلفة التي دارت بين «عبدالعزيز آل سعود» وبريطانيا في تلك الفترة، ومن بينها عودة «لونجرج» للتفاوض على امتياز لشركة نفط عربية ـ غربية سنة ١٣٥٤ (١٩٣٦م)[١]، والرجاء البريطاني للملك أن ينضم إلى الحكام العرب الآخرين في الدعوة إلى إنهاء إضراب عرب فلسطين[٢]، ومحاولة «أندرو ريان» التي انتهت بعدم النجاح، للاتفاق مع الملك على الحدود بين المملكة العربية السعودية ودول الساحل المتصالح وتحت الحماية البريطانية، وكان ذلك أيضاً في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٦م)[٣].

شهد القليل من قلق الملك في أثناء الحرب الأثيوبية، وقد كان قلقاً لأن الملك يفضل بريطانيا على إيطاليا، وشعر بأن الضربة التي وجهها «موسوليني» إلى هيبة بريطانيا تُضعف حليفاً مفيداً على سواحل البحر الأحمر. وفي الوقت الذي عاد فيه إلى العمل في سنة ١٣٥٦ (أوائل ١٩٣٨م) كانت الجزيرة العربية قد فقدت الكثير من سحرها، فالأغنياء الجدد، في رأيه، قد أفسدوا المدن. وكان عليه أن يترك «بيته الصغير الجميل» الذي أهداه إليه الملك في «مكة المكرمة»؛ لأن أحد أصحاب الأموال قد أفسده بتشييد بناية عالية إلى جانبه، فأهداه الملك بيتاً آخر، ولكنه تركه بالطريقة نفسها. وظلت الحاجة إلى ممارسة الضغوط لدفع الديون تؤرقه، فالملك والحكومة قد اشتروا ١٤٥٠ سيارة من الشركة الشرقية خلال ست سنوات، وللشركة دين يبلغ ١٢٠ ألف جنيه، فرأسمال الشركة وربحها مجمدان في الديون الحكومية: «لا يوجد شيء فيها سواء لي أو للمساهمين»، «لقد عزمت ألا استمر في ممارسة توكيلي التجاري إلا إذا دفعوا كل

---

(١) «ستيفن لونجرج» ص١١٤.

(٢) بي. آر. أو. إف. او./ ٣٧١/ ٢٠٠٢١، محضر الاجتماع مع الوزير السعودي، لندن، ١٣/ ٤/ ١٣٥٥(٣/ ٧/ ١٩٣٦م).

(٣) «خير الدين الزركلي»، مج٣-٤، ص١٣٥٨-١٣٥٩.

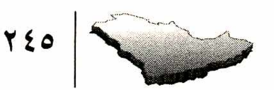
الديون هذا الحج». وكان عزاؤه أنه قد استعاد ثلاثين ألف جنيه ذهباً، ليغطي ديوناً في موعد استحقاقها، وبعضاً من أثمان سيارات فورد مقدماً، وأن بولارد قد عاد وزيراً بريطانياً (صديق ودود لكنه حذر)، وأن أستاذاً أصبح مسؤولاً عن المفوضية، والاستمتاع بتغطية رحلة «لورد آثلون»، وزوجته الرائعة الأميرة أليس في الجزيرة العربية كضيوف على الملك إلى جريدة التايمز (ورجته الصحيفة أن يختصر رسالته)، لكن أفضل حدث وقع له وأرضاه في محرم ١٣٥٧ (مارس ١٩٣٨م)، هو إعلان شركة «سوكالSocal» أن الإنتاج التجاري للنفط قد تحقق، وهذا ما جلب لفيلبي أول ٢٥ ألف دولار متفق عليها، على أن تلحقها دفعة أخرى مماثلة.

كان الخلاف الكبير مع الملك حول موضوع فلسطين السبب الرئيس للاستياء من الديوان، ومع أنه كتب إلى دورا في ١٣٥٧ (ربيع ١٩٣٨م) أنه: «تقريباً الشخص الوحيد الموجود قرب عبدالعزيز آل سعود، ويحدثه عن التطورات الغريبة في أوروبا» (في ذلك الوقت، كان هتلر قد ضم النمسا، وأول حديث له عن عشرة ملايين ألماني خارج الرايخ، والنصر الذي أحرزه فرانكو في إسبانيا بمساعدة ألمانيا وإيطاليا)، وكان موضوع فلسطين ذا أهمية كبيرة عند العرب، وكان يثار دائماً على ألسنة السوريين في حاشية الملك.

وقد سجل ما قاله الملك في إحدى المناسبات: «لماذا أنت صامت يافيلبي؟».

لأني أختلف مع كل كلمة قلتها ياصاحب الجلالة.

واختلافهما كان حول التقسيم، حين وضعت بريطانيا خطة لتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية في سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م)، ورفضها عبدالعزيز آل سعود مثل كل الزعماء العرب الآخرين تقريباً، وكان «فيلبي» مؤيداً لها، ونشر مقالات في الصحافة بعد ذلك يدعم هذا الرأي، لقد اعتقد دائماً بحقوق اليهود واستحقاقهم لدولة. وكان رد عبدالعزيز آل سعود سريعاً ولاذعاً، وأصدر تعليمات إلى ممثليه في القاهرة ولندن في سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م) أن معاملاته مع «فيلبي» شخصية وتجارية فقط، وقد جاء في برقيته: «قد يظن بعض الناس أن آراء «فيلبي» تعكس وجهة نظرنا.. إن آراءه هي وجهة نظره الشخصية ولا تعكس أفكارنا أبداً».



سارع «فيلبي» بعد أسبوع، إلى تأكيد ذلك: «أريد أن أوضح أني أوافق على كل ما أعلنته سفارة المملكة العربية السعودية عني، وأني لم أقم قط خلال العشرين سنة الماضية بالتعبير عن رأي إلا آرائي الخاصة، وأنا سعيد لإتاحة هذه الفرصة لأن أؤكد أنه في الوقت الحاضر وفي الماضي لم تكن لي علاقة رسمية أو شبه رسمية من أي نوع مع جلالته، وإعجابي به هو مسألة أخرى»[(١)].

اتضحت الأمور بذلك، وسعى«فيلبي» وحصل على إذن بنشر مقابلة مع الملك حول فلسطين كان قد قام بها قبل فترة - الأولى التي أعطاها الملك - على أمل أن يحصل من ورائها على ثروة، ولم يرسلها إلى الصحافة البريطانية فقط بل إلى الصحافة الأوروبية كلها.

كان لب وجهة نظر الملك أن انتزاع الأرض من العرب وإعطاءها لليهود ظلم بيّن، وأنه إذا تكونت دولة يهودية فلن يعترف بها حتى لو اعترفت بها كل الدول العربية الأخرى. وبما أن التصريح بنشر المقابلة جاء في وقت أزمة «ميونخ»، فإن الأخبار الأكثر أهمية احتلت صفحات الصحف التي تدفع، ولم تنشر المقابلة، وفي النهاية لم تجلب له نقوداً، وإن نشرت في دوريتين شهريتين أوروبيتين.

عندما وصلت «دورا» و«ديانا» من القاهرة في ١٣٥٧ (خريف ١٩٣٨م)، وجدتا «فيلبي» يشكو من الإدارة السعودية، ومن الديون السعودية، وأخبرهما: «أن السنين تمر وأنا أضيّع وقتي في الجزيرة العربية».

أراد أن يغادر «مدة سنتين تقريباً»، ووضع اسمه مرة ثانية على قائمة مرشحي حزب العمل في إحدى الدوائر الانتخابية: «العمل الذي لا يجلب النقود أكثر إثارة للاهتمام»، وربما حاول أن يلقي محاضرات في أمريكا.

عندما غادر جدة أخيراً في ذي القعدة ١٣٥٧ (يناير ١٩٣٩م) متوجهاً إلى لندن، ترك دورا وديانا وراءه تطبعان كتبه على الآلة الكاتبة وتتدبران أمر مراسلاته الخاصة،

---

(١) «Oriente Moderno» رمضان ١٣٥٧(تشرين الثاني ١٩٣٨م، ص٥٨٣-٥٨٧، و «World Review»، مج٦، رقم٣، رمضان ١٣٥٧(تشرين الثاني ١٩٣٨م)، ص١.

واتجه إلى بيته في «كول رود»، وكانت تعتني به «بات»، ومتوقعاً الإثارة، لأنه سيصحب ممثلي المملكة العربية السعودية إلى مؤتمر المائدة المستديرة الذي كانت بريطانيا على وشك أن تعقده حول قضية فلسطين، وسمع أيضاً من «فرانك جالتون» العضو في الجمعية الفابية، أن دائرة ديبنج لحزب العمل على استعداد لأن تقدمه مرشحاً قوياً، فكتب إلى جدة: «سيكون من الممتع جداً أن أواجه ونستون، ولا أمل في دخول البرلمان بالطبع».

الفصل الحادي عشر



المروج للسلام

عندما أوضح «فيلبي»، بعد تحوله إلى الإسلام، أن حقده على الحكومة البريطانية قد انتهى، فقد كان يعني ما يقوله، وكان تفكيره مدة خمس سنوات مركزاً في أمور، وكانت ملفات وزارة الخارجية، ولفترة من الزمن، خالية من مخالفاته. وفي إجازته في بريطانيا سنة ١٣٥٤ (صيف ١٩٣٥م)، وجد الاحترام في عين كل شخص، وطُلب منه أن يتحدث في «Chatham House»حيث أسهب في الكلام عن مزايا بريطانيا والجزيرة العربية، وأيضاً عن مثالبهما[١].

دُعي إلى جميع الحفلات الرسمية في أثناء الزيارة الرسمية التي قام بها ولي العهد الأمير سعود إلى لندن، وأقام هو ودورا حفلة في فندق كارلتون (تكلفت أكثر من ٧٠ جنيهاً، لقد تغير الزمن)، وفي العشاء الذي أقامته وزارة الخارجية على شرف الأمير، جلس «فيلبي» وسط مسؤولين كبار: بين كوزمو باركنسون، وهوراس سيمور، وفي مواجهة فانسترات، وستورز وريان، ولأنه راوية رائع، فقد أمتعهم كثيراً.

كان الصيف هادئاً، وقضت العائلة معظمه في ويلز، وادعى أنه كان يعلم البنات التدبير المنزلي، فقد أرسل «دورا» إلى لندن، وجعل البنات تدرن البيت على الطريقة العربية، وتغسلن الملابس على حجارة مجرى «ويلش» البارد.

---

(١) آر. آي. آي. آي، لندن، «International Affairs»، جمادى الآخرة - رجب ١٣٥٤(أيلول - تشرين الأول ١٩٣٥م)، ص٦١٩-٦٣٤.

قابل «ليزي» (زوجة كيم) ولم يعجب بها، إذ زودته وقاحتها بحكايات مشكوك في صحة معظمها، ولكنه أصبح (حسب قول إريك ماكسويل، وهو صديق من أيام وستمنستر) محرجاً؛ لأنه انتقد زواج كيم، لكنه نادراً ما كان يغضب من كيم طويلاً، وحين فقد الأخير عمله محرراً للشؤون الخارجية في صحيفة شهرية صغيرة، سعى لتوفير عمل بديل له.

زار «فيلبي» في سنة ١٣٥٦ (صيف ١٩٣٧م) «روبن بارنجتون - ورد» نائب رئيس تحرير جريدة التايمز، بشأن بعض مقالاته، وفي الوقت نفسه للاستفادة من زمالته في وستنمستر. وحسب قول «بارنجتون - ورد» في يومياته بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٥٦ (٢٠ مايو ١٩٣٧م): «تناول «فيلبي» معي طعام الغذاء، واقترحت عليه (بعد الحديث مع رئيس التحرير جيوفري داوسون، ومحرر الشؤون الخارجية ديكن بالأمس) أن يصبح ابنه، وقد كان أيضاً تلميذاً في وستمنستر، مراسلنا الخاص مع قوات فرانكو في إسبانيا، ولقد تمسك بالفرصة، ثم تحدث عن الجزيرة العربية ورحلته المثيرة هناك، والمعارضة التي واجهها من الحكومة البريطانية في عدن، والتي تعده شخصاً غير مرغوب فيه؛ لأنه مستشار للمملكة العربية السعودية، وأنكرته بطريقة تجعل أي عربي يقتله ببساطة. رجل قوي، مستقل ومتمرد، ومسلم بالديانة الآن، وزارني ابنه كما هو متوقع، يبدو جيداً وقد وظفناه»[(١)].

كان عمل «فيلبي» المغامر في محمية عدن سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م)، قد أفقده تقدير الحكومة البريطانية.

وفي إجازته سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م) كان الإعجاب عاماً باستكشافه الفذ في جنوب الجزيرة العربية، لكن المسؤولين البريطانيين غضبوا من الطريقة المتعمدة لتجاهل طلبهم له بمغادرة المحمية وعدم التعمق في الداخل[(٢)]، لكنه لم يهتم، وقد كانت له

---

(١) «آر. إم. بارنجتون– ورد «مفكرة يومية، مقتبسة بإذن من السيدة أديل بارنجتون - ورد».

(٢) بي. آر. أو. إف. أو./ ٣٧١/ ١٩٩٧٩. أي ٦٩٩٥/ ٥٤٠٤/ ٩١. من عدن إلى لندن، ٥/ ٨/ ١٣٥٥(٢١/ ١٠/ ١٩٣٦م).



مظلمة، فقد عادت الحكومة البريطانية إلى عادتها القديمة في الاندفاع ببطء في الأراضي العربية المستقلة.

لقد رأى بنفسه أن شيوخ القبائل حول «شبوة» و«العبر» ليس لهم ولاء لأحد، وقال: إنه ينطبق عليهم مبدأ الأرض المستقلة التي وعد بها «ماكماهون» بعد الحرب العالمية الأولى، فبأي حق يقوم نظام الحماية في عدن بضم سبعين ألف ميل مربع من المناطق البعيدة عن السواحل إلى الإمبراطورية البريطانية؟[١]. وهل هذه الإمبراطورية تجلب فوائد الحضارة إلى هؤلاء الناس حين تضربهم بالقنابل من الجو عقاباً لهم على عدم الطاعة؟ وزود الصحفيين وملأ الصحافة الراديكالية بمثل هذه القصص، ومرة أخرى أصبح شخصاً مؤلماً للخارجية البريطانية، وخصوصاً أن خبراء الدعاية الإيطاليين استخدموا هذه المقالات لإبعاد الأنظار عن التصرفات الإيطالية في إثيوبيا. وقد كتبت السفارة البريطانية في القاهرة: «عملنا ـ في مواجهة الدعاية الإيطالية ـ لم يعد سهلاً لأن رجلاً إنجليزياً ـ «فيلبي» المشهور ـ ينشر مواد ـ بالحكم على طبيعة ما جاء فيها، تبدو وكأنها دعاية إيطالية مدفوعة الأجر.. فإحدى مقالاته تدين سياستنا في حضرموت، وسلسلة مقالاته ـ استعراض الأحداث العالمية ـ أعيد نشرها في جريدة Giornale d Oriented وبالطبع اقتبست منه الصحافة العربية[٢].

أعاد «جوبلز» نشر (سلسلة مقالاته عن الأحداث العالمية في سنة ١٣٥٦ و١٣٥٧ (يناير وأبريل ١٩٣٨م) حول ضرب الجزيرة العربية بالقنابل لأغراض دعائية إيطالية[٣]. ومع ذلك لم يكن «فيلبي» معارضاً للحكومة البريطانية في كل مجال، فكما رأينا، لقد وافق على خطتها لتقسيم فلسطين في جمادى الأولى ١٣٥٦ (يوليو ١٩٣٧م)، وقبل أن تظهر تلك الخطة إلى الوجود، كانت له اتصالات مع بن جوريون ـ بناء على طلب الأخير حول خطة من خططه الخائبة الأخرى ـ بواسطتها يُعطى

---

(١) كانت مساحة المحمية المعطاة في «Statesmans Year Book» تقدر بـ٤٢,٠٠٠ ميل مربع، وبعدها، ١١٢,٠٠٠، وذلك الأمر الذي صدر سنة ١٣٥٦(١٩٣٧م).

(٢) بي. آر. أو. إف. أو./٣٧١/ ٢١٨٣٤.أي ٣٦٠/ ٣٦٠/ ٩١. من القاهرة إلى لندن بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٣٥٦(١٨/ ١/ ١٩٣٨م).

(٣) معلومات مستقاة من البروفيسور «دينيسماك– سميث، أكسفورد، ١٣٩١(١٩٧١م).

اليهود حقاً مطلقاً بالهجرة إلى فلسطين كلها تحت حماية عبدالعزيز آل سعود[١]. لكن ما إن نشرت خطة التقسيم البريطانية حتى تحول «فيلبي» إلى تأييدها، ولكن موافقته على أحد المشروعات البريطانية لم يؤثر في رفضه لمشروعات أخرى.

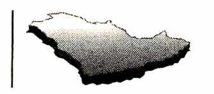
حمله غيظه ليزعم علناً أن البريطانيين «أرادوا إطلاق النار عليّ» في أثناء محاضرته في الجمعية الملكية الآسيوية المركزية عن مغامراته في جنوب الجزيرة العربية ومحمية عدن. الحاضرون من الأصدقاء القدامى يذكرون الضجيج الذي حدث بعد ذلك، وأحدهم «الكولونيل ستيورات نيوكومب» وقف صائحاً: «كلام فارغ»، ودوت في القاعة صيحات: «هراء هراء»، وغادر بعض الحضور. فلا عجب أن تقول دورا لصديقة قديمة وهي خارجة من محاضرة في الموضوع نفسه: «الحمد لله أننا خرجنا بهدوء»، لكن «فيلبي» كان راضياً، فمقالاته وأحاديثه الإذاعية التي تُطلب منه أصبحت الآن تدور حول موضوعين جديدين رائعين: أرض سبأ وتقسيم فلسطين[٢]، والنقود تتدفق، وفي فترات الراحة يشغل نفسه في المتحف البريطاني بالحقائب الأربع عشرة التي أحضرها معه من جنوب الجزيرة العربية وجبال عسير، وتحتوي على طيور جديدة وعينات أخرى.

اتجه هو وديانا ودورا إلى القاهرة في ديسمبر ١٣٥٦ (١٩٣٧م) بالسيارة عن طريق Bayonne ليزوروا «كيم»، وفي الإسكندرية سمعوا أخبار المحنة التي حدثت له في إسبانيا؛ إذ لجأ مع ثلاثة صحفيين آخرين في سيارة قرب Ternel اتقاءً للبرد عندما ضربوا بالقنابل، وقُتل أحد المراسلين على الفور، ومات الآخران متأثرين بجراحهما، ونجا كيم بجروح خفيفة في الرأس. وغادر «فيلبي» تاركاً عائلته في القاهرة، على أن

---

(١) نسخة موجودة في الأرشيف الصهيوني، القدس، إس ٢٥/١٠٠٩٥.

(٢) «New York Times» ٦-١٣/٧/١٣٥٦(١٢-١٩/٩/١٩٣٧م)، مكتب الشؤون الخارجية (نبويورك)، شعبان- ١٣٥٦(تشرين الأول ١٩٣٧م). مخطوطات تابعة لـ BBC معدة للبث في ٥/٦/ ١٣٥٦(١٣/٨/١٩٣٧م)، وفي ١٧/٧/١٣٥٦(٢٣/٩/١٩٣٧م). (في سلسلة الشرق الأدنى والمتوسط)، ٢٦/٩/١٣٥٦(٣٠/١١/١٩٣٧م)، آر. جي. إس. «The Land of Sheba» مج٩٢/ رقم ١، تاريخ ٣/٥/١٣٥٧(١/٧/١٩٣٨)، ص١؛ و رقم ٢ في جمادى الآخرة(آب ١٩٣٨م)، ص١٠٨.



تنضم إليهم هناك البنتان الصغرى وصديقة «فيلبي» من هيئة مكتبة جمعية «Athenaeum باميلا لوڤيبوند».

لقد أصبحت ابنته ديانا في الثامنة عشرة، وحان موعد بدء علاقاتها الاجتماعية بعد تقديمها للبلاط في لندن، ولكن «دورا» كانت تشعر بالغضب لأنهم لم يُدعوا إلى حفلات السفارة بسبب القلق الرسمي من مقالات «فيلبي» حول إلقاء القنابل في محمية عدن، وقد كتبت إلى «ماي»: «أمر سيئ من جاك»، وذهب «فيلبي» وحده، ذاهلاً، إلى جدة ليقضي آخر سنة من العمل الثابت مع الشركة الشرقية.

غادر «فيلبي» إلى لندن في ذي القعدة ١٣٥٧ (أوائل عام ١٩٣٩م) بناء على طلب من عبدالعزيز آل سعود، ليكون على مقربة من مؤتمر المائدة المستديرة حول فلسطين، وفي هذا المؤتمر طور فكرة جديدة لحل مشكلة فلسطين، وشرحها للشخصيات البريطانية الكبيرة، طالباً منهم أن يعرضوها على رئيس الوزراء، كما قدمها لليهود، وإلى شخصية عربية واحدة على الأقل، فقد كتب إلى دورا التي بقيت في جدة في ٢٨ فبراير: «تناولت طعام الغداء سراً في «إكول رود» ـ مع د. وايزمن وبن جوريون، وسنلتقي في اجتماع آخر لنواصل الحديث، وتتلخص الخطة في أن يصبح «فيصل» ملكاً على فلسطين مقابل التساهل في هجرة اليهود، فلنقل خمسين ألفاً في السنوات الخمس القادمة».

وايزمن هو الوحيد الذي تحدث بصوت عالٍ في هذه الوجبة السرية، وكتب «فيلبي» عنها إلى دورا: «كنت أقوم بدوري من وراء ستار».

عندما سار هتلر بقواته إلى براغ في ٢٣ من المحرم ١٣٥٨ (١٥ مارس ١٩٣٩م) وضم التشيك إلى الرايخ، معظم المدافعين عن التهدئة من رئيس الوزراء وجريدة التايمز وما يليهما، غيروا نغمتهم، لكن «فيلبي» لم يفعل ذلك، فقد كان رأيه منذ وقت طويل: «أن أي قضية مهما كانت لا تستحق سفك الدماء البشرية»، وقد قوى هذا الاقتناع لديه في أثناء زياراته المتعددة مع والدته لقبري أخويه في فرنسا، اللذين كانا ضحية الحرب الأولى؛ وزاد هذا الاقتناع بنجاة «كيم» في إسبانيا، وأصبحت مشكلته الآن تكمن في البحث عن أفضل الطرائق لإعلان دعوته إلى الحل السلمي.

أسقطه جمهور الناخبين في حزب العمل في Epping، بعد عودته من الجزيرة العربية مباشرة، بسبب الأسس المعتادة ـ عدم اهتمامه بشؤون الوطن المحلية. ومع ذلك احتفظ باسمه في سجلات حزب العمل، الذي قبله مرشحاً قوياً في ١٣ صفر ١٣٥٨ (٤ أبريل ١٩٣٩م). ولكنه، في الوقت نفسه، خرج عن التيار الرئيس لحزب العمل، لينضم إلى دعاة الحل السلمي الذين يقبعون في الخلف. وفي ٢٥ أبريل، كتب رسالة طويلة إلى جريدة «المانشستر جارديان» يؤيد إزالة: «المظالم التي تؤدي إلى الحرب»، وخصوصاً تلك التي لألمانيا وإيطاليا واليابان حول جشع الإمبراطوريات الاستعمارية. ونتيجة لهذه الرسالة أقام علاقة مع لورد تافستوك القائم بحملة ضد «الحرب والربا الفاحش»، وأسس حزب الشعب البريطاني، الذي كتب: «نحن لسنا دعاة سلام مثل «موسلي Mosley» لكننا نعارض أن نُجرَّ إلى الحرب». وقد أرسل خمس جنيهات إلى الحركة، وكان يعمل في مجلس الشورى بعد أن قبل مبادئها؛ وأهم هذه المبادئ عدم الاشتراك في الحروب «التي قد تؤثر في الاستقلال القومي وفي أمن شعوبنا»، وحماية الإنسان البسيط في مواجهة الاحتكارات التجارية الضخمة، وكان الهدف الثاني قد صيغ في مصطلحات تناسب هتلر.

وافق في منتصف يونيو على أن يتقدم إلى انتخابات البرلمان على مبادئ الحزب الجديد، وبحلول شهر يوليو كان ينافس في الانتخابات في Nythe على مقعد مضمون للمحافظين، واستنكرت العائلة موقفه، ومع ذلك التفت حوله، فصنعت «ديانا» أشرطة حريرية لتأييده، وذهبت مع دورا إلى الكنيسة: «لنظهر أننا لسنا مسلمين»، وعمل «فيلبي» بنشاط، يتحدث ثلاث مرات في الليلة، ويجمع التأييد من اليمين واليسار، ومن المناصرين لدعاة السلام الذين قدموه إلى «أزوالد موسلي»، وأيضاً من المؤيدين لكانون ديك شيبارد من «اتحاد التعهد بإحلال السلام»، وجاء «د. مود رويدن» من لندن ليتحدث لمصلحته، وخاطب جمهور الناخبين قائلاً: «بيدكم أنتم أن تختاروا بين الحرب والسلام، وأرجوكم أن تفكروا جيداً وبحرص، هل أنتم متحمسون للتحالف بين هذا البلد وروسيا البلشفية العطشين إلى الدماء، سفاحي الكرملين، كما سماهم ونستون تشرشل.. يمكن أن يكون هناك سلام مشرف مع ألمانيا، فألمانيا تريده، والبابا يريده، والأمريكيون يريدونه...».

لم يأت الكلام بنتيجة، فقد حصل على ٥٧٦ صوتاً من مجموع ١٦٩.٢٢ قاموا



بالاقتراع، وفقد مبلغ التأمين، وقد كلفته هذه الانتخابات ١٢٠٠ جنيه. ودون أن يحول بينه وبين أهدافه شيء، ألح على الصحف برسائل تزعم أنه تنبأ بالاتفاق الروسي الألماني، وبمصير بولندا الذي: «يجب أن يحذرنا ونتوقف عن الحماقة التي تجعلنا نرفض حقيقة أن ألمانيا عامل أساسي في تشكيل الأمور القادمة».

كان «فيلبي» يؤمن دائماً أن الفرد يمكنه أن يكون وطنياً دون أن يقبل بالضرورة سياسة حكومته. وما إن اشتعلت الحرب حتى قدم خدماته للحكومة البريطانية بوصفه خبيراً بالعرب، وكان يعتقد أنهم سيقبلونه صديقاً في المخابرات الحربية، ورشحه «الكولونيل و. ج الفنستون Elphinston» على وظيفة في وزارة الحربية تتناول التخابر والتخابر المضاد في الجزيرة العربية، ووافق «فيلبي» بشرطين، فقد تلقى في الأسبوع الثاني للحرب برقية من عبدالعزيز آل سعود يطلب منه العودة «على جناح السرعة»، فطلب ألا يحمل رتبة عسكرية، وأن يعرف عبدالعزيز آل سعود بالوظيفة التي يحتلها.

ظل ينتظر الأمر بتحركه حتى أكتوبر، لكنه عرف أن هناك عقبة أمامه، وأن «الكولونيل جيرالد ديجوري»؛ وهو مستعرب خدم عسكرياً ودبلوماسياً في العراق والجزيرة العربية والكويت، قد أخذ وظيفته. بلا شك أن شخصاً ما قد تفحص علاقته بدعاة السلام المثيرين للريبة. وبينما كان يأمل بالحصول على الوظيفة، شغل نفسه ثانية بالقضية الفلسطينية، وهذه المرة نيابة عن «عبدالعزيز آل سعود» أكثر منه نيابة عن سكان فلسطين.

وقد اعتقد «فيلبي» أن هذه الحرب إذا تشابهت مع الحرب السابقة، فالحج سيتوقف في واقع الأمر، ويصبح نقل البترول صعباً، وستقل إيرادات عبدالعزيز آل سعود التي يعتمد عليها في إدارة مملكته، فكيف يمكن موازنة هذا الفقد؟

بدأ يعالج هذا الأمر في شعبان ١٣٥٨ (٢٩ سبتمبر ١٩٣٩م)، وبالمصادفة، قابل البروفيسور «لويس نمير» في جمعية Athenaeum، وقد كان هذا يهودياً صهيونياً، وقد أغضب «فيلبي» بتهنئته على ولاء العرب لبريطانيا، وابتلع «فيلبي» السخرية، وقال: ولاء العرب كلام فارغ، فحتى أصدقاء بريطانيا القدامى ـ عبدالعزيز آل سعود،

ونوري باشا في العراق ـ يأخذون الضمانات من مبعوث هتلر النشيط في الشرق الأوسط ـ الهر جروبا. لكن عربياً واحداً ـ عبدالعزيز آل سعود ـ يمكن أن يقف إلى جانب بريطانيا لو حصل على ما يحتاج إليه من النقود والسلاح. وقد دوّن «نمير»: «من الواضح أنه يود التحدث مع عبدالعزيز آل سعود عن قرض يهودي بشكل ما إلى المملكة العربية السعودية». واقترح عليه أن يرى د. وايزمن قبل الذهاب إلى هناك.

تناول ثلاثتهم مع موشي شرتوك طعام الغداء معاً في ٨ أكتوبر، (كان وايزمن في ذلك الوقت رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، ورئيس الوكالة اليهودية، وشرتوك المسؤول السياسي في الوكالة اليهودية، بينما «نمير» يعمل أستاذاً للتاريخ الحديث في جامعة مانشستر)، واقترح «فيلبي» أنه في مقابل عشرين مليون جنيه إسترليني تدفع لعبدالعزيز آل سعود، يأخذ اليهود غرب فلسطين وجزءاً من مدينة القدس القديمة يشبه «مدينة الفاتيكان» وفي الوقت نفسه تقوم بريطانيا بالمساعدة على تأمين وحدة العرب واستقلالهم الذي يمكن تحقيقه على يدي عبدالعزيز آل سعود فقط.

وحسب رواية وايزمن لما حدث، فإن خطة «فيلبي» اشتملت على «ترحيل معقول للسكان العرب»، وقد أوضح وايزمن أن الصهاينة يمكن أن يقدموا وعوداً اقتصادية مفيدة تعتمد على اليهود وحدهم فإنه: «لا يمكن أن يقدم أي وعود في المجال السياسي حيث لا يملك القوة «لتسليم البضاعة»، وفوق ذلك لا يمكننا عمل شيء قد يتعارض مع ولائنا تجاه بريطانيا العظمى وفرنسا»[١]، وذكر أنه سيسافر إلى أمريكا قريباً، حيث يتوقع مقابلة روزفلت وسيبحث تأييده للخطة، وسافر «فيلبي» إلى الجزيرة العربية ليفعل المثل مع عبدالعزيز آل سعود.

توضح بقية هذه القصة فكرتين ثابتتين عند «فيلبي» في المعادلة الفلسطينية: أولاهما إيمانه المطلق بقدرته على التأثير في مجرى الأحداث، ودوام الثقة الصهيونية بمقدرته على التوسط.

---

(١) مجموعة من المذكرات والرسائل تتعلق بهذه المفاوضات، كتبها «نامير» و «فيلبي» و «وايزمان» و «دورا»، وموجودة بشكل نسخ فوتوستاتية في وثائق «فيلبي»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.



فتح «فيلبي» موضوع الخطة مع عبدالعزيز آل سعود في ذي القعدة ١٣٥٨ (الثامن من يناير ١٩٤٠م) وتبعاً لبحث كتبه في شوال ١٣٦١ (نوفمبر ١٩٤٣م)، قال فيه إن الملك رد ببساطة بأنه: «سيعطيني رداً محدداً في الوقت المناسب»، وفسَّر «فيلبي» عدم إعطاء الرد بأنه موافقة، وكتب إلى دورا على الفور: «لقد قُبلت الخطة وأنه يفكر في كيفية وضعها موضع التنفيذ». وكان عبدالعزيز آل سعود قد أمر «فيلبي» ألا يخبر أحداً بالموضوع، وكان غضبه شديداً، حين أخبر «فيلبي» بغباء كلٍّ من يوسف ياسين وبشير السعداوي من حاشية الملك؛ لأنه بذلك ساعد رجال الديوان السوريين والفلسطينيين على إثارة المعارضة للتعامل مع اليهود، وفي الوقت ذاته، أبرق وايزمن من واشنطن يتساءل كيف تسير الأمور، ورد عليه «فيلبي» في الثاني من فبراير بأن الأمور «تسير ببطء». وكانت دورا على اتصال بكل من وايزمن ونمير، وتزودهما بالأخبار التي تدور في جدة، وقد طبعت رسالة لفيلبي موجهة إلى وايزمن في ١٦ أبريل: «لم يقل عبدالعزيز آل سعود نعم أو لا حتى الآن. والحقيقة أنه ميال إلى العرض، ولكن يفكر بكيفية تنفيذه دون إثارة موجة غضب وسط عناصر عربية معينة.. ويمكن للدكتور وايزمن أن يسير في خطته وينجز الدور الأمريكي في الخطة، ولكن علينا أن ننتظر قليلاً حتى تسنح الفرصة المفضلة لوضعها موضع التنفيذ. غير أن الملك عبدالعزيز آل سعود لا يمكن أن يضحي بالمصالح العربية في سبيل طموحاته».

وظل «فيلبي» على مثابرته، وفتح الموضوع ثانية مع الملك في ربيع الأول ١٣٥٨ (مايو ١٩٤٠م)، لكن، كما سنرى، كان آنذاك قد أثار غضب الملك في قضايا أخرى، وانتهى دوره في العملية بمغادرته الجزيرة العربية في يوليو. ومع ذلك، فإن بقية القصة تستحق أن تروى، لأنها تبين كم كان «فيلبي» بعيداً عن الصواب في اعتقاده أن «الملك عبدالعزيز آل سعود» يمكن أن يوافق على عروضه بشأن فلسطين.

ظل نقاش وايزمن مع روزفلت سنة ١٣٥٨ (١٩٤٠م) «نظرياً»[1]، لكنه حاول ثانية سنة ١٣٦١ (١٩٤٢م)، وفي ١١ مارس من تلك السنة، التقى تشرشل مباشرة قبل ذهابه إلى الولايات المتحدة، وتحدث الأخير بشيء ما حول جعل عبدالعزيز آل سعود

---

(١) «حاييم وايزمان»، «Trial and Error»، لندن، ١٣٦٨(١٩٤٩م)، ص٥١٦.

«ملك الملوك» في العالم العربي «بشرط أن يتفق معك»، وربط وايزمن بشكل طبيعي بين «عرض» «فيلبي»، وخطة تشرشل[(١)]. ومما أكد له إمكانية العلاقة بينهما، حديث أجراه وايزمن، مباشرة بعد غدائه مع «فيلبي»، مع عضو من المحافظين في البرلمان هو «برندان براكين»؛ لأن هذا الأخير أخبر تشرشل في رسالة بتاريخ ١٣ أكتوبر: «أن وايزمن يتحدث عن خطة لتوطين عرب فلسطين في بلد آخر.. إنها خطة جريئة إن لم نقل مجنونة.. نحن نعيش في عالم يرسم خططاً سيئة لكنها قد تنجح»[(٢)]. لكنها لم تنجح قط في سنة ١٣٩١ (أغسطس ١٩٤٢م) أوفد وزير الخارجية الأمريكي، كورديل هل، بموافقة بريطانيا، بعثة أمريكية إلى الشرق الأوسط «لتستفيد من النيات الطيبة الموجودة» وكانت برئاسة مستعرب ممتاز هو «هارولد ب. هوسكنز»، لم يكن يعرف شيئاً عن خطة «فيلبي»، وعاد ليوصي بالسماح لنصف مليون يهودي بدخول فلسطين لموازنة الأمور، وأن دولة ثنائية الجنسية في فلسطين ينبغي أن تشكل جزءاً من فيدرالية تشمل كل سورية التاريخية[(٣)].

وبحلول سنة ١٣٦١ (١٩٤٣م) حين انتهى تهديد «رومل» للشرق الأوسط، كان العرب واليهود يضغطون على الرئيس روزفلت ليساعد في تشكيل مستقبل فلسطين، وأرسل روزفلت إلى عبدالعزيز آل سعود رسالته الشهيرة التي تقول بأن العرب واليهود ستتم استشارتهم حول أي قرار يغير من الوضع الأساسي في فلسطين، وناقش مع وايزمن إمكانية عقد مؤتمر يحضره هو وتشرشل، فاقترح «وايزمن» آنذاك تليين موقف عبدالعزيز آل سعود عن طريق إرسال مبعوث يثق به الملك، ورشح «فيلبي» أو «هوسكنز» للقيام بالمهمة[(٤)]. وكلف هذا الأخير من قِبل «كورديل هل» للقيام بالعمل ـ تحديداً ليستطلع رأي الملك بإمكانية الدخول في محادثات مع

---

(١) ذُكر سابقاً، ص٥٢٦، و« Foreign Relations of the United States»، ١٣٦١(١٩٤٢م)، مج٤، ص٥٥٠.

(٢) بي. آر. أو. رئيس مجلس الوزراء ٤/٥١/٩، الجزء الثاني، ص١٢٧٨-١٢٧٩. أنا أدين بالفضل لـ «اميتزور ايلان» من كلية القديس «أنطونيو» بهذه المعلومات الموثوقة.

(٣) « Foreign Relations of the United States»، ١٣٦١(١٩٤٢م)، مج٤، ص٢٧-٢٨، وأيضاً تقرير «هوسكنز» سنة ١٣٦٢(١٩٤٣م)، مج٤، ص٧٨٢-٧٨٥.

(٤) ذُكر سابقاً، مذكرات د. «وايزمان»، ٨/٦/١٣٦٢(١٢/٦/١٩٤٣م)، ص٧٩٤.



وايزمن[١]. وأمضى «هوسكنز» أسبوعاً في الرياض يقابل الملك يومياً على انفراد، وفي أثناء محادثاتهما أدرك أن الملك سيرفض مقابلة وايزمن، فطوّر عرضاً يختلف قليلاً عن التعليمات التي أعطيت لـه: هل يعين الملك مندوباً عنه ليقوم بذلك؟ عند هذا الحد، ولدهشة هوسكنز، انفجر الملك غاضباً، إنه يكره وايزمن بصفة شخصية لأنه طعن في نزاهته بعرضه رشوة تقدر بعشرين مليون جنيه إذا قبل إخراج السكان العرب من فلسطين. وحين ضغط هوسكنز لمعرفة التفاصيل، أخبره أن «فيلبي» كان الوسيط. «والأكثر من ذلك، قيل للملك أن الدفع سيضمنه الرئيس روزفلت، وقال جلالته: إنه غضب جداً من العرض وأيضاً من إشراك الرئيس بهذه الطريقة المخجلة في موضوع لم يشر إليه ثانية قط»[٢].

واستنتج هوسكنز بحق أين أخطأ «فيلبي»، فاعتبار الصمت دلالة على الاستعداد لقبول العرض، إساءة فهم تامة للملك. وسافر هوسكنز إلى لندن في نوفمبر ليطلع وزارة الخارجية البريطانية على نتيجة بعثته، وقابل وايزمن في ٧ نوفمبر، ثم مرة ثانية مع «نمير» بعد أيام قليلة، وأزال الغشاوة عن أعينهما ورأى أن «فيلبي» لا يعبر عن رأي «الملك عبدالعزيز آل سعود»، وأخبرا «فيلبي»، الذي استشاط غضباً، وطلب بناء على اقتراحهما، أن يرى هوسكنز.

على الرغم من كل هذه الأدلة لعدم استعداد الملك عبدالعزيز آل سعود للقيام بالصفقة، فإن «فيلبي» و«وايزمن» لم ينفضا أيديهما من الخطة، فقد جاء في نهاية ما دونه «فيلبي» عن حديثه مع هوسكنز: «أن روايته عن محادثاته مع الملك لم تهز قناعتي، هذه القناعة التي أراهن عليها بكل سمعتي، وهي كل ما أملك لأراهن عليه، وقد ضحيت بوظيفتي في سبيل النضال من أجل استقلال العرب، وبأنه غادر الجزيرة العربية بعرض حازم من الرئيس روزفلت نيابة عن الحكومتين البريطانية والأمريكية على أساس «الخطة»، وأن ذلك العرض قد قبل...»[٣]. بعد شهر، كتب

---

(١) ذُكر سابقاً، من وزير الخارجية إلى «هوسكنز»، ١٣٦٢/٧/٤(١٩٤٣/٧/٧م)، ص٧٩٦.
(٢) ذُكر سابقاً، مذكرة من «هوسكنز» من القاهرة بتاريخ ١٣٦٢/٨/٢٩(١٩٤٣/٨/٣١)، ص٨٠٧-٨١٠.
(٣) مذكرة بتاريخ ١٣٦٢/١١/١٩(١٩٤٣/١١/١٧م)، موجودة في وثائق «فيلبي»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد.

وايزمن إلى «سمر ويليس Summer Weles» يطلب منه إخبار الرئيس بأنه لم يكن مخطئاً قط بالزج باسم الرئيس كضامن للدفع، وفي الوقت نفسه عاد إلى تفويض «فيلبي» بالخطة: «إنها تقوم على خطوط كبيرة، كبيرة لدرجة أن ترضي الآمال المشروعة لكل من العرب واليهود، والاهتمامات الإستراتيجية والاقتصادية للولايات المتحدة وبريطانيا.. ولو نُفِّذت بشكل صحيح فإن خطة «فيلبي» تقدم مدخلاً لا يجب أن نتخلى عنه دون مزيد من الفحص»(١).

ظل «فيلبي» على اتصال بالأصدقاء الذين عرفهم في أثناء انتخابات Hythe، وهو ينتظر الأخبار من الكولونيل «والفنستون». وفي رمضان ١٣٥٨ (أكتوبر ١٩٣٩م) كوّن جماعة من هؤلاء الأصدقاء «مجلس شورى بريطاني لاتفاقية مسيحية في أوروبا». وطبعت نشرات بعنوان «أوقفوا الحرب» وهذا ما لفت أنظار البوليس إليهم(٢).

انضم «فيلبي» إلى هذا المجلس لكن قلبه كان في مكان آخر، يقوم بالعمل الذي يستطيع أن يفعله فقط. وحين علم أن خطة «الكولونيل والفنستون» لم تنجح، أعفى نفسه من الخدمة الحربية، وسعى للحصول على «تأشيرة» خروج، وغادر إلى الجزيرة العربية في ذي القعدة ١٣٥٨ (ديسمبر ١٩٣٩م): «كنت أشعر بعزاء غريب أن هناك ملكاً آخر وبلداً آخر ليس فقط يحتاجان إلي لكنهما يريداني بشكل كبير».

سافر عن طريق القاهرة والخرطوم ومكث مع الحاكم العام، ثم وصل بورسودان في يوم عيد الميلاد، ومن جدة كتب إلى دورا بشوق: «كل شيء يذكرني بغيابك؛ غرفتك الخالية ومكتبك، شرب الشاي في الصباح وحيداً، الأرائك الخضراء حول الأعمدة في الفناء، أظن أننا اشتريناه منذ ست سنوات، وهو أكثر من مقر لنا في أي مكان عدا «أكول رود» و«كروس ويز».. كان من الأجدى أن أدير إمبراطورية لا منزلاً».

---

(١) ذُكر سابقاً، رسالة بتاريخ ١٣٦٢/١٢/١٥ (١٩٤٣/١٢/١٣م).

(٢) محاضر جلسات البرلمان البريطاني: مجلس العموم، بتاريخ ١٣٥٨/٩/٥ (١٩٣٩/١٠/١٩م)، الفقرة ١٠٤٤. إجابة قدمها وزير الداخلية.

بعد يوم أو يومين في جدة، قاد عربته إلى الرياض دون توقف حتى لتغيير ملابسه، وأسرع إلى القصر وانضم إلى جمهور من الأمراء وعلية القوم والمبعوثين انتظاراً لاستقبال الملك الصباحي، وانهالت عليه الأسئلة على الفور: ما أخبار الحرب؟ هل مجيئه بسبب أنه تعب أو لأنه انزعج من احتلال «جيرالد ديجوري» المقعد الذي كان يأمل أن يأخذه؟ وأجاب بسرعة: «آسف للقول: إنها ليست مفيدة للإنجليز». وطلب منه الأمير سعود أن يوضح قوله، فأجاب: «المسألة مجرد حساب»، فالألمان يغرقون عدداً من السفن التجارية أسبوعياً، ويمكن للممثل البريطاني - مشيراً إلى ديجوري - أن يصحح لي إذا كنت مخطئاً، وفي خلال ثمانية عشر شهراً سوف يضطر حجم الخسائر بريطانيا إلى الاستسلام.

لم يتح لهم التعجب من رأيه، إذ صمت الجميع حين فتحت الأبواب الكبيرة في نهاية الحجرة، وأعلن أحد رجال الحرس أنه يمكنهم أن يدخلوا، وتقدم الأمير سعود الجمهور الخاص، وغمز بعينه إلى «ديجوري» في أثناء مروره»[١]. وما إن اتخذ «فيلبي» هذا الخط في آرائه، حتى تابعه بعناد رافعاً غضب المفوض البريطاني وحلفائه. وكما أرسل الوزير البريطاني «ستونهوير بيرد Stonehewer Bird» في تقريره إلى لندن: «موقفه، الذي أرسله زميلي الفرنسي في برقية لحكومته، بقوله إنه «فضائحي»، يتلخص في الآتي: كان ينبغي على الحلفاء ألا يشتركوا في حرب غير ضرورية، تسبب الدمار في الجزيرة العربية وقد تدمر العالم. إنهم لن يُهزموا لكنهم لن يستطيعوا تحقيق النصر، وسيضطرون في الوقت المناسب إلى الاتفاق مع هتلر على سلام مرقع. كما أن الخدمات الإعلامية البريطانية جديرة بالازدراء، فهي تزيف عن عمد أخبار إغراق السفن البريطانية...»[٢]. ولحسن الحظ، فقد أضاف «بيرد»: «أن تأثيره عند عبدالعزيز آل سعود في رأي هذا المفوض، لا يعتد به، ولكن... إنه من غير اللائق، إن لم يكن أمراً خطيراً أن يتحدث بهذا الشكل وسط صحبة من السوريين والهنود والعراقيين والمصريين والأمريكيين...»[٣].

---

(١) معلومات مستقاة من «جيرال ديجوري»، لندن ١٣٩٠(١٩٧٠م).

(٢) بي. آر. أو. إف. أو./ ٢٤٥٨٩/٣٧١. إي٧١٠/ ٧١٠/ ٢٥، بتاريخ ١٣٥٩/١/٧(١٩٤٠/٢/١٦م).

(٣) ذُكر سابقاً، ٢٤٥٨٨. إي ١٣٨٨/ ٤٨٢/ ٢٥؛ تقرير جدة عن شهر محرم ١٣٥٩(شباط ١٩٤٠م).

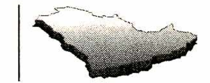
ولم يكلمه الوزير الفرنسي «باليرو» ثانية، بعد أن أشار إلى أن هتلر رجل ذكي وصوفي.

وجد «فيلبي» الوقت ليتابع أمور الشركة الشرقية، وعقد لقاءات مع المديرين المحليين، ووافق أن يحولوا مبلغ ١٨٢٧ جنيهاً إلى لندن، وهي بالإضافة إلى مبلغ ١٧ ألف جنيه كان «كازي» قد حولها سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) تغطي أول أرباح للمساهمين وهي تعادل ١٠٪. والزبون الوحيد الغاضب كان شركة فورد، فبحلول سنة ١٣٥٨ (١٩٤٠م) كانت ضيقة الصدر بالدفعات غير المنتظمة التي تتلقاها بترتيبات نقابية، كما أنها لم تكن راضية عن ممارسات الشركة الشرقية في التخزين والخدمة، وألغت توكيل «فيلبي» بعد ست سنوات بدلاً من عشر سنوات. وحين هاجم هتلر أوروبا الغربية بحماسة، وبدأت تظهر قوائم الضحايا، ضاعف «فيلبي» من نبوءاته الكئيبة، واعتاد أن يزور محطة الرصد الإذاعي عند عبدالعزيز آل سعود في المساء للاستماع إلى آخر نشرة، وذات مساء أفزع الراصدين بأن صاح بأنه كلما أسرع هتلر بالاستيلاء على باريس، كان ذلك أفضل؛ لأن الحرب ستنتهي ويتوقف القتل[1].

وقام الملك الذي رأى أن أكثر الأماكن أمناً لفيلبي أن يظل تحت عينيه، وحافظ على ذلك عدة أشهر، بإهدائه بيتاً جميلاً في الرياض في شهر يونيو. وقد كتب «فيلبي»، الذي أخطأ في تفسير هذه الهدية وعدّها تعبيراً عن العرفان: «على افتراض وأمل أن أعيش بصفة دائمة في الجزيرة العربية». وقد كان الأمر كذلك، لكن لسبب مباشر آخر أيضاً. وكانت القشة الأخيرة، في رأي «بيرد»، تجاه سلوك «فيلبي» في حفلة عشاء أقامها رجل إنجليزي يعمل ممثلاً لشركة تقوم بالتنمية البترولية في الحجاز، في مدينة جدة، وصل إلى الحفلة وهو غير مدعو، وبدأ القول: إن إذاعة B.B.C قمامة وجديرة بالازدراء، فدفعه «بيرد» بخشونة خارج الغرفة، وحظر عليه دخول دار المفوضية البريطانية. وفي الصباح التالي، علم «بيرد» أن صبر عبدالعزيز آل سعود قد نفد أيضاً، وكتب الملك: أن «فيلبي» قد دعي لإلقاء محاضرات في أمريكا وأنه اعتزم ترك البلاد، وأنه قد رتب مع أصدقائه في شركة النفط، أن يسافر في سفينة من «بومباي» فهل يمكن للبريطانيين أن يسهلوا رحلته؟ وجاء في تقرير «بيرد» إلى

---

(١) معلومات مستقاة من «سيد عبد الله بالخير»، بيروت ١٣٨٩(١٩٦٩م).



لندن عن بقية رأي الملك: «يعتقد الملك أن «فيلبي» مخبول، فهو لايتوقف عن صب اللعنات والإهانات والاحتقار على الحكومة البريطانية. ولقد أخبر «عبدالعزيز آل سعود» أنه يرغب في السفر إلى الهند والولايات المتحدة لإدارة حملة دعائية ضد بريطانيا.

أصدر الملك أوامره إلى السلطات السعودية بمراقبته عن قرب حتى مغادرته، وإعلامه بأنه إذا انغمس في حديث ضد بريطانيا فسيسجن»(١). وكان الملك ورجال الديوان يتصرفون بحكمة، فما إن يتبنى «فيلبي» فكرة حتى يميل إلى متابعتها إلى آخر مدى.

حكم الملك الإنساني كان جيداً وأمانته تامة، وعندما أخبر «بيرد» أن «فيلبي» سيراقب حتى مغادرته أرض السعودية، أخبر «فيلبي» بذلك أيضاً. كانت السلطات البريطانية قد عزمت أن تعيد «فيلبي» إلى لندن، ليكون أقل خطراً من وجوده في الخارج، وكان سيعتقل مباشرة عند وصوله إلى الهند. (وقد اعترف «فيلبي» بعد ذلك إلى بعض الأصدقاء أنه لم يصدق أن تحذير الملك كان جاداً).

عبر «فيلبي» الجزيرة العربية، ومكث مع أصدقائه في شركة النفط في الظهران، وفي ٢٩ يوليو أبحر إلى البحرين ليلحق بسفينته، وقام بزيارة بعض الأصدقاء القدامى، من بينهم ممثل الملك هناك عبد الله القصيبي، وفي أثناء وجوده في بيت القصيبي تلقى رسالة أنه يجب أن يمرر متاعه عبر الجمارك، فطلب من ابن مضيفه «خليفة» أن يفعل ذلك من أجله، لكن خليفة عاد ليقول: إنهم يحتاجون إليه شخصياً. وعاد الرجلان معاً، وشاهد خليفة أن «فيلبي» يُفتش شخصياً على يد مسؤول جمركي هندي وليس حقائبه، ولم يعترض«فيلبي»، فهو دائماً في مزاج طيب حين تكون هناك مغامرة جديدة.

خلال الأيام القليلة التي انتظرها لوصول مركبه البخاري، تبادل القصص مع عبد الله عن الأيام الخوالي: كيف تقابلا أول مرة سنة ١٣٣٥ (١٩١٧م)، وكيف جابا إنجلترا وإيرلندا سنة ١٣٣٧ (١٩١٩م) مع الأمير الصغير فيصل، وأخبره عبد الله

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./ ٢٤٥٨٧/٣٧١. إي١٩٦٣/ ٧١٠/ ٢٥، بتاريخ ١٣٥٩/٦/٦(١٢/ ٧/ ١٩٤٠م).

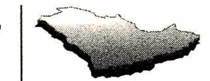
بقصة جديدة عليه، ففي أثناء تعامل عبدالعزيز آل سعود مع «بيرسي كوكس» في «العقير» سنة ١٣٤٠ (١٩٢٢م)، نصحه - عبد الله - بألا يضع رقبته في الأنشوطة البريطانية، وأجابه عبدالعزيز آل سعود: «لا أستطيع أن أعض اليد التي تطعم» لكنه أضاف: «إذا ظلت هذه الطبلة» مشيراً إلى رأسه «فسأغير كل ذلك». بعد خمس سنوات حين كان الملك يوقع اتفاقية جدة مع «جلبرت كلايتون» أهدى إليه قلم حبر ذهبياً للذكرى، فالتفت إلى مرافقه وهو يعطيه القلم قائلاً: «أرسل هذا إلى عبد الله القصيبي.. وسيعرف السبب»[(١)].

أبحر «فيلبي» إلى كراتشي في جمادى الآخرة ١٣٥٨ (الثالث من أغسطس ١٩٤٠م) وكانت رحلة سيئة. وقد عزم على السفر بالقطار إلى «بومباي» ليرى أخاه «توم» في الطريق، لكنه وجد نفسه ينقل إلى مركز شرطة، ورُفض طلبه برؤية المسؤول البريطاني في الهند، وألقي القبض عليه، ورُحّل بحراً مباشرة إلى بريطانيا. عانى من الرحلة الطويلة المملة عبر رأس الرجاء الصالح، أحياناً يكتب بمرارة في يومياته: (أولئك الذين يقولون الحقيقة يعدّونهم خونة)، وأحياناً أخرى بفلسفة: (ورطتي الحالية هي جزء مهم، من المعركة الكبرى من أجل الحرية، والتي سنكسبها في النهاية على الرغم من المحن التي نقابلها في الطريق». وبلغت المرارة غايتها، فعندما وصل ليفربول في سنة ١٣٥٨ (أكتوبر ١٩٤٠م)، دفع بعيداً: «نعجة وحيدة فصلت عن القطيع»، ولم يسمح له بمقابلة دورا التي سافرت شمالاً لمقابلته، وظلت معلقة خمسة أيام على أمل أن تراه، لكن التهمة الموجهة إليه كانت خطيرة: «نشاطات ضارة بأمن المملكة» ولم يسمح لها برؤيته.

ونقل بعربة شرطة إلى سجن «والتون»، واحتجز بموجب قانون حماية المملكة بند ١٨ ب، وصودرت كل أوراقه التي كتبها حول الحرب وحول الجزيرة العربية، وسجن في زنزانة مساحتها ١١×٦ أقدام، وترك ليفكر بندم أن النقد عدّ خطأ بأنه خيانة: «من الواضح أني لو أشعر بعقدة ذنب لما تركت باختياري الأمان في الجزيرة العربية المحايدة».

---

(١) معلومات مستقاة من «سيد خلف القصيبي»، الدمام ١٣٩١(١٩٧١م).



في أواخر نوفمبر نقل إلى مكان أكثر رحابة في «مل سيركس» في مقاطعة «اسكوت»، وهناك كان السجين رقم ٩٠٦٤٤ يحاضر في زملائه الذين يعانون «قساوسة، أساتذة، دعاة سلام، وكل من هو من هذا النوع»، ولعب مباريات دورية في البريدج، وقضى الأيام الطويلة بالقراءة المكثفة، الفلسفة والأحياء من تأليف أولاف ستابلدون، الكون الغامض من تأليف جيمس جينز، والنجوم في مساراتها من تأليف المؤلف السابق نفسه، ثم دفاع عن الرياضيات لمؤلفه ج. هـ. هاردي، هذا الغذاء العقلي الشديد قاده إلى أن يكتب فلسفته الخاصة في الحياة التي أسماها «فيلسوف في السجن»، وتحولت بعد فترة قصيرة إلى وصفة لتحسين العالم. وكما يحدث غالباً حين يطور فكرة، تكون أجزاء منها غير عملية، ولكن أجزاء أخرى معقولة وبعيدة النظر، وفي الواقع أصبحت شائعة منذ كتابته لها. لقد نادى بالخدمات الطبية المجانية، معاملة الزراعة كصناعة، وأن يكون التعليم الجامعي لمن يصلح له. ولم يذكر أي كلمة عن الدين، لقد رأى: «في التفسير المادي أو الواقعي لطبيعة الكون الأساسية التفسير الصحيح. كما كان يريح أعصابه بكتابة الشعر، لكن رباعياته الشعرية التي كتبها في السجن برمزيتها الغامضة لم تكن مُغرية لقراءتها.

عند النظر في الاحتياطات التي اتخذت بناء على البند ١٨ ب، وجد أنها مبالغ فيها، والكثيرون اعتقدوا ذلك أيضاً، مثلاً لم يسمح له بمقابلة دورا حتى ١٩ ديسمبر، ولمدة ربع ساعة «وتحت سمع أحد الضباط وبصره». ومع ذلك كتب في فترة لاحقة: «معجزة رؤيتك»، وفي الوقت نفسه، ليس دورا وحدها بل كثير من أصدقائه كانوا يستفسرون من السلطات لماذا يعد خطراً وهو في إنجلترا.. وقد كتب لورد لويد من وزارة المستعمرات إلى إدارة المخابرات م. أ. ٥ مع نسخة إلى وزارة الخارجية: «طوال السنوات التي عرفت فيها «فيلبي»، كان دائماً مشاكساً قليلاً، ويميل إلى أن يكون ضد الحكومة، لكني لن أصدق أبداً أنه خائن أو أي شيء شبيه بذلك..»[١]. وقابل الكولونيل ستيوارت نيوكومب، جورج كليرك في وزارة الخارجية، وكتب له ضماناً نيابة عن «فيلبي».

---

(١) بي. آر. أو. إف. أو./ ٢٤٥٨٦/٣٧١. إي ٢٥/١٨٣/٣٠٤٩، بتاريخ ١٣٥٩/١٠/٢٦(١١/٢٧/ ١٩٤٠م).

أصبح احتمال الغزو بعيداً بحلول سنة ١٣٥٩ (١٩٤١م) ، ولم تعد أعصاب المسؤولين مشدودة، وبدأت غربلة المحتجزين، وتكونت لجنة استشارية من أحد مستشاري الملك، ودبلوماسي ولاعب كريكيت اجتمعت في فندق «بيريستد» لتقوم بالعمل، واستدعي «فيلبي» ليمثل أمام هذه اللجنة العليا، واستمتع وهو يخاطب نورمان بيركيت وجورج كليرك وآرثر هازيلرج عن مظالم السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. وقررت اللجنة أنه متعصب لا ضرر منه، وأوصت بإطلاق سراحه، لكن القرار أخذ وقتاً ليمر عبر القنوات الرسمية قبل إطلاق سراحه.

نقل إلى «هايتون» قرب ليفربول «معسكر لعين بطعام قليل»، وكانت التجربة الأكثر تعاسة بسبب الغارات الجوية الكثيفة على «ميرسي سايد»، ولكن هايتون بدت بوابة الحرية، ولقد أخبر بإطلاق سراحه في١٧ مارس، وفي الصباح التالي أطلق سراحه ليلحق دورا عند أمه في «كامبريلي»، وكانت تنتظره أخبار عائلية كثيرة.

سافرت (ديانا) إلى جنوب إفريقية لتتزوج أحد الطيارين، وربما مرت سفينتها بسفينته، و(بات) تتقدم بدراستها في كمبردج بروعة، و(كيم) يعمل مع مخابرات وزارة الحربية، والتقى فتاة جديدة «إيلين فيرس» رأت فيها العائلة أنها أفضل بكثير من «ليزي»، و(هيلينا) على وشك الالتحاق بدورة للسكرتارية.

تعرض البيت في إكول رود إلى قنبلة حارقة في السقف، ولكن بفضل الله كانت دورا وبات تلك الليلة في «كامبيرلي»، ووجد «فيلبي» ويلز محطة أكثر هدوءاً من لندن المزدحمة، وقضى معظم أيام الحرب هناك، ونجوا من ضربة ثانية لـ«أكول رود» ومن انفجار صاروخ ف٢، قتل سبعة عشر شخصاً في الجوار في صيف سنة ١٣٦٣ (١٩٤٤م).

كان «فيلبي» ربَّ أسرةٍ ملتزماً، وبدا من الصعب أن يظل متحفظاً حول هتلر، وزوجته وأولاده مشغولون بأمور الحرب. وفي سنة ١٣٦٠ (يونيو ١٩٤١م) كتب وهو في ويلز أن هجوم الألمان على روسيا «هو يوم ميمون طافح بالبشر»، «إنه أفضل شيء تمنيناه (بعد دخول أمريكا الحرب)».

وحين تسلم في جمادى الأولى ١٣٦١ (مايو ١٩٤٢م)، بياناً روتينياً دورياً من وزارة



العمل والخدمة القومية، حول التسجيل للعمل الحربي المدني، أجاب بأنه في ضوء تاريخه فلابد أن البيان قد أرسل إليه نتيجة سوء فهم، ومع ذلك فإنه: «مستعد من خلال كفاءتي المتواضعة لأن أقوم بعمل قومي مهم». لكن أعمالاً تخطيطية فقط هي التي قابلته، استشارات من وزارة الحرب والأميرالية حول بعض الخرائط، ومرة من مجلس الوزراء ومرة من وزارة الإعلام حول عملهما في الشرق الأوسط.

لم يكن بإمكانه أن يلجم لسانه، فمن وقت إلى آخر كان يطرقع به، وقد اعترض عليه «نمير» وإسرائيل كوهين لقوله: إن مفتي فلسطين (الذي كان آنذاك في برلين): «صديق طيب يستحق معاملة أفضل»[1]. وكذلك «ستيوارت نيوكومب» لحديثه باستخفاف عن الإمبراطورية في لقاء تم في الهند خلال اضطرابات سنة ١٣٦١ (١٩٤٢م) هناك. لقد كانت السياسة من الأشياء القليلة التي يروّح بها عن نفسه.

في صفر ١٣٦١ (مارس ١٩٤٢م)، حين مات عضو البرلمان عن «بوتني»، اقترح أن تقابله لجنة المنطقة المحافظة كعضو منتظر يرغب في أن يطبق ميثاق الأطلنطي على الهند والعرب و«يعطي البلد قيادة ملهمة لروح جديدة للإمبراطورية»، ورفض طلبه.

وفي آخر العام فُتح موضوع مشروع مثير، إذ أعلن «ريتشارد أكلاند» عن حزب جديد يسمى «الكومونولث» «ينادي بالملكية العامة للمصادر الكبرى والاشتراكية للطبقات الوسطى»، ويحافظ على النظام الحزبي، ولكنه يطالب بإلغاء مجلس اللوردات، وسيحاول أن يكسب الانتخابات ويهزم المحافظين، ويستبدل الجدارة بمن يمتلكون الامتياز، والمعيار هو النهضة. وكأن هذا الحزب قد صمم ليناسب «فيلبي»، فهجر الفابيين وانضم إليه على الفور، وأصبح أمين صندوق فرعه في وستمنستر، واستمتع لحظة ببريق الشهرة حين هاجمته بالاسم نشرة الحزب الشيوعي، وهذه النشرة أدانت حزب الكومنولث أيضاً بأنه امتداد لحزب «موسلي» قبل الحرب، وبذلك يعد داعية للسلام، واستعاد الكاتب خطب «فيلبي» في أثناء انتخابات Hythe واتهمه كذباً، بأنه كان عضواً في المجموعة التي تؤيد هتلر والمسماة بالرابطة.

---

(١) رسائل من «Manchester Fuardian»، بتاريخ ١٥/٩- ١٩/٩ و ٢٤/٩/١٣٦٠(٦/١٠- ١٠/١٠ و ١٥/١٠/١٩٤١م).

احتكم «فيلبي» في الموضوع إلى محكمة أعدها حزب الكومنولث، وقد حصلت على اعتذار من محامي الحزب الشيوعي وسحب النشرة من التداول، ولكن المسألة برمتها لم تسر في الطريق الذي أراده «فيلبي»، فقد أخذت عليه المحكمة لغته المتطرفة في شرح مبادئ الحزب، ورأت أنه لا يوجد سبب في عدم بقائه عضواً، لكنه ليس أهلاً للثقة بعرض سياسة الحزب على الجمهور». وحاول أن يصحح مفاهيم الحزب حول آرائه، لكنه لم ينجح بشكل كافٍ: «كنت دائماً لا أوافق على الحرب وسيلة لإنهاء الصراعات الدولية، وواقع أننا في حرب لا تسوّغ تغيير هذا الموقف، مع أني لم أكن ولست داعية للسلام. ويكفي أن أقول: إني مقتنع تماماً كغيري بأننا مادمنا في حرب فعلية فيجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لكسبها كي نجعل حروب المستقبل مستحيلة..».

اتجه «فيلبي» إلى الكتابة لعدم نجاحه في حقل السياسة، وكان يضيف في كل يوم صفحات جديدة إلى عمل ضخم غير منشور يتجاوز المليون كلمة أسماه «اللاوفاق Out of Step» وكان يسير مع مجرى الحرب، وكان معظم نقده للقادة السياسيين والعسكريين مدمراً، لكن ليس كله على كل حال. وبالضبط ـ مثلما كان يحتفي كعادته بالانتصارات العسكرية لعبدالعزيز آل سعود ـ فقد جرفته الحماسة لمآثر ابن عمه من بعيد، الذي كان أفضل الحاضرين في زفافه ـ الجنرال برنارد مونتجمري، وسط كميات الشعر التي كتبها في أثناء الحرب (عادة على ورق جمعية Athenaeum)هناك ملحمة كتبها على شرف الجيش الثامن في إفريقية، بلغة إنجليزية واضحة: الآن الجائزة واضحة ليراها الجميع في الجنوب والشمال والغرب يحكم الحلقة حول الوحش القوي فلا يستطيع الهرب، يبحث عن منفذ كخشف مسكين خجول لينقذ نفسه ويرى فجراً آخر. ڤون روميل أصبح في موقف حرج...هذا العمل، الذي أسماه: «مونتجمري بقلم أ. ت» لم يوقع، ودفع «فيلبي» مقابل نشره، والأسلوب والعنوان الفرعي اللاتيني الذي وضعه "Legio Octavia in Monte Africano" يشيران إلى خطه.

كان بحلول سنة ١٣٦٢ (١٩٤٣م) يكتب عن «تحسين معركة الأطلنطي» و«إثارة أمل جديد في أوروبا» وعن تراجع دعاة السلام والشيوعية: «الإنسان البريطاني العاقل هو أفضل مخلوقات الطبيعة وكثيرون منا يعون هذه الحقيقة طوال الوقت، وأي

انتكاسة في أي مكان ما هي إلا إزعاج بسيط يجب تجنبه بأي ثمن..»، ولما لم يجد شيئاً بريطانياً ينتقده، هجر موضوع الحرب، وأنهى كتابه اللا وفاق في سنة ١٣٦٢ (١٩٤٣م)، ولم نعرف رأيه في إسقاط القنبلة الذرية كوسيلة لاختصار القتل. والتفت بدل ذلك إلى الموضوع الذي أحبه في آخر حياته: دراسة تاريخ ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية.

لسوء الحظ فإن المختصين الذين يستشيرهم عادة، يكون من الصعب الوصول إليهم، فهم إما في الحرب في الخارج وإما في أوروبا المحتلة، ولم يدرك أن الكتب التي يرجع إليها كانت قديمة لا تفي بالحاجة، وكان ساخطاً؛ لأن الناشر الذي ذهب إليه، «جون موراي» رفض الكتاب لهذا السبب. واعتمل ذلك في صدره، وفي سنة ١٣٦٥ (١٩٤٦م) طبع كتاب «خلفية الإسلام» على نفقته الخاصة في شركة بالإسكندرية، وأرسل خمسمئة نسخة موقعة منه إلى أصدقائه.

لقد قضى سنوات حرب بائسة، وبدد قدراته بأخطائه، كان ودورا يملكان النقود لكنهما غير موسرين. لقد توقفت شركة النفط عن دفع مبلغ الألف جنيه سنوياً حين ترك الجزيرة العربية، وكان دخله الوحيد يأتي من معاشه، وقلمه، والشركة الشرقية. وبما أنه لا يرضي طلبات الناشرين بسبب طول مؤلفاته، فإن كتبه غير المنشورة بدأ يكثر عددها. لن يستطيع ناشر الاقتراب من كتابه عن العراق Mesopotage أو «فيلسوف في السجن «Philosophus in Carrcere أو «اللا وفاق» لطولها، وحتى سيرته الذاتية الذي وقع عقداً لنشرها في دار مكملان في نيويورك، لم تجد ترحيباً، وكتبت له الدار أنه لم يكتب «مئة ألف كلمة» كما اتفق، بل ٢٥٠ ألف كلمة، وألغت العقد سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠م)، وأصبح يكتب لمن يدفع نقوداً، ومن بينهم مجموعة «كينيث دوكورسي» ذات السياسة الاستعمارية التي تقع آراؤها على أقصى يمين آرائه.

كان يحتاج إلى النقود ليشبع رغبته في الحياة قدر ما يسمح التموين: «أعتقد أن أطفالنا ورثوا عنا القابلية للمعيشة الرغيدة وغريزة الضيافة»، هذا ما كتبه إلى دورا من ويلز. لحسن الحظ أن الأربعة إما أنهم تزوجوا وإما أنهم يكسبون، ولسعادته، فإن اثنين منهما ـ كيم وديانا ـ أنجبا له أحفاداً.

كانت العودة إلى الجزيرة العربية الحل الواضح لمشكلاته المالية؛ لأن عبدالعزيز آل سعود الآن في طريقه إلى الثروة الضخمة (العشرون مليون التي اقترحتها أصلاً تبدو تافهة الآن)، والشركة الشرقية تحتاج إليه، إذ إن كازي قد مات بالسل في مستشفى في بيروت، وقد شعر بالراحة الشديدة حين وافقت وزارة الداخلية على استعادته لجواز سفره، وفي سنة ١٣٦٤ (يوليو ١٩٤٥م) أبحر إلى الجزيرة العربية في ناقلة جنود مزدحمة متجهة إلى الحرب في أقصى الشرق. حمد الله حين وصل إلى مصر، وارتاح في فندق هليوبولس: «حتى الساقي قد عرفني».

في اليوم التالي كانت طائرة الملك؛ وهي هدية من الرئيس روزفلت، تحمله إلى جدة، وعادت الأيام الخوالي ثانية.

الفصل الثاني عشر



بيت جديد في جزيرة عربية جديدة

وصل «فيلبي» إلى جدة في شعبان سنة ١٣٦٤ (٢٦ يوليو ١٩٤٥م)، في اليوم نفسه الذي أُعلن فيه في لندن فوز حزب العمال بأغلبية ساحقة بلغت ٢٥٣ مقعداً لأعضاء لم يجلسوا من قبل في البرلمان. ولو ظل فابياً لربما دخل البرلمان في النهاية، وهو الطموح الذي تعلق به مراراً حتى أهمله حزب الكومنولوث. ولا يوجد دليل على أنه اهتم بالأمر؛ لأن فكره قد اتجه إلى الجزيرة العربية، وعبدالعزيز آل سعود، والشركة الشرقية.

وبالمقارنة بالغذاء اليومي من القنابل وقت الحرب، والإظلام، والتقشف في البضائع، والبيض المجفف وعدم وجود الليمون، بدت حلويات جدة تستحق الإعجاب. عند وصوله، كتب إلى دورا أنه قابل «مصطفى ناظر» وأن: «محمداً (الطباخ السوداني) لم ينس أي شيء من روتين الطعام القديم، كالليمون المثلج بمجرد أن نصل، وكان مصطفى يرسل لي طعاماً مطهواً بالكاري أعد في منزله من أجل الغداء، وما تبقى منه للعشاء، مع أن محمداً يقول: لا يجب أن أتناول الكاري أبداً في الغداء! العنب وأول بلحات طازجة منذ خمس سنوات، والشيء الوحيد الذي طلبته تلك الشباك الخرزية الصغيرة التي تبعد الذباب عن الفاكهة».

وصلت برقية الملك في الصباح التالي تستدعيه فوراً إلى الرياض، وهناك وجد: «الناس أنفسهم والأفعال ذاتها»، ولم يجد شيئاً تغير سوى تكلفة المعيشة، ووسائل النقل؛ بالطائرة «ودائماً بتصريح بالطبع».

لقد ارتفعت الأسعار إلى درجة أن صنعت فجوة محزنة في مرتبه في الشركة الشرقية الذي يبلغ ١١٠٠ جنيه دون تغيير، بهتت صورة الحرب في الشرق الأقصى في ذهنه، وسقط في هوة الروتين، يؤدي الصلوات، يحضر ثلاث جلسات في الديوان، يتناقش مع الملك، والمحافظة على استمرار الحديث على الوجبات من مكانه القديم بين علية القوم، والإصغاء إلى القراءات المسائية من القرآن والسنة، والتفسير الملكي لعقائد الإسلام: «أن الدين كلٌّ لا يتجزأ».

ويرواح حديث الملك بين ظلم الحكام في الخليج العربي، وازدرائه للمذكرات التي كتبها عبد الله أمير شرق الأردن[1]، واشمئزازه من تصرفات الحلفاء في محاكمات نورمبرج، إلى اهتماماته الدائمة بأنساب القبائل في الصحراء، وتجاربه في حروبه الخاصة وفي الصيد، وظل حق «فيلبي» بدخول القصر كما كان دائماً، يصغي لما يدور ويستطيع أحياناً، كما أخبر دورا أن يناقش في الأمور السياسية، وكان حاضراً في ذي القعدة ١٣٤٦ (أكتوبر ١٩٤٥م)، حين سعى رشيد عالي الكيلاني، الذي قام بثورة مسلحة ضد بريطانيا في العراق، لطلب اللجوء بعد تركه برلين: «ألا تعرفني ياصاحب الجلالة»، وقال الملك عبد العزيز: لا، وهكذا أخبره. كانت الحكومة العراقية منذ ذلك الحين تطلب تسليمه لها، لكن سمعت الملك أمس وهو يملي رسالة طويلة ودية يرفض فيها الطلب». واصطحب الملك «فيلبي» معه، تعبيراً عن المودة، حين قام بإحدى رحلاته الخارجية النادرة خارج الجزيرة العربية، إلى القاهرة في ١٣٦٥ (يناير ١٩٤٦م)، ومن الطبيعي أن يحضر «فيلبي» المأدبة الكبيرة التي أقامها السعوديون، وقد ابتدأ عبدالعزيز آل سعود كلمته مطرياً فاروق: «تعال يا أخا العرب..» (كلمات دافئة كهذه توضح للمصريين تأييد السعوديين ضد الأفكار الهاشمية حول الشكل الذي ينبغي أن تتخذه الوحدة العربية)، وكما لاحظت الحاشية بسرعة، أن «فيلبي» لم يدع إلى الحفلات الرسمية التي أقامها المصريون، ومع ذلك، فإنه كان سعيداً: «لنجاح عبدالعزيز آل سعود الساحق»، «أعتقد أن الإجراء الأشد إشراقاً هو الموكب الذي توجه من محطة

---

(١) مذكرات الأمير «عبدالله» التي تم نشرها باللغة العربية في القدس، سنة ١٣٦٤(١٩٤٥م)، وباللغة الإنكليزية في لندن سنة ١٣٦٩(١٩٥٠م)، أصبح ملكاً على الأردن في تلك الفترة، ٢٤/٦/ ١٣٦٥(٢٦/٥/١٩٤٦م).



السكة الحديدية إلى قصر عابدين... لو رأيت الجماهير المحتشدة والتنظيم الرائع حقيقة، وسمعت الهتافات التي تصم الآذان، لم أر شيئاً كذلك، ولاشك أن عبدالعزيز آل سعود، الشخصية الأسطورية، قد انتزع قلوب الجماهير، الأمر كله كان شيئاً هائلاً».

وجدت دورا الأمر، من لندن، غير مثير، وحين طلب منها أن ترسل تقارير صحفية بريطانية عنه، شذبته كثيراً لتوفر أجرة البريد، وأجابت: آسفة لكل هذا الاختصار، كنت سأشتري فستاناً لو لم أكتب لك.

ألقت القضية الفلسطينية بظلها على الشؤون العربية في الفترة من ١٣٦٤-١٣٦٧ (١٩٤٦ ـ ١٩٤٨م)، وأحياناً يستمع عبدالعزيز آل سعود إلى الإذاعات المحزنة من القدس فتكاد الدموع تطفر من عينيه. وفي مرحلة ما توقف عن الاستماع تماماً. ولقد وافق، بعد عودته من مصر مباشرة، أن يستقبل ثلاثة أعضاء في لجنة أنجلو/ أمريكية كانت تبحث في مستقبل فلسطين فقط، وقال لهم: كل ما يشغل ذهنه أولاً هو فلسطين، ثم حول وعد روزفلت له، قبل ستة أشهر من وفاته، أن لا قرار سيتخذ حول الوضع في فلسطين «دون التشاور مع العرب»[(١)].

وكان عبدالعزيز آل سعود لا يعجبه حكم «فيلبي» حول فلسطين منذ تأييده للتقسيم في سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م)، ولذا لم يكن «فيلبي» حاضراً في أثناء لقائه مع اللجنة، لقد أخذ اليوم إجازة وقضاه في الصحراء يشرح للطيار الملكي في الفريق عن طيور الصحراء، وقد اتضح أن الطيار عالم طيور، ولكنه طوال ليلة ١٩/ ٢٠ فبراير ظل مستيقظاً يترجم ويطبع على الآلة الكاتبة بيان الملك إلى الزوار، وكانت إحدى الفقرات تقول: «إذا استمرت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتزايد امتلاكهم للأرض هناك، فسيصبحون أحد أعظم الحكومات القوية المدججة بالسلاح والثروة وكل شيء آخر، وسيكونون ضد العرب، وفي الوقت نفسه يشكلون صعوبة لهم»[(٢)].

---

(١) رسالة بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٣٦٤(٥/ ٤/ ١٩٤٥م)، نص موجود في «The Middle East in the War» تـ"جي إي. كيرك». آر. آي. آي. آي. «Survey»:١٣٥٨-١٣٦٥(١٩٣٩-١٩٤٦م)، أكسفورد، ١٣٧١(١٩٥٢م)، ص٣٢٨.

(٢) نص موجود في «Palestine Mission» لـ «آر. آيتش. أس. كروسمان»، لندن ١٣٦٥(١٩٤٦م)، ص١٦٥.

لقد بدت فلسطين أولاً ثورة ضد الإنجليز، ثم في سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م) دمية في الأمم المتحدة، وأخيراً، بعد انسحاب بريطانيا سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨م)، تحولت إلى ميدان معركة لحرب شاملة، تزايد إدراك الملك لمصيرها المرير، وقد قال ذات مرة: استمرار الانتداب البريطاني كان أفضل من انتصار اليهود، أو توسيع عبد الله لمملكته، ورد «فيلبي» بأن العرب سيصبحون (بولشفيك) إذا أصرت بريطانيا على حكم أجزاء منها، وقد كتب إلى دورا: «كنا نتجادل بعنف طوال الوقت، ولكن ذلك كان نوعاً من الدواء المقوي له والباقي دواء مسكن».

أصبح «فيلبي» أكثر انطلاقاً في الكلام؛ لأن الشخص المحبوب الذي ظن طويلاً أنه الأنسب لقيادة العالم العربي كله، أصبح ميالاً إلى الموافقة على كل ما تقرره الجامعة العربية في القاهرة. وبما إن هذا الموقف له توابعه، بدأ يبدي إعجابه: «بشجاعة اليهود وتعصبهم، وفي الوقت نفسه يستهجن موقف العرب غير المجدي». وأدار نقاشات حامية مع الملك، أيد فيها حكمة الاتحاد السوفييتي بتأييد التقسيم. وانتهت إحدى المناقشات في جمادى الأولى ١٣٦٦ (أبريل ١٩٤٧م) بإعصار غاضب من الملك: «حتى إني وقفت متحدياً في وسط قاعة غاضبة صامتة». بعض السعوديين المتعلمين احترموا «فيلبي» لصراحته وتصميمه على: «قول الحقيقة في جميع الموضوعات»[١]، وآخرون لم يكونوا ميالين إلى ذلك، ورأوا في «فيلبي» عضواً في المخابرات البريطانية وجاسوساً صهيونياً، شيوعياً أيضاً، وهو افتراض أعطاهم مسوغاته هو بنفسه.

يميل «فيلبي» إلى الحكم على الشؤون العالمية في سياقها الشرق أوسطي فقط. وفي الحقبة التي تلت سنة ١٣٦٤ (١٩٤٥م) لم تصب توترات الحرب الباردة الرئيسة منطقة الشرق الأوسط، وكل ما عانته من ذلك سلسلة من الجهود قامت بها القوى الغربية لتجنيد حلفاء من العرب، وعلى الجهة المضادة حملة الاتحاد السوفييتي لتحييد العرب والنضال من أجل السلام[٢].

كان المراقبون الغربيون الذين يقرؤون الأنباء من برلين وأوروبا الشرقية وكوريا

---

(١) معلومات مستقاة من الشيخ «عثمان الصالح»، الرياض ١٣٩٠(١٩٧٠م).

(٢) «إيفان لاورد»، «The Cold War: A Reappraisal»، لندن، ١٣٨٤(١٩٦٤م).



ينظرون من خلال هذه الخطوة السوفييتية الأولى، بينما «فيلبي» الذي ينظر إلى الأمور من خلال غمامات الشرق أوسطية، رأى قيمتها السطحية فقط وقبلها، فبالنسبة إليهم قوى الظلام المتمثلة بالاستعمار الغربي تعارضها قوى الضوء الشيوعية، بناء على ذلك احتسب «فيلبي» شيوعياً، وأما المعطيات الجديدة في أوروبا أو الشرق الأقصى، التي لاتناسب نظريته فقد كانت تدخل من أذن لتخرج من الأخرى، كما لاحظ أصدقاؤه في إنجلترا بسرعة حين دعا نفسه شيوعياً. وفي الرياض، حيث تعد الشيوعية والصهيونية توأمي الشر، لم يفهم إلا القليلون لماذا يتسامح معه عبدالعزيز آل سعود بل يستمتع بصحبته. إنه لأمر مُرضي أن يكون مرحباً به في الديوان، لكن كان لديه اهتماماته التجارية التي يجب أن يراعيها، والعملية التي أسماها: «النهوض بالشركة الشرقية ثانية» كانت تتطلب وجوده في جدة، ليس لأن الشركة تسير بشكل سيّئ، فهي بيدي مصطفى نادر وكازي حققت الكثير من الأرباح، وكسبت تجار جدة الماكرين، بالإضافة إلى أن تقييد إنتاج البترول في أثناء الحرب، الذي يرجع إلى نقص في السفن الشاحنة والأنابيب، قد انتهى سنة ١٣٦٣ (١٩٤٤م) وبدأت العوائد النفطية ترتفع بشكل كبير .

وهكذا أراد الجميع البضائع من السيارات إلى جوارب النايلون؛ كل البضائع التي شحت خلال سنوات الحرب، لكن أوروبا كانت مدمرة، تنقصها المواد الخام، والبضائع بالدولار كانت مطلوبة في كل مكان من العالم، لكنها كانت عزيزة ومن الصعب استيرادها، ولا يوجد أحد في بريطانيا يمكن أن يعد بموعد تسليم دقيق. وكان إحباط «فيلبي» كبيراً: «لو استطعنا الحصول على شيء - أي شيء - لنبيعه الآن، لحققت الشركة الشرقية ثروة» ذلك ما كتبه إلى دورا.

حاول في لحظة ما، أن يحصل على بضائع من الاتحاد السوفييتي، دون أن يعي فيما يبدو أن الدمار هناك أسوأ منه في أوروبا الغربية. ولحسن الحظ فإن كدره قد زال بكسب غير متوقع، ففي ذي القعدة ١٣٦٤ (أكتوبر ١٩٤٥م) أصدر الملك تعليماته إلى وزير المالية عبد الله بن سليمان بدفع كل الديون الحكومية المتراكمة منذ قبل الحرب إلى الشركة الشرقية، واستدعى مصطفى نادر لاستلام المبلغ: «وأحضره لي ذهباً، وهو يعادل ثمانية آلاف جنيه إسترليني، ونحن الآن ليس لدينا ديون مستحقة إلا أننا لا نملك البضائع التي نبيعها ونفقد قوة السوق الشرائية».

وكان هناك سبب آخر للقلق، فإن مصطفى الذي كانت الشركة الشرقية في حاجة شديدة إليه في أثناء الحرب، لم يكن يستطيع القيام بالمراسلات باللغات الأجنبية، وقرر «فيلبي» أن العمل يحتاج إلى شخص يستقر في جدة، وتكون لغته الأساسية هي الإنجليزية، وفي الوقت نفسه، علم أن مندوب مشتريات الشركة الشرقية في لندن «جوردون وودروف» أقنع مجلس إدارة الشركة بالتفاوض مع شركة ميتشل كوتس؛ وهي شركة تجارية كبرى ذات سمعة عالمية حول عرض لتملك أسهم الشركة وإدارتها، فطار إلى لندن في جمادى الأولى١٣٦٣ (أبريل ١٩٤٦م) ليرى ما يحدث.

الشروط المرضية لتملك أسهم الشركة، التي عرف بها، قدرت نجاح الشركة الشرقية في أثناء الحرب، واشترت شركة ميتشل كوتس حصة الأسهم الأساسية - أصلاً عشرة آلاف جنيه بسعر السهم نصف جنيه - بمقدار جنيهين للسهم تقريباً. وحسب «فيلبي» تسديد الديون سنة ١٣٦١ (١٩٤٢م)، وأيضاً أرباح كل سنة في السنوات الأربع، ومبلغ ١٠٠ جنيه عن كل سنة خصصت له لإدارة العمل سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦م)، وحققت له نحو ٣٥٠ جنيهاً، ودفع ميتشل كوتس أيضاً مبلغ ٤٨٠٠ جنيه لفيلبي لحسن نيته، وأبقاه على رأس الشركة في الجزيرة العربية بمرتب ٤٥٠٠ جنيه سنوياً.

ومع أنه أثبت صعوبة التعامل معه، فلابد أن ميتشل قد رضي بالصفقة، لأنه حين انتهت صلاحية عقده سنة ١٣٧٠ (١٩٥١م) جددته الشركة حتى ١٣٥٧ (١٩٥٦م)، مضيفة مبلغ علاوة خاصة ٣٥٠٠ جنيه اعترافاً بالجهد السابق، «إضافة إلى ١٪ على الأقل على كل المبيعات التي تتلقى الشركة عقودها عن طريقك»، وأعيد تثبيته تاجراً وسيطاً. وكانت العقبة الوحيدة هي الصعوبة الدائمة في الجمع بين أنه أحد رجال الحاشية، ومحصل ديون، وقد أعطى مسكنه في «جرين بالاس» في جدة إلى ممثلي شركة ميتشل كوتس على التتابع - ماكنوش وايت، ماكوين، و. جيه ووكر.

تستلزم الحركة نقل كميات الكتب والأوراق التي يراكمها في كل مكان يقيم به، إلى داخل البلاد، وتوصيل صناديق من الأوراق إلى الرياض أمر مكلف، وأي صديق متوجه بالسيارة إلى هناك يضغط عليه ليقوم بالمهمة. وقد صادف أحد الدبلوماسيين الأمريكيين - هيرمان ايلتس - الذي اضطر أن يحمل أوراقه، عاصفة ممطرة مفاجئة في منتصف الطريق، وأطارت أغطية الصناديق والورق الذي فيها، في

أرجاء الصحراء فتعذر استردادها، وكل ما فعله أن هز كتفيه، واستعاد أغطية الصناديق وثبتها وواصل سيره.

كان القصور السابق في الشركة الشرقية، الذي يتمثل في خدمة ما بعد البيع وتخزين قطع الغيار، الذي يرجع في جزء منه إلى إهمال «فيلبي»، لكن في الأساس إلى نقص رأس المال، فلم يضيع وقته، وأعلم المالك الجديد «بروح البلاد» وبالحاجة إلى دراسة الطرائق التي تسير بها الأمور، إذا أراد للشركة النجاح.

«لا توجد دعاية يمكن مقارنتها بالتأثير في هذا البلد أكثر من توفير قطع الغيار وتقديم تسهيلات في خدمة ما بعد البيع، فما إن يعرف الجمهور أننا نقوم بذلك حتى يسارع بشراء سياراتنا».

وعندما احتجَّت لندن لندرة استشارته لزملائه في جدة، أجاب بأنه يخدم الشركة بشكل أفضل من خلال استمراره بمرافقته للملك، وأن الوزراء يقضون وقتاً أطول معه في الديوان مما في مكاتبهم، وأن أفضل خدمة يقوم بها أن يعاشر الزبائن الأغنياء، ويستمع إلى الدردشة الملكية حول الشركات المنافسة التي تسعى لفتح فروع لها الآن في الجزيرة العربية بعد أن فتحت ثروة البترول الفرص إلى المستقبل.

(كان دخل السعودية من النفط سنة ١٣٥٩ (١٩٤٠م) نحو مليون ونصف مليون دولار أمريكي، ارتفع بسرعة بعد مواصلة الإنتاج سنة ١٣٦٣ (١٩٤٤م) ليصبح سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م) ١١٢ مليون دولار)[١].

أثبت حديثه عن وجوده في الديوان جدواه في بداية سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م)، عندما تلقى أمراً ملكياً بطلب للخيام، فقد عزم عبدالعزيز آل سعود أن يستخدم عوائد النفط لتحسين أوضاع الحجاج الذين تتزايد أعدادهم، ولذا طلب خياماً من خلال الشركة الشرقية ليس له ولأسرته فقط بل للحج أيضاً، نحو ألف خيمة تقدر قيمتها بأكثر من مليون دولار، سيستوردها من شركة في «كاونبور» معروفة لديه.

---

(١) تخمينات من «Economist» (الملحق، ص٣) بتاريخ ١٣٧٤/١١/١٢(١٩٥٥/٧/٢م).

مازال العجز منتشراً في العالم كله، فالقطن لنسج الخيام الجيدة مازال قليلاً، وفي سنة ١٣٦٦ (بداية شهر مايو ١٩٤٧م)، دون أن تبدو في الأفق احتمالات التسليم، أخبر عبدالعزيز آل سعود «فيلبي» الذي كان يتنزه في القاهرة مع دورا، أن يطير إلى الهند ليتأكد أن أول دفعة من الخيام على الأقل ستصل في موعد الحج في الخريف.

لم يكن «فيلبي» قد رأى الهند منذ سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م)، وقد عدّ ببساطة أن الإدارة الاستعمارية البريطانية لابد أن تعطى مكانها يوماً ما إلى شكل ما من الحكومة: «أكثر ملاءمة للديموقراطية الحديثة»، لكن الآن شبه القارة كلها متشوقة إلى الحرية، وكان البريطانيون الذين يسلمون بذلك يرون النهاية، لكنها كانت البداية لكل الهنود.

تعكر إحساس «فيلبي» الذي كان صادقاً دوماً، بوخزات من الحزن، فعند وصوله، أعلن نائب الملك أن نقل السلطة سيتم في ١٥ أغسطس، وأنه ستكون هناك دولتان، وأن البنجاب ستقسّم.

زار «فيلبي» المقر الرئيس للجنة الإسلامية في دلهي، ورئيس لجنة الحج فيها، الذي قدمه إلى محمد على جناح، وعلم بتزايد المشاعر الدينية والسياسية التي أدت إلى مولد دولة باكستان، والحروب المشتركة المتتابعة التي تشن بين وقت وآخر وفي أثناء رحلاته إلى «كاونبور» من أجل الخيام، تلقى دعوة للغداء مع نائب الملك «لورد ماونتباتن»، وفي ٢ يوليو، وفي قاعات «لوتينز» الكبيرة رأى الفخامة الملكية في مرحلتها الأخيرة. وبسبب مشاعر الولاء الأسرية المختلطة بقناعاته التي لم تغادره قط، وجد «فيلبي» الوقت ليطير عبر لاهور إلى كشمير كي يزور ويصور قبري والدي دورا في «سيرنجار».

وتحدث وسط كل هذه المواعيد، في إذاعة عموم الهند مرتين، وفي أثناء حديثه في برنامجها العربي، لمح عبر باب الاستوديو المفتوح، صحفياً هندياً شاباً، فكان بذلك يجسد اللقاء بين الشرق والغرب، لأنه كان يوجه حديثه إلى المهندسين المخلصين المتوجهين إلى دعوة طعام بريطانية.

عاد إلى الرياض في ٦ يوليو ليقرر أن الخيام ستسلم في الموعد المحدد، وهي خيام

جيدة الصنع تعيش سنين، وهناك نوع من خيام الجيش السعودي مازالت تعرف باسم «فيلبي» حتى اليوم.

ساعد السفر جواً «فيلبي» ، سواء على نفقة الملك أو على نفقة شركة ميتشل كوتس، على إدارة حياته المزدوجة، نصفها مع العرب، ونصفها الآخر مع الشركة البريطانية. وذات مرة، في أثناء سفره من جدة إلى الرياض، جلس بجانب جرافتي سميث، القسيس البريطاني الجديد، وقام بالدورين معاً. وحين أخطأ الطيار الأمريكي في حساباته وطار فوق مكة تقريباً: «أمسك بركبتي وأشار إلى مشهد لم أتخيل رؤيته.. ملامح مكة العامة، وجبل النور حيث تلقى محمد الوحي أول مرة، وموقع مُنى وجبل عرفات الذي لا يتم الحج إلا بالوقوف عليه، لقد تأثر بشكل لا يوصف، وتصرفت بسعادة وزهو مثل مطوفي الجوي، وكتب «فيلبي» تقريراً لاتخاذ إجراء تأديبي مع الطيار عند وصولنا إلى الرياض»[(١)].

كان يطير إلى الوطن كل سنة منذ سنة ١٣٦٥ إلى ١٣٦٩ (١٩٤٦ إلى ١٩٥٠م) ، أحياناً للعمل، ولقضاء الصيف مع العائلة، وقد أصبح مفعماً بالحيوية لسعادته بأحفاده الذين يكتب لهم الكلمات المقفاة (يا بنات يا بنات.. أنا عندي ثلاث سنوات) ويحكي لهم القصص. وزار مع دورا أولاد ديانا (يفوني وهيو) في أوسلو حيث يعمل والدهما، وأولاد كيم (جوزفين وجون) في إستانبول حيث يعمل كيم في فرع وزارة الخارجية المعروف باسم «دائرة التدقيق في جوازات السفر»، ويعيش مع زوجته الثانية «إيلين» على شاطئ البوسفور.

ظلت حيويته هائلة بينما كانت حيوية دورا تذبل بعد عملية كبرى في أثناء الحرب، ومرض خطير في القاهرة في شتاء ١٣٦٦-١٣٦٧ (١٩٤٦-١٩٤٧م)، والتهاب في الرئة في إستانبول عند كيم في سنة ١٣٦٨ (مارس ١٩٤٨م)، وفي أثناء الإجازة في لندن كان يجاري أولاداً أقل من عمره بخمسين سنة في الجلوس متقاطع الساقين على العشب في «لورد». وبعد مشاهدة السينما (أنت تعرفين كم أحب الذهاب إلى السينما) يكون جاهزاً للذهاب إلى نادٍ ليلي، أو يركب قطاراً في آخر الليل

---

(١) تخمينات من «Economist»، (الملحقات، ص ٣) بتاريخ ١٣٧٤/١١/١٢ (١٩٥٥/٧/٢م).

ليذهب إلى كامبيرلي لزيارة والدته. وأصبح الآن يكسب أكثر من أي وقت مضى، كان يستمتع بالتبذير، ويغرق العائلة بالهدايا، ويخبر دورا ألا تقتر في حفلة زفاف هيلينا في «السافوي» في شوال ١٣٦٥ (سبتمبر ١٩٤٦م). وأحد الحسابات السريعة التي قام بها لحساب نفقات العائلة بين عودته إلى الجزيرة العربية في ١٣٦٤ (١٩٤٥ ونهاية ١٩٤٨م) تبين أنهم كانوا ينفقون بمعدل ١٨٦,٣ جنيهاً سنوياً: «يبدو أن لدينا مقدرة رائعة للحياة على دخلنا مهما كان». والمملكة العربية السعودية أيضاً تعيش طبقاً لدخلها، وبالنسبة إلى فيلبي فإن نموذج الحياة الجديد فيها تعروه الشوائب. فقد أخبر دورا شتاء ١٣٦٦ ـ ١٣٦٧ (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م)، أنها لن ترغب في المجيء إلى أبعد من القاهرة، فالجزيرة العربية أصبحت تغص بالأجانب، وإنني: «أعد نفسي غريباً في جدة» ولا يذهب إلى هناك إلا إذا كان لديه عمل، ولأنه يحب القسيس البريطاني «جرافتي سميث» و«لرؤية دورثي بالطبع».

وقد شعر بالزهو والفخر الأبوي أمام الجمهور الجديد حين زاره كيم وهو في طريقه إلى وظيفته الجديدة في إستانبول، وقد زار جدة في ربيع الأول ١٣٦٦ (فبراير ١٩٤٧م)، وأمضيا أيضاً أسبوعاً بين الرياض ـ حيث قدم ابنه الأكبر الوسيم باعتزاز ـ والطائف حيث توجد هناك بعثة بريطانية عسكرية جديدة. لكن الرياض أيضاً كانت تتغير، فبيوتها الطينية المتواضعة، حلت محلها كتل من المباني ذات الأدوار، حتى الفقراء العرب تعودوا الكسل: «في الأيام الخوالي، قد يمشي الرجل ١٥ كيلو متراً ليريح جمله، أما الآن فهو يستخدم سيارته في مأمورية صغيرة إلى السوق». وكذلك الحج فقد اتخذ مظهراً جديداً، وقد كتب إلى دورا سنة ١٣٦٥ (١٩٤٦م): «لقد استغرقت بالفعل ساعتين ونصف لقطع الميل الذي يفصل بين قصر الملك ومكان الجمرات، كانت السيارات وعربات اللوري تسير ستٌ منها جنباً إلى جنب وبطول أكثر من مئة سيارة.. تتحرك بوصة بوصة. ليس فقط تحمل الحجاج إلى الاتجاه الصحيح بل أيضاً هناك سيارات عائدة وقد أفرغت حمولتها وتسير في الاتجاه المعاكس. لنقل: إنه لا توجد القافلة المعتادة من الإبل الداخلة والخارجة..» ألم يخطر بذهنه أنه كان صبي الساحر الذي قام بهذا التغيير الذي يشكو منه، فهو الذي طالب بإدخال العربات وأجهزة الراديو والتحديث في البلاد، وكان راضياً مادام هو الموزع الوحيد لها، ولم تفت نقاده السعوديين هذه النقطة. ومع ذلك، فأغنياء السعوديين لديهم ما يعوضهم.

أهداه الملك في ١٣٦٤ (نوفمبر ١٩٤٥م) هديتين، تعبيراً عن سروره بعودته، إحداهما مبلغ أربعة آلاف ريال، والأخرى - وهي الأهم - جارية جديدة جميلة وممشوقة القوام، لم يرها أي غريب، ومع ذلك يعرفها كل من في الرياض. وحين أنزل سائق تاكسي أحد زوار «فيلبي» عند باب البيت، علق بقوله: «هناك فتاة بالداخل تعادل ٨ سلندر»، يقال: إن من اختارتها له هي أم طلال إحدى زوجات الملك، وكان اسمها «روزي عبد العزيز»: لكن «فيلبي» الذي استفسر بحذر عن أصلها، قرر أن اسمها الحقيقي لابد أن يكون «فيروزة»، وهي - على الأرجح - فارسية. وأضاف في يومياته: «أنها على كل حال آرية، وكانت ضئيلة الحجم: (أربعة أقدام وثماني بوصات) وخجولة، وقدّر عمرها بأنها في السادسة عشرة، وجعلته مرتاحاً وسعيداً، تحضر له شاي الساعة الخامسة، تندفع إلى مكتبه أو تصعد السلالم المنحدرة إلى السطح لتعطي «نفساً» لمصباحه كلما صاح بأن نوره قد خفت، وحقق لها المتعة؛ تجوال بالسيارة بعد الظهر، نزهات في بساتين النخيل، ولعب «الباصرة» معها. وطوال سنوات، احتملت تغيبه الطويل ونزوات غضبه. وأشار في يومياته في ذي الحجة ١٣٦٥ (٢٨ أكتوبر ١٩٤٦م)، أن مصباحه قد انطفأ في الليلة السابقة، ولم يأت أحد طوال اليوم لإصلاحه: «فوضى عامة وطرد جميع الخدم، وجلست في الظلام ورفضت العشاء». وكان يعوض روزي عن كل ذلك، ففي الشهر التالي اصطحبها إلى جدة، وإلى الحج، واشترى لها لفات من القماش لتهديها إلى السيدات.

وحين حملت، تحدثت مع الملك في شأن تغيير وضعها لأنها ستضع مولوداً، وقد ولدت في ١٣٦٦ (١٩٤٧م) وأصبحت «أم فهد»، وأحب «فيلبي»، الفخور بأبوته أن يسمى: «أبو فهد»، لكن السعوديين لم يعطوه قط أي اسم سوى «الشيخ عبد الله» أو «فيلبي» كما عرفوه أول مرة. وبينما كان في الهند، مات الطفل، وحزن عليه مع روزي، وعزاها، لكن بعد أسبوعين من عودته من دلهي، غادر إلى جدة فلندن ثم إلى ويلز.

كان شتاء ١٣٦٧ - ١٣٦٨ (١٩٤٧- ١٩٤٨م) زمن امتحان لكل العرب، بينما تستعد بريطانيا لترك فلسطين لمجتمعين متحاربين، وقد زار الملك مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، أعطاهم «فيلبي» «كل ما لديه من معلومات!» وفي رأيه فإن العرب الآن «يجعلون من أمورهم فوضى مؤسفة». وغادر إلى لندن ثانية

في الوقت الذي خرج فيه البريطانيون من فلسطين في ١٣٦٧ (مايو ١٩٤٨م)، ولذا كان بعيداً، حين تجرع عبد الله ـ وقد أصبح الآن ملكاً على شرق الأردن ـ كراهيته، وقام بزيارة الملك عبد العزيز ليناقش معه أن عرب فلسطين لا يشكلون وحدة تستطيع الحياة وحدها ومن الأفضل أن يلحقوا بمملكته. ولم يقنع مضيفه، وكل ما فعله «فيلبي» أن أعلن في خطاب أرسله إلى جريدة التايمز أن النزاع يجب أن يُنقل إلى محكمة دولية[١].

كانت روزي في الرياض حاملاً للمرة الثانية، وفي أوروبا قضى «فيلبي» صيفاً مفعماً بالحركة، ولحق بدورا في إستانبول، وسافر معها إلى كامبيرلي في الوقت المناسب للاحتفال بعيد ميلاد والدته في ٨ مايو. وبعد ذلك ذهبا إلى «أوسلو» لرؤية «ديانا» وطفلتها الجديدة «إليزابيث»، وفي يوليو ذهب إلى باريس لحضور مؤتمر المستشرقين الحادي والعشرين ممثلاً عن الجمعية الملكية الجغرافية، مصطحباً «هيلينا» معه، وأقام في فندق «جراند أوتيل».

كانت معرفته بأرض الجزيرة العربية أغزر من أي عضو آخر حضر اللقاء، وأمل في أن يُعترف به خبيراً في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام. ولكنه، أدرك خلال المؤتمر، الحقيقة التي لم تُقل له حتى ذلك الحين، وهي أن الافتراضات التي بنى عليها كتابه «خلفية الإسلام» وكأنها أشياء مؤكدة، قد فحصت جيداً، واستبعدها العلماء الذين يحترمهم كثيراً، ومع ذلك فقد استمتع بالحديث مع خبراء من جميع أنحاء العالم: ريكمانز من لوڤان، ألبرايت من جون هوبكنز، ماسينون من باريس، ورفقته من العلماء البريطانيين: أربري، وبيستون، وكريزول، وديرنجر، ودرايفر، ومينورسكي.

كذلك جدد الصداقة التي أقامها سنة ١٣٤١ (١٩٢٢م) في شرق الأردن مع إليزابيث تترل، الفتاة الجميلة التي لم يرها منذ ذلك الحين، وقد أصبحت الآن أرملة وتدعى إليزابيث ريفستال، وتعمل في دراسة الفن المصري في متحف بروكلين، واسترجعا الذكريات وكأنها حدثت في الأمس.

---

(١) «The Times»، ١٨/٧/١٣٦٧(٢٧/٥/١٩٤٨م).

اشتكى إلى ميتشل كوست في لندن، أن لديه أعمالاً في الجزيرة العربية تحتاج إلى أربعة لتنفيذها، وقد ترك رجلين للقيام به، وأنهما لا يأخذان مخصصات كافية توازي الارتفاع الخيالي في تكاليف المعيشة هناك، ومع ذلك لم يكن هو نفسه فقيراً، فقد توقف في القاهرة في طريق عودته من باريس إلى جدة، ليستشير «الدردج» ممثلهم في مصر، واستطاع أن يستثمر مبلغ ٤٤٠٠ جنيه من المدخرات في سوق القطن المصري.

وصل الرياض في أوائل سبتمبر ليجد أن «روزي» قد وضعت مولودها الثاني له، وأسموه «سلطان»، وبدا له «الملك» «في صحة جيدة وودوداً كعادته» حين أهدى الأب الفخور بيتاً جديداً في الرياض في هذه المناسبة، كان بيتاً كالقصر، وقد كتب إلى دورا في ذي القعدة ١٣٦٧ (١٥ سبتمبر ١٩٤٨م): «قال الملك: إنه لك إلى الأبد، وفسرت ذلك بأنه لي مدى الحياة، ومن الواضح أنه يتوقع أن أقضي بقية حياتي هنا، وهي فكرتي أيضاً بشكل ما. البيت وما يحيطه يعادل ١٥ ألف جنيه بأسعار الرياض، ولذا فإنه هدية قيمة». وبالنسبة إلى بيت مبني من الطين، فالتقدير يبدو مرتفعاً، لكنه كان في قلب مدينة الرياض حيث ارتفعت قيمة الأرض، وبما أن ساكني البيت مازال طعامهم يأتي من مطابخ القصر، فإن مخصصاته الإضافية في سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨م) كانت الأعلى.

لم تعلق «دورا» على طراز المعيشة هذا في الجزيرة العربية، لقد تُركت في الوطن لإعادة إصلاح ما دمرته الحرب في بيت «إكول رود»، في أثناء صراعها مع البنّاء والسباك حول ذلك سألت هل إصلاح البيت يستحق كل هذا التعب، وأجابها «فيلبي»: «لو قامت حرب أخرى، لبقيت آمناً في الجزيرة العربية، فلست أرغب أن أكون في السجن كما حدث للشيوعيين في حرب، ولدعاة السلام في حرب أخرى».

تبين أن صحة الملك لم تكن على ما يرام، كان يقترب من السبعين، وآخر أبنائه قد ولد سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م)، وبدأت آثار الحياة الصعبة تظهر على بنيته الصلبة. لقد عانى طويلاً من مشكلات في العينين، وبدأ جرح قديم في الركبة يسبب له آلاماً مزعجة في المفاصل، فأقام معابر منحدرة في كل قصوره، وبدأ يستخدم كرسياً بعجلات أهداه إليه الرئيس روزفلت. ومع ذلك كان يستغني عنه كلما استطاع، وسار

وهو يعرج ليحتل مكانه في مأدبة أو لقاء، وبدت أحكامه التي يصدرها في القضايا التي يستمع إليها في الجلسات الصباحية، عادلة وصائبة كما عهدها «فيلبي»، عقوباته تناسب الجرائم التي ارتكبت، وتعاطفه يضرب به المثل نحو الأيتام والأرامل، ولكن عند المساء كان يغلبه النعاس، وقلَّت مشاركته في المناقشات العامة.

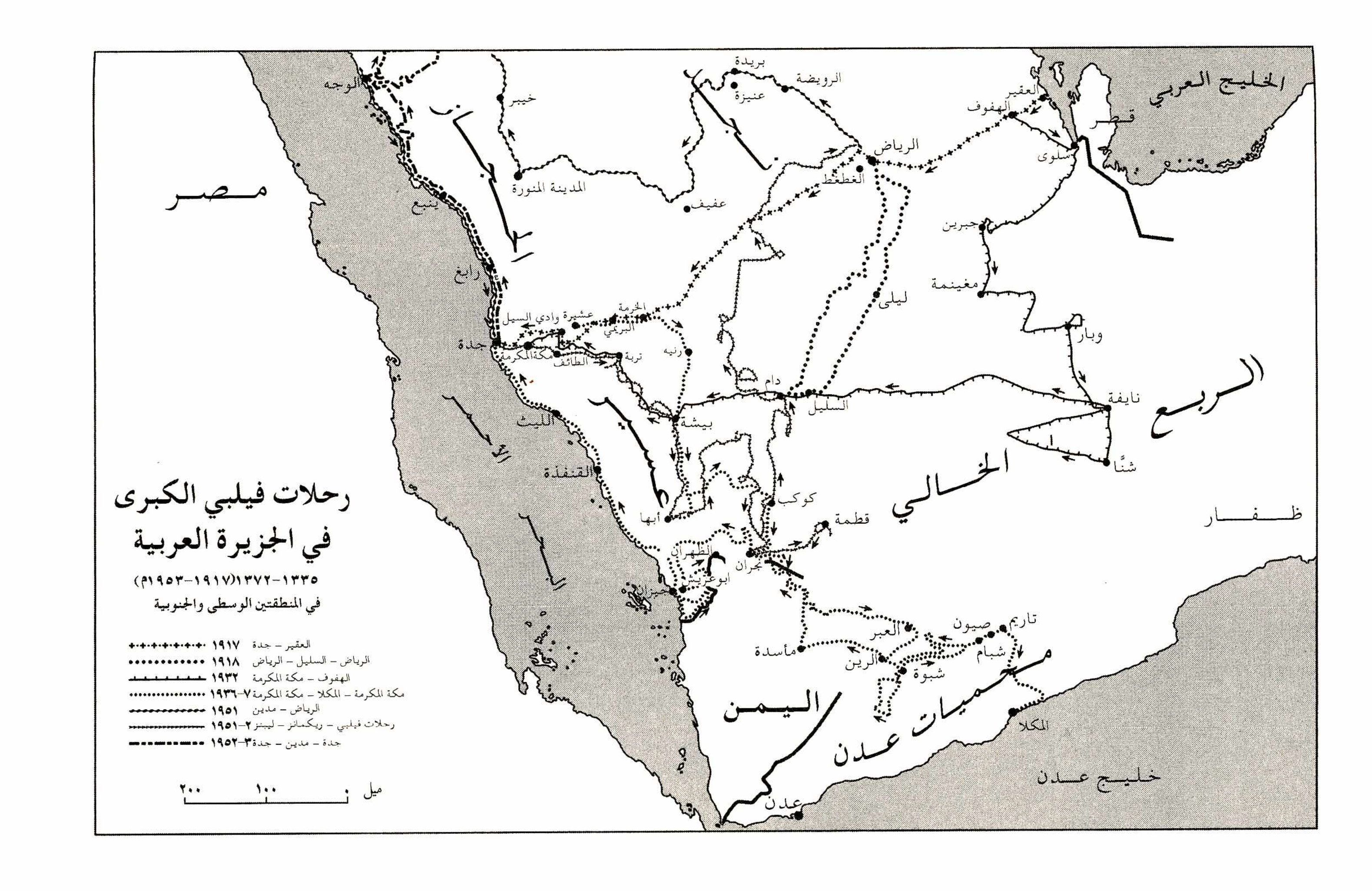
كان «فيلبي» الذي وقع عقداً سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩م) لكتاب عن اليوبيل الذهبي - بمرور خمسين عاماً على نجاح الملك عبد العزيز في العودة إلى الرياض سنة ١٣١٩ (١٩٠٢م) - يقضي أكثر وقت ممكن في شركته، ويذكر رجال الحاشية من العرب أنه، مثل «بوزويل»، يكتب الأقوال التي تلفت انتباهه، وبتلك الطريقة عرفنا أنه في ذي الحجة ١٣٦٨ (٦ أكتوبر ١٩٤٩م) أبدى الملك ملاحظة بقوله: «أنت تتكلم بحريتك، لكن ذلك أمر جيد، فهو على الأقل يبقيني يقظاً». وقد أهدى «فيلبي» بعض الهدايا تعبيراً عن الصداقة القديمة بينهما، وقد أجابه «فيلبي»: بإنه يريد فقط ما طلبه سليمان من ربه: الحكمة.

وقد كتب إلى دورا: «يبدو أني الشخص الوحيد الذي يجرؤ على إخبار الملك عن الأخطاء التي تجري».

كان يستمتع بسرور كبير في بيته، وهو يرى طفل روزي ينمو، وخلال عشرة أشهر سعيدة قضاها متنقلاً بين الرياض ومكة المكرمة، فإن يومياته تحتوي على كل مرحلة من مراحل التطور العقلي لسلطان، وشراء سيارة لاندروفر، وعيد ميلاد ديانا التاسع والعشرين، وقرب موعد إنجاب هيلينا.

أخذ فيلبي زوجته روزي وابنه سلطان إلى الكعبة لتقبيل الحجر الأسود، ثم، فجأة في رمضان ١٣٦٨ (يوليو ١٩٤٩م)، زال السرور من الحياة، أصيب سلطان بالسعال الديكي، وبإسهال شديد، وفي الأول من أغسطس أصبحت نبضات قلبه ضعيفة، كان «فيلبي» على أحر من الجمر، ذهب به إلى طبيب، ثم أعطاه أدوية وعقاقير، ولكن عبثاً، وعند عودته من إحدى هذه المأموريات الصغيرة كان الولد قد مات، وكتب في يومياته: «يالفيروزة المسكينة، آخر مرة رأيته في أثناء عبورها بوابة مجمع المباني في الخامسة والنصف صباحاً». واشترى لها كبشاً، لتضحي به وتوزعه على الفقراء.

وكان حزن «فيلبي» بادياً للعيان، وبعد أسبوع حين ذهب إلى جدة، وطلب وافد أمريكي جديد اسمه «بيل بيتون Bill Peyton مقابلته، فأخبروه أن يكون العشاء هادئاً بسبب حزنه على وفاة ابنه، ومن جدة ذهب مباشرة إلى لندن في رحلة تجارية سريعة، واستعاد روحه المعنوية بتغيير المشهد. وصل فيلبي «إكول رود» في ١٥ أغسطس، وجاء في يومياته باختصار: «البيت، حيث دورا هناك فقط».



رحلات فيلبي الكبرى
في الجزيرة العربية
١٣٣٥-١٣٧٢(١٩١٧-١٩٥٣م)
في المنطقتين الوسطى والجنوبية
العقير – جدة ١٩١٧
الرياض – السليل – الرياض ١٩١٨
الهفوف – مكة المكرمة ١٩٣٢
مكة المكرمة – المكلا – مكة المكرمة ١٩٣٦-٧
الرياض – مدين ١٩٥١
رحلات فيلبي – ريكمانز – ليبنز ١٩٥١-٢
جدة – مدين – جدة ١٩٥٢-٣
ميل ١٠٠ ٢٠٠
مصر
الخليج العربي
قطر
الربع
الخالي
ظفار
اليمن
محميات عدن
خليج عدن
الوجه
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الليث
القنفذة
أبها
جيزان
ابو عريش
الظهران
نجران
خيبر
المدينة المنورة
عفيف
بريدة
عنيزة
الرويضة
الرياض
الغطغط
العقير
الهفوف
سلوى
جبرين
مغينمة
وبار
نايفة
شنّا
ليلى
دام
السليل
بيشة
رنيه
تربة
الخرمة
البركي
عشيرة وادي السيل
كوكب
قطمة
العبر
مأسدة
الرين
شبوة
شبام
صيون
تاريم
المكلا
عدن

الفصل الثالث عشر



الرحلات في الجزيرة العربية

١٣٦٩ - ١٣٧٢ (١٩٥٠ - ١٩٥٣م)

١ ـ البحث عن الجزيرة العربية قبل الإسلام

ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى بدأ الأجانب يجوبون صحراء الجزيرة العربية بسيارات الجيب، وعربات الشحن القوية، معظمهم جيولوجيون أمريكيون يبحثون عن النفط أو المعادن أو الماء، وبعضهم كانوا مجموعات عمل يتبعون بعثة «لوكست كونترول ميشن» البريطانية التي بدأت عملها في أثناء الحرب. لكن المتخصصين الذين التصقت عيونهم بالأرض بحثاً عن العلامات والعينات لم يكونوا مهتمين بالعادات المحلية أو بنوع البلد الذي يسيرون فيه؛ لذا فقد تركوا مجالاً للاستشكاف كما يفهمه «فيلبي»، ربما سبقوه في الوصول إلى منطقة معينة، وحرموه، أن يكون الأول في الوصول إليها، فآثار عرباتهم تدل على ذلك. ورآهم جميعاً متطفلين، لكنهم لم ينافسوه في طبيعة سفره المتعرج الشخصي وتساؤلاته الملحة. وأصبح استكشافه أسهل مما كان قبل الحرب من عدة نواحٍ. فعربته اللاندروفر أصبحت أكثر ملاءمة للعمل الصحراوي من عربته الفورد القديمة، ومعها جهاز اللاسلكي الذي يستطيع التقاط إشارات الوقت من القدس والقاهرة، وكان أفضل من ساعات الكرنوميتر التي يجب على المرء ألا ينسى ملأها، وزيادة على ذلك كان معروفاً بدرجة أكبر.

كان الملك عبد العزيز ينقل أمراء نجد من إقليم إلى إقليم، ولذا كان «فيلبي» يصادف معارف قدماء في الحكم المحلي، ويحصل على المساعدة منهم بالرجال والمؤن. ومن ناحية أخرى لم يعد يجد نوعية المرشدين السابقين الذين يعرفون المناطق

الواسعة في البلاد بسبب اشتراكهم في الغارات القبلية. لم يقابل قط من يشبه جابر بن فرج دليله في رحلته في وادي الدواسر سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م)، الذي اشترك ثلاث مرات في إغارات عبر الرمال الكبرى بين الهفوف والمحيط الهندي. وكان يشكو دائماً أنه في الزمن الحاضر المسالم، فالمرشدون يعرفون فقط المنطقة المحيطة ببيوتهم أو الطرق الرئيسة بين المدن. وكان دائماً يتخلص منهم؛ لأنهم لا يصلحون ولم يستطيعوا تسمية بعض المعالم على الطرق الممهدة بآثار الأقدام، وقد كتب عن أحدهم في سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م): «لقد طردته وحملته رسالة إلى رفاقي والأمير بأني سأظل في مكاني، طوال الليل إذا لزم الأمر، حتى يرسلوا دليلاً كفؤاً. وفي الغالب كنت أجد أنه من المفيد مع هؤلاء الناس التعبير عن الغضب بالامتناع عن الكلام أو حتى عن الطعام، وهو أمر لا يستطيع عربي أن يفهمه».

كان يعمل في خرائطه حتى وهو بصحبة الملك في رحلة صيد تستغرق بضعة أيام. كان يسافر خفيفاً، يستخدم الخيمة من أجل الاحتماء من المطر وليس البرد، ولا يحمل ملابس إضافية، ولقد أخبر رفيقاً مصرياً ذات مرة وقد علاه الاندهاش، بأن «سره» أن يظل مرتدياً الثوب حتى يهترئ، وآنذاك يلبس ثوباً آخر، لكن مهما كانت عدته خفيفة، كان مثقلاً بالعمل. كانت أمتعته الرئيسة جهاز رسم الخرائط، وممتلكات متنوعة تشتمل على سكاكين للسلخ، وشبكة لصيد الفراشات، ومصباح لجذب حشرة العثة، وزجاجات قاتلة للحشرات، وصناديق للعينات التي يلتقطها، وآلته الكاتبة القديمة، وقد كتب إلى دورا في جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ (أبريل ١٩٤٦م): «كنت في خيمتي أطبع ملاحظات متنوعة حول التاريخ القديم للجزيرة العربية، حين تمزقت الخيمة وقطعت حبالها وحُملت بعيداً، وتعطلت آلتي الكاتبة، وكل ملاحظاتي التي دونتها وتعبت فيها، والتي كنت أضعها على الأرض في ترتيب معين، تبعثرت بسبب اندفاع الهواء، وضاعت إلى الأبد». وأصبح معروفاً الآن بأنه رحالة ذو قيمة بالنسبة إلى الحكومة السعودية، وتكلفه ببعض المهام في هذا الشأن، ولكن حتى إذا طلبت منه ملحوظة عابرة، كان يبذل قصارى جهده ليختلق بعض البحوث الأثرية ليتابعها في الوقت ذاته.

وصلت رسالة لاسلكية إلى الملك عبد العزيز في ربيع الأول ١٣٦٧ (يناير ١٩٤٨م)، من أمير «السليل» أن مسيحياً قد وصل دون سابق إنذار، مخترقاً الربع الخالي، وحتى تصله التعليمات، فقد أمسك بالرجل وسجن مرافقيه.



وأدرك «فيلبي» على الفور أن الرجل المشبوه لابد أن يكون «ولفرد ثيسجر» الذي يقوم بعبوره الثاني للصحراء الكبرى.

وقد كتب في تقريره إلى الجمعية الملكية الجغرافية: «كان الملك غاضباً جداً، وأملى برقية أمر فيها بسجن الفريق كله، واعترضت بأن ذلك حكمٌ قاس، لكن بلا فائدة. وفي الصباح التالي سلمت الملك رسالة لبقة رجوته فيها، وفي ذلك المساء، أخبرني فؤاد حمزة بأن الملك قد وافق على التماسي»[(١)].

كتب في يومياته بزهو: «أن على الرجل أن يفعل ما يستطيع لأصدقائه»، لكنه دائماً مع الذين يركبون المركب الصعب، وأضاف: «أن «ثيسجر» واحد من أعظم الرحالين من جيلنا القديم، ويقارن ببيرتون وداوتي وسكوت في هذا المجال».

استأذن الملك، في أن يتجه بسيارته إلى الجنوب، ليقابل «ثيسجر» وهو في طريقه إلى الخليج، وقد قام بذلك، واستفاد من الرحلة بأن واصل سفره جنوباً كي يتفقد بعض الآثار التي سمع عنها من باحثين أمريكيين عن المعادن، وقد أحضر نقشاً من آثار سبأ بدا واعداً. وهكذا وجد «قرية الفاو» عند مطلع الجرف الطويل لجبل طويق على بعد خمسين ميلاً جنوب وادي الدواسر، ووجد قربها بعض الحجارة الغريبة موزعة على شكل مثلثات متساوية الساقين وقواعد متوازية، هل هي مواقع احتفالية رسمية؟

على كل حال، مجمع الأحجار كله كان أكثر المواقع السبئية (نسبة إلى سبأ) التي حددها في أقصى الشرق، ومن الواضح أن هناك احتمالات أثرية، لكن هذه الرحلات الاستثنائية كانت أموراً جانبية. وإذا أراد ألا يتخطى أحد من الشباب الأصغر سناً ـ مثل ثيسجر ـ سمعته كمستكشف، فلابد أن يقوم برحلات كتلك التي قام بها قبل الحرب.

ومع أن الملك سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م) كانت تبدو عليه أمارات التعب، إلا أنه ظل يسمع كل شاردة وواردة تهمه من الحديث.

---

(١) سجلات «آر. جي. أس.»، ملاحظة دُونت بتاريخ ١٣٦٧/٣/١٦(١٩٤٨/١/٢٨م). ولمعرفة رأي «ثيسجر»، انظر كتابه: «Arabian Sand»، لندن ١٣٧٨(١٩٥٩م)، ص٢٢١ وما بعدها.

وذات مساء في أكتوبر أخذته الدهشة من «فيلبي» وهو يطلب منه الإذن للقيام برحلة كبرى في الربع الخالي كي يستكشف جزءاً لم يعرفه في الطرف الشرقي تجاه عمان.

تنبه الملك، الذي كان وزراؤه في صراع مع بريطانيا آنذاك حول تلك الحدود الشرقية، وحقوق شركات النفط المنافسة في التنقيب هناك، وقال على الفور: لا، فاختراق «فيلبي» للأراضي البريطانية سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م)، سبب له ما يكفي من المتاعب، وليس عليه أن يخاطر ثانية، وهو على الرحب والسعة في أن يستكشف كما يشاء، لكن عليه أن يختار منطقة أخرى.

قدم «فيلبي» البديل على الفور، فهل يذهب شمالاً ويستكشف أرض مدين؟ ووافق الملك، وتعبيراً عن رضاه أهداه ألف جنيه للنفقات.

لم يكن «فيلبي» بحاجة إلى شيء يحثه على ذلك. ومع أن شمال الجزيرة معروف للرحالين السابقين أكثر من جنوبها، إلا أن خرائطه لم ترسم بدقة، وعلم ممن سبقه إلى هناك أنه مملوء بآثار من التاريخ القديم. ففي القرن التاسع عشر، حين كان «بيرتون Burton» يبحث عن مناجم الذهب القديمة، وجد في «مدين» بقايا مدينة من الحجر الرملي أخبره العرب أنها تدعى «جثرو Jethro»، وفي الحجاز، «قطع غريبة يونانية ورومانية» عند أطراف وادي «الحمض Hamdh » وقد اكتشف «داوتي Daughty » في أثناء سفره مع قافلة من الحجاج الموقع النبطي الكبير لمدائن صالح، وفي منطقة أبعد في الداخل، وجد عالم الطبيعة الألزاسي «هوبير» نصباً تذكارياً منقوشاً باللغة الآرامية في «تيماء»، وهو المحفوظ الآن بمتحف اللوفر. وفي حياة «فيلبي»، جمع النمساوي «موزيل» واثنان من الدومينيكان ـ الأب جوسين وسافينياك ـ نقوشاً من المنطقة الشمالية تحت رعاية الدولة العثمانية.

رأى «فيلبي» أنه بسيارة اللاندروفر التي معه، يمكنه أن يغطي مساحة أكبر من الأرض من كل أولئك الباحثين الراكبين على ظهور الجمال. لقد استاء من النقد القاسي الذي وجهه الخبراء إلى الطبعة الخاصة من كتابه «خلفية الإسلام»، وأمل أن يثبت أنه يستحق أن يكون مؤرخاً، باكتشافه دليلاً غير معروف. إن التفاصيل حول الجزيرة العربية قبل الإسلام، ضرورية لفهم ما يبحث عنه، ولماذا يختار طريقاً دون آخر،

والتاريخ الذي كشفت عنه النقوش في شمال الجزيرة العربية أسهل في إعادة تفحصه من الجنوب؛ لأن كثيراً من مؤرخي البلدان المجاورة من مصريين، وكنعانيين، وآشوريين، وبابليين، قد سلّطوا عليه مزيداً من الضوء، وهو موجود في نقوش سامية من أشهرها انتشاراً المجموعة المتنوعة المعروفة بالثمودية وهي لغة أقوام بائدة.

ولقد أبيدت ثمود، كما جاء في القرآن الكريم، بصيحة من السماء حين كذبوا نبيهم صالحاً عليه السلام، وهو من الأنبياء قبل الإسلام، وذبحوا الناقة التي أرسلها الله جلّ وعلا آية لهم[١].

يشاهد السياح دلواً هائلاً من الحجر الرملي (في آثار مدينة «الخريبة» قرب «العلا» على طريق سكة الحجاز يقال: إنه الذي كان تُحلب فيه الناقة، بينما علماء آثار محدثون يقولون: إنه خزان مياه لأحد المعابد).

وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم، وفي المدونات الآشورية، وعند «بلينوس»، واليوم يغلب الظن أنهم بدو رحّل، ينقشون على الصخور في أثناء تنقلهم منذ نحو القرن السادس قبل الميلاد. ومن الصعب حل رموز كتاباتهم؛ لأنه لا توجد مسافات بين الكلمات، ولا تسير الكتابة باتجاه واحد، فأحياناً من اليمين إلى الشمال، وأحياناً جيئة وذهاباً كما في حراثة الأرض. وبعض إشاراتهم لها معنى ديني، في الغالب، فهي إما اسم وإما عبادة وإما لعنة.

ترك التجار المقيمون والأكثر حذقاً من أهل ثمود، وراءهم نقوشاً ومخربشات أفضل في مصطلحاتها منهم، وهي مجموعة كبيرة وجدت في المنطقة حول «العلا» ـ وكان «داوتيDoughty» أول أوروبي يراها.

انتعشت هذه المنطقة عدة قرون؛ لأنها على مفترق طريقين: طريق البخور الذي يسير من الشمال إلى الجنوب (بعد ذلك طريق قوافل الحج القادمة من دمشق، والخط الحديدي الذي ينقل الحجاج)، والطريق الشرقي ـ الغربي من البحر الأحمر إلى وسط الجزيرة العربية، الذي يسير صاعداً عبر وادي الحمض الكبير.

---

(١) إشارة إلى الآيات ٦١-٦٨ من سورة هود.

والنقوش هنا ديدانية (Dedanite) كتبت نحو القرن السادس قبل الميلاد، يأتي بعدها في التسلسل التاريخي نقوش لحيانية (Lihyanite) حفرها خلفاؤهم المباشرون، ممزوجة بلغة «معين Main»؛ لأن مملكة معين العربية كان لها مركز تجاري في الشمال، متمثلة في الصخور الحمراء حول خرائب «الخريبة» وقد حفرت فيها كهوف استخدمت قبوراً لسكانها، وتبعد ٢٥ ميلاً شمال مدائن صالح التي كان اسمها: «الحجر» وأعيدت تسميتها على اسم النبي صالح .

عاش هنا، وخلال القرنين، الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد الأنباط، وهم التجار الذين فرضوا الضرائب، وحفروا على الصخور في «البتراء»، وفي كلا المكانين صنعوا واجهات يونانية رومانية للجحور التي كانت مقابرهم، وكتبوا عليها وأرّخوها باللغة النبطية. كانت هناك صلة، بين كل النقوش العربية التي ذكرت، لكن: «من المشكوك فيه أن تكون البحوث حول ثمود قد وصلت إلى نقطة يمكن منها رسم صورة مقنعة لتطور الكتابة في شمال الجزيرة العربية»[(١)].

يجب ألا يترك بوصة في رحلته دون أن يستفيد منها، وقرر أن يسافر من الرياض إلى المدينة المنورة عن طريق يخترق المنطقة بشكل يساعده على ملء الفجوات الكبيرة في خرائطه، وقد اتجه من «بُريدة» غرباً، وسار بسيارته اللاندروفر في الوديان الصخرية شمال الطريق المعتاد وجنوبه إلى المدينة ليرسم قدر استطاعته خرائط للوادي المنخفض في وسط الجزيرة الشمالي، والذي يصب في وادي «الرمة» وسار مسافة ١٥٠٠ ميل وهو يتتبعه ليمسحه.

هناك ثلاثة طرق رئيسة من الحجاز تؤدي إلى «مدين»؛ أشهرها ذلك الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، ولا يسلكه «فيلبي» أبداً إلا إذا كان في عجلة من أمره، والطريقان الآخران يبدأان من المدينة المنورة، أحدهما يشرب رواده من آبار متعددة وهو طريق البخور والحج القديم الذي يتجه شمالاً عبر العلا، والآخر، أبعد شمالاً، وقد أصبح مطروقاً حين مكنت السيارات المسافرين تجنب الآبار. ويتزود الناس

---

(١) «إف. ف. وينيت» و دبليو. إل. ريد»، «Ancient Records from North Arabia»، تورنتو، ١٣٩٠(١٩٧٠م). ص٧٠.



بالماء في المدينتين اللتين يمر بهما الطريق وهما: خيبر وتيماء، واختار «فيلبي» الطريق الثاني الأقل حركة من قبل المسافرين عليه والفضل لسيارته اللاندروفر، وأي طريق يختاره المرء، فالمناظر الطبيعية دائماً غريبة وأحياناً جميلة.

يتكون جزء منها من «الحرة» التي تكونت بفعل البراكين، وهي على شكل أحزمة كبيرة من الأرض تخترقها براكين خامدة، تتناثر فوقها حجارة سوداء من بقايا الصخور. وفي مناطق أخرى، تتكون جزئياً من أحزمة صفراء ووردية من الحجر الرملي أشهرها في «البتراء». ووادي رام، وهذه الصخور اللينة هي هدف الذين يكتبون بالنقش عليها، وهي جميلة المنظر أيضاً؛ لأنها تشكلت بطريقة خاصة وغريبة، فأحياناً تبدو مثل رجال أو حيوانات عملاقة، وأحياناً تبدو كمدينة نيويورك على سطح الأفق البعيد.

تختلط المناظر الطبيعية السوداء والوردية في الغالب، وتتكوم حواف بركانية يتراكم حتى منتصفها منحدر من رمال وردية ذرتها الرياح، أو صخرة من حجر رملي لها قمة بازلتية سوداء.

وصل «فيلبي» إلى خيبر في سنة ١٣٧٠ (يوم عيد الميلاد عام ١٩٥٠م)، وهي أرض سوداء تماماً، وآبارها جيدة، ووداديها يكتظ ببساتين النخيل ذات البلح الممتاز، وحقول القمح التي تنمو في أرض خصبة سوداء.

وجد «فيلبي» قليلاً من الرسومات على الصخور، ولكن لا أثر لنقوش، وسأل هل استخدموا أوراق البردي، ليكتبوا عليها، وبحث عن آثار لهم أعلى وأسفل الوادي دون نتيجة، لكنه استنتج أنه في تلك الأيام، لابد أن الزراعة كانت منتشرة على نطاق واسع، لأنه حين سار إلى «الحرة» التي في شرق المدينة، وصل إلى سدود كبيرة من بازلت غير مشذب بدا له أنها بُنيت لتحجز الرواسب الطينية للزراعة عكس التيار.

وصل إلى منطقة من الحجر الرملي تمتد حتى الأفق وهو في طريقه إلى «تيماء»، وارتفعت روحه المعنوية، هذه هي المنطقة التي جمع فيها «جوسين» و«سافينياك«عدداً كبيراً من النقوش، وفي وجود هذه الكميات من النتوءات، فلابد أن هناك الكثير ليجده المرء.

كانت «تيماء» مسكونة منذ آلاف السنين، وتروى من بئر هائل لا ينفد ماؤها، وتنتشر خرائب مدينتها القديمة مسافة أميال، جدران مهدمة بفجوات ملأها الرمل الزاحف، كم كان حجمها ومن الذي بناها..؟ لا يستطيع أن يقول حتى يسمح لعالم آثار أن يصل إليها بجاروف، ويجول قدر استطاعته في محيطها، لكنه رأى ما رآه الآخرون ووصفوه.

قرر أن يركز في التلال والسلاسل المحيطة، وبذل جهده في مساحة تقدر بنحو عشرة أميال جنوب شرق المدينة، حيث صعد إلى مكان عالٍ لا تخطئه العين على قمة جبل منعزل يسمى «جبل غنيم». وحين قاد مرشديه المذهولين، الذين لم يغادروا السهل من قبل، عبر الممر الذي كان يوصلهم إلى القمة، وجد صخوراً مغطاة بنقوش لا يستطيع قراءتها، وتواريخ ليس لديه فكرة عنها، لكن اللاحقين عدّوها من أقدم النقوش التي اكتشفت في الجزيرة العربية حتى ذلك الحين.

يعرف علماء الآثار أن النقوش كانت تسجل حروباً شنها ملك بابل «نبوخذ نصر»، خلال عشر سنوات من إقامته في الواحة في منتصف القرن السادس قبل الميلاد[١].

سار «فيلبي» على قدميه من جبل إلى جبل حتى تخطى المناطق التي سار فيها من سبقوه: «كانت أرضاً بكراً لم يطأها إنسان من قبل في بحث مثل هذا، وبذلت جهدي ألا أترك شيئاً لمن يأتي بعدي ليكتشفه، ومع ذلك لا أزعم أني استنفدت كل الاحتمالات». وما إن يعود من استشكافاته في الأماكن المجاورة للمدن، حتى يسعد مرافقوه بما تقدمه هذه المدن من مباهج، فالرجال الذين اختارهم ليرافقوه من المدينة ظنوه مجنوناً يفضل السير في الصحراء والبحث عن عينات على الحديث وشرب القهوة، ورفضت مجموعة منهم أن تتقدم أبعد من ذلك، فطردهم على الفور، ورأى فيهم: «صحبة لا فائدة منها».

كان بعض المرشدين المحليين أكثر صلابة ـ لحسن الحظ ـ وأظهروا ميلاً طبيعياً ليكونوا أكثر خبرة في تدبير الأمور في حالات الطوارئ من أولئك الذين يقودون السيارات في الأماكن البعيدة. وحين تعطلت سيارته اللاندروفر بعد سير صعب

---

(١) ذُكر سابقاً، ص٩٠-٩٣.

لمسافة ٢٠٠٠ ميل منذ خروجه من الرياض، وخذلته أول مرة، وحطت رحالها في حضن كتلة من الرمال، عاد أحد المرشدين من الذين اختارهم من «تيماء» إلى بلدته سيراً على الأقدام مسافة طويلة، ليعود بالتعزيزات ويخلصوا السيارة ويعودوا بها إلى البلدة، حيث تركها هناك فلم يعد بالإمكان السير بها.

يدين «فيلبي» كثيراً بنجاحه كرحالة صحراوي إلى عدم اكتراثه بالانتكاسات الطبيعية، لقد أكمل رحلته ذات الأربعة آلاف ميل إلى «مدين» والعودة منها، بعربته اللوري، التي تعطل عداد سرعتها، ومع ذلك قام بجهد كبير لرسم خرائطه بدقة: «احتفظت بسجل مفصل لأوقات الراحة والسير، حتى يمكن للمرء أن يفترض معدل التقدم في السير، ومن الواضح أن أي سيارة لا تسير بسرعة منتظمة في أرض تختلف في طبيعتها من لحظة إلى أخرى، لابد أن يفحص معدل السير على اتجاهات بوصلة من قاعدة ثابتة».

تقطع سيارات اللوري الرحلة اليوم شمالاً من المدينة المنورة إلى تبوك في يوم واحد على الطرق المعبدة، لكن «فيلبي» قطعها في ثمانية عشر يوماً.

لم يعكر أيام استشكافه سوى فقدان سيارة اللاندروفر واستيائه من المرشدين الذين أخذهم معه من المدينة. وفي «تبوك» قام أولئك الذين بقوا معه بتتويج تصرفاتهم السيئة بقولهم لـه: إن تموين الأشهر الأربعة الذي خرجوا به عند بدء الرحلة قد نفد. واستنتج «فيلبي» بأنهم قد باعوا هذه المواد التموينية؛ لأنهم على طول الطريق كانوا ضيوفاً على أمراء المناطق التي يمرون بها، وهو أمر شنيع بمقاييسه البريطانية، لكنهم عدّوه غلطة بسيطة من رجال فقراء. وعفا أمير تبوك «خالد السديري» عن الفاعلين، وأعطاه مؤونة بديلة.

كان «فيلبي» يرى دائماً أن أناس الصحراء أكثر أمانة من أهل المدن، فقد كان يضع المؤن في الكهوف دون حماية، لذا فقد شعر بأنه أقل وداً، وترك المؤن في صناديقها: «إنها في أمان، ضع وسمك عليها، وفي وقت الاستراحة، يتفحص الوسم، ويدفع من يريد ثمن ما أخذه»[1].

---

(١) سجلات «آر. جي. أس.»، ملاحظات استطلاع بتاريخ ربيع الآخر ١٣٧٠(كانون الثاني ١٩٥١م).

تقع «تبوك» في حوض صحراوي ممتد، وصفه «فيلبي» مرة بأنه: «بحر داخلي جاف». إنها عاصمة الإقليم، وملتقى طريقين، وهنا وجد «فيلبي» دليلاً يتفق مع ميوله: رجل سوداني يسمى «الزول مرزوق» ابن عائلة بقيت في البلاد بعد موسم حج في القرن التاسع عشر، يعرف القراءة والكتابة ويحب تصيد النقوش، وبإذن من «خالد السديري» استخدم «فيلبي» مرزوق ليس فقط سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م) ولكن مرة ثانية في رحلته الطويلة الأخرى إلى «مدين» سنة ١٣٧٢ (١٩٥٣م).

قام هو و«الزول» برحلتين مثمرتين، جاعلاً من «تبوك» قاعدته الأساسية، في أولاهما، في ربيع الآخر ١٣٧٠ (منتصف يناير ١٩٥١م)، إلى معبد معزول في الجنوب الشرقي، ووجده، ولم يكن أحد زاره قبله إلا «موزيل» سنة ١٣٢٨ (١٩١٠م). وبما أن «موزيل» لم يُرحّب به من البدو، وأن النسخ التي عملها لنقوش المعبد قد سرقت بعد ذلك، فقد رأى «فيلبي» أنه يعمل في ميدان بكر غير مسبوق، وقد استطاع أن يعرف تاريخ هذا الأثر الوحيد المسمى «روافة» إذ يوجد عليه نقش جميل يمثل إهداءً بلغتين استطاع قراءة إحداهما - اليونانية كنوع من التشريف، ثم النبطية؛ لأنها اللغة الأدبية للإقليم على هذا النقش الضخم[١].

إن وجود هذا المعبد في هذه القفار أمر غامض، لكن حجارته المنهارة تحمل إهداءات إلى الإمبراطور ماركوس أوروليوس أنطونيوس، وإلى القائد الروماني لوسيوس ڤيروس، وكلاهما من القرن الثاني الميلادي. ولتكريمهما قام «فيلبي» في آخر يوم من إقامته هناك: «بذلنا كل قوة لدينا للقيام بالعمل الشاق، بوضع النقوش الأربعة الكبيرة التي وجدناها، على الجدران الباقية في واجهة المعبد»، وحين زار «روافة» بعد سنتين، لم يكن هناك شيء سليم سوى النقش المزدوج اللغة، وكتب تقريراً بأن هناك تخريباً في المنطقة.

عندما زار أصدقاؤه من البلجيكيين من «آل ريكمانز Ryckmans» متحفه الصغير الذي أقامه في جدة، ورأوا ونسخوا النقوش اليونانية في صخرة «روافة»، لم يكن إلا «فيلبي» هو الذي وضعها هناك.

---

(١) «بي. جيه. بار»، «جيه. إل. هاردنين» و جيه، إي. دايتون»، «Preiminary Survey of North West Arabia»، نشرة معهد جامعة لندن للآثار، الأرقام ٨و٩، ١٣٩٠(١٩٧٠م)، ص٢١٩.



كانت رحلته الثانية خارج تبوك أقل مشقة لكنها أكثر غرابة، لأن نتيجتها كانت تحديد الآثار الأسطورية التي سمع عنها كل من بيرتون وداوتي وموزيل، وفشلوا جميعاً في رؤيتها، وكانت تلك هي الموقع النبطي المسمى قُرَيّة - تصغير قرية، ولكن عدم استطاعة أي منهم أن يرى قلعتها أمر غريب، لأنها على بعد ١٦ ميلاً فقط من المركز الحدودي الذي يمر به طريق الحج إلى الأردن، وإلى جانبه باتساع نصف ميل، طريق قوافل جمال الحج الذي يتسع إلى ألف جمل تسير بجانب بعضها البعض.

عرف «فيلبي» بعد ذلك أن ألمانياً يدعى «مورتز»، المسؤول عن المكتبة الخديوية في القاهرة، قد رأى القُرَيَّة في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦م)، لكن في تلك اللحظة كان سعيداً بما اكتشف، وجمع قطعاً من الفخار والزجاج لكي يفحصها بعد ذلك في مصر والأردن، وكذلك تفحص السفوح التي فوقها آثار بيوت وإشارات إلى حراثة أرض قديمة.

وصلت البحوث منذ وفاته إلى أن المساكن هناك تعود إلى أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد على الأقل.

توجه «فيلبي» من «القُرَيَّة» إلى «مدين» مباشرة، وعانى ليس من البرد فقط، بل من نقص المرشدين بسبب عدم وجود بدو إطلاقاً في تلك المنطقة، لأن العرب الذين يرعون قطعانهم في الهضبة العليا المسماة بـ «حسمى»، يرسلون حيواناتهم لترعى في السهل الساحلي أو في حوض «تبوك» في الشتاء. والأكثر من ذلك أنه بدأ يعاني من الآلام في نهاية كل رحلة طويلة يقوم بها: بثور وآلام في القدمين، ومع ذلك، فبتجاهله المعتاد للمرض، وبيوم راحة عارض، اندفع إلى جبال «مدين» التي يرتفع أعلاها (اللوز Lauz) إلى مسافة ٨٤٠٠ قدم. ولم يستطع حل ألغاز تعقد أوديتها حتى قام برحلة أخرى بعد ذلك، لكنه تسلق إلى ارتفاعات مكنته من أن يرى منها خليج العقبة وجبال سيناء على الجانب البعيد. ومن الخطوط الإرشادية التي استطاع أن يتذكرها من خرائط بيرتون وموزيل استطاع أن يجد «مغاير شعيب»، وبدا أشبه بمجموعة من القبور النبطية التي دمرتها الرياح بشدة، وقد أقيمت منذ ١٥٠٠ سنة على الأقل، ولقد عثر عليها في أثناء توجهه إلى البحر عند «مقنا»، حيث عاد إلى

الحياة الحضرية بوجود مركز شرطة يشرف عليه السعوديون لمنع الحجاج من الأردن وسيناء من التسلل إلى البلاد دون دفع الرسوم، ثم سار على طول الساحل حتى وصل جدة بعد ٩٨ يوماً من مغادرته الرياض، ورأى في مدين «الكثير مما لا يحتاج إلى زيارة أخرى».

كان يختمر في ذهنه اهتمامه بالنقوش لبعض الوقت، أراد أن يحسن موقفه في هذا الميدان الذي لا يعرف فيه ما يكفي لكي يُعد خبيراً من الدرجة الأولى، وطور فكرة جدية، وسيكون متفوقاً في هذا المجال لو أقنع خبيراً بالنقوش أن ينضم إليه في استكشافاته، ويقوده إلى مواقع لا يعرفها غيره.

تحدث مع الملك بصراحة في الموضوع في شهر رمضان سنة ١٣٧٠ (١٩٥١م)، الذي وافق في ذروة الصيف، وقضاه في الرياض، عموماً، فإن السعوديين ليسوا مهتمين بتاريخ بلادهم قبل الإسلام[١]، لكن الملك كان معجباً بفيلبي، وسايره في تفكيره.

وهكذا بدأت أول وآخر رحلة استكشاف سعودية رسمية بحثاً عن آثار ما قبل الإسلام دون تحديد مدة معينة لها، وعلى «فيلبي» أن يقودها. ولم يتردد «فيلبي» في اختيار الخبير الذي سيصحبه، فالرجل المناسب إذا وافق أن يأتي، فهو«م. ج. ريكمانز Monseigneur Ganzague Rychmans» رجل رائع، وعميد وسط علماء الدراسات السامية، وساعد في نشر كتاب جامعة لوفيان المسمى «Le Muson».

وفي جمادى الأولى ١٣٦٩ (مارس ١٩٥٠م)م كتب «فيلبي» إلى هذا الأستاذ في مادته: «أنت تصلح لأن تكون المرشد لي في مملكة سبأ القديمة، وسيكون ذلك في الواقع تتويجاً لعملي في جنوب الجزيرة العربية».

لقد مدح هذا الرجل لدرجة أن «الملك عبد العزيز» لم يوافق فقط على السماح

---

(١) الأمر ليس كما ذهبت إليه المؤلفة، وإنما يمكن أن يقال: إن هناك قلة من المهتمين بهذا الجانب، وإلاّ فإن هناك كتاباً أُلفّ عما قبل الإسلام واسمه: تاريخ العرب القديم، لعبدالله بن عبدالمحسن المغيرة، وهذا المؤلف مات عام ١٣٥٠ (١٩٣١م).

بالرحلة، بل دفع تكاليفها، ووسائل النقل والطعام والرجال، كل ذلك وفقاً لأربعة شروط: أن تزوده البعثة بتقرير عما تجده، وألا تأخذ أياً من الآثار القديمة خارج البلاد، وألا تضم البعثة أي يهودي، وألا تستورد أي كحوليات. لقد اختار مدير الفرقة المسرحية قائد الفرقة الموسيقية، وأجاب المايسترو بأنه يود أن يصطحب فريقاً يتكون من ابن أخيه «جاك ريكمانز» وهو مؤرخ شاب للجزيرة العربية قبل الإسلام، والكونت فيليب ليبنز وهو خبير في تصوير النقوش وقد سبق له العمل في الصحراء، وقام في أثناء خدمته مع لجنة الهدنة المشتركة في فلسطين سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨م)، بالمساعدة في اكتشاف الكهوف التي حوت أجزاء من مخطوطات البحر الميت، وسيقوم جاك بحفظ السجلات، وفيليب بتنظيم العمل، تاركين «فيلبي» ليرسم الخرائط وليرشدهم في خط سيرهم.

أصبحت الممالك العربية الجنوبية التي خرج هذا الفريق لدراستها غنية بعد تطور تجارة البخور بعبورها من هناك إلى مناطق البحر المتوسط، وربما هذه التجارة هي التي ساعدت المزارعين البدائيين ليصلوا إلى مستويات عالية من الحضارة والثقافة المتطورة، قلة من الباحثين استطاعت أن تزور مواقع في جنوب الجزيرة العربية في أثناء الحكم العثماني، خاصة في اليمن، وخمنت أن هذه الآثار تعود إلى فترة مبكرة جداً، معاصرة لآشور ومصر القديمة.

يرى العلماء المحدثون أن هذه الممالك انتعشت في فترة لاحقة، ربما بين القرن الخامس قبل الميلاد والسادس بعد الميلاد، وقد كتبت نقوش هذه الثقافات بلغات سامية محلية، تتكون من مجموعتين: مجموعة شرقية تشمل حضرموت ومنطقة «بيحان»، وبعيداً إلى الغرب تقع منطقة سبأ التي تنتمي تقريباً إلى شمال اليمن الحديث. وبالمصادفة كانت لغة «معين» التي تقع شمال سبأ في ناحية «نجران»، أكثر تشابهاً مع مجموعة اللغات الشرقية منها إلى اللغة السبئية. وكان للمعينيين التجار الذين سبق ذكرهم، مركز تجاري في شمال غرب الجزيرة في «دادان»، وكان كل هؤلاء الناس من المقيمين وليس الرحل، عدا رجال القوافل. وعلى الساحل الجنوبي، عاشت (وماتزال تعيش) قبيلة تدعى «حمير» التي شكلت في العصور القديمة تهديداً خطيراً لجيرانها المتحضرين في الداخل.

اجتاحت هذه القبيلة في القرون الأولى بعد الميلاد، منطقة سبأ، وأسست سلطة هناك، وبسطت سيطرتها بالتدريج على كل المنطقة المتحضرة. وهذا هو السبب في أن الكتاب المسلمين يقولون عن كل حضارة في جنوب الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام، بأنها حضارة حميرية، وهو السبب أيضاً الذي دفع الكتاب اليونانيين منذ القرن الثالث الميلادي فصاعداً أن يطلقوا على سكان جنوب الجزيرة العربية عموماً: «الحميريين».

تبنى «الحميريون» اللغة السبئية لغة للكتابة، وبزيادة سيطرتهم على المنطقة قل استخدام اللغات الأخرى، فلم نشهد شيئاً منها بعد القرن الثالث الميلادي. ولقد عرف العالم اليوناني الروماني بجنوب الجزيرة العربية لأول مرة في القرن الثالث الميلادي من خلال كتابات الجغرافي اليوناني «أيراتوثينيسEratosthenes» في عام ٢٤ قبل الميلاد، فقد أراد الإمبراطور الروماني أوغسطس أن ينال نصيباً من تجارة البخور المربحة، فأرسل حملة بقيادة «أليوس جاليوس» إلى جنوب الجزيرة العربية، وانتهت الحملة، عسكرياً، بفشل ذريع، ولم تحقق أهدافها، لكنها أدت إلى معرفة كبيرة بالجزيرة العربية، الأمر الذي مكن «بلونيوس» أن يقدم رواية قيمة عن تجارة البخور، وستمضي عدة قرون قبل أن تصبح الجزيرة العربية ذات أهمية للشؤون الشرق أوسطية مرة ثانية.

كان سكان جنوب الجزيرة العربية في العصور القديمة يؤمنون بأكثر من إله. وكان هناك هيكل لجميع الآلهة يسيطر عليه «إله القمر» (المعروف عند السبئيين باسم إلمقة)، وآلهة تسمى عشتار (يعتقد عادة أنها كوكب الزهرة) بالإضافة إلى عدد كبير من الآلهة الصغيرة.

ظهر في القرون الأولى بعد الميلاد، اتجاه ضئيل نحو التوحيد، بمعنى أن «إلمقة» أصبح وحده هو الذي يُتوسل إليه من دون عشتار والآلهة الأخرى. وفي منتصف القرن الرابع الميلادي اختفى ذكر جميع الآلهة القديمة تماماً، ليحل محلها «إله السموات والأرض» المسمى بالرحمن، وأخيراً في القرن السادس الميلادي ظهرت بشكل واضح النصوص المسيحية.

ارتبطت هذه التطورات الدينية ببعض الأحداث السياسية الكبرى، فقد كانت بيزنطة



في أوائل القرن السادس منهمكة في حرب مع فارس الساسانية التي قطعت خطوط التجارة البيزنطية مع الهند والشرق الأقصى. وفي جهد للسيطرة على طريق المحيط الهندي لاستبداله بالطريق البري، شجعت بيزنطة حليفتها المملكة الأثيوبية المسيحية لمهاجمة جنوب الجزيرة العربية.

كانت هذه المغامرة - بداية - فاشلة: ملك جنوب الجزيرة كان قد تحول إلى الديانة اليهودية، وأنزل بالأثيوبيين هزائم كبيرة، ودمر كنائس مسيحية، وذبح عدداً من المسيحيين في نجران.

كانت الحملة الأثيوبية الثانية أكثر نجاحاً، فقد قتلت الملك اليهودي، ونصّب الأثيوبيون «اسيميفايوس» كدمية بأيديهم ملكاً على جنوب الجزيرة، وبعد سنوات قليلة تم التخلص منه عن طريق عصيان مسلح، وجلس أبرهة على العرش، وعلى الرغم من أنه مسيحي، إلا أنه تدبر أمره للانعتاق من سلطة أثيوبيا، وأقام مملكة مستقلة طويلة الأمد، ويقال إنه هو القائد الذي هاجم مكة المكرمة بالأفيال.

استطاع الفرس أن يضموا جنوب الجزيرة العربية إلى أملاكهم بعد وفاته نحو عام ٥٧٠م، وهي حادثة تسجل نهاية استقلال ثقافة جنوب الجزيرة. كل هذا مسجل في المصادر اليونانية والسريانية، وقد سلَّط عليها الكثير من الضوء بسلسلة من النقوش المهمة التي اكتشفها «فيلبي».

خط النقش الثمودي في شمال غرب الجزيرة العربية، له صلة كبيرة بذلك المستخدم في نقوش جنوب الجزيرة، لكنه مميز بوضوح عنه. ولقد لقب العلماء الغربيون هذه اللغة بالثمودية لأنهم لاحظوها أول مرة في المنطقة الشمالية المرتبطة تقليدياً بقبيلة ثمود.

كان «فيلبي» في اكتشافاته سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) قد ألقى الضوء على الحقيقة المدهشة بأن ما يسمى بالخط الثمودي موجود في كتابة سكان الجنوب. ومن الواضح أن هناك خطأً في تسمية هذا الخط بالثمودي (وإن ظل استخدام الاسم بحكم العادة)، فالخط ببساطة هو الذي يستخدمه البدو في كل الجزيرة العربية، وهو مميز عن الخط الذي يستخدمه السكان المستقرون في جنوب الجزيرة.

يرى «فيلبي» أن الحملة التي قادها من جدة في صفر ١٣٧١ (٨ نوفمبر ١٩٥١م)، كانت حملة كبيرة. وسار على رأسها خلف عجلة القيادة في عربته اللاندروفر القديمة، يجلس إلى جانبه على مقعد الشرف «كانون ريكمانز». يتبعهما الشابان في سيارة مريحة بدرجة أكبر من سيارته، ثم عربتا لوري في الخلف تحملان بقية الفريق والمعدات. وقد كان «فيلبي» مصمماً على أن يرى ضيوف الملك الصحراء والأراضي الجبلية أيضاً؛ ولذا فقد اتجه أولاً إلى أبها، سالكاً الطريق البري الذي سار عليه فيل أبرهة، واستغرق خمسة عشر يوماً في هذه التفريعة من الرحلة، بينما يقطعها اللوري باستخدام الطريق المباشر في ثلاثة أيام الآن. وعوّض «فيلبي» نقص الصخور التي عليها نقوش في هذه الأرض الجبلية الجرانيتية، بالصحبة الجميلة، وبتنوع التسلية التي قدمها: مطاردة الغزلان، وقطعان القرود من نوع البابون، الطيور النادرة، وطيور من أجل الطعام، وتمر الليالي على «فيلبي» بعباءة يفترشها وبطانية يلتحفها، وبالطبع زيارات لأمراء الأقاليم في البلدان التي يمرون بها. وكان الزوار الثلاثة لا يتكلمون العربية إلا بشكل يسير، ليعبروا عن تقديرهم لما أحيطوا به من شرف في الطائف وتربة وبيشة وخميس مشيط وأبها التي تغيرت كثيراً عما عهدها سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) وكاد لا يعرفها، وشرح لهم علم أنساب القبائل ووسم كل قبيلة، وأخذهم إلى أعلى المرتفعات ليروا «عسير» منحدرة وجميلة.

شعر «فيلبي» بالبهجة، حين عرف أن الرجل الذي ترك قطيعه لينضم إليهم، كان أحد مرشديه سنة ١٣٥١ (١٩٣٢م)، وبعد التحية قال الرجل: «عرفت أنه لابد أن تكون أنت، فلا أحد غيرك يتسلق الجبال». وواصل السير من أبها شرقاً ليصل إلى نجران من الشمال، وكان هدفه أن يمر في طريقه بجبال القهرة حيث رأى الكثير من الرسومات والنقوش على الصخور سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م)، ومجمعاً كاملاً من سلاسل الحجر الرملي بينها وبين نجران.

غادرت الفرقة في ٦ ديسمبر الصخور البركانية في غرب الجزيرة إلى هذه الأرض الموعودة. وهم في طريقهم، قال لهم أحد المرشدين ذات مساء إنه يقترح أن يتوقفوا عند بئر تسمى «مريغان»، يمكن الوصول إليها عبر ممر ضيق وسط حلقة من الصخور، حيث يمكن أن يحتموا من الريح، ووافق «فيلبي»، وساروا إلى مكان غير معروف لديه، وقد وصف ليبنز لحظة الوصول: «أمسكت بجاك وصحت «انظر!!».

كانت الجدران والصخور المبعثرة مغطاة بالنقوش بارتفاع ستة إلى ثمانية أمتار، فوق المنحدر وعلى الجدران الصخرية يساراً ويميناً، هنا وهناك وفي كل مكان. سرنا خطوة خطوة، رجالنا مندهشون، بل مهتاجون، مع أن حماستهم قد هبطت حين بدؤوا يفكرون في وقت الانتظار الطويل الذي سيتلو ذلك».

انقسمت الفرقة داخل حلقة الصخور، كل واحد يحمل مفكرة في يده، وينحني لينسخ قدر ما يستطيع قبل حلول الظلام. وفجأة أسرع الجميع للانضمام إلى «كانون» إثر صرخة منه، ووجدوه، بغض النظر عن سنه، عند منتصف حائط صخري على ارتفاع عشرين قدماً يصيح: «لقد وجدت نقشاً لأبرهة»، يبدأ هذا الاكتشاف العظيم، بطول عشرة أسطر، بعلامة الصليب، ومؤرخ بسنة ٥٤٧ ويخلد ذكرى نصر في ذلك الوقت، واتضح بعد ذلك أنه النقش المسيحي الوحيد المهم الذي وجدوه»[(١)].

توالت الاكتشافات بسرعة وكثافة، من بئر «مريغان» فصاعداً، وكانت المتعة أن يرى المرء انفعال كانون، وكما كتب «فيلبي» إلى دورا: «قد يقف الأستاذ ثابتاً مدة ساعة أمام صخرة مغطاة بالنقوش، وينسخها في دفتره كعابد مخلص أمام آلهة وثنية للجزيرة العربية».

كذلك كان هناك الكثير من الرسومات على الصخور: رجال، حروب، غزلان، حيوانات، تبين أن الجو كان أفضل بكثير مما هو عليه الآن، فهي حيوانات لم تعد موجودة الآن، وخصوصاً الظباء والنعام.

عرف «فيلبي» في أثناء سيرهم، حقيقة لم يدركها عندما كان يسافر وحده، وهي أهمية الزنجار الذي يعلو الآثار كإشارة إلي العمر النسبي للرسومات التي على الصخور، فهو مثلاً قد أساء تفسير تتابع سلسلة من الرسومات، وقد أظهر الزنجار الذي يعلوها أنها من فترات تاريخية مختلفة تماماً، ومدركاً أن هناك من يفوقه بكثير حين يتعلق الأمر بالفن المنقوش على الصخور، فركز اهتمامه على رسم الخرائط، ومعرفة اسم كل معلم طبيعي، والبحث عن صخور جديدة لرفاقه كي يتفحصوها.

---

(١) نص من «le Museon» مج٦٤، ١٣٧٢(١٩٥٣م)، ص٢٦٧ و ما بعدها.

كان الجميع مشغولين طوال اليوم، حتى إنهم اضطروا للعمل إلى وقت متأخر من الليل: كانون يملي، وابن أخيه يطبع و«فيلبي» يرتب قراءات خرائطه. أحياناً، أحد الشابين، وعادة ليبنز، ينتزع نفسه من أمام واجهات الصخور ويتسلق مع «فيلبي»، وقد كتب جاك ريكمانز بعد ذلك: «نحن الذين رأيناك في أثناء العمل، تكافح مع الأسماء المختلفة التي يزودك بها مرشدون مختلفون، وتناضل لتسلق مثل هذا العدد من القمم، ربما نكون الوحيدين الذين ندرك أن كل كتبك والمعلومات التي وفرتها جاءت عن طريق الصبر والتعب واللباقة وحرق زيت المصابيح في الليل..».

كلما اقتربوا أكثر من حضارة وادي نجران، وجدوا نقوشاً أكثر بالخط الحميري الأنيق، وكان بعضها مبعثراً على منطقة واسعة منها، وأحد النقوش المحزنة التي وجدوها في ممر ضيق كانت تحمل نداءً باليونانية: «إلهي أنقذني».

وصلوا إلي الطريق الذي سلكه «فيلبي» سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م) والمؤدي إلى وادي نجران بعد خمسة عشر يوماً في القفار الموحشة، وبدا كأنه محور الحضارة، بنقاط الشرطة التي توجد فيه، وفريق بريطاني تابع لبعثة لوكست كونترول (مكافحة الجراد)، والترحيب الذي أعده لهم الأمير تركي السديري، والذي على الرغم من غيابه، فقد ترك رسالة بأن يُعتنى بهم جيداً.

إن الهدية الكبرى التي قدمها وادي نجران لمؤرخي الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام، هي خرائب الأخدود؛ وهو الخندق الذي ذُبح فيه المسيحيون على يد اليهود في القرن السادس الميلادي. لكن آثار الأخدود كانت مخيبة لآمال «كانون» كمصدر للنقوش، ويشبهها في ذلك الكثير من المواقع في الجزيرة العربية، إنها تنتظر جاروف عالم الآثار قبل أن يتضح تاريخها السبئي والمسيحي واليهودي، ولكي يخفف من خيبة أمل «كانون» قدم لهم «فيلبي» إغراءات أخرى، فقاد الشابين إلى تسلق مجهد إلى حدود اليمن، وكاحتفالية بالسنة الجديدة ١٣٧١ (١٩٥٢م) حملهم في عربته اللاندروفر، وسار بهم في الربع الخالي، مصحوبين بلوري واحد فقط، ووجدوا ربوات قليلة فيها مقابر، كذلك اكتشفوا الطرف الأقصى لجرف طويق الطويل، لكن خلاف ذلك، تظل الصحراء الخالية مخلصة لاسمها.

تحدث دليلهم عن مدينة «العبر» المفقودة، لكنه كان جمّالاً لا يستطيع أن يحدد الطريق الذي يمكن أن يسلكوه بالسيارة. وكان السير سيئاً جداً خاصة لعربة اللوري، والأسوأ، أنهم نسوا أن يملؤوا صفائح كافية من البنزين، وأن يسافروا بعربة واحدة أمر غير آمن، وبعد أن ساروا مسافة ١٥٠ ميلاً بعيداً عن الأخدود عادوا ثانية.

كانت نجران في أقصى الجنوب هي محطتهم، ومنها شمالاً حتى طريق البخور القديم، الآن هو الطريق إلى مكة المكرمة، ومن ثم عبر تلال تشبه صالة عرض للمناظر الجميلة، وهي تلال من الحجر الرملي حول بئر «حمى» وسلسلة جبال «القارة»، وسلسلة جبلية طويلة سوداء تسمى «كوكب»، وهي التي رآها «فيلبي» أول مرة في أقصى الغرب سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م).

قادهم «فيلبي» في «حمى» إلى جائزة أخرى، تتمثل في نقش سبئي يخلّد ذكرى قتل وحشي للمسيحيين الأحباش، وهذا النص منقوش على حائط صخري عالٍ، ولا يقرأ إلا بسلم أو نظارة ميدان مكبرة، وكتب على هذا الارتفاع، ـ كما يقول كاتبه ـ لكي يُحفظ من الضرر[1].

مخاطر البحث عن النقوش كبيرة، في مرحلة ما وجد «جاك ريكمانز» بقعة نسخ منها ٢٥٠ سطراً دون أن يتحرك، وفي مرحلة ثانية أخذ «فيلبي» يدور ويدور (مثل كلب يطارد ذيله كما كتب ليبنز) بحثاً عن حائط صخري مغطى برسومات للنعام علم بوجودها هناك، لأنه رآه سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦م). ولقد اكتشفوا، بعد مقارنة الملاحظات التي كتبوها بما كتبه جيولوجي أمريكي هو «جلين براون» الذي سار في الطريق ذاته الذي ساروا فيه بعد زمن ليس بطويل من رحلتهم، بأنه عثر على نقوش لم يروها والعكس صحيح.

قادهم «فيلبي» شمالاً، وبمحاذاة جرف الطريق، ليريهم «قرية الفاو» ومثلثات الأحجار الغريبة التي عثر عليها هناك، وقد وجدوا نماذج مشابهة كثيرة إلى الشمال من ذلك الموقع، وسواء كانت أماكن للعبادة أو لها علاقة بحفظ الحيوانات، لا أحد يستطيع أن يجزم.

---

(١) ذُكر سابقاً.

وصلوا إلى وادي «الدواسر» في رجب ١٣٧١ (٢٤ يناير ١٩٥٢م) حيث نساء قبائل الوادي بجلابيبهن السوداء يسقين جمالاً بالآلاف، بعد واحة «اللدام» التي وجدها «فيلبي» غير مضيافة كالعادة بسبب اصطحابه المسيحيين، وجدوا أنفسهم وقد تجاوزوا مناطق النقوش وتركوها خلفهم.

وصلوا إلى الرياض في جمادى الأولى ١٣٧١ (منتصف فبراير ١٩٥٢م)، راضين تماماً فقد جمعوا ١٣,٠٠٠ نقش جديد، تتكون من كتابة ورسومات على الصخور، وقطعوا ثلاثة آلاف ميل دون منغصات، وفي الواقع بلا أمراض، وفي طريق لم تُرْسَمُ خُمسا خرائطه على الأقل، ومن المؤسف القول إن جزءاً قليلاً من هذه الإضافة الكبيرة إلى المعرفة البشرية عن الجزيرة العربية هو الذي نشر حتى الآن.

لقد كتب «فيلبي» فصولاً قليلة عن هذا المسح الجغرافي قبل أن يموت، أما «مونسينور ريكمانز» الذي مات سنة ١٣٨٩ (١٩٦٩م) فقد نشر فقط النقوش ذات الأهمية التاريخية الكبرى، واستخدم الأستاذ «جاك ريكمانز» ثروته من المعلومات الجديدة، خلفية لبعض مقالاته المهمة، وخصوصاً حول المسيحية في جنوب الجزيرة العربية[١]. لكنَّ كماً هائلاً من المعلومات غير المنشورة لا تزال، تنتظر الوقت والمال لترتيبها وطباعتها. ثلاثة من عشرة كتب من المزمع نشرها، كُلف بها خبراء آخرون، وأصبحت بذلك النقوش الإسلامية التي اكتشفت متاحة للجميع، وكذلك صدر مجلدان عن الرسومات على الصخور، صنفهما وحللهما خبير فيما قبل التاريخ هو البروفيسور ف. أناتي، من جامعة بريسكيا Brescia، وقد سدا فراغاً في تاريخ الجنس البشري في الشرق الأوسط، وكشفا عن وجود جنس بيضاوي الرأس لم يعرف شيء عنه حتى ذلك الحين، وعن عصر ما قبل التاريخ، لأجناس سكنت الجزيرة العربية، رعت قطعان الماشية واصطادت، وكانت ترتدي الملابس بما فيها القبعات وقطع صغيرة لتغطية العورة، ولديها نظام مكنها من أن تقدم العروض وتقيم مراسم الاحتفالات، وهم مختلفون تماماً عن الساميين وعن معاصريهم من المصريين وسكان بلاد الرافدين.

---

(١) بالأخص «La Persecution des Chretiens Himyarites au Sixieme Siecle»، معهد هولندا للشرق الأدنى، ١٣٧٥(١٩٥٦م)، نسخ «فيلبي» المطبوعة على الآلة الكاتبة، وهي غير مكتملة وموجودة بين مطبوعات «لوڤان» التي لم يحسم أمرها بعد.

وهناك على الأقل نظريتان حول هويتهم، يقول «أناتي Anati »: إنهم جاؤوا من البحر، وفي مرحلة معينة عادوا إلى بلادهم الأصلية، أما «كارلتون كون» وهو عالم أنثروبولوجي، فإنه يعتقد أنهم كانوا من أهل البلاد «منعوا من الانتشار والتكاثر» من شعوب سامية أكثر قوة جاءت من الشمال، وأنهم مازلوا موجودين في جيوب صغيرة ولهم جدائل مصبوغة بالأزرق وقد لاحظهم «فيلبي» وهو في طريقه إلى جازان سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧م)، ويقطنون الجبال في شمال شرق عدن[١].

يعد كتاب «فيليب ليبنز»[٢] المفعم بالحيوية، الكتاب الوحيد المتميز الذي نشر عن الرحلة المثمرة التي يعدها المشاركون الأربعة فيها، بأنها واحدة من أمتع التجارب في حياتهم، والصورة التي رسمها «ليبنز» لفيلبي تبين أنه إذا كان مع رفاق جيدين فإنه يكون معتدل المزاج، ومراعياً لمشاعر الآخرين، وعلى نقيض الحكايات التي تُروى عن رحلات أخرى تعج بالغضب والاستياء والشجارات وانتقاد الأصحاب، فهذه الرحلة تضجّ بالانسجام والضحك والنيات الطيبة، وأما سبب الاختلاف، فيما يبدو، فيعود جزئياً إلى توقير «فيلبي» للتعلم، لكن أساساً إلى طيبة «مونسينور ريكمانز»، إذ إن وصف «ليبنز» أكثر صدقاً؛ لأنه سجل أيضاً لحظات لا تشكل فخراً لفيلبي: عينان تومضان بالغضب كما رآهما في مرآة القيادة حين نفد البنزين من اللاندروفر، ويد غاضبة تضرب ذراع الدليل التي تشير إلى شيء ما وحجزت بينه وبين الواجهة الزجاجية الأمامية في السيارة، وكما قال ليبنز بعد ذلك لابنة «فيلبي» «هيلينا»: «أحياناً يغلي الماء في الغلاية، لكن الغطاء يظل في مكانه»، وكان «فيلبي» واعياً لهذا الهدوء غير العادي، فقد كتب إلى «دورا»: كنا معاً لأكثر من ثلاثة أشهر، ولم يحدث بيننا أي خلاف، واعتقد أنهم يشهدون بأني أخذتهم في جولة كبيرة، وأتحت لهم الفرصة للبحث بطريقة لا يمكن لأحد أن يقوم بها.

---

(١) «إي. أناتي» Rock Art in Central Arabia، موجود في Bibliothegue du. Museon «لوفان» ١٣٨٨(١٩٦٨م، مج١ The oval-Headed People of Arabia، وأيضاً «كارلتون إس. كون» Southern Arabia: aproblem for the future، وموجود في «Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethenology» هارفارد، مج٢٠ ١٣٦٢(١٩٤٣م)، ص١٨٧ وما يليها.

(٢) ترجم هذا الكتاب عام ١٤١٩، ونشر عن طريق دارة الملك عبدالعزيز، إلاّ أن الترجمة ليست جيدة.

٢ ـ مَدْين والتعدين

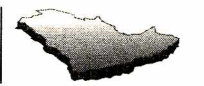
لم تفت الوزراء المحيطين بالملك فائدة «فيلبي» الذي كان بمنزلة دليل للمواقع الأثرية، وما إن عاد إلى الرياض، حتى طلب منه أحدهم، عبد الله بن سليمان، أن يقود حملة مسح للبحث عن المعادن في «مدين»، وعرض استئجار مهندس تعدين مصري، إذا موّل «ميتشل كوتس» حملة البحث، وفي أقل من شهرين بعد عودته من الجنوب، كان «فيلبي» في جدة، جاهزاً للانطلاق عبر الساحل، مسلحاً بكتب «بيرتون»، بحثاً عن الكبريت والذهب والحديد، إذ إن هناك تقارير متفائلة عن وجود المعدن الأخير.

كان السفر مع مجموعة أوروبية متجانسة أمراً مفرحاً، حتى إنه في فورة الحماس قرر أن يفعل ذلك ثانية، وقابل في السفارة البريطانية السكرتير الثالث، وأعجب به على الفور وقرر أن يصطحبه معه، وكان «جون توماس» يعرف كتب «فيلبي»، ويتحدث العربية، وهو مهتم بتاريخ الجزيرة العربية. لكن السفير البريطاني الذي لديه عدم الثقة الرسمية بفيلبي، قال إنه لا يمكن الاستغناء عن توماس.

انطلق «فيلبي» برفقة المهندس المصري «مصطفى صادق» فقط، وقدّر خبرة «صادق» بالتعدين، لكنه شعر بالسخط من عاداته في السفر، وكان يتقزز من الماء الذي يقول عنه «فيلبي» إنه صالح للشرب، ويشحب وجهه عند ورود فكرة تسلق أي ارتفاع، وكان يتوقع أن يسافر بشكل مريح «بوجود كراسي وطاولات وأسرَّة وأحواض غسيل وخدم وكل ما شابه ذلك».

كانت ميولهما مختلفة إلى درجة أن آراءهما كانت تتصادم غالباً، ورحلتهما إلى «مقنا» والعودة، أثبتت أنها بداية رحلة أطول وأكثر تفصيلاً للأرض نفسها في السنة التالية. وإجمالاً فإن تقرير «صادق» قال: إن «بيرتون» كان متفائلاً جداً حول وجود الكبريت والذهب، وأما عن معدن الحديد الخام، فتقريره كان مشجعاً، حتى إن الحكومة رغبت في زيادة التنقيب.

اتجه «فيلبي» مرة ثانية، في شتاء ١٣٧٢ (١٩٥٢– ١٩٥٣م)، إلى «مدين» دليلاً لمهندس تعدين، لكن هذه المرة كان مهندساً ذا مستوى رفيع، هو «ديك بوج Dick Bogue» من هيئة المساعدة الأمريكية المعروفة بالنقطة الرابعة، وهو جيولوجي



متخصص على استعداد لأن يتوقف عند صخرة بالقدر نفسه الذي يقفه «فيلبي» ليحدد زاوية الاتجاه، ولا «يترك تكويناً دون أن يقنع بتفاصيل مكوناته». وكان على استعداد دوماً لأن يظل طوال الليل على جبل ما، إذا كان مضطرب النوم، ليقوم بمزيد من الاستكشاف، وكان مهتماً وجيداً تماماً في نسخ النقوش. ومع ذلك، فإن متعتهما بصحبة كل منهما للآخر لم تسلم من الشوائب؛ «فيلبي» كان كعادته سريع الغضب، و«بوج» كان يعاني نوبات إغماء واكتئاباً. وأرجع «فيلبي» ذلك إلى «جرثومة حمى التقطت من أقطار غير صحية». وكتب عنها بأنها «حمى الملاريا»، ولكن أي شخص مهتم بالأعراض أكثر منه، كان سيلاحظ أنها تؤدي إلى حالة من فقدان الوعي كتلك التي تشبه الصرع.

اعتاد «الزول مرزوق» الدليل السوداني من تبوك، أن يرجع من رحلة فرعية بقصص مزعجة عن عدم صلاحية «بوج» لقيادة السيارة وهم على طريق جبلي، ولم يدرك «فيلبي» أنه مريض حقاً إلا حين وجده ذات مرة فاقد الحس، متدلي الرأس، في كتلة رملية. وحتى ذلك الحين، فإن التوتر الذي يسبق تلك الفترات ويتبعها، كان يؤدي إلى تعالي الصياح بينهما، وضجة تافهة، تجعل «فيلبي» يرفض العشاء، أو يمنع «بوج» «فيلبي» من استخدام بطارية الجيب الخاص به لتقوية المذياع حين يحتاج إلى سماع إشارة الوقت: «يتحول فجأة إلى رجل بغيض، فأتركه وأمضي».

دع هذا العائق جانباً، فكل منهما علَّم الآخر عن موضوعه الشيء الكثير، وبينما يسافران شمالاً على الساحل، ينقبان في الأودية المجاورة، ويجدان بقايا كثير من المناجم القديمة، أقنع «بوج» «فيلبي» بأن القرار الصحيح هو الذي أعطته المدرسة الملكية للمناجم لبيرتون بعد تحليلها لعينات الكبريت والذهب التي أحضرها سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨م): «أعتقد أنه من المرجح أن العينات التي أحضرتها إلى الوطن، قد رفضها المحللون لأنها غير صالحة».

لكن «بوج» اعتقد تماماً، بإمكانية وجود حقل غني بخام الحديد وراء «مدين» في الهضبة المتموجة السطح المسماة «الدبغ» حيث يقطع أقصر طريق من ميناء «ضباء» على البحر الأحمر إلى «تبوك» ممر يسمى «الخريطة»، وإلى الغرب منه وجد الكثير من خام الحديد، هذا الاكتشاف الذي سماه «فيلبي» «لُقيتنا» وهو الاكتشاف المعدني الوحيد المهم الذي قاما به.

خرجت الرحلة بمكاسب كثيرة من وجهة نظر «فيلبي»، فقد مكنته من رسم خريطة لإقليم مدين كله شمالاً حتى الحدود الأردنية، وأيضاً الأودية حول قمم مدين الكبيرة التي تقع بين «الدبغ» و«اللوز» وكي يفعل ذلك كان عليه أن يجوب أرضاً كانت في وقت ما شديدة الوعورة، وغالباً كانت سيارته اللاندروفر القديمة تحتاج إلى إنقاذ من سيارات النقطة الرابعة القوية التي كانت جزءاً من المعدات الأمريكية.

لا يمكن لرجل وحده أن يفعل ما فعلوه، ولم تفتر همة «فيلبي» لعدم وجود سبيل مطروق، فقد كان يسير بعربته البائسة على الصخور قائلاً: إنه نادراً ما رأى طريقاً تسير فيه الجمال ولا يصلح لسير السيارات، ويتبعه «بوج».

كانت الممرات التي سلكوها أيسر من غيرها لحسن الحظ، ففي طريقهم على الساحل في اتجاه خليج العقبة والعودة شمالاً حول سلسة جبال مدين إلى تبوك، متّع «فيلبي» نفسه بترتيب السير في ممرات فرعية، ليُري «بوج» بعض الآثار القديمة التي وجدها سنة ١٣٧٠ (١٩٥١م) وخصوصاً المقابر النبطية الخربة في «مغاير شعيب» والمعبد في «روافة»، ولكنه أراد أيضاً أن يرى مناطق ونقوشاً جديدة عليه، وهكذا قادهم في طريق العودة عن طريق خط سكة حديد الحج. وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى الطريق الوردي الرائع من الحجر الرملي الذي يعبره الخط، كان «فيلبي» متعباً، ولم يشعر بالمتعة ذاتها التي حصل عليها من المفاجآت المعمارية في مدائن صالح. ومع أنه لم ير قط قبل ذلك «الواجهات الرائعة» لمقابرها النبطية، إلا أنه وجد المكان كئيباً بسبب تعاسة سكانه: «رجال ونساء عجائز، يجلسون في ظل المباني بتوازن فوق أكوام من الجراد المقزز، الذي يبدو أنه الشيء الوحيد الذي يملكونه للطعام».

بعد تفحص محطة السكة الحديدية الخربة والقضبان الملتوية التي تشهد على التخريب المتعمد الذي قام به الإنجليز والعرب في الحرب العالمية الأولى، أسرع ليري «بوج» المفاتن الأروع في قرية «العلا»، والمقابر المحفورة في الصخور، والنقوش الرسمية حول «الخريبة» وهي كل ما بقي من آثار حضارة منتعشة للدادانيين، واللحيانيين والمعينيين، وفي طريق عودتهم إلى البحر عند «الوجه» حددوا موقع المعبد الروماني الذي وجده بيرتون عند مدخل وادي الحمض، وقدروا أنه نبطي.



خارت قوى فيلبي عند هذا الحد، وعاود المرض «بوج»، فقد كان هو نفسه قد أنهكته الرحلة كما حدث معه في محنة الحدود الجبلية سنة١٣٥٥ (١٩٣٦م)، مرة ثانية تسلق مرتفعات على أثر مرتفعات في قفار شاقة وطقس قاس، وفي هذه المرة شعر بالاكتئاب؛ لأن سرعته قلّت كثيراً في تسلق الجبال.

عادوا في رجب ١٣٧٢ (أواخر مارس ١٩٥٣م)، وخلال يوم أو اثنين، سيصبح في السبعين حسب التقويم العربي، أو في الثانية والستين حسب التقويم الغربي.

لقد اكتشف ٢٥٠٠ نقش جديد نبطي وثمودي في الشمال، وعندما وصل منطقة السكة الحديدية لم تكن لديه الرغبة في البحث، إذ بحث قبله جوسين وسافينياك، وآخرون: «لقد قمت بفحص خاطف لبعض النقوش، وبما أنني متعب جداً من رحلتنا الطويلة المجهدة، فقد سعدت أنه ليس من الضروري نسخها». من الواضح أن قوته قد خارت، لقد قام برحلات أخرى لكنها لم تكن قط بالبعد أو الطول ذاته.



الفصل الرابع عشر

يوبيل وأبعاد

يصبح «فيلبي» في نهاية كل عمل استكشافي منتشياً بالمأثرة التي قام بها بحيث يجلس على الفور ليكتب كتاباً عنها، وبعد رحلاته إلى مدين، لم يمارس هذه العادة، إذ كان يكسب جيداً، ولم يعد في حاجة إلى المُقدَّم الذي يدفعه الناشر، كما أن ذهنه كان مشغولاً جداً باهتمامات أخرى: مغامرات تجارية، مشكلات المتعهدين، برقيات تحتاج إلى الرد من ميتشل كوتس، كتابه عن يوبيل «الملك عبد العزيز»، والشؤون العائلية. وفي أثناء تنقله من مشكلة إلى أخرى، فإن التوازن الذي أقامه بين حياته في إنجلترا وحياته في الجزيرة العربية انتقل إلى هذه الأخيرة.

لقد عاش منذ سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠م) في مقصورتين متعايشتين معاً لكنهما منفصلتان، ترمز إليهما طريقتان من العادات ونموذجان من الملابس، ومرحلة بعد أخرى، فقد مرفأه الإنجليزي.

تخلص في سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م) من البيت الصغير في «ويلش» الذي شهد ذات يوم إجازات طيبة، لكنه لم يعد يستخدم كثيراً سواء من «دورا» أو البنات، وفي شعبان ١٣٦٨ (أغسطس ١٩٤٩م) باعوا منزل «إكول رود» - بيته وبيت «دورا» والأطفال لمدة ٢٥ سنة. والآن وقد غادر الأطفال، بات الصغيرة والموظفة الآن في الحكومة على وشك الزواج، والبيت كبير على دورا لتعيش فيه وحدها، وأخذت شقة في «درايتون جاردنز»، وساعدها «فيلبي» على الانتقال إليها، وجهز فيها غرفة مكتب له، لكنه لم يشعر قط أنه ينتمي إلى ذلك المكان، كما كان يشعر في إكول رود وهو يراقب صخب نقاشات أفراد العائلة.

جاءت نهاية التعارض في السنة التالية، عندما عاد إلى الجزيرة العربية لأعمال تجارية، فقد ماتت «ماي» في جمادى الأولى ١٣٦٩ (مارس ١٩٥٠م)، وصلة «فيلبي» بأمه كانت واضحة عبر هذا الكتاب، إذ كان ابنها المفضل، فقد أدرك مذ كان طفلاً، أكثر من أخيه الأكبر المهمل، المأزق الحرج الذي تركها فيه والده، وشعر أنه مسؤول عنها منذ اللحظة التي استطاع فيها أن يكسب عيشه، وكان من بين أولادها الأربعة الأكثر شبهاً بها في إنفاقها ومرحها واستمتاعها بالملذات.

كتبت إليه سنة ١٣٤٢ (١٩٢٤م): «أعرف أنك لم تضن علي بشيء، وكنا دوماً متشابهين، نسير بحذر في السنوات العجاف، ونقضي وقتاً طيباً حين تتحسن الأحوال المالية، ولن تكون الحياة ممتعة بشكل ما إذا نال المرء دوماً ما يريد، لقد كنت بالتأكيد أفضل أبنائي».

كانا منذ سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨م) يتكاتبان أسبوعياً، يتذكران كل عيد ميلاد، ويهتمان بكل ذكرى سنوية، كان يكلمها بالهاتف كل ليلة في أثناء وجوده في إنجلترا، وعاشا الأيام الحلوة والمرة معاً، ولكن كما كتب إليها ذات مرة: «نحن الاثنان كالصخر حقاً».

كتب إلى دورا من القاهرة وهو في طريقه إلى الجزيرة العربية: «لن يكون العالم بالنسبة إلينا هو نفسه ثانية، لكن يجب أن تحاولي أن تأخذي مكانها كرابطة عائلية».

لا يوجد شيء مثل الرحلات وتغيير المشاهد في تبديل وجهات النظر، وتغيرت نظرة «فيلبي» عندما حملت «روزي» في يونيو التالي، أبوة في الخامسة والستين! هذه المرة لا يحب المخاطرة. واستشار طبيبة يوغسلافية تدربت في فيينا يعمل زوجها السوري في الرياض، كانت هي نفسها حاملاً، ورأى أنها تعرف عملها جيداً، وغمره الرضا عندما ناولته المولود، هاهي ذي بذرته، وستظل في الجزيرة العربية إلى الأبد.

جهز البيت بمراوح وثلاجة ومكيف صحراوي ليحافظ على غرفة الحضانة في درجة حرارة منتظمة. وعاش خالد، وتبعه ابن آخر في سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) فارس، ووضع «فيلبي» الخطط لكي ينشئهما ويعلمهما في الجزيرة العربية، وباللغة العربية، وفي أحسن مدارس العاصمة، فهاهنا طفلان بريئان يعتمدان بعد الله عليه وحده،



وعليه أن يوجههما بما يراه مناسباً. وما إن استطاع خالد المشي، حتى بدأ يأخذه معه في جولاته الصباحية في الرياض ومكة، وفي زياراته إلى مكتب ميتشل كوتس في جدة، وأخذه ليلعب مع أطفال «ووكر» في جرين بالاس.

قليلون كانوا يعرفون أن له عائلة أخرى، وبالمثل، قليل من الأصدقاء الإنجليز الذين قرؤوا الخبر الذي نشر في ذي الحجة ١٣٧٠ (٢٠ سبتمبر ١٩٥٠م) عن الذكرى السنوية الأربعين لزفافه ودورا والذي أرسله إلى جريدة التايمز من الرياض، تخيلا الحياة العائلية التي يعيشها في الجزيرة العربية.

لقد أخبر قلة ممن يتراسل معهم؛ إليزابيث ريفستال، أدا سلكوك، باميلا لوڤيبوند، عن نباهة الولدين، لكن، من كل عائلته، «كيم» فقط هو الذي رأى «روزي». كانت التجارة في الجزيرة العربية تنتعش، وكلما تزايد دخل السعوديين من النفط زادت مهماته.

زادت المنافسة من جانب الشركات الأجنبية بدرجة حامية، لكن شركة ميتشل كوتس لها امتيازاتها، وتوسعت من التجارة إلى عقود البناء، وأكبر هذه العقود حصل عليه «فيلبي» من خلال مثابرته في التردد على الديوان. وصفقة الخيام سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م) حققت للشركة ربحاً كبيراً، وتواصلت الأرباح كلما أصبح السعوديون أكثر غنى، وغدت الخيام أجنحة بأفنية. كان نجاحه التالي عقداً لطريق كبير، وكان خط السكة الحديدية من الخليج إلى الرياض الذي أنشئ بين ١٣٦٦ و١٣٧٠ (١٩٤٧ و١٩٥١م) محل اهتمام الملك عبد العزيز، لكن السكك الحديدية ليست هي الحل الناجع لنقل البضائع عبر الصحراء الخالية، ومع ذلك فإن النقل بالسيارات لا يستطيع أن يتفوق على السكة الحديدية، وهو يستخدم دروباً تزيد من استخدام البنزين، وفي رحلة مكلفة في ذي الحجة ١٣٦٨ (أكتوبر ١٩٤٩م)، استغرقت خمسة عشر يوماً من الكفاح ضد العواصف والمطبات والرمال لقطع المسافة من الرياض إلى مكة المكرمة. والحل لمشكلة النقل هذه هي الطرق المعبدة بالأسفلت، وقد أخذ في المحرم ١٣٦٩ (نوفمبر ١٩٤٩م) تفويضاً لشركة ميتشل كوتس لاستخدام متعهد بريطاني لإنشاء طريق معبد مرصوف من جدة إلى المدينة المنورة. وبعد عام حصل على تفويض كبير آخر: عقد لبناء قصر في الرياض للأمير عبد الله بن عبد الرحمن بتكلفة ٤٠٠ ألف جنيه، كما أحرز تفويضاً بإقامة خزانات للنفط في مكة،

وناقش خططاً للهاتف وأنابيب المياه، وإقامة محطة حجر صحي للحجاج، ونفاثات لسلاح الجو.

كسب «فيلبي» استمرارية التعامل التجاري، لكنه بقي زميلاً صعباً، فعندما التزمت الشركة بناء طريق المدينة المنورة، وأعلنت رفضها لمسودة العقد التي أعدها لتناسب السعوديين، استقال على الفور وعاد إلى مكة المكرمة، وكان لابد من استرضائه. كذلك فإن حصته من العمل كانت تترك معلقة في كل مرة يسافر في رحلة صحراوية. ومع ذلك كان عزيزاً لدى شركة ميتشل كوتس بسبب علاقاته بالديوان والمكاتب الحكومية. وأحد أعماله الفذة، أن ساعد المتعهد ـ توماس ورد من شيفيلد ـ أن ينسحب من عقد طريق المدينة المنورة، جزئياً عندما لم تقدر الشركة صعوبة الأرض حق قدرها، لارتفاع أسعار المواد الخام بسبب الحرب الكورية، ورغبة الشركة في الانسحاب.

كان يرى أن خدماته لا تقدر بما تستحقه غالباً (ولا كلمة شكر من شيفيلد أو لندن)، وشعر دائماً أنه كسب نقوده بجده. وكان في خطاباته الأسبوعية إلى دورا يشكو دوماً من: «الأمور التي تجلب الصداع»، «هم بالتأكيد كرماء لكن إلى حد ما، وأنا تقريباً الشخص الوحيد الذي يوجه النقد، وبعضهم لا يعجبه ذلك». ومع ذلك فهو يحب النشاط الصاخب، وقد كتب إلى دورا في سنة ١٣٧٠ (مايو ١٩٥١م): «الأعمال التجارية أربكت كل خططي، ولا أعتقد أني سأعود إلى الوطن حتى عيد الميلاد».

كان مستغرقاً في هذه الأعمال، وفي خططه لمرافقة «ريكمانز» في الجزيرة العربية في الشتاء التالي، حتى إنه لم يدرك مقدار حزن دورا بسبب حادثة هزت بريطانيا كلها خلال ذلك الصيف، وسببت إثارة كبيرة، فقد اختفى دبلوماسيان بريطانيان فجأة في أثناء الليل وهما دونالد ماكلين، وجاي بيرجس. وكلاهما كان في جامعة كمبردج مع «كيم» الذي عرف بيرجس جيداً بشكل خاص، وأحضره معه إلى «إكول رود»، ومكث معه في إستانبول، كانا زميلين في السفارة البريطانية في واشنطن.

تطلب عمل كيم أن يكون على اتصال يومي بوكالة المخابرات المركزية، وحامت الشكوك حوله؛ لأنه الرجل الثالث، الذي جعل بيرجس يحذّر ماكلين من أن هناك تسرباً للأسرار إلى الاتحاد السوفييتي يعزى إليه. واستطاع كيم أن يبرئ نفسه



من الشكوك، ولكن طُلب منه الاستقالة من وزارة الخارجية البريطانية بسبب هذه العلاقة.

كانت دورا قلقة بشكل كبير وتكره الدعاية، وقد كتبت إلى «فيلبي» أن كيم قد أخذ ٤٠٠٠ جنيه ذهباً بدلاً من المعاش، ولكن ماذا يفعل هذا المبلغ لإعاشة إيلين الرقيقة وأطفالها الخمسة.

توضح ردود «فيلبي» إلى أي مدى كان بعيداً ليس فقط عن الأمور العائلية العاطفية، بل عن الضجة التي حدثت في بريطانيا بسبب فرار الدبلوماسيين المفقودين، فقد رد عليها في ٢٢ رمضان ١٣٧٠ (٢٧ يونيو ١٩٥١م): «أحد الأشياء المفاجئة حقيقة عن «كيم» أن لديه مثل هؤلاء الأصدقاء الغامضين، لا يخطر على ذهني أي واحد متميز منهم.. هل يخطر على ذهنك أنت؟».

وكتب مرة ثانية: «كان كيم مخلصاً دوماً لأصدقائه، ومع أنه قد ملّ من «جاي» أخيراً، لكن علاقاته الطويلة معه من النادر أن تمر دون أن يلحظها أحد».

كانت أفكار «فيلبي» في مكان آخر، فطوال سنة ١٣٧٠ (١٩٥١م)، كان يلاحظ صحة الملك وهي تتراجع بالتدريج، وأخبر «دورا» أن أحاديث الملك تقلصت إلى مجرد إشارات يصعب فهمها غالباً. وحين وصفوا لـه ذات مرة عملية نقل دم، استرد عافيته إلى درجة أنه قال: «أعطوني بعضاً من دم «فيلبي».. إنه لا يمرض أبداً». لكنه في سبتمبر، حين حاول أن يؤدي فريضة الحج، في موجة حر شديدة غير عادية، انتكس في أول يوم منها، ورأى العلماء سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) أن تمنع الاحتفالات باليوبيل الذهبي لتولي الملك، ويظل كتاب «فيلبي» «اليوبيل العربي» أحد الأشياء القليلة التي خلدت تلك الذكرى.

انتابت «فيلبي» لحظات شك في أثناء المرض الأخير للملك، إذا ما كانت الرياض ستكون المقر المناسب له إذا مات «الملك عبد العزيز». وقد أخبر دورا أنه قد ملّ من الحضور إلى الديوان: «بدأت أسأل إلى متى سأحتمل ذلك، لكن حياة التقاعد لا تروق لي، والأمر سيان في الحالتين، فأنا منغمس في الموضوع».

كتب لها عند عودته من «مدين» مع «بوج» أنه لابد أن: «ينظرا في المستقبل، فهل تقابله في أثينا ليستمتعا بإجازة طويلة في أوروبا؟»، وبدا أنها أملت أن «النظر في المستقبل» قد يؤدي إلى خطة لحياتهما في هذه السن المتقدمة. فلو قضيا هذه الإجازة في إنجلترا، وسط أولادهما وأحفادهما وأصدقائهما المشتركين، ونوادي «فيلبي»وجمعياته، وفي بيتهما الخاص، فإن أملها في تحقيق هذه الرغبة سوف يكون أفضل. لكن إنجلترا كانت خارج السياق في هذا الموضوع، إذ لابد أن يتجنبها فترات معينة، وإلا كان عليه دفع مبالغ كبيرة لضرائب الدخل البريطانية. وهكذا، كما يحدث لأولئك الذين يعيشون وراء البحار، حذف الخطة التي كانت هي الأفضل لكليهما، ولقد تبين من هذه الرحلة والتنقل من فندق إلى آخر، كم تباينت اهتماماتهما.

بدأت الرحلة بسعادة، بإقامة في أثينا مع صديقتهما القديمة «باميلا لوڤيبوند» وأصبحت الآن السيدة دافيد باوسون، وبعد ذلك سافرا ببطء عبر إيطاليا وسويسرا وألمانيا، إذ يقوم «فيلبي» بزيارات لأصدقاء القلم والمستشرقين، واضطرت دورا إلى الاستماع إلى محادثات بلغات لا تتكلمها، أو تتجول وحدها لتتعرف إلى مدن غريبة، وانتهت الرحلة بشكل أكثر توفيقاً بالنسبة إليها، فقد انضما في باريس إلى جزء من العائلة: ديانا وزوجها والحديث عن سيارات الرولزرويس، كيم وصديقته التي أثارت اهتمام «فيلبي»؛ لأنها تعمل في شركة تصدر الصهاريج، وفي بروكسل انضما إلى هيلينا وزوجها، ليستطيع «فيلبي» أن يقدم بعضاً من عائلته إلى ريكمانز وفيليب ليبنز في لوڤيان.

عادت دورا إلى إنجلترا بعد هذا الأسبوع السعيد، وعاد «فيلبي» إلى الجزيرة العربية. وفي نهاية يوليو نقل روزي وطفليها إلى الطائف بسبب حرارة الطقس، واستكن ليتفرغ لكتاباته وهناك منها الكثير. ولقد صدر كتاب «اليوبيل العربي» في موعده تماماً سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) (الكتاب الوحيد الذي كتبه وترجم إلى اللغة العربية)[١]، ثم ساعده الأصدقاء الذين تعرف إليهم في شركة أرامكو كي يستمر في كتبه الأخرى، وهم اختصاصيون من الدرجة الأولى، مثل توم بارجر الذي أصبح رئيساً

---

(١) هذا هو الحال عند تأليف هذا الكتاب، أما الآن فقد تمت تقريباً ترجمة كتب فيلبي كلها في سلسلة متوالية تصدر عن مكتبة العبيكان تباعاً.



للشركة من خلال ترقيته وهو في الجزيرة العربية، وبيل موليجان المهتم بالتاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط كلها، وجورج رينتز الذي كتب عن محمد بن عبد الوهاب وصعود الوهابية، كلهم كانوا مهتمين بعدم نجاحه في العثور على ناشر إنجليزي لكتبه، فمن خلالهم وبواسطة نفوذهم لدى معهد الشرق الأوسط في واشنطن، وجد ناشراً جامعياً أمريكياً لكتابه: «النجود العربية»، الذي يضم السرد الطويل لرحلته لرسم الخرائط بتكليف من الملك عبد العزيز ١٣٥٥-١٣٥٦ (١٩٣٦-١٩٣٧م)، بالإضافة إلى أن أحد ناشريه في لندن[١] كلفه بكتابة تاريخ جديد للجزيرة العربية، وزودته شركة أرامكو بنسخ فوتوغرافية لتواريخ بالعربية لا يمتلكها، وبمخطوطة فريدة من أجل هذا الغرض. وفي الوقت نفسه، كتب كماً كبيراً من المقالات حول الملك والبلاد، احتفالاً باليوبيل الذهبي، ثم حول وفاة الملك. وبدأ أيضاً جزءاً ثانياً من سيرته الذاتية، وطلب من دورا أن تشارك فيه: «أعتقد أنها فكرة جيدة لو كتبت فصلاً من كتابي (أيام أخرى في الجزيرة العربية)، ولنقل تحت عنوان: (فيلبي كما أراه) ولم لا؟ فقد يكون أكثر فصول الكتاب شعبية». وبدأ أيضاً يكتب في موضوع آخر: سبب جديد لإدانته القديمة لما يراه انتهاكاً بريطانياً للأرض العربية، فقد كانت أرضاً حدودية في الجزيرة العربية وعمان والمحمية البريطانية مشيخة أبو ظبي تخدمها واحة كبيرة في «البريمي»، وكانت الصحراء حولها تستخدمها القبائل التي ترعى قطعانها لأنها أرضاً قيمة للرعي وليس بوصفها أرضاً مملوكة لهم، ولكنها في سنة ١٣٦٨ (١٩٤٩م) أصبحت موضع جدال بسبب احتمالات وجود آبار بترول غنية تحتها.

عرف «فيلبي» من جريدة التايمز في جمادى الأولى ١٣٧٢ (فبراير ١٩٥٣م)، أن بريطانيا قد أرسلت بعض المجندين من عدن إلى عُمان[٢]، فأرسل مقالات إلى «التايمز» و«المانشستر جارديان» موضحاً المطالبة التاريخية السعودية بملكية واحة البريمي، وعبر عن رأيه بشكل أكثر وضوحاً في كتابه: «المملكة العربية السعودية»

---

(١) «A historical fragment to Najd in the words of Amir Shari ibn Fuhaid al Rashid»، سجلت في بومباي ١٣٣٣(١٩١٥م). ونشرتها «دار اليمامة» بالرياض فيما بعد سنة ١٣٨٦(١٩٦٦م).

(٢) «The Times»، ١٣٧٢/٦/٦(١٩٥٣/٢/٢١م). انظر أيضاً الرسالة الموجودة في «Manchester Guardian» ٢٢-٧ و ١٢-١٣٧٢/٩(٧-٤ و١٩٥٣/٥/٢٦م).

الذي صدر في شوال ١٣٧٤ (يناير ١٩٥٥م): «من المحزن أنه من بين كل الناس جميعاً، أن يكون ونستون تشرشل هو المخطط لهذ العمل الهجومي المفاجئ على واحد أعدّه في الأيام السابقة: «صديقاً عظيماً عند الحاجة» في أحلك أوقات الحرب». وصادف أن تُعقد محكمة خاصة في جنيف للفصل في النزاع حول البريمي بعد صدور هذا الكتاب بأيام، وكما سنرى فإن آراء «فيلبي» حول الصواب والخطأ في هذه القضية قد تغيرت بسبب تدهور ثروته الشخصية في الجزيرة العربية.

كانت بداية حكم الملك سعود في نهاية سنة ١٣٧٣ (١٩٥٣م) مدخلاً جديداً لكتابة المقالات، وقد أعلن «فيلبي» في البداية أنه لابد من إعطاء الملك الجديد فرصة، وكتب عن التجربة الواسعة التي اكتسبها «سعود» وهو نائب لوالده[١].

سافر إلى أوروبا للراحة والتغيير، وكان على جدول أعماله سنة ١٣٧٣ (١٩٥٤م) المؤتمر الثالث والعشرون للمستشرقين، الذي سيعقد في كمبردج في أغسطس من ذلك العام، وكان يتطلع إلى انعقاد هذا المؤتمر لأن «مونسينور ريكمانز» وابن أخيه سيتحدثان عن اكتشافاتهما السبئية والثمودية، وقد طُلب منه أن يتحدث عن وصف جغرافي لرحلتهما، وهذا ما أشعره بالرضا. وفي طريق عودته، مر على «لوڤان» ليناقش ما يجب أن يقوله.

وفي أثناء إجازته لسنة ١٣٧٣ (١٩٥٤م)، كسب صديقتين، وهما ضربة حظ لرجل في سنه، قابل الأولى في «لوڤان» وهي «جاكلين بيرين»، أستاذة تعمل لحسابها الخاص، وقد توصلت في دراساتها الكلاسيكية إلى نتيجة مغايرة حول تاريخ حضارات جنوب الجزيرة العربية، وكانت ستشرح نظريتها في كمبردج. وكان الباحثون قد قالوا: إن حكام الأسرة السبئية انتهوا بحاكمين جاء ذكرهما مرتين في النقوش الآشورية نحو ٦٠٠ ق.م، ولذا فإن بداية هذه الأسرة ستكون في القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن الاسمين ذاتهما قد مر ذكرهما وبالترتيب نفسه في وقت لاحق، والأكثر من ذلك، أن النقش السبئي الذي يذكرهما يحمل طابع التأثير اليوناني

---

(١) «Daily Star» بيروت ١٣/٨/١٣٧٢(٧/٤/١٩٥٤م).



الذي لا يمكن تجاهله، ولذا فإنها أرخت لأول النقوش السبئية في القرن الخامس قبل الميلاد، وليس الثامن.

وكان المؤتمر في كمبردج أسبوعاً من السرور، بيّن فيه «فيلبي» لأصدقائه محاسن خريجي جامعة «ترينيتي»، واهتم بخرائط واحة «البريمي» مع «جورج رينتز»، وألقى موضوعه مع شرائح الصور الفوتوغرافية الرائعة التي التقطها «ليبنز»، واستمع بإعجاب إلى بحث «جاكلين بيرين» الذي عرضته بتواضع ووضوح[١]، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مرجعه في دراسات ما قبل الإسلام.

أما الصديقة الثانية فكانت «مارجريت جوديير» التي تلبي احتياجات أخرى، فهي زوجة وأم من كورنويل، ويعمل زوجها بالزراعة وبتصميم المضخات، في منطقة جميلة على سفح تل منعزل بين «فالماوث» و«ليزارد» كانت طبيبة أسنان، تركت مهنتها مؤقتاً لتربية أبنائها، ومتعتها قراءة كتب الرحلات، وخصوصاً عن شبه الجزيرة العربية، وأحياناً تكتب تعليقات حولها ترسلها إلى مؤلفيها، وكان نقدها ذكياً، وبناء عليه أقامت صداقات مراسلة مع «رونالد ستورز» و«بازل ليدل هارت» حول ت. إي. لورانس. وفي شوال ١٣٧٣ (يونيو ١٩٥٤م) كتبت إلى «فيلبي» باسمها واسم زوجها: «لابد أن وفاة «الملك عبد العزيز» قد تركت فجوة في حياتك من الصعب أن يملأها أحد بعد خمس وثلاثين سنة من الاحترام والمودة المتبادلة.. كما أننا نقدم احترامنا لرفضك الدائم والثابت للمساومة على الحقيقة».

وكان هذا تقديراً للصفة التي يفخر بها أكثر من أي شيء آخر، وعندما رد على رسالتها من لندن، تساءلت إذا كان يجب أن يقيم معهما، ورأى في الاقتراح فرصة لترتيب إجازة له ولدورا ولبعض أحفاده.

هل يمكن لها أن ترشح له فندقاً؟ وهكذا في المحرم ١٣٧٤ (سبتمبر ١٩٥٤م) أمضوا أسبوعاً سعيداً في كورنويل.

---

(١) محضر جلسات مؤتمر المستشرقين الثالث والعشرين، حرره «دينيس سينور»، الجمعية الملكية الآسيوية، ١٣٧٥(١٩٥٦م)، ص٩٠-٩٤ و ص١٠١-١٠٢.

يشكل نهر «هلفولد» أحد أجمل الأماكن في إنجلترا، والفندق الذي وجدته «مارجريت» لهم يقع بين ضفته وسفح التل الذي تعيش فيه، وكان الأطفال يلعبون بالزورق الخاص بها، بينما الكبار يتحدثون. وكان «فيلبي» في أحسن أحواله، يعلم الأولاد بطريقة السؤال والجواب، ويكافئهم بالشلنات إذا سبقوه في صعود التل إلى مكتب البريد، ويتذكر الماضي في الجزيرة العربية.

قالت دورا: «تظنين أنه رجل عجوز وديع؟ أنت لا تعرفين مزاجه الحاد، كنا جميعاً نرتعب منه، لكنه الآن مختلف». وكما قال لمارجريت: ليس هناك ما يشفع له سوى: «أني أكون على راحتي مع النساء والأطفال والأزهار والحيوانات، أكثر مما لو كنت مع الذكور من بني جنسي» (وهو ما يغاير حساسيته نحو الموسيقى).

أصبحت مارجريت صديقة لدورا، بعد هذه الفترة الفاصلة الناجحة، وواحدة من أكثر اللواتي يعتز بهن «فيلبي» ممن يراسلونه، يحترم صراحتها، وتفهمها لوجهة نظره، وغدت من أكثر المتتبعات لأخباره، وهناك الكثير من هذه الأخبار، والقليل منها هو الحسن.

لم يكن قد رأى الظهران منذ سنة ١٣٦٦ (١٩٤٧م)، ووجده قد تغير: تجمعات سكنية مكيفة للمتزوجين، وثكنات للعمال العرب محاطة بعشوائيات تقف في أزقتها العربات وبائعو المثلجات.

تحدث عن النقوش على الصخور مع فرق التنقيب الصحراوية، وقابل العالم الأمريكي هنري فيلد المتخصص في العلوم الإنسانية الذي وضع معه خططاً لبرنامج كبير حول البحث في علم الأجناس البشرية والعلوم الإنسانية، تشارك فيه وتتبناه المؤسسات الأمريكية مع المتحف البريطاني. وتحدث ارتجالاً عن الظهران ورأس تنورة وحقل النفط الجديد في «بقيق» في الجزيرة العربية لجمهور من الأمريكيين والسعوديين، وكان صريحاً كعادته.

انهار تماماً ـ في أثناء وجوده في الظهران ـ عقد بناء قصر الأمير عبد الله بناء على لجنة التحكيم، وعند عودته إلى الرياض حصل على إذن من الملك سعود للسفر إلى بيروت لمقابلة مدير شركة ميتشل كوتس في لندن، ليتحدث حول هذه النهاية الفادحة.

بدأت التقارير عن أحاديثه في الظهران تتسرب إلى الديوان، وفي ٩ مارس زاره وفد من المسؤولين الكبار ممّا لا يبشر بخير؛ وكانوا جمال الحسيني الفلسطيني الذي كان المستشار الأول للملك، ورشدي ملحس الذي شارك «فيلبي» في عمل التقويم، وأصبح الآن السكرتير السياسي للملك، وأحد الأمناء الخصوصيين وهو عبد الله بن عثمان، وطلبوا منه نص أحاديثه في أرامكو أو على الأقل المذكرات التي بنى عليها أحاديثه.

قال: إنه تحدث ارتجالاً وبلا مذكرات مدونة، فدخلوا في لب الموضوع، أن الملك غاضب من نقد «فيلبي»، وهو متأكد أن ذلك نابع من تأثير خارجي، وأن على «فيلبي» أن يغادر البلاد، فسأل هل هذا القرار له علاقة بانهيار عقد بناء قصر الأمير عبد الله، فأنكروا ذلك.

استنفدت محاضراته في «أرامكو» الصبر الملكي، وهي السبب الوحيد لإبعاده. وفي خلال الشهر التالي لذلك، قُدم عرض سلام يمكنه البقاء في المملكة إذا كتب رسالة إلى الملك يعبر فيها عن أسفه العميق على ما حدث، وأنه على استعداد لإخضاع أي كتابة مستقبلية للرقابة، لكنه إذا غادر الآن إلى بيروت لأسباب تجارية فلن يسمح له بالعودة.

كتب مذكرة أسماها «قصة إبعادي» أرسلها على الفور إلى ميتشل كوتس، جاء فيها: «لقد انتهى الأمر، ومن الواضح أني لا أستطيع ترك من أعولهم وممتلكاتي (خاصة الكتب)، وقرر أن تكون لبنان مستقره، وسعى للحصول على تصريح من حكومتها بأن يقيم مع ولديه وأمهما ـ كما كان دوماً يقول عن روزي ـ هناك. وكتب إلى مارجريت جودبير يقول: «على الأقل، يستطيع الأطفال الحصول على نوع ما من التعليم». وطلب الإذن بالسفر عن طريق مكة المكرمة، ليحزم أو يتخلص مما تراكم لديه خلال ثلاثين سنة، ثم عن طريق المدينة المنورة يتجه إلى الأردن، ولكن طلبه قوبل بالرفض.

سيتم نقله تحت الحراسة على الطريق الموازي لخط الأنابيب الذي يمر عبر الجزيرة العربية، وتستطيع روزي مع الطفلين أن يذهبوا إلى مكة المكرمة لحزم الأمتعة ثم يتبعونه حين يصرّح لهم.

غادر في ١٥ أبريل بسيارته اللاندروفر بحراسة سيارتي لوري، وعزّى نفسه بطريقة فلسفية، بأن: «رحلته الأخيرة ستغطي أرضاً جديدة بالنسبة إليه».

كان يكتب ملاحظاته العادية عن الأرض طوال الطريق، ويرصد الطيور التي يشاهدها، وعن خط الأنابيب، وعدد الأنابيب في الكيلو متر الواحد، لكنه لم يستطع السفر بالسرعة التي تسعده، وتوقفت سيارته عن السير، وكان لابد من وضعها في إحدى الشاحنات.

كان السائقون ماكرين، يرفضون رغبته في التوقف، وإقامة مخيم وإعداد شاي الصباح: «ليس لدى السائقين سوى السرعة لكسب نقود المأمورية التي كلفوا بها، فهم يقومون بالرحلة بين الرياض ودمشق مرتين في الشهر، ويحضرون معهم أي شيء من الخضراوات والفواكه بمعدل سبعة أطنان أو ثمانية»[١].

توقفوا مرة واحدة دون اعتراض، فكل واحد على الطريق كان يعرف لماذا يغادر «فيلبي» البلاد. لقد سمعوا ذلك من خلال «أجهزة الاستقبال الصغيرة»، وكلهم كانوا متعاطفين وودودين معه، لقد كان رجلاً عجوزاً، عاش في الجزيرة العربية سنوات طويلة، وكان صديقاً مقرباً لملكهم العظيم. وأهداه أحد الرجال «شاة»، ووافق السائقون على التوقف والمشاركة في الوليمة. وعند آخر نقطة على الحدود السعودية، قرب طريف، قام بالتقاط الصور لحراسه، وهما شابان من قبيلة مطير، وقال وداعاً وهو ينظر فيما وراء الحدود، وتأثر بشدة حين رفضا «البخشيش» الذي قدمه لهما ـ إيماءة أخيرة لما كانت ترمز إليه الجزيرة العربية القديمة. وكان ضميره نقياً تجاه أمر واحد: «أعتقد أني الشخص الوحيد الذي غادر البلد دون أن يشارك في السلب»[٢]. قليل هم الذين صدقوا ذلك آنذاك، وبعضهم يعترف به الآن[٣].

---

(١) ملاحظات «آر. جي. أس.» الاستطلاعية من الرياض إلى المفرق، ٢٢-٢٦/٨/١٣٧٤(١٥-١٩/٥/١٩٥٥م).

(٢) ملفات «آر. جي. إس»، رسالة من لورانس كيروان، بتاريخ ٣/١٢/١٣٧٤(٢٣/٧/١٩٥٥م).

(٣) انظر: خير الدين الزركلي، مج٣و مج٥، ص١٣٦٢، وكتاب خيري محمد: عبد الله فيلبي، بيروت.

الفصل الخامس عشر



نهاية حياتي

كتب «فيلبي» عشية مغادرته الرياض رسالة إلى دورا يخبرها فيها بإبعاده عن الجزيرة العربية، وقد وصلتها وهي في حالة معنوية سيئة. وكما كتبت: «حالة كيم تتدهور ببطء، ويفقد الثقة بنفسه، وزوجته أصبحت بسرعة مريضة مزمنة، وأسوأ الأخبار أن زواج هيلينا السعيد انتهى بمأساة، فزوجها الذي كان يعمل في سلاح الجو الملكي قتل في حادثة طيران ليلية في جمادى الآخرة ١٣٧٤ (فبراير ١٩٥٥م): «هذه السنوات الخمس كانت تعيسة تماماً»، وعزاؤها الوحيد أن «فيلبي» قد أخذ مسألة إبعاده بمرح، ويستمتع بالتهاني التي يتلقاها.

قرأت رسالته إلى الملك التي يقول فيها: إنه لا يستطيع ترك «من أعولهم وممتلكاتي (خاصة الكتب) ورائي». من أولئك الذين يعولهم؟ لقد عرفت من «فيلبي» نفسه أنه قد مُنح عبيداً، حررهم على الفور، وهم يعتنون بمنازله. وقبل سنوات تحدثت معه بصراحتها المعهودة حول الأطفال، لكنه أنكر أن هذه الجارية قد أنجبتهم. وهاهي ذي الآن تستنتج ليس فقط أن له أطفالاً، بل يريد أن يخرجهم من الجزيرة العربية، ويفتح بيتاً ثانياً على رؤوس الأشهاد: «إنهم أولادي الذين أفكر فيهم، وستكون صدمة مريعة لهم إذا عرفوا.. لن أخبرهم.. وربما يضحكون كما فعلوا مع كل صدماتك الأخرى، لكنهم سيعرفون مشاعري تجاه ذلك، وهو أمر سيزعجهم».

وتضاعف حزنها حين قررت أن تخبر «كيم»، واكتشفت أنه يعرف بالفعل، ويرى أن العائلة العربية هي إحدى تصرفات أبيه الغريبة. ولم يفهم «فيلبي» قط سبب انزعاجها، أو يدرك، حين حاول الأصدقاء أن يفهموه بأن كل الزوجات ينزعجن من

وجود أطفال آخرين أكثر من وجود نساء أخريات، ومع ذلك فإن ظلاً من الشك قد علق في ذهنه حول رد فعل دورا، وإلا لما انغمس بالوعظ طوال حياته بأن على الناس أن يقولوا بصراحة ما في نفوسهم مهما كان الثمن.

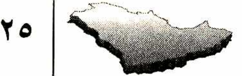
إن عدم فهمه لردة فعلها كان واضحاً حين أجابها بأن حزنها: «كان القشة الأخيرة المميتة»، «أنا سعيد بأن الحاجز الذي كان بيننا قد تهدم بحادثة إبعادي... ومع ذلك فإني مندهش بأنك لم تعرفي مثل هذه الأمور التي يعرفها الكثير من الناس. اسألي إذاً (زوجة طبيبهما) أو باميلا أو مارجريت أو دورثي عثمان».. وجعلت هذه الرسالة الأمور أسوأ. كانت الأشياء القليلة التي اكتشفتها أكثر إهانة من معرفتها أن الصديقات اللواتي كانت صريحة معهن يخفين عنها شيئاً ما، وقد تكون موضع شفقة منهن. وبدا أن «فيلبي» قد عرف كيف يزيد من تسامحها، حين أرسل إلى «كيم» والبنات برسالة شخصية متكلفة، يقول فيها: إن أمهم قالت ذات يوم: إنها لا تهتم بما يفعله في الجزيرة العربية مادامت لا تعرفه. وأخبر «مارجريت جوديير» أن قرارهم كان «ثلاثة ضد واحد»، ديانا فقط هي التي اعترضت.

تلقت دورا ضربة ثانية في صفر ١٣٧٥ (أكتوبر ١٩٥٥م)، فقد وجه عضو البرلمان الكولونيل ماركوس ليبتون عدة أسئلة إلى رئيس الوزراء أحيت الشك بأن «كيم» هو الرجل الثالث في قضية بيرجيس ـ ماكلين[١]. ومازال الاثنان مختفيين، ويعتقد الجمهور أنهما إما قتلا وإما في روسيا (لم تعرضهما روسيا على الملأ إلا في سنة ١٣٧٥ (فبراير ١٩٥٦م)، وقد أزال «كيم» التهمة عن نفسه، لكن دورا كرهت الدعاية التي تلت ذلك، والصحفيين الذين اقتحموا الشقة من أجل إجراء مقابلات، وكتبت إلى «فيلبي» عن فائدة واحدة في هذا الأمر: قد تثير الضجة وزارة الخارجية فتساعد كيم: «ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يقاضيهم للافتراء عليه بالطريقة التي قاموا بها». وبدأت تشعر بأن الشقة كبيرة عليها لتدبر أمرها: «لا أعتقد أني أستطيع أن أعيش وحيدة فترة أطول مع كل هذا القلق لدي» .

تعد بيروت إحدى المدن الرئيسة في الشرق الأوسط، إنها ملتقى المسافرين، والمقر الرئيس للشركات العربية والأجنبية، والجامعات الجيدة، وحين وصلها «فيلبي» في

---

(١) محضر جلسة البرلمان البريطاني: مجلس العموم، ١٣٧٥/٣/٨(١٩٥٥/١٠/٢٥م)، الفقرة ٢٩.



سنة ١٣٧٥ (أوائل مايو ١٩٥٥م)، لم يكن هناك ما يفعله سوى تسجيل اسمه في سجل زيارات رئيس الجمهورية، وسفيري بريطانيا وأمريكا، ويجلس في بار الفندق الرئيس ليكون محاطاً بالكثيرين، وكل واحد كان يعرف لماذا هو هناك، لأن الإذاعات قد نشرت الخبر[١]. وألح عليه الصحفيون والمصورون من أجل إجراء المقابلات. إن أجندته في الأسابيع التي قضاها في بيروت أصبحت تُقرأ كسجل اجتماعي.

أدرك «فيلبي» أنه يجب أن يعيش في مستوى أقل من الممكن في بيروت، وبعد البحث في الجبال المحيطة، استأجر بيتاً صغيراً في «عجلون»، وقد كان يتنزه وحده بمشقة وتعب لم يعبأ بهما، وفي المساء يتأنق ليذهب إلى العشاء في الملهى، حيث قالت عنه الصحافة المحلية وهو في لباسه الأنيق كأنه سيشترك في التحكيم في مسابقة اختيار ملكة جمال. وفي أثناء انتظاره عائلته، كان زواره الكثيرون يجدونه زاحفاً على الأرض يدقق خرائطه حول مدين، أو يطبع على الآلة الكاتبة كل الملاحظات التي كتبها عن أسفاره بالقلم الرصاص خلال أربعين سنة، عدا تلك التي لم يستطع قراءتها. كما قرأ بسخط كتاب «الدنجتون» الذي يحط فيه من قدر لورانس، ويتابع الأحداث الجارية في الوطن العربي، وهذا ما أعطى قوة جديدة للمبادئ التي كان ينادي بها لسنوات.

لفت انتباهه واحد أو اثنان من زوّاره بصفة خاصة؛ لأنهما اقترحا عليه طرقاً لكسب النقود. أحدهما عارف الغريّب، وهو صديق لبناني تعرفه في «عجلون»، واتضح أنه يتاجر بالسلاح، و«فيلبي» يعرف كيف يأتي بطلبيات السلاح من طائرات مقاتلة ودبابات، وابتهج هذا المروج السابق للسلام حين سمع أن هناك طلبات سرية للسلاح لمصر قد يُكلَّف بها، ولم تُفض خطة «الغريب» إلى شيء، لكن المكاسب جاءت من الصحافة، فقد كلفه «سلايد بيكر» من جريدة «الصنداي تايمز» بكتابة ثلاث مقالات، مكافأة كل مقال خمسون جنيهاً، ليكشف الغطاء عما يدور في المملكة العربية السعودية[٢]. وقد كتبها على الفور لكن على شرط ألا ينشرها المحرر إلا إذا أعطاه الكلمة بأن عائلته وكتبه قد خرجت بسلام من السعودية.

---

(١) راديو مكة المكرمة، ١٣٥١/١٢/٢٠(١٦/٤/١٩٣٣م)، وأعيد بثها من قبل إذاعات مختلفة.

(٢) مذكرات «سلايد بيكر»، كلية القديس «أنطونيو»، أكسفورد، سجل يوم ١٣٧٤/١٢/١٥(٨/٤/١٩٥٥م).

وصلت أخيراً، روزي والأولاد في ٧ سبتمبر، وهنا تبدأ ما أسماه «فيلبي»: «تجربة بجماليون»، فروزي لم تغادر السعودية منذ طفولتها. أخبرها في المطار أن تخلع الخمار على الفور، واستخدم فتاة لبنانية مسيحية تدعي أنطوانيت لمرافقتها، واستقر الجميع في «عجلون»، وأرسل الأولاد أولاً، على غير رغبة، إلى مدرسة قريبة للراهبات، ومازال لم يعط الكلمة لسليد بيكر لنشر المقالات؛ لأن روزي أخبرته أنها حزمت الكتب التي في مكة المكرمة في ٢٣ حقيبة، لكن السلطات الجمركية رفضت السماح بخروجها قبل أن تعرض على لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

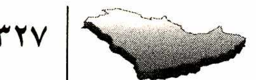
خشي أن يفقد كتباً قيمة وأوراقاً يستحيل تعويضها، فأبرق إلى السفارة البريطانية في جدة أن تأخذ الحقائب في رعايتها، ثم غادر خلال أسبوع بحراً إلى مؤتمر في البندقية وُعد بحضوره منذ وقت طويل؛ وهو لقاء أكاديمي يدعو إلى تقوية الروابط بين المسلمين والحضارة الغربية[١]. وترك «روزي» غير متحجبة وتحن إلى الوطن، تدبر أمورها قدر ما تستطيع، بينما هو يمارس متعته الثقافية، والرفاهية التي وجد نفسه فيها في فندق «دانييلي»، وفي أثناء المؤتمر تلقى خبراً بأن حقائبه غدت آمنة في السفارة البريطانية في جدة، فأبرق إلى جريدة «الصنداي تايمز»، فنشرت الصحيفة المقالات تحت عنوان: «فضيحة في الجزيرة العربية»[٢]، وهي تقص حكايات «فيلبي»، وكذلك تلخص قضية النزاع حول «البريمي»، وحول هذه القضية الأخيرة كان «فيلبي» قد غيّر رأيه بعد خصامه مع السعوديين، وكان قد قرأ عن انهيار التحكيم الإنجليزي ـ السعودي، واستقالة العضو البرلماني في لجنة التحكيم، وكذلك رئيسها البلجيكي الذي ذكر السبب وأثبته.

ولقد أسف؛ لأن الجريدة حذفت فقرة قالها لسلايد بيكر: «أعتقد حقيقة أنه في هذه الظروف على بريطانيا أن تستولي على «البريمي»، وترسم خطاً حدودياً يلائمها كما فعلت سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥م) في قضية العقبة».

---

(١) ملخص محضر الجلسات، انظر «Oriente Moderno»، ذو الحجة - محرم/ ١٣٧٤(آب - أيلول/ ١٩٥٥م)، ص٣٩٤-٤٠٤.

(٢) «Sunday Times»، ٦ و ١٣/ ٣/ ١٣٧٥(٢٣ و ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٥م).



وجلبت عليه هذه المقالات سيلاً من النقد والسباب من مصادر عربية، وأكّد كثير من الصحف في البلاد العربية أنه جمع ثروة خرافية من الجزيرة العربية، وأنه تخلى عن الإسلام، وأنه كان يتقاضى مرتباً ضخماً، وأنه كان صديقاً لليهود، وتساءل كم صحيفة منها تقاضت رشوة لتفعل ذلك[(١)].

كتب «فيلبي» إلى «مارجريت جودبير» في ذروة سعادته في أول صيف له في لبنان: «أنا حر وسعيد، حين أنظر إلى الماضي أرى الجزيرة العربية رائعة كما يجب أن تبدو، وليس لدي رغبة أن أعود إليها».

عاد اللبنانيون في أكتوبر من عجلون إلى بيروت، وأقفلوا منازلهم الصيفية، وأغلق الملهى أبوابه، ولم يعد هناك ملكات جمال، شتاء جبلي، مطر وضباب، هواتف مقطوعة، واعتلال الأطفال، وحنين روزي إلى الوطن، والبرد في عظامه وقد بلغ السبعين من العمر، كل ذلك بدَّل وجهة نظره».

تعاطف مع موقفه منذ بداية إبعاده، سياسي لبناني بارز له مصالح تجارية كبيرة في المملكة العربية السعودية، هو حسين العويني، وفي سنة ١٣٧٥ (مارس ١٩٥٦م) قدم العويني، الذي كان قد رأى الملك سعود أخيراً، مسودة خطاب إلى «فيلبي» لتوقيعه، يعرب فيه عن أسفه العميق ويطلب السماح له بالعودة. ورأى فيها «فيلبي»، بصفة خاصة، بادرة إيجابية، وخصوصاً إذا تحققت بعض الشروط: دفع ديون شركة ميتشل كوتس، وللمتعهدين الذين ساعد في الحصول على عقودهم، وإلغاء عقد قصر الأمير عبد الله الذي سينتهي العمل به على يد متعهد آخر، وتعويض له عن فقدانه عمله.

ولم يحدث شيء لمدة شهر، لكن الشائعات حول عودته بدأت تنتشر، وتسلق الصحفيون الجبل إلى «عجلون» ليسألوا عن خططه.

---

(١) مثلاً «التلغراف»، بيروت ٢٠/٥/١٣٧٥(٤/١/١٩٥٦م)؛ «Le Soir»، بيروت، ٣/٩/١٣٧٥(١٤/٤/١٩٥٦م)؛ «Rose el Youssef»، ١٩/٩/١٣٧٥(٣٠/٤/١٩٥٦. الكثير منها مقتبس، ودحضه «فيلبي» في كتابه «Forty Years in the Wilderness»، ص٢٢٦-٢٤٣.

سافر إلى الرياض في أواخر مايو، وكذلك فعل «سلايد بيكر»، وقد أملا أن يسمح لهما الملك بالذهاب إلى «البريمي»، لكن هذا الأمل تلاشى، فعند وصولهما الرياض، علما أن الملك يصطاد في الخليج، وكانت العلامة الوحيدة للمودة إقامتهما في جناح فخم مكيف في أحد الفنادق، وكل من قابله بالمصادفة كان ودوداً معه، وقام بزيارة الأمير فيصل والأمير عبد الله بن عبد الرحمن، وبعد ذلك، أُخذ إلى الظهران، وقابل الملك، وحضر مأدبة أقيمت له في أرامكو، وعاد بالقطار الملكي إلى الهفوف فالرياض، واستأنف روتينه المعتاد في القصر.

وبعد شهر أهداه الملك عشرين ألف ريال؛ نحو ١٨٥٠ جنيهاً إسترلينياً، وأما موضوع قصر الأمير عبد الله فقد قوبل بالإهمال.

عاد إلى «عجلون» في يوليو، وكان قد اعتزم قضاء أشهر صيف ١٣٧٥ (١٩٥٦م) في إنجلترا إذا استطاع تحمل النفقات، وقد تلقى دعوات لإلقاء محاضرات هناك، لكنه قرر أن الرحلة ستكلفه فوق طاقته، وبدلاً من ذلك، أرسل ألف جنيه من هديته إلى دورا. لقد تأثر بالبرقيات القلقة التي أرسلتها حين ضرب لبنان زلزال في الربيع، والآن جاء دوره ليقلق. فالأخبار الواردة من بناته عن اكتئابها وآلام مفاصلها، والتي أنبأته بها أيضاً «مارجريت جوديير»، آلمته حتى إنه بعث إليها أوامر حاسمة: أن لا تمكث في الشقة شتاءً آخر، ألا تستطيع أن تقفلها وتنتقل للإقامة عند بناتها؟ أو لماذا لا يتركون جميعهم إنجلترا ويشاركونه في قناعته؟ وكتب لهم استبياناً: «أعتقد أننا يجب أن نتفق جميعاً على هجرة جماعية إلى لبنان... سنكون هنا لكي نصنع مستعمرة آل فيلبي في إحدى أجمل بلدان العالم».

كان يقضي أيامه منشغلاً بإنهاء الكتابين اللذين يعمل بهما: سيرته الذاتية: «أربعون عاماً في البرية»، وكتابه أرض مدين. وحين عد كلمات الكتاب الأخير، الذي كلفه به «بن» في حدود ٨٠ ألف كلمة، وجد أنه كتب ضعف هذا العدد، وغضب حين قرر «بن» أن يقسم المخطوطة إلى قسمين وينشر النصف الأول فقط.

كان يمضي ساعات يعلّم فارساً وخالداً ركوب الدراجة، أو طباعة رسائله إلى ثلة ممن يراسلهم، أو في استقبال عدد كبير من الضيوف.



كان أصدقاؤه وقت الحاجة «رالف ازارد» مراسل جريدة «الديلي ميل» وزوجته «موللي» التي تحضر بانتظام أطفالها الأربعة إلى «عجلون» ليلعبوا مع أولاده، وكان يقوم بكثير من التمرينات، وأحياناً يتسلق مع خالد، ومع بروس كونديه، وهو أحد المعارف الجدد الذي أحضر له أخباراً من اليمن عن النقوش السبئية إلى قلعة الفكرا، وهي مكان معبد روماني قرب قمة جبل خلف عجلون. وكانت «موللي أزارد» تساعده على أعمال المنزل في أثناء غياب «روزي» المتكرر في المستشفى.

* * *

كان الشرق الأوسط في عناوين الصحف طوال سنة ١٣٧٥ (١٩٥٦م)، كان عبد الناصر يخطط لبناء السد العالي، فاعترف بالصين الشيوعية، وكان يغازل روسيا حول عروض لتمويل بناء السد. وجلا الجيش البريطاني عن منطقة قناة السويس في هذا العام أيضاً. وفي يوليو سحبت القوى الغربية عروضها من القروض لتمويل السد بسبب سخطها من عناده، وتتابعت الأحداث بسرعة، وأمَّم عبد الناصر قناة السويس، وحاول المنتفعون بالقناة وضعها تحت إدارة دولية، لكن المصريين أثبتوا مقدرتهم على إدارتها دون مساعدة. ولم يكن لبنان بعيداً عن هذه الأحداث، وكانت أفعال عبد الناصر، بالنسبة إلى فيلبي، باسم الكرامة والعزة المصرية، دواءً منعشاً، فاستل قلمه وانهال على الصحافة المصرية واللبنانية والبريطانية بالمقالات والرسائل، معظمها كان مسهباً، ولذا لم يجد في النهاية سوى صحيفة «ديلي ستار» في بيروت، التي رأت في أفكاره ما يستحق النشر[١]. وكانت مقالاته الطويلة تتناول آراءه التي حافظ عليها طوال عمره حول الاستعمار وحق العرب في إدارة شؤونهم. وكان مؤتمر المنتفعين الذي عقد في لندن في ١٣٧٦ (أغسطس ١٩٥٦م) يشبه السفسطة الدولية لحرمان مصر من حقها: «الشرق لا يثق في الغرب، ولا توجد وسيلة لجعله كذلك إلا بزوال أي أثر للاستعمار الغربي عن أراضيه».

أصبح في التيار الاجتماعي للمنطقة كراهيته لإيدن ودالاس، وشعر بذلك بشكل أكبر حين وصل «كيم» في سنة ١٣٧٦ (سبتمبر ١٩٥٦م) إلى بيروت مندوباً لصحيفتي

---

(١) «Daily Star»، بيروت، ٨-٩-١٠/١/١٣٧٦(١٥-١٦-١٧/٨/١٩٥٦م).

الأوبزيرفر والإيكونومست، فانطلق في بيروت يقدمه إلى مجموعة أصدقائه الكبيرة، وسجّله أيضاً سائقاً مشاركاً في عودته إلى الرياض التي كان يخطط لها لتكون في الخريف، لأن «حسين العويني» كان متأكداً من أن الملك سيتحمل نفقات الانتقال، ويعيد له بيته بعد إعادة تأثيثه، وسينظر في الديون التجارية.

كان صادقاً هذه المرة، ما عدا استمرار الجدل حول ديون بناء القصر، وأخفقت خطط «فيلبي» في اصطحاب كيم معه إلى الرياض بسبب أزمة السويس، ولكن هجوم إسرائيل على مصر في ٢٩ أكتوبر لم يؤثر في ترتيباته الخاصة، ففي الثلاثين من الشهر، تدافعوا لحزم أمتعتهم، وبدؤوا رحلتهم بالسيارات وسيارة الشحن التي بعثها الملك. وخلال أيام الهجوم الإنجليزي الفرنسي المرعبة ثم الانسحاب، كان «فيلبي» يكافح مشكلات السير في الصحراء، ويزور أصدقاءه على طول الطريق في الجوف وبريدة وعنيزة.

وصلوا إلى الرياض في ٩ نوفمبر ليجدوا المنزل مؤثثاً بشكل كافٍ عدا أن النور الكهربي لم يوصل بعد. وبعد جلبة، تم إصلاح الأمر، وعاد إليه مرتبه الشهري، الذي يقدر بمئة وثمانين جنيهاً، وأدخل خالداً وفارساً معهد الأنجال الذي كان يديره الشيخ عثمان الصالح، وكما كتب إلى «مارجريت جودبير»: «لقد اندمجت في حياتي القديمة بوصفي أحد رجال الحاشية، وكأنه لم تكن هناك فترة انقطاع قط».

ومع أنه عاد إلى الإقامة في السعودية، إلا أنه لم يستقر هناك نهائياً، فقد دعاه البروفيسور نبيه فارس من الجامعة الأمريكية في بيروت ليشارك في برنامج الدراسات العربية كأستاذ زائر.

كانت الدعوة مناسبة سعيدة ليقوم بدور جديد، فحين مات إي. ج. براون منذ ثلاثين عاماً، اقترح عليه أصدقاؤه في «ترينتي» أن يتقدم ليشغل الكرسي الخالي في كمبردج، على كل حال، لقد اعتزم أن يقضي الصيف في إنجلترا، ويحضر مؤتمر المستشرقين في ميونخ، وستكون لبنان في طريقه. وأرسل روزي، على غير رضاها، مع الأولاد بالطائرة إلى «عجلون»، وانطلق هو براً في سفر مجهد مدة أربعة عشر يوماً، وأرسل إلى دورا برقية من دمشق في ٢٧ يونيو قائلاً: «إنه بخير وفي طريقه إلى الوطن».

وصل إلى بيروت في الثامن عشر من يونيو ليقابل «كيم» في فندق «نورماندي» ويعرف منه أنها قد ماتت في أثناء نومها منذ ليلتين. وتحطمت طبيعة حياته، ومع أنه كان معها بشكل متقطع منذ انتهاء الحرب، ولم يرها لما يقرب من ثلاث سنوات، فإن رسائله الأسبوعية الطويلة لها، كانت متنفسه للتعليقات والنكات التي لن يفهمها أحد في الجزيرة العربية، وكانت شيئاً رئيساً في حياتهما. من سيذكر الآن الذكريات السنوية القديمة، ويتعامل مع ناشريه، وينصره أمام نقاده الإنجليز؟ ولقد كتبت أخيراً فقط: «إنه لشيء يبعث على الجنون وأنا أرى الناس لسنوات وهم يلتقطون أفكارك بلا مقابل».

أكان عليه أن ينتبه أكثر لكتابتها المرتعشة، وصراحة مارجريت جوديير عن اكتئابها؟ أكان ينبغي عليه أن يترك ديونه وممتلكاته المجمدة في مصر ويعود إلى الوطن في وقت مبكر؟

قضى اليوم وحيداً يسترجع الماضي، ويعيد ترتيب خططه للصيف، وفي المساء عاد كيم معه إلى عجلون.

كان المنزل مفتوحاً، وتزاحم الأطفال حوله يحدثونه عن رحلتهم، وكتب في يومياته: «بالضبط، كالعودة إلى الوطن».

كانت عودة «فيلبي» التالية إلى إنجلترا أكثر كآبة مما تخيل؛ تأخرت طائرته ووصل إلى لندن بعد منتصف الليل، لم يكن هناك أحد في الشقة، ووفر لـه بواب العمارة سريراً في البدروم. وفي اليوم التالي، وصلت «بات» وأدخلته الشقة، والتفت البنات حوله، وبين زياراته لجمعية الأثيناوم، و«اللوردز والأوفال»، استمر في جمع بقايا حياة.

لقد ماتت دورا بهدوء كما عاشت، ووجد بين أوراقها ملاحظة: «لا حداد، لا حديقة للذكرى، ولا إحياء لها».

يتناول الغداء والعشاء في «الأثيناوم، وفيما بينهما يقوم بتفريغ سجل العائلة الاجتماعي والرسمي لأكثر من نصف قرن، كل رسائله إلى دورا منذ سنة ١٣٢٨

(١٩١٠م)، كل رسائله إلى والدته «ماي» من الرسالة الأولى من سيلان وهو في الرابعة، وحزم هذه الكتلة من الأوراق في حقائب لنقلها إلى بيروت ثم الرياض: «حيث سأذهب إلى هناك في فبراير لأستقر نهائياً».

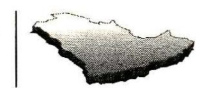
شعر بالراحة لتركه العمل وإلغاء ذهابه إلى مؤتمر المستشرقين الرابع والعشرين في ميونخ. وقبل ذهابه إلى بيروت، ومهمته التعليمية، قام باصطحاب أحفاده الأربعة الكبار في أسبوع نزهة أخرى في فالماوث قرب «آل جودبير»، ثم انطلق لعضوية نادي «ألومني Alumni » وكلية جامعية.

يتذكر طلبة «فيلبي» في الجامعة الأمريكية في بيروت في شتاء ١٣٧٧ (١٩٥٧/ ١٩٥٨م)، أنه كان في الفصل مفعماً بالحيوية، يسهل الاقتراب منه، وكان محاوراً جيداً. وكما ذكر لأحد الطلبة: «أنا لا أحضّر أي شيء.. لكني أدع نفسي لتفكر بصوت عالٍ».

يصعد إلى منصة التدريس دون ملاحظات ودون النظر إلى الساعة. هذا المدخل خفيف الدم يأتي ثماره حين يقاطعه التلاميذ ويبدؤون في الأسئلة، وهو أمر أقل نجاحاً في المحاضرات العامة. ومع ذلك كان «فيلبي» فريداً في شخصيته ولا أحد غيره يعرف كل ما فعله في الجزيرة العربية.

عندما انطلق إلى الرياض ثانية في سنة ١٣٧٧ (مارس ١٩٥٨م)، قرر أن يسافر في قافلة، فهناك كل كتبه وأوراقه التي في لندن وبيروت، وعليه نقلها، ثم إن «كيم» لابد أن يأتي معه، فهو يحتاج إلى التغيير، فقد ماتت زوجته «إيلين»، وقضى شهراً كئيباً في إنجلترا يرتب لأولاده الخمسة مدارسهم وإجازاتهم، وكذلك خالد يجب أن يرافقه أيضاً، فقد أجاد في المدرسة ويستحق نزهة يستمتع بها، ودعا «فيلبي» أيضاً دبلوماسياً أمريكياً شاباً هو «جيم أكينز» ليكمل المجموعة ويقوم ببعض القيادة.

سافر الرجال الثلاثة في السيارة، والصبي ورفيق آخر في الشاحنة التي تحمل مؤونتهم، وقد تنبه الجميع، عدا «فيلبي»، للاستياء الشديد الذي أصاب خالداً من الدور الذي احتله بسهولة «كيم» كابن أكبر. لقد كان رفيق والده الدائم حتى وصل



كيم سنة ١٣٧٥ (١٩٥٦م)، والآن عليه أن يكون الثاني مادام كيم موجوداً، والكراهية التي يبديها كانت واضحة عند كل محطة يتوقفون عندها[١].

بدَّل «فيلبي» ملابسه عند الحدود السعودية كالعادة إلى الملابس العربية، كانوا يعرفونه في كل مكان ويقابلونه بالترحاب، وبعد عشرة أيام من السير الشاق وصلوا إلى الرياض في ١٢ مارس. وعدا صيف ١٣٧٨ (١٩٥٩م) الذي قضاه في الطائف، ورحلتين بصحبة الملك سعود، فقد قضى معظم الوقت في الرياض، وهي مدة يقضيها في مكان واحد منذ احتجازه الإجباري في بريطانيا بسبب الحرب العالمية الثانية، وعندما تسوء الأمور، يصبح طبعه أكثر حدة. ولقد أخبر «كيم» زوجته الجديدة «اليانور» بأن الحياة المنزلية في الرياض كانت «حلبة صراع مزعجة»، يقوم فيها والده وروزي «بأشد مباريات الصراخ الرهيبة»[٢].

وفي الرحلات مع الملك، قد يشكو أن الأغنام التي ضحى بها ليست كافية. وإذا كانت بطاريات الراديو ضعيفة، لا أحد يستطيع أن يصدر صوتاً وأذناه ملتصقتان بالمذياع ليلتقط تعليقاً على إحدى مباريات الكريكيت، ويفضل أن يثقب خزان وقود السيارة ولا يعترف بأن البنزين قد نفد من سيارته في الصحراء، والمقالات التي كتبها من الرياض بعد الثورة العراقية سنة١٣٧٧ (١٩٥٨م)، معبراً عن غضبه لإرسال القوات البريطانية والأمريكية لتثبيت الحكم المزعزع في الأردن ولبنان آنذاك، كانت حادة اللهجة بحيث إنها لم تنشر.

كان حاد الطبع حتى في القضايا القابلة للنقاش، فقد كتب إلى «جلوب باشا» في هذا السياق: «إن الخط الذي يفصل بيني وبينك ومن شابهك، أن قناعتك بأن مصالح البلاد العربية يمكن أن تتحقق بنوع من التبعية السياسية البريطانية الاستعمارية المحلاة بمعونة مالية سخية، بينما أنا مقتنع بالقدر نفسه أن الوحدة فيما بينهم هي التي يمكن أن تحقق مجدهم.. وقد لا توافقني بأن قضيتك قد انقضى عهدها».

---

(١) معلومات مستقاة من «جايمس إي. أيكنز»، روما ١٣٩٢(١٩٧٢م).

(٢) «اليانور فيلبي، «Kim Philby: The Spy I Loved»، لندن، ١٣٨٨(١٩٦٨م).

كانت سلواه أن الأمور السياسية العربية التي تسببت في أن تستجمع الأنظمة الثورية قواها ضد الأنظمة الملكية أصبحت مملوءة بالمتغيرات، وكانت محاضراته العامة في بيروت آخر هجمة على التدخل الاستعماري، وآخر ترنيمة مديح للاتحاد السوفييتي: «الأمر يعود إلى العرب أنفسهم ليحققوا الوحدة التي تعطيهم القوة»، وبحلول سنة ١٣٧٧ (١٩٥٨م) كانت الشكوك تحيط بهذه الغاية.

عندما أقام عبد الناصر الوحدة مع سورية، لم ترغب الدول العربية الأخرى في الانضمام إليها، وانتقده «فيلبي» بشدة؛ لأنه: «يتصيد الشجار ويقيم اتحاد دول يمنع قيام وحدة حقيقية». وما إن استقر في الرياض حتى قرر أن يهجر السياسة، وأن يتصرف في وقته كما يحلو له. الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة الجديدة، عندما زار «كيم» البلاد، آنذاك، وترجم له في المقابلات الصحفية.

وعندما انتقلت السلطة الفعلية من الملك سعود إلى أخيه ورئيس وزرائه الأمير فيصل، كان «فيلبي» قد عاد في الحال من لبنان، فكتب عن التغير إن: «الملك بالفعل، لم يفعل شيئاً سوى أنه دعا رئيس وزرائه لإنعاش الإدارة»[١].

إن الماضي موضوع أكثر أمناً من الحاضر، والعمل الذي قام به «فيلبي» حول ذلك بين سنتي ١٣٧٧ و١٣٧٨ (١٩٥٨ و١٩٦٠م) كان هائل الحجم، كان الزوّار يرونه يطبع على آلته الكاتبة في غرفة مكتبه وهو جالس على أرضية الغرفة المضاءة بلمبة واحدة، وكميات هائلة من الكتب فوق الأرض والكراسي والأرفف، الأوراق والكتب مغطاة بطبقة من الرمل الناعم لا يسمح لأحد غيره بتنظيفه. وقرب سقف به ثقوب، قسم آخر من الكتب يقبع تحت غطاء محرك سيارة قديمة. لكنه كان راضياً، فقد «كان هناك ٣٢٠٠ كتاب تحت سقف واحد أخيراً»[٢]. رابض هناك في «إسطبل أوجيان Augean» وكتب كتاباً هائل الحجم عن تجربته في شرق الأردن، وقال إن

---

(١) «فيلبي» في «Middle East Journal» واشنطن، صيف ١٣٧٧(١٩٥٨م)، ص٣١٨، وأيضاً «The Economist» ١٣٧٧/٩/٨(١٩٥٨/٣/٢٩م) ص١١٤٠.

(٢) معلومات مستقاة من السيدة «كريستينا فيلبس»، لندن ١٣٩٠(١٩٧٠م)؛ وأيضاً د. عبد الكريم جيرو، الرياض ١٣٩٠ (١٩٧٠م).



على «بن» ناشره أن يطبعه كاملاً أولا يطبعه أبداً (لم يطبع بعد). وأعد مادة كتاب «مغامرات النفط العربي» وقد طبعه معهد الشرق الأوسط في واشنطن بعد وفاته. كذلك قام بمراجعة جميع مقالاته للموسوعة البريطانية، وكتب مقالات جديدة حول مدن جديدة مثل الظهران ورأس تنورة. وباشر خطة اقترحها مليونير في جدة، «حسن الشربتلي»، بأن يقوم بترجمة معاني القرآن الكريم في طبعة عادية وأخرى ممتازة، تكلفان معاً ٢٨ ألف جنيه. وقام بالعمل التمهيدي، لكن «الشربتلي» اختفى في أوروبا ولم يسمع عنه «فيلبي» ثانية. وبدأ يكتب في المجلد الجغرافي مع «ريكمانز»، ويراجع كتابه «خلفية الإسلام» على أسس إعادة التأريخ للتاريخ السبئي الذي قامت به جاكلين بيرين.

بالإضافة إلى ذلك حافظ على مراسلاته الواسعة مع العائلة والمستشرقين والأصدقاء في جميع أنحاء العالم. وكان يكتب أسبوعياً إلى «مارجريت جودبير» التي تخدمه الآن كما فعلت دورا فترة طويلة، وتعمل صمام أمان لملاحظاته. كذلك تراسل بكثرة مع جاكلين بيرين التي كانت تعمل على بلقيس ملكة سبأ، وبما أنها لا تقرأ العربية بسهولة، فقد جاهد لترجمة مقاطع من المؤرخين العرب الذين ألقوا الضوء على ماضي ما قبل الإسلام، لمساعدتها، وغامر بكتابة مقال عن سبأ قائم على هذه المصادر الضئيلة. وتجنبت بكياسة لكن بحزم اقتراحه بمشاركتها نشر نظرياتهما.

لم يشعر بالسأم أو الضجر للحظة، يأخذ الأولاد إلى المدرسة كل يوم، ويتمهل ليتحدث في الدين، والتاريخ مع ناظر المدرسة. وكان يقضي ساعات طويلة في مناقشات معرفية مع الأمير عبد الله، بل حاول أن يقوم برحلة أو رحلتين في الصحراء، إما مع الملك في قوافل مزودة بحمامات على عجلات، أو مع ابنه خالد في ظروف أصعب.

وأخذ العائلة كلها إلى الحج في سنة ١٣٧٨ (١٩٥٩م)، ثم إلى الطائف لقضاء الصيف. وقد كتب إلى فيليب ليبنز في شوال ١٣٧٩ (أبريل ١٩٦٠م): «لقد قضيت عيد ميلادي الخامس والسبعين أشاهد الجرافات تحطم نصف أملاكي من أجل شق طريق جديد في المدينة. لقد أُنقذ البيت لكنه امتلأ بالتراب، ولكن الفناء، وغرف الضيوف والكراج ومساكن الخدم ذهبت جميعاً، ومع ذلك لن أنتقل...». كان منظماً

جداً في أساليبه، وكان يخطط لرحلة كبيرة، فقد كان على وشك المغادرة إلى أوروبا للقاء يجمع شمل العائلة، ثم إلى موسكو، ليحضر المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين في أغسطس، بل: «آمل أن أسافر عبر سيبيريا».

وفي طريقه إلى إنجلترا توقف أياماً قليلة في أثينا لرؤية آل باوسنز، وقد صدمت باميلا من مظهره، فقد بدا عليه الهرم، ولا يريد أن يفعل شيئاً سوى الجلوس على مقهى في الشمس. وضحك من قولها: إن عليه أن يأخذ الأمور بهدوء. وقد نظرت بريبة إلى رحلته المعقدة إلى البندقية عن طريق البحر، ثم إلى لوزان لشراء آلة كاتبة جديدة، ثم إلى لوفان لرؤية أصدقائه المستشرقين، وقد نفذ هذا البرنامج، وبدا في يونيو أفضل كثيراً.

مارس نمط حياته الذي اعتاده في إنجلترا، تناول الوجبات في «الأثيناوم» وقضاء الأيام في نادي «لورد». وكان متنبهاً دائماً لمصالح كيم، وانقض على صحيفة «الإيكومنست» لتصحيح خطأ عن السعودية خشي أن يُعزى إلى ابنه[١].

رأته هيلينا يغادر إلى موسكو بالقطار، وينفث غاضباً لأن مقعده قد حُجز في أماكن غير المدخنين.

كان مؤتمر موسكو مكتظاً بالوجوه الجديدة، وقد ألغى «آل ريكمانز» حجزهم إلى المؤتمر بسبب السلوك السوفييتي تجاه بلجيكا حول الكونغو، وسافر «فيلبي» شرقاً مع غريبين: إدوارد كونز العلامة البوذي، وريتشارد ستوري وهو مؤرخ لليابان. وكان بالنسبة إلى القادمين الجدد عجوز المؤتمر؛ شعر أبيض، لطيف، حديث ممتع وغزير بالمعلومات الموسوعية، وتحدث في المناقشات عن أبحاث تتراوح بين (أكسنوفون Xenophone) وحائط ميديا في العراق، إلى اللغات السامية غير العربية في جنوب الجزيرة العربية، وظل الشباب الذين رافقوه في عربة القطار في أثناء العودة من رحلة إلى لينينجراد، مستيقظين طوال الليل يستمعون إلى قصصه[٢].

---

(١) رسالة إلى مؤلفة هذا الكتاب، ٢٩/١/١٣٨٠(٢٥/٧/١٩٦٠م).

(٢) معلومات مستقاة من «ريتشارد ستوري»، د. «جورج رينتز»، د. «جورج سكانلون»، ١٣٩١(١٩٧٠م).

كان جورج رينتز هناك في المؤتمر، لذا فقد قضى أمسياته مع صحبة مألوفة له، لم يعد يبدو عليه الاهتمام بالسوفييت أو الشيوعية، فقد عدّ روسيا ببساطة مكاناً للفرجة، بالإضافة إلى زيارة لينيجراد، ذهب في رحلة مدة يومين إلى القوقاز.

لقد رغب في الذهاب مع رينتز في رحلة أطول إلى طشقند وبخارى وسمرقند، لكنه تراجع بعد إعادة التفكير؛ لأن رحلة الأسبوعين قد أتعبته. لكنه في طريق عودته من موسكو إلى ربوع هولندا هبّ غاضباً لاقتراح ديك ستوري أن يحمل عنه حقيبته الثقيلة. وفي لندن لاحظت هيلينا أنه يتوقف لالتقاط أنفاسه وهو يصعد السلالم في دار السينما، واعترف لها بأنه تعرض لنوبة أو نوبتين من الدوار وهو في روسيا.

ذهب مع العائلة مرة ثانية إلى «فالماوث» ليكون قرب آل جودبير، وفي ليلتهم الأخيرة هناك، وهو مسترخ تماماً، يتطلع بإعجاب إلى قمر الحصادين، قال لمارجريت جودبير: إنه عند ظهور بدر الشهر التالي سيكون في الرياض. وعاد إلى الجزيرة العربية عن طريق لوڤان، محملاً بالخطط للقيام بمشروع المجلدات العشرة حول بعثة فيلبي ـ ريكمانز ـ ليبنز.

أقام مع كيم وإليانور في بيروت، ما كانت تسميه «ماي» دوماً «الانطلاقة»؛ يذهبون كل ليلة إلى حفلات ينغمس خلالها في نقاشات حول السياسة أو خلود الروح، ثم ينتهي به الأمر بالجلوس في شرفة منزل أصدقائه من آل فستيريز، يحمل في يده كأساً، ويمتع الشباب من الحضور بأحاديثه طوال المساء، وفي طريق العودة إلى البيت يصر على إلقاء نظرة على أحد الملاهي الليلية.

شكا في اليوم التالي من صعوبة في التنفس، ولأن حالته بدت خطيرة، استدعى كيم الطبيب، فشخص الحالة بأنها أزمة قلبية، فأسرع به كيم إلى المستشفى في محاولة لإنقاذه، لكنه فقد الوعي، استيقظ لحظة وقال: «لقد مللت»، ومات في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم ربيع الآخر سنة ١٣٨٠ (٣٠ سبتمبر ١٩٦٠م).

بحث كيم عن شيخ جامع الباشورة ورتب معه لجنازة هادئة في الصباح التالي، ليدفن في المقبرة الإسلامية التي تقع خلف سور كبير في حي البسطة في بيروت، وكان كيم وإليانور وابنه هارولد وابنتها آني هم كل من كان من العائلة هناك.

واصطحبها أنور لاميل، صديق «فيلبي» والبارمان في فندق نورماندي، كما انضم إليهم كولونيل سلايد بيكر وبروس كونديه، وقرأ كونديه ـ المسلم ـ الفاتحة على القبر. وكتب لهم خالد من الرياض معبراً عن العواطف نفسها التي عبر عنها والده وهو في سنه حول عائلته: «لم يبق لي إلا الله». وأوصى كيم أن يكتب على شاهد قبره: «أعظم المستكشفين للجزيرة العربية».

* * *

نال «فيلبي» الشهرة التي كان يبحث عنها، فبعد موته، انهال التقدير على إنجازاته من كل أنحاء العالم، ومجّدوا اكتشافاته، والخرائط التي رسمها، واحترامه للحقيقة، وفطنته في تأييده الملك عبدالعزيز آل سعود، وصداقته المستمرة مع ملك عظيم. واستحق النقش الذي اختاره كيم لشاهدة قبره؛ لأنه على الرغم من الميزة التي حظي بها دون المستكشفين الأوروبيين الآخرين بالسفر تحت حماية الملك عبد العزيز، لكنه تحمل المخاطر والعقبات الطبيعية ذاتها التي تعرضوا لها. ولا يوجد أحد منهم: نيبور، بوركهارد، سيتزن، بيرتون، داوتي، بلنت، موزيل، لورانس، توماس، ثيسجر، قطع نصف ما قطعه من المساحة الشاسعة للجزيرة العربية، ولا أحد لفت الانتباه إلى مثل هذه الكثرة من آثارها القديمة، كما لا يساويه أحد في عدد الخرائط التي رسمها. وامتدت مساهماته في المعرفة لأبعد بكثير من حدود الجغرافيا، فالمتحف البريطاني، ومتحف التاريخ الطبيعي في شيكاغو، والمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك، كلها لديها عينات من الطيور والثدييات والحشرات والثعابين والنباتات والصخور والحفريات التي زودهم بها «فيلبي».

يمتلك المتحف البريطاني نماذج قديمة من صنع الإنسان في الأردن، وأحجاراً عليها نقوش من «شبوة»، وأواني وقطعاً فخارية من البتراء، يعود الفضل في وجودها هناك إلى عمله الشاق وحب استطلاعه غير المحدود، ويوماً ما ستعرض على العالم المجموعة الكبيرة التي جمعها ومازالت في الرياض، مع الاعتراف بريادته.

ما زال المتخصصون يقرؤونه، ويجد مؤرخو الجزيرة العربية أن ما كتبه عن شجاعة الملك عبد العزيز ما زال الأساس الذي يستندون إليه في كتاباتهم، وأولئك الذين

يسعدهم الحظ ويتتبعون مساراته في الصحراء والاهتداء بالتفاصيل التي جاءت في كتب رحلاته، لن يضلوا الطريق.

أما بالنسبة إلى القراء العاديين، فكتبه عسرة الهضم، طويلة جداً، طنانة الأسلوب، وميالة إلى الاستطراد بعيداً عن الموضوع.

ويتذكر الناس الذين يعرفونه صفات أخرى: «اجتماعي وفي الوقت نفسه مشاكس، صريح في عداوته ودافئ في صداقاته»، هذا ما كتبته عنه فرايا ستارك، وسمعته تغص بالتناقضات مثل طبيعته، يرى كل الأشياء إما أبيض وإما أسود دون ظلال. وهذا العيب هو السبب في عدم نجاحه في السياسة وفي وظيفته في الجهاز الحكومي البريطاني، حيث يتقدم المرء بالحلول الوسط وعلى أساس «حتمية التدرج».

وغالباً ما يوضع «فيلبي» مع لورانس في خانة واحدة؛ لأنهما عملا في العالم العربي، لكنهما كانا متعارضين في معالجة القضايا، فبينما يقدّر لورانس بدقة الإيقاع الذي يناسب من في السلطة، ويستطيع أن يتملقهم لفعل ما ينصح به، إذا «فيلبي»، غير المعتدل، العنيد في تشبثه برأيه، يستفز غضبهم ويفقد قضيته.

كان يرى نفسه يتصرف انطلاقاً من دوافع عليا، وأن له الحق، في بلد حر، أن يفكر كما يشاء، وأن يقول ما يعتقده حول نكث بريطانيا بوعودها أو معارضته المتطرفة للحرب، إن العيب عنده ليس في المبادئ التي ينادي بها، ولكن في مغالاته في عرضها. كان متأكداً من قيمته، لكنه عاجز عن أن يجعل الإنجليز يرونها، فقد سعى إلى الخارج ليحقق لاسمه التقدير الذي يستحقه.

مارس في الجزيرة العربية شعائر دينها، واتبع طريقتها في الحياة، ومع ذلك ظل بشكل صلب بريطانياً بغليونه وبجريدة التايمز التي يقرؤها (احتفظ دوماً بصفحة البرلمان للتغليف)، تناول الشاي في الساعة الخامسة، قراءته بعناية لأهداف الكريكيت وقائمة الشرف، استمتاعه بوجوده في «الأثيناوم»، واهتمامه بأن يسير ابنه كيم على خطاه في وستمنستر وترينيتي والخدمة في الحكومة.

لقد اختار الجزيرة العربية، جزئياً لإعجابه بالملك عبدالعزيز آل سعود، لكن السبب

الأكبر أن الصحراء وافقت مواهبه، فهو سيد نفسه، غير مقيد بالقواعد، يسيطر على رفاقه، ونادراً ما يجد معارضة. وكان أيضاً سيداً في بيته، أباً متحكماً وليس مستبداً، لكنه محبوب، وأراد لأولاده أن يكونوا: «هذا الشبل من ذاك الأسد».

جاهد ذات مرة في نقاش مع ابنته الصغرى، كي يجعلها تفعل ما يريد: لماذا لا تريدين أن تفعلي ذلك؟

- لأني لا أريد.

فقال: هذا هو السبب الأهم.

فهرس المحتويات

